دكتور محمد ابراهيم الفيومى

فى الفكر الدينى الجاهلى



دار المعارف

فى الفكر الدينى الجاهلى

دكتور محمد ابراهيم الفيومى

عميد كلية الدراسات الاسلامية والعربية
جامعة الأزهر



دار المعارف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى
ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ
وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ
رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ
فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ
وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ
فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ
بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

سُورَةُ الفَتْح

مقدمة الطبعة الثالثة

طرح العرب قديما قضية « علاقة الرسول بالاديان السابقة » على الرسول ابان دعوته ودونها القرآن ورد عليها وكان اهم ما يبغون من ورائها دعوى : بشرية القرآن ٠

وتعنى بشرية القرآن ، من حيث السند التاريخى : عزوة الى تأليف محمد ٠ أى أن القرآن من وضع بشرى ، وليس من وضع الهى وتعنى القضية أيضا أن محمدا ليس برسول انما هو مفكر استطاع أن يؤلف القرآن ٠

هذه هى جوانب قضية بشرية القرآن سجلها القرآن ، كدعوى مفتر من العرب على الرسول ذكرها القرآن فى قوله تعالى : « ولقد نعلم انهم يقولون : انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » هذه الآية على قصرها تناولت القضية شكلا ومضمونا ، دعوى وردا عليها حين قالت : « انما يعلمه بشر » هذه هى الدعوى أما الرد عليها فجاء تاليا بعدها مشارا اليه فى الآية ذاتها فى قوله تعالى : « لسان الذى يلحدون اليه : أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » ٠

فالدعوى والرد عليها من قبل القرآن أفادنا من حيث الجانب التاريخى : انها قديمة منذ أن أدعى الرسول رسالته وقام بعبء الدعوة اليها ٠ كذلك تفيدنا من جانب آخر أن القضية حين سجلها القرآن – ونحن نعلم ان القرآن كتاب عالمى ، لا يختص بزمن ولا بمكان ولا بأمة – معنى ذلك أن تسجيلها انما هو تسجيل للرد على تلك القضية ، قضية بشرية القرآن ، وعلى العقل الانسانى أنى وجد وحيثما اتفق له أن ادعى تلك الدعوة على الرسول ؛ فالقرآن سجلها ليعين المسلم وهو بصدد التيارات الفكرية أن يدفع تلك القضية لان القرآن دافع عنها ثم هى فى النهاية تصيب صميم دينه هذا ما تعنيه قضية بشرية القرآن بشكل عام ٠

أما شكلها التفصيلى – وهو موضوع الدراسة – فانها تحتاج الى تسطيح القضية بعد تحليلها تحليلا تاريخيا من جانب ، وواقعيا من جانب آخر ،

مع الاهتمام بالجانب المنطقى فى مناقشة بعض القضايا الموضوعية التى سوف نعرض لهـــا فيما نعرض ليطرح العقل سؤاله من خلال اثارة دعوى بشرية انقــرآن ٠

وحقيقة هنـــاك أسئلة كثيرة لكن من الممكن أن ترتد الى سؤال واحد يقول : اذا كان الرسول ألف القرآن وهو الآن بين أعيننا وبين ايدينا فياترى متى تعلم الرسول ؟ وفى أى مدرســة من المدارس القديمة انتظم فيهــا ٠٠ ؟ وياترى عندما الف القرآن هل استمده من المسيحية ؟ أو من اليهــودية ؟ او من المجوسية ؟ أو تلك الصابئة ؟ أو من الوثنية ٠٠ ؟ وهل كانت هذه الأديان أو تلك الملل منتشرة فى الجزيرة العربية ٠٠ ؟ وبأى لغــة كانت ونحن نعلم أن هذه الأديان ليست ناشئة فى مكة وانما نشــأت بعيدا عن الجزيرة العربية وحقيقة كانت بلسان اعجمى ٠

فالمسيحية لم تكن بلسان عربى وانما كانت لســانا سريانيا ٠

واليهودية لم تكن بلسان عربى وانما كانت لســانا عبرانيا ٠

والمجوسية كذلك لم تكن بلسان عربى انما كانت أعجمية باللســان الفــارسى ٠

كذلك الصابئة لم تكن بلسان عربى وانما كانت لسانا آراميا ٠

كذلك الوثنية الفكرية لم تكن باللسان العربى انما كانت لسانا أغريقيـــا رومانيا على أساس أن الفلسفة اليونانية كانت لا تعتقد بعقيدة دينية وانما كانت تؤمن فيما تؤمن بالعقل الانســانى وفكره وحسب ، فاذا ما تكلمنا عن الوثنية الفكرية لابد للذهن أن يتجه نحو اليــونان ٠

أما الوثنية المنتشرة فى العرب فانهــا كانت وثنية ســاذجة ليس لهـــا مضمون فكرى ٠

وهى أيضا كما تذكر الرواية العربية انهــا وفدت الى العرب على يد عمرو بن لحى حينما جاء « بهبل » من بلاد « البلقان » أيام الاسكندر الأكبر هكذا جاء فى المراجع العربية ٠

فالوثنية العربية بالرغم من أنهـا وفدت الى العرب فانها كانت وثنية لا تخرج عن عبادة الحجر من غ يرشكل ففى أى من غير صورة يخلعها العربى على هذا الحجر نحتا أو تصويرا انما كان يكتفى العربى من الحجر عبادته وحسب ٠

واضح مما قدمناه سابقا ان الأديان التى انتشرت فى الجزيرة العربية ومكة منها والتى جمعها الله فى قوله تعـالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين والمجوس والذين اشركوا » الى آخر الآية ٠

هذه الأديان كما عرضنا سابقا انها كانت اعجمية وفق ما قال القرآن (لسان أعجمى) فتسجيل القرآن لتلك الأديان يعنى من وجهة النظر التاريخية ان العرب كانوا يعلمون شـيئا أو أشـياء عن تلك الملل والنحل (الأديان والمذاهب) والمنتشرة فى أجواء الجزيرة العربية ٠

فهل يا ترى أى شيء تعلم منها محمـد ؟ وما هى اللغة التى قدر لمحمـد أن يتعلمها ٠٠ ؟ قطعا الاجابة سـوف توجه بشـكل تحليلى بمعنى اننـا سـوف نسير بخطوط متوازية مع تلك الأديان وعلاقة الرسول بهـا وذلك موضوع الكتاب :

وليس فى هذه الطبعة جديد أضفناه سـوى تحرير ما رأينا تحريره وتنقيحه فهى مثل الطبعة الثانية التى تزيد كثيرا على الطبعة الأولى ٠٠

والله من وراء القصـد ٠٠

محمد ابراهيم الفيـومى

مصر الجـديدة يوم الاثنين ٦ صـفر سنة ١٤٠٢
٢٢ أكتوبر سنة ١٩٨٢

مقـــدمـــة

رؤية الكتـــاب الفكرية

أما قبل :

فمنذ ان كان للشرق تراث وهو ينقسم قسمين :

* قسم مقدس ·

* وقسم غير مقدس ·

أما القسم المقدس ، فهو الذى أوحى الله به للانسان أى : ما كان أصله الوحى الالهى ·

وأما القسم الآخر : فهو ماسوى ذلك ·

ونعنى بصفة التقديس :

١ ـ انها تشتمل على معنى تعبدى ·

٢ ـ أن الانسان مطالب بعدم ردها ·

٣ ـ أنها محددة من حيث الاتجاه العام بأوصاف معينة :

فهى من حيث الزمان : لا يسأل عنها الانسان الا فى سن معينة ، ومن حيث المكان : يتعين على الانسان فى عبادته أن تكون نحو مكان معين ·

ويرتبط الانسان بهــا من خلال مستوياته العامة : من مستواه العقلى الى مستواه الوجدانى ·· وتبرز فى سلوكه تطبيقا عمليــا ·

ولهــا أركانها المكونة لهــا من حيث أساس بنيانها :

الركن الأول : الله ، الركن الثانى : الوحى ، الركن الثالث ، الرسول ·

والتراث المقدس يرتبط بالمــادة والروح معا غالبا ·

وتصبح الصفة العامة للتراث المقدس : أنه موضوع للعبادة أو للتعظيم مثل الكعبة والحجر الأسود ، فانها مثل للتعظيم وليست للعبادة ·

والعبــادة تقتضى :

عابدا : وهو الانسان · ومعبودا : وهو الله · وعلاقة : وهو الرسول ·

والتراث المقدس : الانسان معه بين أمرين :

* اما مؤمن ٠
* واما غير مؤمن ٠

فنلمس هنا أننا أمام أمرين : اما واما ، أى اننا فى حرية من حيث الاعتقاد فى التراث المقدس ٠ ولكن حرية الاعتقاد مقرونة بالتخويف والوعيد وسوء العاقبة والطرد من رحمة الله ٠.

فعدم الايمان على المستوى النفسى : يؤدى الى تشويش فى الرؤية نحو غد الآخرة ، هذا من حيث مستوى الانسان النفسى ٠

ومن ناحية عضويته فى الهيئة الاجتماعية : فهو ـ أيضا ـ مهدد بالطرد منها ، وغير مشهود له بالعدالة ، وقد تنادى بعض طبقات الهيئة الاجتماعية بحل دمه ، فلا رفق ولا لين ـــ من ناحية الهيئة الاجتماعية ـــ مع مريض الايمان ، لأن هذا المرض الذى يلم بصاحبه تنتشرعدواه فى المجتمع ، وهو من الأمراض الخبيثة التى يرى المجتمع أنه يجب عليه مكافحتها ، ويحجــر على من فى قلوبهم زيغ مخافة الفتنة ٠ هذا من ناحية عضويته فى الهيئة الاجتمــاعية ٠

أما من حيث صلته بتراثه التاريخى : فهو بموقفه الرافض للايمان يشق عصا طاعة تراثه ، وتلك وصمات سياط قاسية يتعرض لهــا من يزور عن الايمان ويجاهر بازوراره ٠

ونرى حالات شتى لمن توقفوا بين الايمان وعدمه : فنرى منهم من التزم الصمت بعدم المجاهرة مع دأبه فى البحث والمطالعة مثل : الامام الغزالى ، قال واصفا حاله عندما انتابته هذه الحالة ـ حالة تهديد ايمانه الراسخ : مكثت على هذه الحالة قرابة شهرين بحكم الحال لا بحكم النطق والمقــال ، أى ظل صامتا مع دأبه على البحث عن جسر الحقيقة ، ثم انتهى بعد مرحلة صمته الى نتائجه الايمانية التى ربطته بالهيئة الاجتماعية وبعقيدته وتراثه التاريخى وجعلته عن جدارة يوصف بحجة الاسلام ، ويبدو أن الغزالى كان يرى وصفه بذلك اللقب حقا فى نفسه ، وذلك عندما قال فى كتابه « المنقــذ »

لمـا رأى حالته وما هو عليه من قلق فى حله وترحاله قال : وارتبك النــاس فى الاستنباطات وقالوا : عين أصابت أهل الاسلام ٠

أى ما أصاب الغزالى أصاب أهل الاسلام ٠٠ على أى حال هذا نوع من الاسراف فى فهم الذات ، والا فكيف نفهم أو يفهم الغزالى : أن ما طرأ عليه من اضطراب أو قلق اضطراب أو قلق فى أهل الاسلام ٠ هذا صنف ٠

وهناك نوع آخر من الناس تلابسه تلك الحال ـ حال التوقف فى مسائل الايمان ـ تراهم يهربون منها وبها الى آراء فلسفية ويلبسونها البسة دينية وفى النهاية لا ندرى هى فلسفة أو دين ؟ على أى حال هو نوع من الملق الفكرى الاجتماعى يلجأ اليه صاحبه حذر التنكيل به أو اضطهاده من قبل الهيئة الاجتماعيـة، وعرف التاريخ الفكرى هذا اللون أيضا وحفظ شــعاره وهو : التوفيق بين الفلسفة والدين ٠ شــعار طريف فيه طرافة ومتعة للعقل بيد أنه من ناحية النقد العقلى او العلمى نراه هشــا ومشوشا : لأننا فيه نساوى بين ما هو مقدس ونحمل أنفسنا على الدينونة به ، وبين ما هو غير مقدس نرى فيه حريتنا الفكرية وذاتيتنا وتمردنا ٠

فهل يا ترى اى الصفتين أردنا الباسها بالآخر ؟ ٠

هل أردنا الباس صفة التقديس للفلسفة أو أردنا الباس صفة البشرية للدين ؟ على أى حال جانب الطرافة واضح وجانب التشويش فى القضــية أوضح ، لذلك قلنا أن هذا لون من الملق الفكرى للهيئة الاجتماعية وفى نفس الوقت توسعة فى مفهوم المقدس ، وفى توسعة مفهوم المقدس جور على العقل والدين ٠

بعد ما سبق نرى : أن التراث المقدس ضرورى ، وتظهر ضرورته فى حياة الانسان الدينية وفى المجتمع حين لا يحجر على الفرد الا بعد مجاهرته بعدم الايمان ، وأما حقيقة العقيدة فهى تحدد فى المستوى النفسى وأمام الله ٠

وأن التراث المقدس هو ما كان من الله أو من رسوله وصفة التقديس تطلق حقيقة على ذلك شكلا وموضوعا ٠

واصبحت القاعدة فى مصدر المقدس وغيره قولهم : كل انســان يؤخذ من كلامه ويرد الا صاحب الروضة الشريفة ٠

تطور مفهـوم المقدس :

ثم تطور مفهوم المقدس فى نفس الانسان وفى علاقته به ، وكما لاحظنا أن الالتزام بالمقدس شىء ضرورى ، وليس بالهين ولا باليسير على الانسان تركه ، ولا سيما أن تركه فيه ما يعرضه لمصاعب نفسية واجتماعية لا يقوى على تحملها وان تحملها فسوف يكون فى تحملها انتحاره ٠

وبالرغم من أن المقدس تكتنفه تلك الصعوبات أو كما وصفه القرآن (انا سنلقى عليك قولا ثقيلا) ٠

وقال : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان أنه كان ظلوما جهولا » ٠

نقول : بالرغم من تلك التبعات فانه وجد بجانب الأديان الصــادقة والنبوءات الصادقة أديان كاذبة ٠٠ أى وجد بجانب المقدس الحقيقى مقدس غير حقيقى ٠٠

معنى ذلك ـ كما يفيدنا التاريخ ـ أن فى الانسان جانبا يحب الالتزام ببعض المبادىء وعليه أن يرعاه بالاعتقاد المقدس ، فطلبا لحاجات الانســان الروحية تبنى متنبئون كثيرون هذا الجانب وأثروه بما شــاء لهم من أثراء وبما طاب لهم من قول ٠

فالنبوءات الكاذبة توسع وتخييل فى مفهوم المقدس ، وقلنا : توســعا ، لأنها فى حقيقة الأمر ليست من عند الله ، لا وحيا ولا تكليفا ، وتبين لنــا فى وضوح أن وجود المقدس الذى يحتم للانسان نفسه عليه كان لا يرى فيه أنه يلغى حـريته لأن عدم وجوده دعاه الى طلبه وأعانه عليه شـعوره بالحاجة اليه ٠

كذلك النبوءات الكاذبة : هى التى شلت العقل الشرقى عن أن يتابع وظيفته ، وكان دور العقل معها شاقا وعسيرا حينما عزلته عن مناقشتها أو حتى

عن فهم رموزها كما عرضت الأنبياء الصادقين لمحن القتل والاضطهاد وهم بصـدد تحرير الفكر البشرى والالهى من زيف المزيفين ولبست النبـوءات الكاذبة ثوب الصادقين لتلبى حاجة الانسان الضرورية الى المقدس الحقيقى • وفى ذلك كله ما يؤكد أن فى الانسان حبا وميلا طبعيا يدفعانه الى الالتزام بمبادىء مقدسة ان غابت يبحث عنها فى نفسه ه ويصاب بالقلق ان لم يجدها ويبحث عنهـا المجتمع ان غابت عنه ، فهى عامل أساسي فى بنائه وتوجيه علاقاته •

ويصبح التاريخ فى سيره من غير النبوءات الصادقة لا يسمو نحو الله •

فالنبوءات الكاذبة ساهمت فى تزييف معتقدات الانسان الدينية وألهته عن معتقداته الصادقة ووسعت مفهوم المقدس حتى انحرفت بعبادة الانسان الصحيحة الى شتى الأنماط : كالنـار والكواكب وغيرها • وعلمت الانسان الشرقى كيف يخضع عن ذلة لغير الله ، وأن الشرق ـ من الناحية التطبيقية ـ لا يحكمه الا مستبد عادل يسهم بدوره فى اعادة هذه المعانى المزيفة والا كيف يعدل وهو مستبد ؟ وكيف يستبد وهو يعدل ؟ وهو أيضا معنى من معـانى النبوءات الكاذبة التى عودت الانسـان الشرقى أن يخضع لغير الله باسم الانسان المعصوم من الخطأ وهو العادل •

بهذه الأوصاف التى البسها المزيفون عليه آمن به الشرقى على أنه حقيقة وليس أسطورة ، وبات يمنى نفسه به كما منى الفارابى به نفسه فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة ، ومازال بيننا من يعتقد فى حكم المستبد العادل ، وهو على أمل اللقاء به ، ومازال ينتظره باسم المهدى المنتظر ، أو الامام المعصوم ، اليس هذا المستبد العادل ـ المثل الأعلى فى نظرية الشرق السياسية ـ يماثل نظرية الحزب الواحد فى روسـيا الشرقية من حيث الاهتمام بالرأى الواحد ، وعدم الخوض فى تصرفاته بالتعديل أو النقد ، وعلى الانسان ـــ أخيرا ـــ أن يقدم ولاءه فقط للحزب ، أو المستبد العادل ، وأن ما لدى الحزب من آراء تماثل المقدس وفى النهاية : انها رؤية واحدة لرأى واحد وما وراء ذلك كله من تخويف وارهاب ، وذلك عين التطرف والاستبداد المقدس فالانسان الشرقى ـ وهو رائد فى حضارته المعاصرة ـ حكم نفسه من خلال تراث تاريخى

مزيف وهو نظرية الواحد المستبد العادل ، وهذا لون من التوسعة فى معنى المقدس على المستوى السياسى ٠

ووثنية الاغريق تعنى من جانب الانسان : اشباع حاجته الضرورية الى ايجاد معنى المقدس فى حياته ٠ ورحلات فيثاغورس وأفلاطون الى الشرق ساعدتهم على أن يرفضوا وثنيتهم ليحلوا بدارهم وفكرهم فكرة : مثال المثل ، أى الذى لا يتغير ولا يتبدل وهو المثال الأعلى الذى تتحول الانسانية اليه محاولة العود الى ما كانت عليه فى رحاب الله ٠ هذا توسع فى مفهوم معنى المقدس ومحاولة منهم لايجاد صورة طبق الأصل ، لما عليه الدين الحق ، غير أنها فى النهاية تفتقر الى شعار خاتم النبوة ، ليجيز معناها الحقيقى المقدس ، على أى حال نرى فى فكرة افلاطون الفلسفية : تمردا حقيقيا على الوثنية ، لأنه كان يرى : أن الوثنية ان صحت عقيدة شعبية ، فانها لا تصح عقيدة للفلاسفة الكبار أو حتى صغار الفلاسفة ٠

هدف فكرة أفلاطون الفلسفية ـ ذات الطابع الدينى الشرقى ـ السعى بها الى تنزيه الله عن مستوى الفكر الفلسفى ، عن مستوى العقيدة الشعبية الوثنية ، وشاعت فكرة أفلاطون على يد من بعده من الفلاسفة الذين رضوا لأنفسهم ان يأخذوا بفكرته ، ثم راحوا يطبقونها على القرآن ، الذى انزلهالوحى الالهى ، وقالوا : أن ما فيه يلائم الحياة الروحية السائدة بين العامة وذوى السذاجة فى الرأى ، أما العلماء المستنيرون ميرون ـ من وراء استبطانه وما يعين عليه الادراك ـ ما فيه حق وصدق ، وهم أهل التأويل ٠ ومنهم أهل التوفيق بين الفلسفة والدين ، الذين يرون : أنه ليس من المصلحة الدينية أن يكشف للعامة ٠ أما من ناحية الموازنة العامة بين أفلاطون وأهل مدرسته من بعده فانا نرى فى موقف أفلاطون جدوى وله مسوغاته ، وهو تمرده على الوثنية الاغريقية ، أما موقف هؤلاء الفلاسفة كالفارابى مثلا : فانى رجوت نفسى أن تفهمه أو تنظر جدوى رأيه فتأبى عليها أن تفهمه ، وتحصل لها من البحث فى جدواه : أن فيه من التقليد والتعصب الذى يجانب عقل الفيلسوف أو المفكر ما فيه ٠ روى عن على : وقد سئل : هل خصكم رسول الله بشىء ؟ فقال : « ما عندنا غير هذه الصحيفة ، أو فهم يؤتاه الرجل فى كتابه » فعلاقة المقدس الحقيقى بالانسان هى كما قال على : « فهم

يؤتاه الرجل فى كتابه » من غير مصادرة ، أو تمييز خاص ، لأن معايشة فهم كتاب الله حق للجميع بشروطه ٠

على أى حال أسهمت نظرية أفلاطون فى مجال السياسة فخلقت حرية الرأى واحترامه ، أو الرأى ومعارضته ، فلا يكافح أحدهما الآخر ، وكان هذا معنى من معانى الديمقراطية اليونانية ٠

ومن الذين ترسعوا فى مفهوم المقدس : الذين دعوا الى عبادة الوثنية فى شتى أشكالها :

منهم الذين دعوا الى عبادة الكواكب ، ربطوا مصير الانسان بمطالعها وأن ميلاده مرتبط بالصدفة ، فهو ان صادف ميلاده سعودا فى طالعه فهو سعيد ، وان صادف نحوسا فى طالعه فهو نحيس أو شقى ، فعبادة الكواكب خلفت : مشاكل الجبر ، والتسيير ، والصدفة ، والحظ ، وفيها مصادرة حقيقية على الحرية الانسانية ، وأصبح الوجود معها يشكل حرجا فى الوجود الانسانى ، ومع ذلك عبدها الانسان ، واستلطف الارتماء فى احضانها ، واستعذب شقاءه فى عبادتها ، فجبلته على رضى فيه معنى المذلة حين منحها الانسان معنى المقدس الذى لا رد فيه ولا مراجعة ٠

ومع ذلك وجد من الانسان من ثار على ذلك النوع من العبادة ، ورد للانسان حريته واعتباره ، فاستحدث السحر ليلغى به سيطرة الكواكب عليه وعلى مصيره ٠ وبالسحر استطاع الانسان أن يعلن سيطرته على الأرواح ومدى قدرته على تسخيرها ، ألهمته عرفانا بالغيب وأعانته على قضاء حوائجه ، فغير بها من مستقبله ورفع بها من عظمته ، وألغى من حياته سيطرة الكواكب عليه ، وبواسطة السحر استبانت قدرة الانسان فى تمرده على عبادته ٠

ولأول مرة تقع دولة الأرواح مستعمرة للانسان ، يجندها لخدمته ، ولا تقوى على النفور منه الا برسالة الهية : قام بها نبى الله موسى ، وذلك حينما بات الناس فى خوف وعدم أمن من كيد السحرة ، فرهبهم الناس أى وقع الناس وهم يفرون من سيطرة الكواكب الى أسر السحرة ، ودخل

الانسان مرة ثانية تحت سيطرة الشيطان وهو من خاسر قوته [illegible] من سحر السحرة والاعيبهم ، وبه قناعه ان عبادة الارواح اصبحت غير مجدية الا عن طريق السحرة وارضاء اهوائهم فاصبح السحر يؤدى الى نوع من الاستعباد للانسان .

ومن ثم اقتضت الحكمة الالهية — وهى دائما تقف ... بجانب الحرية الانسانية — ان ترسل رسولا ليبطل كيد السحرة ويحق الحرية الانسانية وأنهـا لا تدين لغير الله . ودائما رسالة الله ترعى الانسان فى حريته وفى عبادته وأن ما توحى به لا سيطرة لاحد عليه وليس عليها قيم سوى كتاب الله ، وأما من يدعى القوامة على كتابه فانه يدفعه الى ذلك حبه النفسى لأن يكون شيئا فى الهيئة الاجتماعية .

وفى عبادة الحجر والشجر وأشكال الوثنية المختلفة توسع من الانسان فى معنى المقدس ، ونلاحظ من وراء توسـع الانسـان فى الرمزيات المقدسة شـيئا جوهريا يدفعه ليحدث هذا التوسـع هو : شعور الانسان بارادته وحريته وخوفه من الكون وليس حبه له .

وعلى رداءة الوثنية فى مظهرها فمعنى الحرية الانسـانيه كامن فيهـا ، فالانسان الوثنى شـاء أن يقدس ، فصنع الهه ، واختار حجره ، ومثل شكله ، وحدد مكانه ، فاقامه ، ثم ان شـاء أن يستبدله بحجر آخر أو بشكل أحسن ، ثم ان شـاء الانسان الوثنى أن يسخر من الهه ، ان شـاء كل ذلك فعل غير مبال لمعنى تقديسه فهذا سيطرة للارادة الانسانية على ما صنعت من رمزيات المقدس .

لكنها حرية وجلة ذليلة حين منحت عظمتها لرمزيات ضئيلة لا تغنى عنها شيئا .. لكن لمـاذا فعلت ذلك ؟

نرى — من وجهة نظرنا — أن التوسع فى مفهوم المقدس يرتبط أيضا بمعنى الخوف المتزايد عند الانسان الشرقى ، وذلك حينما عجز الانسان عن فهم الكون . ثم خافه فقدسه ، فصفة الخوف من الكون استغلها دعاة الأديان الوضعية المتعددة فى الشرق . فالديانات الوضعية المتعددة وراءها نزعة الخوف

الناشئة من عدم تعقل الوجود • فالافراط فى المظهر التقديسى للأشـياء مظهر من مظاهر الخوف •

والتوسع فى مفهوم المقدس : فيه راحة لوجدان الشرقى ، الغاء عقله •• والا فلماذا يتوسع فى المقدس وهو يعلم أن التوسع ليس من مصلحة العقل •

لذلك نقول — ومن غير افراط فيما نقول : أن الشرقى عندما يعجز عن فهم الشيء يخافه ، ثم لا ينصرف عنه حتى يخلع عليه اثرا من آثاره النفسية ،وهو التقديس ، ومن خلال نزعة الخوف الكامنة فى نفسه من الوجود تسهل قيادته ، كذلك يتمي ز الشرقى بالاسراف فى فهم ذاته وذلك من خلال نصوص مقدساته فلا يكف عن نجوى ذاته بهـا •

فاليهودية تقول : نحن أبناء الله وأحباؤه •• وأنهم شعبه المختار •

والمسيحية تقول : نفس القول مع اعتقادهم بأنهم أمة الخلاص •

والمسلمون على حالهم هذا يقولون : خير أمة اخرجت للناس من غير أخذ بالقرآن الذى يهدى للتى هى اقوم •

فهو لا يحب أن يفهم ذاته من خلال واقعها ويواجه أخطاءه ، وهو لا يحب أن يفهم ذاته فقط انما يتعالى على فهمها ويعتبر كل من يشير الى خطاه يتحسس العورات •

فالتعالى عن فهم واقع الذات خلق له من الأسباب ما يبرره مثل :

تبرير الأخطاء ، كأن يبرر الشعب اخطاء الحاكم وهو يعلم أنه ينافقه •

والقـاء المعاذير أسلوب لازم للمنطق التبريرى •

ومن ذلك كله الافراط فى أساليب المجاملات •

كل هذه خصال و ادعاءات ، تخدم التعالى وترفع من شـأن الفردية فى نفس الشرقى لأنها أساليب نابعة من نزعة الخوف ، تشيع فى نرجسية الذات غرورا واستبدادا ، دون أن تساعدها على فهم أخطائها ، وليس ذلك يعنى أن الانسان الشرقى ليست عنده تمييز الخطأ من الصواب ، قطعا لا نعنى هذا ، انما نعنى أن عنده قدرة التمييز ، انما يغلب أسلوب التبرير والمعاذير والمجاملات على مواجهة المخطىء بما اخطأ فيه ، ولذلك نراه فيما بعد

يحكى نفس العمل ثم يصفه بالخطأ ـ الذى برره من قبل ـ على شكل رواية تاريخية وبعد ان يزول عامل القهر مصدر خوفه ٠

فاذا قدر للشرقى أن يفهم قبل أن تحتويه نزعة الخوف تفزد وغلب وسيطر ، وذلك كان منه على فترات متطاولة فى تاريخه وسوف أسوق مثالا شاهدا على ذلك وهو منهاج الاسلام :

تعثر الشرقى كثيرا وهو يبحث عن ذاته ، من خلال الديانات المتعددة ، وبينما هو يتعثر عثر على حقيقته فى نظام الاسلام ومنهاجه ، ووجد فيه ما يجيب على أسئلة شتى ، استغلق عليه فهمها ، خلال رحلته الطويلة فى البحث عن حقيقته ، وفيه ألفى ما تتجاوب معه النفس الانسانية من حيث هى نفس انسانية لأنه ، وهو الصيغة النهائية لسلسلة الوحى الالهى ، قدم المزيد مما يساعد الانسان على تفهم حقيقته من خلال واقعة وجوده ، وعلاقاته بالله ٠ وان شرعية مبدأ التوبة فى حد ذاته الغى تصوراتنا عن الانسان الملائكى وأمكانية وجوده ٠ ومعنى ذلك أن على الانسان أن يفهم ذاته من خلال بشريته أو من خلال قول الرسول : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ٠

لذلك نرى أن الاسلام ركز على أمور نبرز منها :

أولا : حدد مفهوم المقدس من غيره وحدد مصدره وهو الله وما أوحى به على رسله ، بذلك التحديد كفل للعقل مجاله وحريته ٠

ثانيا : سد الطريق على كل متنبىء بقوله عليه السلام : « أنا العاقب فلا نبى بعدى » ٠

وقوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » ٠

وتلك مكرمة الاسلام الحقيقية لأن هذا المبدأ الذى قرره الاسلام حمل العقل الانسانى مسئولية الكفاح ضد الذين يحاولون أن يعوقوا من مسيرة العقل الانسانى ، باسم التنبؤ أو باسم الأوصياء الشرعيين من قبل

الله ٠٠ وأبطل قول كل من يدعى العصمة ، ولا يفيد معنى انتهاء النبوة انتهاء الدين لأن الحيـاة الدينية باقية ببقـاء الوحى الالهى وهو القرآن وسنة نبيه ٠

ثالثا : دعا الاسلام العقل الى وظيفته ، ووظيفة العقل فى نظر الاسلام : ان يقوم بعبء وظيفته الشرعية ، وهى الفهم ، والتدبر ، والتفكر ، وألا يدع وظيفته هذه لأى داع مضلل ينهاه عنهـا ٠

قال تعـالى : « أفلا يتدبرون القـرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » ٠

بذلك أرشد العقل الى أخص وظائفه : وهو الفكر ، حتى ولو كان فى القرآن أو فى مصدره ٠ وكان هذا الوضع طبيعيا من دين الغى طريقا طويلا أزدحم فيه متنبئون كاذبون : وانها لدعوة استجاب لهـا التاريخ نفسه على مستواه العـالى ٠

رابعا : ألغى الخوف ألذى يدفع الانسان ليتوسع فى المقدسات بقوله تعـالى :

« وتخشى النـاس والله أحق أن تخشاه » ٠

بذلك رفع عن كاهل الانسان عبء الخوف ، الدافع الى الذلة ، ليحل محلها : الخشية لله فقط ٠٠ فرد بذلك الى الانســان اعتباره ٠

خامسا : يعتبر الانسان فى نظر الاسلام : « خليفة الله » وصور الرسول همة ذلك الخليفة بقوله : « لو تعلقت همة ابن آدم بما وراء العرش لنالته » ومعنى ذلك أن على الانسان أن ينهض بعبء خلافته ، وأن عليه فى سبيل ذلك : الأخذ بمبدأ الشورى الذى قرره الاسلام ، فان سلك سبيل الاســلام الغى الحكم الفردى من طريقه وكل تصوره عن المستبد العـادل ٠

والله ، وهو حقيقة العقيدة الاسلامية ، ليس جبارا ولا متحيزا للمسلمين ، كاله اليهود وأ اى اله فى أى دين ٠ انما الله فى الاسلام تتحدث عنه آياته فى الكون حديث العقل تاره وحديث الوجدان ، تارة أخرى ، وفى ذلك كله ما يؤكد المعرفة فى النفس الانسانية ، ويعين الانسان على تفهم وجوده فى واقع الوجود ٠

فعقيدة المسلم ، قوة من الحب ، وليست ضعفا من الخوف ، فحملها الانسان حين حملها تفتح بهــا عقله وأطمأن اليهــا وجدانه •

أما حين تخلى عن رسالة الاسلام ، وكفاه منها انتسابه الاسمى اليهــا فانه تردى إلى طبيعة الخوف ، فجبن دون مسئوليته أمام الاسلام ، وانقاد مع الخرافة التى تسللت الى مخاوفه ، وأعانته على توسعة معنى المقدس مرة ثانية ، وتلك مرحلة يقاسيها دعاة الاصلاح •

بذلك كان الدين الاسلامى بما قدمه للمعقل الانسانى ــ من بين سائر الأديان التى حفلت بهــا المنطقة العربية ــ الصورة الوحيدة فى التاريخ التى تجاوبت معها الارادة العربية •

أما الآن فان الارادة العربية متخلفة كثيرا عن فكرها لعوامل كثيرة ترجع ــ فى نظرنا ــ الى نوع الولاء والحكم ، فبعض هذه الدول محكوم بعصبية الزعامة الأسرية ، والبعض الآخر ، محكوم بعصبية الزعامة الثورية • وفى الشكلين معا كان ولاء الحاكم لنوع عصبية انتمائه ، أما الولاء للشعب ، فغير متبادل بينهما الا بما تحتمه ضرورة المجاملات ، واذا كان الفكر لا يعرف ولاء غير ولائه الانسانى ، فان نظم الحكم عاقت تجاوب الارادة معه ، وفى هذا كله ما يعوق النهضة العربية الاسلامية عن بعثها الحقيقى ، لكن متى تتجاوب الارادة العربية لتقوم بعبء رسالتها مرة ثانية ؟

دكتور محمد ابراهيم الفيومى

مصر الجــديدة فى ١٠/١١/١٣٩٩ هـ
١ /١٠/١٩٧٩ م

أبواب الكتاب

- الباب الأول : الهلينستية والمنطقة العربية .
- الباب الثاني : اليهودية والمسيحية في المنطقة العربية .
- الباب الثالث : الصابئة والمجوس .
- الباب الرابع : الوثنية والفكر العربي .
- الباب الخامس : من قضايا فكرها الديني .

الباب الأول

الهلينستية والمنطقة العربية
قبـل الاسلام

مواسم العرب السياسية :

لم يكن العرب قبل الاسلام فى عزلة عما حولهم : فكريا ، أو اجتماعيا ، او اقتصاديا ، وليس ثمة داع لهـا ، فلم يؤثر تاريخيا ، أنه ضرب عليهم سـور يعوق من حركات الدخول فى الجزيرة العـربية أو الخروج منهـا ، وليست الجزيرة العربية بالأرض الخصبة ، التى تكفل لقاطنيها وفرة فى العيش ، وخصوبة فى الرزق حتى يكره العربى فى حبهـا السعى عن تحصيل ضرورات عيشه ٠ انما كانت طبيعتها قاسـية جافة ، وأرضها جرداء مقفرة ، ترغم أهلها أن يضربوا بابلهم فى أفناء الأرض شهورا ، ليصيبوا منها أقواتهم ، وضرورات عيشهم ، ونرى فى القرآن تسجيلا لهذه الرحلات فى سورة كاملة ـ سورة قريش ـ قال تعـالى :

« لايلاف قريش ايلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ٠ هذا من ناحية حركات الخروج منهـا :

أما من ناحية حركات دخول النـــاس فيها ـــ أى الجزيرة ـــ فله من الدواعى الكثير :

ففيها الكعبة : وهى ـ من البيوت السبعة القديمة ـ مما يطمع اليهـا الرائى او السايح للتعرف عليها ، وهناك روايات تاريخية تذكر : أن الفرس قصدوها كثيرا(١) ٠

كما دخلها جيش ابرهة الحبشى(٢) ورحل اليها قديما نبى الله ابراهيم وأقام ابنه اسماعيل فيها وجددا معا بنـاء الكعبة وأسسا حولها دين التوحيد ٠

---

(١) يراجع المسعودى ـــ مروج الذهب ج ١ ص ١٨٨ قال : وقد كانت اسلاف الفرس تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيما له ولجدها ابراهيم ٠

(٢) وكتب غير واحد من اليونانيين المؤرخين : ان ابرهة زحف على مكة فى مركب يجرها اربعة من الفيلة وان جيشه لم يعد منه الا القليل لكثرة من مات منه بالوباء : ابو الانبياء : العقاد ٠ كما لجا اليها النساطرة واصحاب الطبيعة الواحدة وكلا المذهبين اضطهدا منهاجهما ودينها ٠

يذكر القرآن ذلك فيقول : واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » وهى وان كانت من حيث طبيعة جوها لا يطمع فيها طامع ، مما جعلها بمعزل عن أطماع السياسيين ، أصبحت بذلك كأنها منطقة حيادية ، ولهذا السبب ـ وهو عزلتها ـ رغب فيها اللاجئون السياسيون الذين وقعوا فريسة للاضطهاد السياسى ، أو الدينى ، فكانوا يفزعون اليها لأنهم يجدون فيها الملجأ الآمن المطمئن وكذلك جاليات اليهود ، والنفر من النصارى ، ما دخلوا تلك البلاد الا فرارا من حملات الاضطهاد الرومانى التى وقعت علهم ٠

لذلك لم يكن بعيدا علينا أن نجد فيها ـ كما ذكر القرآن ـ من اليهود والنصارى ، والمجوس ، والصابئين ، والذين اشركوا ، ونجد فيها : الأصنام ، والأوثان ، ومصطلحات دينية غير عربية مثل : الجبت ، والطاغوت ٠

ومعلوم : أن اليهودية لم تنشأ فيها ، ولا النصرانية ، ولا المجوسية ، ولا الصابئة ، انما وفدت اليها تحت قسوة الاطضهاد السياسى أو الدينى ٠

وسنعرض بالتفصيل لتلك الأديان والمذاهب ٠

كل هذا وغيره يعطينا : أن العربى لم يكن فى عزلة عما حوله ، سواء من ناحيته ، لأنه خرج منها متاجرا ، أو من غيره فلم يكن فى عزلة عنها : اذ وجدنا من يمم وجهه شطرها ٠

ومن العوامل الأساسية فى التوسع وتدعيم النفوذ الرومانى وتوطيده فى الشرق كان قوامها :

ـ الدبلوماسية ٠

ـ والتجارة ٠

ولكنها كانت مؤيدة بقوات حربية عظيمة ، ونشاط حربى مضن ٠ وفى مصر وفى بلاد العرب وشمال أفريقية اتبعت هذه السياسة بعينها ٠

فالبلاد العربية جرى فيها حركات حربية وتجارية ودبلوماسية ٠

يرى م ـ رستوفتزف : أن الدبلوماسية والتجارة هما من اسس التوسع الرومانى فى بلاد العرب وهذا معناه ـ فى نظرنا ـ أن العربى له اعتباره الفكرى منذ القــدم ٠

ويقول : ولم تكلل حملة ابليوس جالوس على بلاد العرب بالنجاح التام ولكنها على أى حال ضمنت للتجار الرومان الحصول على مرافىء آمنة وهم فى رحلتهم من مصر الى موانى الهنــد ٠

ويقول : وكان التجار الأعراف يقومون بدور الوسيط بين التجار المصريين وزملائهم فى الهندوكانت هذه التجارة الى حد كبير تقوم على الكماليات(١) ٠

وليس الأمر بحثا فى دوافع الخروج ، أو الدخول فيها وحسب ، بل يرى علماء التاريخ : أن شبه الجزيرة العربية هى اصل الهجرات السامية لتلك المنطقة(٢) ٠

وحجتهم فى ذلك أنها بلاد صحراوية ، ويحيط بهـا البحر من ثلاث جهات ، لذلك عندما يزيد السكان عن قدرة الأرض المأهولة الضيقة لاعالتهم فانهم يميلون الى البحث عن مجال حيوى ، فيجدونه فقط فى الأراضى الشمالية الخصبة التى تجاورهم ٠

ويؤدى ذلك الى الحجة الاقتصادية التى تقول : ان أهل الجزيرة الرحل كانوا دوما يعيشون على ما يقرب من الجوع ، وان الهلال الخصيب كان أقرب مكان يزودهم بما يحتاجون اليه ٠

يقول سبتينومو ســكانى(٣) :

« فالساميون يظهرون فى أقدم المصادر على انهم بدو صحراء العرب يدفعون بأنفسهم دائما الى الخارج ويتغلغلون فى المناطق المحيطة ويوطدون أقدامهم فيها فهنــاك :

---

(١) تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعية والاقتصادية صفحات : ٩٢ ، ١٤٥ ٠

(٢) العرب واليهود ، التاريخ ج ١٨٩١ د ١ احمد سوسه ٠ وتاريخ سورية : فيليب حتى ج ١ وقصة الحضارة ٢ ص ٢٦٤ ٠

(١) يراجع كتابه ، الحضارة السامية ص ٢٢٥ ٠

ـ الأكديون الذين نراهم فى أرض الرافدين فى الألف الثالث قبل الميلاد •

ـ ثم الأموريون الذين أسسوا فى بداية الألف الثانى سلسلة من الدول فى فلسطين وسوريا وأرض الرافدين •

ـ ثم العبريون والأراميون الذين جاءوا بعد ذلك بقرون قليلة ليسدوا الفراغ التاريخى الذى خلف انسحاب « شعوب البحر » فى فلسطين وسوريا •

ثم العرب الذين خرجوا من صحرائهم بعد ذلك بعدة قرون فى حركة فتح عظيمة نقلتهم الى أقصى البقاع ، وهؤلاء جميعا ليسوا سوى أسماء مختارة برزت فى الحركة المستمرة التى كانت فى كثير من الأحيان خفية مجهولة الأبطال ، والتى وجهت ودفعت سير الأحداث فى الشرق الأدنى ثم يقول : ولم يكن بد من أن ينقل البدو ومعهم آثار أحوالهم الأولى ومن هنا بحثنا فى النظام الاجتماعى القديم لصحراء العرب عن الخطوط التقريبية •• وحاولنا أن نقيم على وجه التقريب أيضا ، الصور السياسية للشعوب المختلفة وفى معتقداتها أو طقوسها وفى قوانينها بل فى فنها أيضا وليس التراث البدوى لتلك الشعوب كافيا وحده لتفسير ذلك التطور وهو العنصر الذى وصفناه بأنه سام •

ويضيف نتنج فيقول(١) :

« المحاولات الناضجة فى القرن التاسع عشر فى فك رموز الكتابات التى تعود الى العصر السابق على ظهور المسيحية كشفت عن تشابه بين لغات البابليين والأشوريين والاراميين والكلدانيين والفينيقيين والعموريين والعبرانيين والعرب والأحباش • وهو تشابه ملفت للنظر بحيث يوحى بأن هؤلاء الناس جميعا لابد وأنهم ينبثقون من نفس الأصول •

ومن هذا ثبت أن أسلافهم المشتركين كانوا العرب الأصليين ـ أو الساميين من قبيلة سام ـ اذ ان اسم « عربى » هو التعبير السامى عن

ترجمة : دكتور السيد يعقوب بكر .

مراجعة : دكتور محمد القصاص .

(١) ص ٥ العرب نتج ترجمة د . راشد البراوى الانجلو .

ساكن الصحراء — وان أول استيطان للعرب على نطاق شامل انما كان فى اليمن على عهد مملكة مأرب وهى الجيل الخامس من نسل ســام ٠

وتايدت تلك الفروض بشواهد تاريخية منهـا :

* القرابة اللغوية بين الشعوب التى تتكلم اللغات السامية ٠
* عقائدهم الدينية ٠
* مؤسساتهم الاجتماعية ٠

هذا فضلا عن خصائص أخرى نضرب صفحا عنها ٠

هذا التشابه جعل من السهل الاستنتاج : أن الأسلاف الذين تكلموا ، البابلية والأشورية والآمورية ، والكنعانية ، والعبرية ، والآرامية ، والعربية والحبشية ، كانوا غالبا يشكلون جماعة واحدة فى الاصل . لعوامل : سياسية واقتصادية ، ودمع التاريخ ، حصل بينهم خلافات وكان من آخـر الهجرات القديمة حوالى ٥٠٠ ق٠م : هجرة الأنباط الى شمال شرقى جزيرة سـيناء ، حيث كانت عاصمتهم البتراء ٠ هذا عدا هجرات الفتح الاسلامى ٠ وهذه الهجرة الأخيرة : هى الحجة التاريخية التى يؤيد بهـا أصحابها نظريتهم التى تجعل من شبه جزيرة العرب الموطن الأصلى للساميين ، ويضيفون الى ذلك حجة لغوية مؤداها : أن اللغة العربية قد احتفظت فى نواح كثيرة بأشد تشابه باللغة السامية الأم التى كانت جميع اللغـات السامية من لهجاتها ٠

وكذلك لديهم حجة سيكولوجية : ترى أن سكان شـبه جزيرة العرب وبخاصة سكان البادية قد احتفظوا بأنقى الصفات السامية ٠

وما نحب أن نشير اليه هو أن عقائدهم الدينية كانت تقوم على عبادة الطبيعة فى شكلها البدائى ، وكانت هذه العبادة شائعة بين الرحل من بادية الشـام وبلاد العرب ، وكان يوجد بجانب اله القبيلة اله أعظم يطلق عليه : هبل أو بعل ٠ أو ٠ اللات ٠

وكانت اللات أو هبل الآلهة الرئيسية فى الجزيرة العربية ٠

فدعوى ان العرب حجزهم عن العالم القديم وثقافته عزلتهم عنه ، غير واردة ، ولا تثبت أمام التاريخ الحديث الذى أصبح يتكلم عن العرب ودورهم فى التاريخ القديم ، من خلال علوم الحفائر والنقوش التاريخية القديمة ، ومما ينبغي أن يقال : أن ما يستكشفونه من حفائر تاريخية فى تلك المنطقة ،

يعطى ما أشــار اليه القرآن : وهو عدم عزلتهم ، وما تعاقب فى المنطقة العربية علىفترات متتالية فى التاريخ من مراكز حضارية عربية يشــهد عليها ، فضلا عن المركز الدينى الثابت وتلك المراكز هى :

* مكة : عاصمة دينية قديمة تقع فى وســط الحجاز ·

* البتراء(١) دولة البتراء عاصمة تجارية عربية ورئيسها عربى وكانت فى الجنوب ·

* دولة تدمر (٢) عاصمة تجارية عربية ورئيسها عربى فى الشمال ·

---

(١) ان كلمة : البتراء Patra هى اللفظ اليونانى لكلمة صخرة ، وفى العربية الفصحى : الرقيم ، وهى الواردة فى القرآن فى سورة الكهف وهى وادى موسى الاسم الحديث للموقع باكمله . اسمها : الحارث حوالى ٦٩ : م· ويدعى (اريناس ملك العرب سفرالمكابيين) وقد تسمى بهذا الاسم كثيرا من ملوك الانباط وملوك الغساسنة ، ويتعلق باكتشاف = آثارها بعض أشياء ذكرها القرآن أن الاماكن المرتفعة التى لا تزال قائمة فى البتراء التى تمثلها قبور الحجر (مدائن صالح) فى الحجاز الى زمن حكمه . وكانت الحجر مركزا لقبيلة ثمود الواردة فى القرآن اكتشف آثارها للعالم فى ١٨١٢ المكتشف السويسرى : بوركهات Burckharat وكان أحدملو كها كما تذكر الكتابات الاثرية التى وجدت فى حوران : رابيل الثانى حوالى ٧١ — ١٠٥ آخر ملوك الانباط ، وهــو ابن مالــــكو ووريثه ابتلعتها الدولة الرومانية واصبحت في ذمة التاريخ الذى منه أتت — تاريخ سورية ج ١ ص ٤٥٤ ·

(١) تدمر : معناها : قيل — وهو قول الهمذانى فى كتابه الا كليل — : ج ٨ ص ١٣١ مع تعليقات الاب انستاس مارى الكرملى ·

والتاريخ الاسلامى العام ((على حسن ابراهيم)) انما سميت تدمر : بتدمر بنت حسان ابن اذينة ، وقيل معناها يعنى بالارامية : الاعجوبة والمعجزة لانها كانت اعجوبة مدن الارض ·

وقيل : كما ذهب الأب الكرملى الى ان اصل الكلمة ماخوذة من التمر وكــذا في الارامية فيكون معناها : مدينة النخل أو مدينة التمر . التاريخ الاسلامى العام د / على حسن ابراهيم ص ٨٦ ·

قامت دولة تدمر : بعد ولاية الأنباط التى كانت تابعة للدولة الرومانية ودولة الانباط كانت قبل ميلاد المسيح بزمن طويل وسيطروا خلال الحقبة الهلينية على تجارة القوافل بــين جنوب بلاد العرب وشمالها ، وكان الانباط يتكلمون اللغة العربية ، ويرى انرليتمان : ان النبطية لهجة آرامية اختلط بهــا صيغ وكلمات عربية لأن الذين كتبوها كانوا من العرب العاربة ، أنوليتمان . لهجات عربية شمالية قبل الاسلام بحث مستخرج من مجلة مجمع اللغة العربية الملكى سنة ١٩٣٦ ·

* بصرى : دولة الغساسنة (١) عاصمة تجارية عاية، ورئيسها عربى وتقع بينهما •

يجمع بين هذه الدول الثلاث بعض المظاهر العامة وفق تاريخها المتعاقب من حيث :

* أصلها : يرجع الى تحضير القبائل البدوية أو المتنقلة •

* وازدهارها : يرجع الى تجارة المرور •

* وتحالفت كل منها واحدى الدولتين لبعض الوقت باعتبارها دولة حاجزة بين أحدى الدولتين العالميتين وهما : فارس وروما ، وتلقت المساعدات منهما •

* ونهايتها كانت على يد احدى الدولتين •

فرومة قضت على الدولتين : الدولة النبطية ، والدولة التدمرية (الزباء) وقضت فارس وبيزنطة على دولة الغساسنة •

وأنها جميعا كانت وسائل جيدة للتراوج بين حضارات الغرب : رومة ، واليونان ، وبين حضارات الشرق : فارس والهند وبيزنطة ، فنقلت من الهند الى الغرب ونقلت من الشرق الى الهلينية • وكانت مع مرفئها التجارى عاملا مهما فى ظهور التراث الهلينستى (٢) وظهرت مدارس اشتغلت بالفكر الشرقى والهلينى فى ربوع تلك الدول منها :

* مدرسة نصيبين •

* مدرسة الرها •

* والمدائن •

---

(١) يقول نيكلسون : من الصعب الاعتماد على الاخبار العربية الخاصة بدولة الغساسنة لما فيها من اضطراب لانه قل ان يجد الباحث مادة يؤلف من شتاتها صورة تقريبية. يمكن أن تضاف الى تلك المعلومات المبعثرة فى كتب المؤلفين البيزنطيين .

وتقول د • على حسن ابراهيم : وسبب هذا الاضطراب فى اقوال مؤرخى العرب هو عدم استقرار الغساسنة الذين لم يكن لهم ملك ثابت حتى انهم اتخذوا أكثر من عاصمة (التاريخ الاسلامى العام ص ٩٠) له ما يبرره •

(٢) الفترة التى يطلق عليها العصر الهيلينستى هى التى تقع بين حكم الاسكندر وحكم روما ٣٢٠ ــ ٣٠ ق • م يراجع ج ١ ص ٢١٨ تراث العالم القديم •

* وانطاكية •

* وجنديسابور •

فتلك المدارس : كانت روافد صالحة لنشر الهلينستيه فى الشرق والغرب ونشر تراث الشرق والغرب أيضا فى المغرب الرومانى • وسنعرض لتلك المدارس ووظائفها :

١ ـ **فالبتراء** : من الدويلات المهمة التى قامت فى العصر السلوقى واهلها من الأنباط (من العرب المتكلمين باللغة الآرامية) وازدهرت طوال ثلاثة قرون من القرن الثانى ق•م الى القرن الثانى الميلادى ، وفى نفس القرن ضمها الامبراطور الرومانى تراجان(١) الى الامبراطورية ، وظلت الى أواخر القرن الرابع وهى المدينة الرئيسية على طريق القوافل تربط بين جنوبى الجزيرة الذى ينتج التوابل وبين مراكز البيع فى الشمال •

وكانت تسيطر على الطرق المؤدية الى مرفأ غزة فى الغرب والى بصرى ودمشق فى الشمال والى آيلة (ايلات) على البحر الأحمر والى الخليج الفارسى عبر الصحراء •

وكانت يستبدل فيها الجمال النشط بجمال القوافل •

واستطاع الحارث الثالث العربى النبطى(٢) : أن يدخل مملكته ضمن المحور التام للحضارة الهلينستية : وكسب بذلك لقب محب الهلينية •

---

(١) يراجع : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة : طه باقر ص ٥٩٨ منشورات دار البيان •

(٢) كان المؤرخون القدامى يرون أن العرب غير الأنباط فترى المسعودى في كتابه مروج ج ١ ص ١٨٢ يقول : وقد تنازع الناس فى ملوك الطوائف : أمن الفرس كانوا أم من النبط أم من العرب ؟ غير أن هذا الخلاف يشير الى ان هناك اصلا لهذا الاختلاف.

ويقول فيليب حتى : وقد أصاب (سترابو) و (بوسيفوس) و (ديوروس) باطلاق اسم العرب على الانباط اذ ان أسماءهم الشخصية واسماء آلهتهم واثر التحريف العربى فى كتاباتهم الارامية لا تدع مجالا للشك بان لغتهم الوطنية كانت لهجة عربية شمالية وظهر فى الكتابات الاثرية أسماء مثل : على ، حبيب ، سعيد ... الخ •

وبلغ من كثرة استعمال كلمات عربية صرفة فى احدى الكتابات الاثرية المتأخرة (٢٦٨ م) أن النص كله يكاد يكون عربيا ، راجع : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ص ٤٢٦ و ٤٢٧ ج ١ ترجمة د / جورج حداد وعبد الكريم رافق ومراجعة د / جبرائيل جبور • دار الثقافة ببيروت •

وبدأت البتراء ـ جـزء من الولاية الغـربية الرومانية ـ تتخذ مظاهر هلينستية نموذجية • يقول فيليب حتى : كانت حضارة الأنباط : عربية فى لغتها، آرامية فى كتابتها ، سامية فى ديانتها ، ويونانية ورومانية فى فنها وهندستها ، المعمارية وهى لذلك حضارة مركبة : سطحية فى مظهرها الهلينى ولكنها عربية فى أساسها وبقيت كذلك •

٢ ـ تدمر :

وأما تدمر (زنوبيا) فيرجع بناؤها الى نبى الله سليمان • كانت تقوم بين هاتين الامبراطورتين العالميتين ساعدها موقعهـا هذا على عدة ميزات منهـا •

* عدم تمكن الفرق الرومانية والفرق الفارسية من سهولة الاستيلاء عليهـا •

* استفاد تجارها من وضعها الفريد كمحطة رئيسية لنزول القوافل عند نقطة التقاء الطرق التى تعبر الصحراء من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب •

* استغل رجال السياسة بذكاء موقعها الاستراتيجى من حيث انها بين دولتين كبيرتين متنافستين : فكانوا يقفون مرة بجانب رومه ، ومرة بجانب الفرس ، مما جعلهم يحافظون على ميزان القوة ويستفيدون من الحياد •

وحصل الزعماء التدمريون من شيوخ القبائل فى الصحراء على اذن بمرور قوافلهم بسلامة • وكانت النتيجة أن أصبحت (تدمر) من أكثر المدن ثروة فى الشرق القديم •

واصبح رئيسها ـ (أذينة زوج زنوبيا) يحوز لقب (زعيم الشرق) ونائبا للامبراطور غالينوس الرومانى ـ غالينوس فى الشرق ، وذلك بعد أن خاض معركة ضد الغرب ليخلص « فاليران » الامبراطور الرومانى ، الأسير لدى الفرس ، فهزم الفرس ، ولم يستطع تخليص الامبراطور الأسير ، ثم اغتيل فى ظروف غامضة •

تولت زنوبيا أو الزباء من بعده ، وكانت طموحا ، فوسعت من دولتها حتى اصبحت تشملة سوريا ، وجزءا من آسـيا الصغرى ، وشمالى الجزيرة

العربية ، ويقول المؤرخون : كادت أن تكون امبراطورية • ورعت الثقافة اليونانية وجمعت تاريخا للشرق • يقول فيليب حتى : وكانت حضارة تدمر : حضارة غريبة فهى مزيج من عناصر سورية ويونانية وفارسية ، ولا شك أن السكان الأصليين كانوا قبائل عربية وبقيت اكثرية اللسان عربية •

ويصف م• رستوفتزف قوة دولة تدمر فيقول(١) :

وكانت الحال فى المشرق أسوأ منها فى المغرب فقد غزا الفرس سوريا وهددوا آسيا الصغرى فسار فاليران لصدهم وبالقرب من اديسا (الرها) هزمه هزيمة نكراء ووقع فى أيدى أعدائه (٢٦٠م) ونجت أسيا الصغرى وسوريا من قبضة فارس أنقذ الأولى (آسيا الصغرى) كاليسنوس ـ أحد قواد الرومان ـ الذى طرد الفرس •

وأنقذ الأخرى : (سوريا) اوديناثوس شيخ تدمر الذى انزل الهزيمة بالغزاة عندما حاولوا عبور الفرات فى عودتهم الى فارس •

لذلك اعترف جالينوس بأوديناثوس الذى استمر يحكم سوريا وجزءا من آسيا الصغرى ، وبقى يحمل لقب امبراطور حتى قتل ٢٦٦ ـ ٢٦٧ م فخلفه على العرش ابنه فابالاثوس وقد قامت امه الملكة زنوبيا باعباء الحكم نيابة عنه وكانت امبراطورية تدمر فى الشرق أكثر رخاء وأشد تماسكا تحت حكم زينوبيا وابنها فابالاثوس وقد لاحت بالتدريج لذينوبيا فكرة انشاء امبراطورية رومانية شرقية مستقلة يحكمها اغسطس مستقل •

ولكن اوريليانوس الذى تولى زمام الأمور بعد كلوديوس ـ الذى لقى حتفه ضحية طاعون عصف مرة ثانية بصفوف الرومان سنة ٢٧٠ م ـ بعد أن هزم القوط سار الى الملكة زينوبيا واستطاع بعد حملة اكتنفتها الصعاب من كل جانب أن يعيد سيادة رومة على الشرق وأن يفتح مصر مرة ثانية وان يستولى على مدينة تدمر ويأسر حكام الامبراطورية التدمرية رغم المدد الذى جاءهم من الفرس •

---

(١) تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى حـ ١ ص ٥٢٧

٣ ـ دولة الغساسنة :

ودولة الغساسنة : (الحارث بن جبل بن الأيهم) وتنحصر فى خلال القرن الرابع الميلادى الى أن جاء الاسلام •

منح الحارث من قبل « بوستنيان » لقب « فيلارك » أى رئيس قبيلة واستطاع أن يهزم المناذرة فى معركة قنسرين التى تعرف « بمعركة حليمة » •

وقام الحارث فى عام ٥٦٣ بزيارة بلاط « يوستنيان » حيث ترك تاثيرا عميقا على افراد حاشيته كشيخ بدوى مهيب •

ويقول المؤرخون : وكان موظفوا البلاط بعد سنوات من هذا الحادث حين يريدون أن يهدئوا الأمير المعتوه « يوستين » وهو ابن أخ يوستنيان ووريثة يكتفون بالقول :

اسكت : والا استدعينا الحارث :

وحصل الحارث اثناء وجوده بالقسطنطينية على تعيين يعقوب البرادعى(١) اسقفا على الكنيسة فكان يعقوب من أتباع نسطورا ومذهبه القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح •

وأصبحت بصرى ـ التى بنيت كاتدرائيتها فى عـام ٥١٢ ـ العاصمة الدينية ، فى المنطقة ووصلت المملكة حينذاك ذروة اتساعها اذ كانت تمتد من قرب البتراء الى الرصافة شمالى تدمر وتشتمل : على البقاع ، والصفا ، وحـران •

٤ ـ دويلة المنـاذرة :

وقامت فى بداية القرن الثالث الميلادى فى البادية المحاذية للفرات فى منطقة الكوفة دويلة عربية مهمة هى مملك الحيرة ، واصل اهلها وملوكها من عرب اليمن ، عرفوا بالمناذرة واللخميين ، وتقع الحيرة ، عاصمتها على بعـد نحو

---

(١) وكان الحارث مسيحيا يعقوبيا وقد دافع عن مذهبه بحماسة وتوفيق عظيمين فى وقت كان التعلق باهداب هذا مجازفة خطيرة كما كان لايدخر وسعا فى الدفاع عن اصحاب الطبيعة الواحدة وتحريرهم من الاضطهاد أن يقع عليهم ، وبفضلة توطدت دعائم الكنيسة اليعقوبية بعد ان كانت مهددة بالخطر : نولد كه : امراء غسان ص ١٤ ترجمة دابندى جوزى ودا قسطنطين زريق •

٣ اميال جنوب الكوفة ، وكان أهلها نصارى على المذهب النسطورى وكان ملوكها موالين أو محالفين لملوك الدولة السسانية ، ومن ملوكها الأوائل امرؤ القيس الأول (القرن الرابع الميلادى) والنعمان الأول ابن أمرى القيس ، والمنذر الأول (٤١٨ ـ ٤٦٢) أبن النعمان ، وقد عظم فى زمنه شأن الحيرة ، والمنذر الثانى (٥٠٥ ـ ٥٥٤) وهو الذى سماه العرب « ابن ماء السماء » ، وأعقبه ابنه المسمى : عمرو بن هند (٥٥٤ ـ ٥٦٩) الذى خلده شعراء العرب من الجاهلية مثل : طرفة بن العبد ، والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم • وانتهى حكم السلالة فى حكم النعمان الثالث الذى يكنى « أبو قابوس » (٥٨٠ ـ ٦٠٢) ، صاحب النابغة الذبيانى ، حيث صار الملوك الساسانيون يتدخلون فى شئونها واخيرا انحاز عرب الحيرة الى خالد ابن الوليد فى فتحة العراق (٦٣٣)(١) •

وقد بذلت داخل الصحراء نفسها محاولات للتنظيم السياسى كدولة كندة التى وحدت تحت حكمها عدة قبائل من وسط الجزيرة •

ولكن ظل البدو فى حملتهم أحرارا من مثل هذه التنظيمات السياسية فلم يطلبوا وحدة فوق قرابة الدم التى وحدت بينهم فى قبائل • وانما كانوا يجوبون بلادهم الرملية الشاسعة مستقلين بعضهم عن بعض • وقد ذكرت لنا الرواية الاسلامية ذكرى تنافسهم وتصارعهم « فأيام العرب » مملوءة بحروب وثارات نشأت فى الأصل عن نزاع على الماشية أو المراعى • أو عيون الماء • وهنا تبرز شخصية البدوى حية نابضة بصفات الشجاعة والكبرياء والاصرار والحيلة وهى صفات كان لها دور لا يستهان به فى النظام العظيم الذى انبثقت عنه الجزيرة العربية فيما بعد • وقد قامت مدن فى واحات الحجاز خاصة وكان طريق القوافل المتجه الى الشمال يسيطر عليه مركزان يغلب عليهما طابع التجارة هما : يثرب التى سميت المدينة فيما بعد ومكة الى الجنوب منها • وكانت تحكم مكة حكومة قله قوامها التجار •

وكانت تفد عليها فى أيام الأسواق والمواسم الدينية أفواج العرب من

---

(١) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، طه باقر ص ٦١١ منشورات دار البيان

جميع انحاء الجزيرة فلم يكن فى وسط الجزيرة رقعة تضارع مكة مركــزا لاجتماع القبائل واختلاطها بعضها ببعض(١) ٠

من هنـــا يتبين لنا ، أن المنطقة العربية تعرضت لتيارات : من الرومان تارة ، والفرس اخرى ، وبيزنطة الثالثة الأخيرة ، وفى هذا ما ينفى القول القائل : ان العرب كانوا فى عزلة عن التـــاريخ ، ويعطى لدينــــا : أن المنطقة شهدت حضارات تعاقبت عليها ، وشاركت فى أحداثها السياسية ، والاقتصادية ومظاهرها الاجتماعية ، أيضا ، غير أن هذه التأثيرات بتياراتها لم تستطع أن تلغى شخصيتها العربية ، انما كانت طلاء ظاهرا لم يلبث أن انجلى عنها ٠ اما لمـــاذا انجلى عنها ؟ فسوف نعرض له ٠

وبعد ما كانوا يرون أن العرب حجزهم التاريخ عن حضارته ، أصبحوا يرون ، من خلال ما استجد أمامهم من وثائق تاريخية وصلوا اليها عن طريق الحفائر والآثار : أن المنطقة تعرضت للتيارات المختلفة : من غزو يونانى ، الى رومانى ، الى فارسى ، الى بيزنطى ، وبالتـــالى « اصبحت قادرة على العطاء ، وأصبح الاسلام ـ فى نظرهم ـ هو ثمرة هذا العطاء وتلك قصـــة سنعرض لهـــا ٠

وأصبح الاسلام يتكون ــ فى نظرهم ــ من عدة تأثيرات :

ـ التراث الهلينستى : اى التراث الشرقى والغربى الذى ألفت بينه مدرسة الإسكندرية حاضرة البحر الابيض ٠

ـ التراث الدينى : العبرى ٠ والمسيحى ٠

وسوف نبدأ بالتراث الهلينى وموقف الشرق منه ٠

التراث الهلينى ومراكزه العربية :

لقد عرضنا للاحداث السياسية التى تعرضت لهـــا المنطقة العربية والدويلات التى قامت بهـــا على فترات متعاقبة من التاريخ وكيف كانت تحتويها احدى الدولتين العالميتين حينذاك اما الفرس أو الروم ٠

وكان الهدف الذى كانت ترمى اليه الجمهورية الرومانية النـــــاهضة هو العمـــل على الحيلولة دون قيـــام أى نظام سياسى قوى فى الشرق يخشى

---

(١) يراجع الحضارات السامية القديمة ص ٢٠٤

ان يكون خطرا على الدولة الرومانية وكلما زادت القلاقل والمتاعب فى الشرق كلما كان هذا أفضل لصالح روما ، وكلما تضاعف عدد الدول المستقلة كلما كان هذا أجدى وأنفع لروما وكلما زاد ت الارتباكات وتعقدت الأمور فى الشئون الداخلية لكل دولة من دول الشرق كلما تضاعف امل روما فى أن تصبح سـيدة الموقف والقوة المتحكمة فى مصير الشرق بأسره(١) ·

وان أهم ما يقال عن هذه الدويلات من حيث مظهرها السياسى : أنهـا كانت دويلات تزدهر بازدهار مرفئها التجارى ، وتندثر باندثاره ، وكانت ترى تبعيتها لاحدى الدولتين ولاء سياسيا واجبا ، وكان هذا الولاء يتغير من حين لآخر ، وعامل التغير الأساسى فى ذلك : هو الظروف الدولية للدولتين الكبيرتين ، وأما هذه الدويلات فعليها أن تشكل ظروفها تبعا لهذا التغير دون اعلان رغبتها حتى فى شكل التبعية ·

وترتب على ذلك ـ من وجهة نظرنا ـ أن أصبحت ميول هذه الدويلات العربية مرتبطة بميول الامبراطور الشرقى ، أو الرومانى ، وبدلا من أن يكون الولاء للوطن : أصـبح الولاء للامبراطور ، وفى هـذا ما جعل الأسر الحاكمة لهذه الدويلات أن سعت ـ نفاقا سياسيا منها ـ الى التشبث بمظاهر حضارية ذات غشاء رقيق ، لم يلبث أن تكشف عن بداوة وسعى الى حيـاة الترف بشتى أشكاله وألوانه وصنوفه ·

وفى هذا ما صرفها عن دراسـة مكوناتها الحضـارية ، وعن ابراز عوامل شخصيتها الانسـانية ، وعن الدعوة الى توظيف لغتها ، ورفع ادبهـا ، ومناقشة قضايا وطنها ، والبحث عن حريتها الانسانية ، وحريتها فى العلاقات السياسية ·

لذلك كنا نراها : دويلات متعاقبة فى سلسلة التاريخ الانسانى ، تظهر « دولة البتراء » ، ثم تغيب مع غياب الأسرة التى حكمت فاذا ما أخطأت سبيل ترضية الامبراطور ، فما عليه الا أن يغطى عليها ، ودون أن يغيب نجم الامبراطور السياسى ، ولأول مرة أرى دويلات تنتحر انتحارا سياسيا نتيجة القلق السياسى الذى انتابها ·

---

(١) تاريخ الدوله الرومانية والاجتماعية والاقتصادى ص ٢٤ هـ ١ تاليف : م · روستوفتزف ترجمة : زكي علي ، محمد سليم سالم ـ مكتبة : النهضة المصرية ·

ثم تظهر دولة (تدمر) لتعيد نفس التاريخ ونفس الأسلوب ويقضى عليها بنفس الوسيلة السابقة ٠

الى أن جاء الاسلام فاحتوى الدولتين العالميتين : سياسيا ، وفكريا ، ودينيا ، وشفى ما بها من علة القلق السياسى ، وكان الاسلام بما أحدثه من تغييرات ، على المستوى العالمى : يعتبر بحق أظهر بمبادئه الرفيعة حقيقة الانسان عندما ضــل عن فهمها من خلال ما حوله من أفكار دينية ما جت بهــا منطقته ٠ فتلاحظ أنه كان فى المنطقة تغييرات سياسية ، لكن غير محددة الوجهة السياسية ، فتارة الى الشرق وتارة أخرى الى الغرب ، فاذا ناءت دولة الشرق الكبرى فارس بثقلها على هذه الدويلات تتغير مجرى علاقاتها الى الرومان وهكذا ، فهناك حقيقة تغييرات سياسية طرأت على المنطقة غير ثابتة الهدف السياسى ، والوجهة الحضارية ، يضاعف ذلك : عـدم وعى الأسرات التى حكمت بهدفها السياسى ، والحضارى ، وذلك مما عجل من انتحارها السياسى ٠

وحال العرب اليوم مثله بالأمس ، دويلات ظهرت فى المنطقة العربية وازدهرت لعامل اقتصادى لا دخل للعبقرية العربية فيه ، وسيطرت عليه احدى الدولتين العالميتين ، فظهرت المنطقة بمظهر حضارى غربى ، ورجع العربى من غير أن يدرى الى بداوته ، فكره العمل ، وبـــات على ذلك منعم البال بتراثه المادى ، فشل بذلك من عبقريته ، ومن تفهمه لمستوى حضارته ، وكذلك أسرات حاكمة يرى فيها ، أنها مسئولة عن توجيهه لمـا تحب وترضى ، فمفهوم التعاون العـربى نراه لا يخرج عن معنـاه القبلى : وهو الأسرة لا الوطن هى الأحق بالرعاية والتقديس ٠

وفى ذلك ما يشير الى مستقبلها أن ظلت على هذا الحال كلقمة طيبة المذاق يعافها الذوق عندما يتغير مذاقها أو يتغير مذاقه على حد ســواء ، لذلك كان على العربى أن يبحث : عن شخصيته ، وأصالته ، وأن يرصد أموال البترول لصالح ورعاية السلوك الحضارى النابع حقيقة من الاسلام ، وعليه يتحدد مظهرنا الحضارى اللائق بعبقريتنا ومنهجنا الاسلامى ٠

وأن وضعنا ــ عربا ومسلمين ــ فى حضارتنا المعاصرة مؤسف اذ ما زلنا بعيدين عن المشاركة فى بناء الحضارة ، وأن ما يبدو علينا من مظاهر فهو

مظهر استهلاكى لابنائى ، وفى ذلك تدهور وتدل ، والعربى ـ تاريخيا ـ محسود حينما حباه الله برسالة الاسلام ـ وحيا مقدسا ـ لا مظهر للعبقرية العربية فى تأليفه ، وهو العامل الجوهرى للحضارة الانسانية ، وحينما منحته أرضه ـ وستمنحه ـ بترولها وهو عامل جوهرى فى قوة الحضارة المادية ، فلا مظهر فيه للعبقرية العربية انما هو منحة الهية ايضا .

وفى كلتا الحالتين استحق العربى بهما دوره التاريخى والحضارى ٠ لكن هل قام بعبء هذا الدور ، انه ما زال يتسول التكنولوجيا من الغرب ٠

نرجع الى حديثنا عن المدارس الهلينستية التى انتشرت فى المنطقة فنقـول :

ما عرضناه كان مقصورا على الجانب السياسى فقط ٠ ترى ألم يكن ثمة تغيير من الناحية الثقافية ؟ أو بمعنى آخر :

هل اطردت الحياة الثقافية غير متأثرة بالتغيير السياسى ؟

ونحن لكى نجيب على هذا السؤال : نقدم بين يديه شـيئا عن المراكز الثقافية الهلينية فى المنطقة العربية ولون الثقافة التى غزت المنطقة العربية ٠

نلاحظ من مقتضى الأحداث السياسية : أن أصبح الشرق ـ والمنطقة العربية فيه ـ خاضعا الى حد كبير للنفوذ الثقافى الأغريقى ، وكما نشأت عواصم سياسية نشأت أيضا بجانبها عواصم ثقافية ٠

يقول م٠ رستوفتزف :

ويمكن أن نصف المظهر الذى كان عليه العالم القديم قبل نشوب الحروب الأهلية فى روما وايطاليا على الوجه الآتى : ففى أثناء الفترة التى يطلق عليها اسم العصر الهلينستى أخذ مركز الحضارة فى التحول تدريجيا من الغرب الى الشرق فحلت الاسكندرية فى وادى النيـل وأنطاكية على نهر العاصى وبرغامة على نهر كايكوس Caicus محل أثينا فى الصدارة والأسبقية فى المدنية »(١) ٠ ومن أولى العواصم الثقافية : مدرسة الشرق الكبرى :

---

(١) يراجع ، تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ج ١ ص ١٦ م ٠ ستوفتزف ٠

ترجمة ومراجعة ، زكى على ، محمد سليم سالم

مكتبة النهضة المصرية ٠

مدرسة الاسكندرية حاضرة البحر :

وكما هو واضح من اسمها أنها تحمل اسم ذلك الفتى الأغريقى ، بانيها ومؤسسها ، وخضعت لنفوذه الدنيا ، وهو لما يزل فى عقده الثالث ذلك السكندر الأكبر • لقد أسسها سنة ٣٢٣ ق٠م وقد ظل اسمه علما عليها الى الآن •

وأنشأ خلفاؤه ــ من بعده ــ فيها : أكاديمية يونانية ، تناظر بزهوها العلمى المدارس الأثينية ، بل وتفوق عليها لما احتوت عليه : من تراث شرقى ، وتراث يونانى ، وأصبحت موئلا للعلماء والمفكرين الذين وقع عليهم الاضطهاد ولا سيما بعدما أغلقت مدرسة أثينا ، فانتقلت الى الاسكندرية بتراثها وفلاسفتها ، مع اهتمام حكماء مصر بهـا أيضا فانتقلوا من معابدهم اليها ، لما لقيته من حفاوة وتقدير : استطاعت بهما أن تكون وريثة عين شمس ووريثة أثينا •

فجمعت : بين خصائص الثقافة الشرقية ، وخصائص الثقافة الاغريقية وأصبح من الصعب : أن يحتفظ الفكر اليونانى بخصائصه ، او أصالته ، كذلك أصبح أيضا الفكر الشرقى يميل الى الاندماج نحو الهلينى ، والهلينى نحو الشرقى ، وبذلك أصبح فكرها عالميا •

« ومع ذلك فالمحيط اليونانى فى الاسكندرية فقد الاصالة التى كان يمتاز بها الفكر الأثينى واتخذ طابعا عالميا وظهر فيه ميل ظاهر نحو الفكر الشرقى •

وعلى الرغم مما كانت تدعيه الثقافة اليونانية القديمة من الأصالة ، فانها لم تكن خالية تماما من المؤثرات الشرقية ، ويمكن أن نرجع الكثير من مظاهر الحياة والفكر اليونانى : الى أصول مصرية ، وبابلية ، هذا وينبغى أن نلاحظ أنه بالرغم من ان الاسكندرية كانت ذات أثر بارز جدا فى تطور الفكر اليونانى فى العصر المتأخر ، فان مثل هذا التطور لم يكن وقفا عليها ولم يكن محليا ، بل لم يكن قوميا أيضا وانما كان تطورا عالميا »(١) •

---

(١) علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ص ١٤ ، دلاسى أوليرى د • وهيب كامل مراجعة ، زكي علي •

وقال أو ليرى : ان الحياة اليونانية العالمية الجديدة التى ازهرت بعد عهـد الاسكندر ، كانت ذات جوانب متعددة : انتجت نوعا من الأدب خاصا بهـا ، وأخرجت نقدا أدبيا علميا ، وسارت قدما بالفلسفة منتهجة فى أكثر الأحيان سبلا جيدة ، كما أنتجت أبحاثا جديدة فى الطب ، والفلك ، والرياضيات ، والفروع الأخرى من العـلم ، فكل هذه متداخل بعضها فى بعض وأنهـا كلهـا ذات منزع متماثل وكلها تتطور تطورا طبيعيا من ثقـافة اليونان القـديمة (١) ٠

وفى النهاية يكفى القول : انها ولفت بين التراثين وأصبح ما يعرف فى تاريخ الفكر الفلسـفى : بالهلينستية يرجع الى نشـاطها العلمى تاريخا واصطلاحا ٠

ومما ينسب اليها من الشخصيات :

١ ـ ساكاس (أمونيوس)

يقول عن نفسه : أنه من أهل الاسكندرية ، ونشـأ مسيحيا ، وتفقه فى الدين على يد والديه ، ولكنه عنـدما بدأ يدرس الفلسـفة تحول عن دينه وصـار وثنيـا ٠

٢ ـ أفلوطين : وأفلوطين من أسيوط ولد حوالى ٢٠٠ م ٠ ولأفلوطين عدة مؤلفات كتبها على فترات ٠

الفترة الأولى : كتب واحدا وعشرين كتابا من تاسوعاته ٠

الفترة الثانية : فى روما : كتب فى أثنائها أربعا وعشرين كتابا ٠

الفترة الأخيرة : كتب تسعة من الكتب ٠

وانتهت أعمال أفلوطين المصرى بتلمذة فورفوريوس الصورى له ٠

فمن مدرسة الاسكندرية ومكتبتها بدأت تنداح دائرة الثقافة الهلينية دائرة أثر دائرة لتشمل جميع مراكز الثقافة فى المنطقة العربية ودوائرهـا ولم تكن الثقافة التى غمرت المنطقة العربية يونانية ، انما كانت الثقافة الصادرة عن الاسكندرية ثقـافة هلينستية متأثرة بالشرق واليونان ٠

---

(١) نفس المرجع ص ٢٤ ٠

ونجهل فيما يلى خصائص الفكر الاسكندرى ما دام هو الذى يغذى المراكز الثقافية وهو فيما يلى :

اولا : تتميز بالاتساع الفكرى ، واتساعها الفكرى وان كان ميزة أبعد عنها تهمة التعصب لثقافة دون أخرى ، فانه جعلها لا تتعمق القضايا بقدر ما حملت عبء التوفيق بين القضايا المتنازعة ٠

ثانيا : ركزت على المنهج التوفيقى أو التلفيقى : فربطت أولا : بين المدارس الفلسفية القديمة ٠ ثم ثانيـا : ربطت بين أفكار الفلسفة القديمة وبين فكرها الحديث ، هذا من جانب موقفها الفلسفى ، ثم من ناحية موقفها من الدين حاول بعضهم مثل فيلون الاسكندرى : أن يوفق بين توحيده الدينى ، وبين اتجاه الفلسفة ، ثم غالى فى اتجاهه عندما أخذ يؤكد اتجاه الفلسـفة اللاهوتى وحملهـا على تاكيد قضـايا الدين الذى كان يعتنقه وهو الدين اليهودى (١) ٠

ثالثا : أبرزت ثنائية الوجود ابرازا منطقيا ، وجهتها اليها الروحية الشرقية من جانب ، والمادية الهلينية من جانب آخر ، عندما كانت تحاول المزاوجة بين تراث يتميز بالروحية ، وتراث يتميز بالمادية صادفتها هذه الثنائية فابرزتهـا .

رابعا : التاكيد على الحقيقة المطلقة وافق ميلها الى الطابع اللاهوتى فحولت الفكر الى تلك الغـاية ٠

خامسا : الملاءمة بين اليهودية والفلسفة حمل عبئها فيلون ٠

سادسا : الملاءمة بين المسيحية والفلسفة حمل عبئها أفلوطين ورجال الكنيسة وكانت تلك المحاولة بدء الانشقاقات الحقيقية فى المسيحية ٠

---

(١) تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها فى الفصل الثالث عشر من الافلاطونية المحدثة . وللاستزادة راجع : الفكر العربى ومكانته في التاريخ ، دالاس أولير في ترجمة تمام حسان ، والفكر العربى للاستاذ اسماعيل مظهر وهو يعتبر ترجمة لديلاس أوليرى ترجمـة فيها تصرف أدبى كذلك الاراء الدينية والفلسفية ، لفيون الاسكندرى تاليف لاميل بربيه ترجمة د ٠ محمد يوسف موسى ود . عبد الحليم النجار ٠

هذه الخصائص وان كانت تبين المسئولية الجديدة التى حملتها مدرسة الاسكندرية وان كانت تتسم بسعة الأفق ، غير أن منهجها هذا ــ وهو المنهج التوفيقى ــ شغلها بقضــايا عسيرة الحل • وحقيقة الأمر : أنهــا شاركت واعطت الكثير من الحلول التى تتسم بالطرافة والمتعة العقلية ، غير أنهــا لم تكن على درجة عقلية مقبوله ،] من جهة الدين ، ولا من جهة الفلسفة •

وبالرغم من هذه المهمات فانها بدت عاجزة مقعدة عن نواح أخرى : وذلك عندما صرفتها تلك القضايا عن مشاكل واقعها ، وعن تحمل مسئولية وطنها ، وقضايا تاريخها ، وأصبحت مع هذا الازدهار التاريخى : توصم بالعزلة وهى حاضرة الفكر والثقــافة •

وما انتهت مدرسة الاسكندرية الا بعد أن خطت منهج خلط الدين بالفلسفة ، أى المقدس بغيره ، وكانت المسيحية باستسلامها لهذه الخطة نموذج هذا الخلط • وتقبلها الرومان علىأنها أقرب الصور لوجهة نظر «أنطيوخوس» عندما أراد أن يحكم الشرق بسياسة واحدة ، ودين واحد ، تبنت مدرسة الاسكندرية وجهة نظره هذه وراحت تنسج بخيوطها تلك الصورة ، بيد أن صورة المحاولة باءت على شاكلة (أبو الهول) : صورة انسان على جسم حيوان رابض • انها نفس تصورات مدرسة عين شمس عن الوجود ، وعن دين (أخناتون) أصبحت المسيحية تحمل اسم الدين من غير جوهره ، وتحمل اسم الفلسفة من غير منهجها ، وكان ذلك من أخطر نتائج مدرسة الاسكندرية ومن أشيع مناهجها •

يقول : جيبون :

لقد أهمل الأفلاطونيون المحدثون : المعرفة التى تتناسب مع وضعها وقدرتها ، كما أهملوا : حقل علم الأخلاق ، والطبيعة ، والرياضة ، وذلك فى الوقت الذى أجهدوا فيه قوتهم فى المناقشات اللفظية فى الميتافيزيقيا ، وحاولوا : أن يكشفوا عن أسرار عالم الغيب ، ودرسوا أرسطو ، وأفلاطون ليوفقوا بين آرائهما فى موضوعات لم يكن أحد هذين الفيلسوفين أقل جهلا بها من بقية بنى آدم •

هذه هى الصورة العامة لنوع الثقافة التى تسلمتها المراكز الثقافية العربية فما هى الصفة العامة لمراكز الثقافة التى انتشرت فى المنطقة العربية ؛

١ـ مدرسة أنطاكية :

كانت انطاكية بمثابة حلقة الاتصال بين العالم القديم والعالم الحديث ، لذلك كانت مركز التقاء الحضارتين ، الأغريقية ، والشرقية ، وأنها كانت تزخر بالأغريق المستشرقين ، والشرقيين المتأغرقين من جميع الطبقات ، وعلى مختلف درجات التعليم ، فقد أصبحت تشتمل ليس على مجرد المذاهب الدينية الأغريقية القديمة الراسخة لعبادة « زيوس » « وأبولو » وباقى جمهرة هذه الآلهة ، بل تشتمل كذلك على المذاهب السورية لعبادة « بعل » Baal والاله الأم فضلا عن الديانات ذات الأسرار بعقائدها عن الخلاص وعن الموت والبعث ووعودها لما بعد الحياة ٠

كذلك شهدت التغييرات التى عرفت بها الحقبة الأخيرة من العصر الهلينستى حينما كانت المذاهب الدينية والفلسفية القديمة آخذة فى التحول الى معتقدات فردية تبعا لانصراف الناس الى التماس العزاء الدينى عن مشاكلهم ومطامعهم الشخصية ٠ وأصبح مثلها مثل المراكز الأخرى التى كانت قد ازدهرت فيها الديانة والفلسفة الهلينيسيتان وكان من دعاتها الأول : القديسان : نيقولاوس ، وبرنابا ٠

نيقولاوس وظهور الهرطقه فى انطاكية

وطبقا لبعض المصادر فان نيقولاوس الأنطاكى وهو الذى كان من أوائل المهتدين وأحد الشمامسة السبعة فى القدس (أعمال الرسل ٦ : ٥) ابتدع هرطقة باكره عرفت باسمه .

والظاهر أن هذه الحركة المنسوبة الى نيقولاوس كانت ترمى الى ايجاد حل وسط بين المسيحية والعادات الاجتماعية السائدة وذلك بالتوفيق بين ممارسة عادات وثنية معينة والانخراط فى سلك الطائفة المسيحية ٠

والهرطقة المنسوبة الى نيقولاوس كانت ـ من بعض الوجوه ـ الطليعة لمذهب الغنوسطية الذى كان يفوقها الى حد بالغ من حيث بعد الاثر وخطورة الشأن وهو مذهب القائلين : بأن الخلاص يتم بالمعرفة دون الايمان ٠

ازدهر هذا المذهب فى جو دينى وفكرى فى أنطاكية حيث كان الاختلاط بين جماعات أفريقية وشرقية متباينة الجنس والدين يهىء مجالا واسعا لدراسة ونشر مذاهب جديدة دينية ٠ وفلسفية ولما كان مذهب الغنوسطية مذهبا يواسط بين الفلسفة الوثنية والدين ، وكانت أصوله أغريقية ، الا أنه اقتبس بعض الآراء المسيحية ، وبعض الآراء اليهودية ، فان ذلك المذهب كان فى وضع يهىء له منافسة العقيدة المسيحية ٠ فقد كان يعد بمعرفة التدبير الالهى للكون وبالخلاص ٠ بما فى ذلك الأمان من قوى الشر على الأرض وضمان حياة سعيدة فى العـالم الآخر ٠ وقد بدأ ظهور هذا المذهب فى الشرق ثم انتشر فى جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية وتعددت صوره المتباينة الى ما لا سبيل الى حصره وتفاوتت تعاليم كل قطب من أقطابه ما بين أنظمة غير مسيحية قطعا وأنظمة كيفت على نحو بدت معه على هيئة هرطقات مسيحية ٠

ومذهب الغنوسطية الذى وصل الى أنطاكية كان سليل تعاليم « سيمون ماجوس » من سماريا وهو الذى كان فى عهد الحواريين يدعو بين الناس بأن ثمة ربا أعلى يوزع القوى أو الفيوض التى كان سيمون نفسه من بينها

وقد ادعى سيمون بأنه صنو المسيح وعرض على الأنظار ضروبا من السحر جذبت اليه كثيرا من الاتباع ص ١٦٧(١) ٠

برنابا فى انطاكية :

أرسل شيوخ القدس : برنابا الى أنطاكية ــ وكان من القبارصة مثل بعض أوائل المبشرين فى أنطاكية ــ لكى يتفقد ما كان جاريا فيها وينهى اليهم مدى نجاحه وما ينتظر له مستقبلا ٠ وكان خليقا ببرنابا بوصفه من القبارصة أن يشعر وهو فى انطاكية بأنه فى موطنه تماما كما أن أهل المدينة كانوا خليقين بأن يروا فيه فردا من أبناء طائفة مجاورة تربطهم بهـا روابط الألفة ٠ ولقد تم على يديه المزيد من حالات الهداية ولما رأى أن النجـاح كان حليف الدعوة ذهب الى طرسوس حيث كان بولص يقيم اذ ذاك ودعاه الى المجىء الى أنطاكية للمعاونة فى بث الدعوة ٠

وقد مكث برنابا وبولص فى أنطاكية لمدة سـنة وهما يقومان بالوعظ فامن عدد كبير من الناس وذلك حوالى سنة ٤٠ م ٠

وكانت النتيجة التى أسفر عنها هذا العمل هى ظهور طائفة تختلف عن الزمرة الأصلية من أتباع السيد المسيح فى القدس ٠ وقد تمثل التغيير فى ظهور التعبير الجديد ، تعبير « المسيحيين » ظهر هذا التعبير فى مستهل الأربعينيات من القرن الأول للميلاد ٠

وليست لدينا أية بينة عن حجم الطائفة المسيحية فى أنطاكية عندئذ وأما عن نظامها فانه يروى لنـا أنه كان ثمة « رسل » « ومعلمون » ذكرت أسماؤهم على وجه التحديد بأنهم كانوا : برنابا وسميون نيجر ، « ولوكيوس القورينى » و « مانابن » « وبولس » ولقد كان هؤلاء الرجال ورفاقهم فى رابطة الاخاء بأنطاكية هم الذين وضعوا الخطة لحملات التبشير المنظمة التى قام بهـا بولس وزملاؤه وتولت الطائفة تدبير الوسـائل التى بدأت بفضلها رحلات التبشير(٢) ٠

---

(١) أنطاكية القديمة جلانفيل داونى ترجمة د ٠ ابراهيم نصحى ــ النهضة المصرية ٠

(٢) نفس المرجع ص ١٠٦ ٠

من أهم جهود برنابا :

جدت مشكلة « تطبيق ما تقضى به طقوس الشريعة اليهودية على المهتدين غير اليهود ذلك ، أنه فى الأصل عندما كان كل المهتدين من اليهـود لم يكن ثمة مجال للبحث فى مراعاتهم لمقتضيات تلك الشريعة اذ لم يكن هنـاك مشكلة الا بعد ما بدأت العقيدة الجديدة (المسيحية) تتخذ وضعا واضحا متميزا • ظهر نزاع من اليهود المتاغريقين مؤداه : أنه ليس من الضرورى المحافظة على تلك الشريعة اليهودية •

وعندما بدأ غير اليهود فى الاقبال على اعتناق المسيحية دخلت المشكلة مرحلة دقيقة بصدد الختان والأحكام الخاصة بالأطعمة والمشاركة فى الواجبات بين المسيحيين من اليهود وغير اليهود •

كان بولص يرى : انه لم يكن امرا عمليا تطبيق الشريعة على غير اليهود وأن من يعتنقون المسيحية منهم يجب اعفاؤهم من طقوس الختان فقد كان من شانها أن تعنى فى نظر المهتدين منهم أن يصبح أحد افراد الأمة اليهودية أو الجنس اليهودى مسيحيا ، وأنه نزل عن تراثه الإغريقى الرومانى وقد توصل برنابا وبولص الى الاتفاق مع أقطاب القدس ـ جيمس وبطرس ويوحنا ـ على أن تكون الدعوة الى الهداية الموجهة الى غير اليهود طليقة غير مقيدة بأحكام الشريعة اليهودية(١) •

أنطاكية تحت حكم تدمر :

بعد ما هزم الفرس الرومان ٢٦٠ ووقع فاليريانوس نفسه أسـيرا فى يد الفرس وفى صيف ذلك العام بعينه اجتاحت سورية قوات الملك سابور من جديد واستولت على أنطاكية مرة أخـرى • وقد هبطت سطوة الرومان ومكانتهم الى الحضيض واغتنم حكام تدمر هذه الفرصة لتحرير مملكتهم من سيطرة الرومان وسرعان ما وجدت أنطاكية نفسها فى داخل نطاق نفوذ تدمر الآخذ فى الاتسـاع •

فى ذلك الحين كانت أبرز شخصية فى أنطاكية هى شخصية أسقفها بولص من سنفيساط ، وكان بولص ينتمى الى الشطر السامى من أهل سورية

---

(١) نفس المرجع ص ١٦٢ •

ويمثل مصالح العنصر السامى أكثر من مصالح العنصر الأغريقى الرومانى من السكان وقد أسند اليه الاضطلاع بمهام مدنية ومهام دينية معـا وكان يتمتع بتأييد « تدمر » ويؤدى مهام المنوب المفوض عنها فى حكم أنطاكية وأصبح بولص السيمساطى شخصية لهـا أهميتها أيضا من الناحية اللاهوتية فان تعاليمه التى كانت تدعو باصرار الى أن الله واحد والمسيح بشر مهدت هذه الأفكار السبيل للمذهب الأريوسى وانشأت فيما بعد عرفا تقليديا فى مذهب المدرسة اللاهوتية بأنطاكية ٠

يرى جلانفيل : أن هذه التعاليم المبسطة قد أعدت ارضاء لزنوبيا ملكة تدمر التى كان يظن أن لهـا ميولا يهودية ٠ ومن المحتمل أن تكون وجهة نظر بولص فيما يتعلق بواحدانية الله وقدرته تأثرت باعتقاد اليهود اعتقادا جازما فى التوحيد ٠ وأما انكار الوهية المسيح أو متبوعيتها فان ذلك كان فكرة نبتت فى عهد مبكر جـدا حالما أصبحت طبيعة المسيح موضوعا للدراسة والمناقشة المفضلة وكانت أنطاكية عنـدما حل عهـد بولص مكانا خليقا بأن تلقى فيه مثل هذه الفكرة تأييدا ولا سيما بـعدما أصبحت معقلا من معاقل المذهب الأريوسى الذى كان فى جوهره يشايع هذا التفسير ٠ وارتبط تاريخ الطائفة المسيحية فى أنطاكية بمجري النزاع الأريوسي حول طبيعة ألوهية المسيح ، وهو ذلك النزاع الذى أحدث انشقاق الكنيسة الى معسكرين فى الجزء الشرقى من الامبراطورية وظلل هذا الانشقاق الى سنة ٣٢٥ موعد مجلس نيقية وفيه تمت الموافقة على حل ادمج بموجبه فى العقيدة النص على وحدة الآب والأبن مادة وجوهرا وتسوية وضع جماعة المنشقين ٠

ولانرى فى أنفسنا ميلا نحو تحليل « جلانفيل » لدعوة بولص الى التوحيد بأنها كانت ترضية لملكة تدمر وفى نظرنا ليس الأمر كذلك لأن التوحيد ظاهرة تغلب على الديانات الســامية ولنذكر خاصة « ال » وهو اله ســامى مشترك :

ال : لدى الأكاديين ٠

وال : لدى الكنعانين ٠

والوهيم : عند العبريين ٠

والله : عند العرب ٠

وقد عرف اليمنيون أيضا هذا الاسم وأستعملوه فى الغالب اسما عاما بمعنى اله وهو مدلوله الأصلى حقا ولكنهم استعملوه أحيانا علما على اله خاص ويكثر وروده عنصرا فى أعلام الأشخاص ·

وفى هذا الجو الفكرى العام ذى الطابع المسيحى أنشأ بسطاثيوس Bustathius أسقف أنطاكية : مدرسة بها ، على نمط مدرسة الاسكندرية ولم يسر تاريخها على وتيرة واحدة ، ففى أوائل عهدها نفى بوسطانيوس سنة ٣٣١ وترك المدرسة فى رعاية فلافيان Flavian وقد أشرك معه الناسك ديودروسى Diodorus

وهؤلاء الثلاثة جميعا وهم : الأسقف بوسطانيوس ، وفلافيا ، وديورودوس كانوا من زعماء الخصومة مع أتباع أريوس ·

وهذه الزعامة : هى السبب فى كثير مما تعرضت له مدرسة انطاكية من عنت ، فقد كان لأتباع أريوس فى هذا الوقت ، قوة سياسية كبيرة ، وزادت قوتهم بعد موت قسطنطين سنة ٣٣٧ م ومع ذلك فقد استمرت المدرسة الى سنة ٣٧٩ عندما صار ديودروس أسقفا لطرسوس ·

وقد كان فى سنة ٣٨١ أحد الأساقفة الذين رسموا فلافيان على كرسى أنطاكية ، ولما ارتقى ديودروس الى كرسى الأسقفية : ثشتت المدرسة ·

وكان بين أنطاكية ، ومدرسة الاسكندريه : تنافس لم يكن كله وديا وذلك عندما اتهمت مدرسة الاسكندر الأسقفيين : ديوروس أسقف طرسوس ، وثيودور أسقف مصيصة ، بأنهما بذرا دون قصد منهما : بذور المذهب النسطورى ·

٢ ـ مدرسة نصيبين :

تقع نصيبين : فى الرقعة التى تخلت عنها فارس لروما سنة ٢٩٨ ، ولما كانت حينذاك مدينة من مدن الحدود تشرف على الطريق الرئيسى بين

---

(١) الحضارة الشامية القديمة ص ١٩٥ ·

شمال ما بين النهرين(*) وبين دمشق ، فان الرومان حصنوها أحسن تحصين ، ولعله كان فيها : بعض المسيحيين فى ذلك الوقت ، كما كان الحال فى أجزاء كثيرة فى بلاد ما بين النهرين ٠

وفى حوالى سنة ٣٠٠ أو ٣٠١ عدت مقر كرسى أسقفى وكان أول أسقف لها هو : بابو Bapu ثم خلفه الأسقف يعقوب الذى أنشأ مدرسة بها على غرار مدرسة أنطاكية ، وكان فيها قبل أن تقع فى أيدى الرومان : مدرسة يهودية ،أنشأها الحبر يهوذا ابن باثيرا ، وهو راوية ، وقد ورد باسمه سبعة عشر فصلا من فصوله فى (المشناه) ، والمرجح أن استيلاء الرومان على المدينة قضى على مدرستهم فيها ٠ وعلى أية حال فلا ذكر للمدرسة بعد هذا التاريخ ، وبعد يعقوب أقيم شيخ اسمه ابراهيم على رأس هذه المدرسة ٠

٣ - مدرسة الرها :

عندما وقعت نصيبين مرة ثانية فى يد الفرس ٣٤٣ فر ابراهيم رئيس مدرسة نصيبين ، فهرب الى الرها ، ولا شك أنه كان هناك لاجئون كثيرون مثله فالتفوا حوله ٠

وهكذا أنشئت مدرسة مسيحية فى الرها ، ويمكن أن تعد مدرسة الرها بعثا لمدرسة نصيبين ٠

(*) قبائل العرب الذين سكنوا ما بين النهرين : ربيعة ، وتغلب بن وائل ، ومضر ، هاجروا من اليمن ، سكنوا ما بين النهرين : دجلة والفرات ، وسميت ديار بكر ، وديار ربيعة ، وديار مضر : آمد : ديار بنى بكر ، وقرقيسيا : ديار مضر من العرب الطائيين ، ونصيبين ٠ ديار ربيعة ، يقول الالوسى وهذه الجزيرة سكنها اناس مختلفوا الملل والاجناس ، ومنها دارا : التى أخفاها الاسكندر قال الشاعر :

ولقد قلت لرحل   بين حران ودارا
اصبرى يا رحل حتى   يرزق الله حمارا

الالوسى ٠ بلوغ الارب ج ١ ص ٣١٩ وللاستزادة يراجع : معجم ما استعجم لابى عبيد البكرى ومعجم البلدان : لياقوت الحموى ٠

دارا ٠ نسبة الى دارا بن كشتاسب ٥٢١ - ٤٨٦ ق٠م عندما أراد ان يؤمن الطريق من سوس الى سروس (فى ليديا) سيطر على آسيا الصغرى بقوة من بلاد النهرين وضم : دارا ، أيضا البنجاب ، وبلاد العرب الى الامبراطورية ص ٥٦ ترأث ٠

وكما هو واضح : أن مدرسة الرها كانت فى أول أمرها جماعة ليس لهـا صفة رسمية ، وكذلك ليس لهـا سند قانونى ، أو رسمى ، مثل : مدرسة نصيبين ، وأنطاكية •

هذه صورة عامة عن المدارس التى قيل عنها : أنها حملت تراث مدرسة الاسكندرية الى المنطقة العربية ، وبالرغم من أن تاريخها ما زال مجهولا ، فان ما علم منه يفيدنا أن هدفها الأول : نشر أصول الدين الوثنى بين المسيحيين الذين يتكلمون بالسريانية ، يقول ديالاسى : « فقد كانت عقائدهم اللاهوتية ، ونظام كنائسهم • كما بين (أسترز يجوفسكى Strzygowski) غير مطابق للاصول المعتمدة فى الكنيسة الكاثوليكية » •

وكما نلاحظ : أن رؤساءها أساقفة مسيحيون ، أى رجال دين ، وليس رجال دين فقط ، انما رجال دين منشقون بعضهم على بعض ، فحملت هذه المدارس طابع هذا الانشقاق •

فالمدارس كانت ذات طابع دينى ، وكانت القضية المسيطرة عليها : قضية طبيعة المسيح ، والرأى ومنهجه حول طبيعة المسيح لم يكن واحدا ، انما كان يتغير تبعا للولاء السياسى كما كانت غالبية هذه المدارس يرجع الفضل فى انشائها الى بعض المضطهدين : من السياسة ، والكنيسة •

هذا مما أدى : الى فشل الهلينية فى المنطقة العربية ، لأن هذه المدارس كان رؤساؤها رجال دين مضطهدين : فحولوها الى غايات دينية غير متفق عليها ، وكثيرا ما كان يستعدى عليها : رجل السياسة ، فيشتت شملها ، ويبعثرها ، اضف الى ما سبق : أن بعدهم عن الاغريقية ، جعلهم ينعزلون داخل المـادة السريانية المترجمة ، فانقطاعها عن الهلينية : صيرها اقليمية خالصة ، وحامت فلسفتها : حول الدين ، واللاهوت ، وهى وان كانت نشرت بعض أفكار فلسفية عن المسيحية فى بلاد جديدة : فان هذا الفكر لم يساعدها على التطور ، وأصبح حال هذه المراكز الثقـافية ليس باحسن حالا من العواصم السياسية للمنطقة العربية ، فما كادت تظهر وتتماثل للازدهار حتى يطويها ليلهـا الطويل •

يقول دلاسى أوليرى(١) : أن الثقافة اليونانية لم تنتقل الى الغرب عن طريق هذه الاتصالات الأولى ، ولقد تحقق انتقال العلوم اليونانية الى العرب عندما استقرت الخلافة العربية فى مدينة بغداد التى كانت حديثة البناء بالقرب من جنديسابور ٠

آراء قلقة للمستشرقين حول الهلينية فى المنطقة العربية قبل الاسلام :

بعد ما عرضناه عن الهلينية فى الشرق والمنطقة العربية فيه ، رأينا : أن نعرض بعض آراء استشراقية مغالية وكنا نلاحظ ان هذه الآراء مهما تنوعت أهدافها ووسائل مناهجها فانها ترجع فى نهايتها الى موقفين :

* موقف من يصم العقلية السامية : بعدم الفهم الطبيعى للأمور ٠

هذا الموقف كان من نتائجه : أن ميز بين عقليتين :

ــ عقلية آرية خصائصها : جمع وتحليل : esqrit Fusiennist

ــ عقلية سامية وخصائصها : التجزىء

* وموقف من يرى : ان الشرق لا يحب للثقافة ذات النزعة الانسانية ٠

وبين الرأيين خلاف جوهرى مؤداة : أن الرأى الأول يرد العجز العقلى : الى علة فطرية والراى الثانى يرد العجز العقلى : الى عوامل كسبية اى تخلف حضارى ٠

وهما معا على اختلافهما فى التفسير الذى يعلل اخفاق الهلينية ، يتفقان معا : على عدم تجاوب الشرق مع الهلينية ، ويتفقان أيضا : على أن الشرق هو السبب اما لعلة مرضية ، أو لعلة مزاجية ٠

وغاب عنهم ــ كما قدمنا ــ أن التيارات الثقافية التى غزت المنطقة : بعضها هب من فارس ، وهى دولة كانت عالمية ، فترى فى تراثها نفس

---

(١) علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ٠

Jrenan : l'eslamisme et la science dans discans et canferanccs Paris 1887 P. 377 - aussi.

2 guatier l'esprit semitique et l'esprit aryen Paris 1923 1,67.

هذه الصفة العالمية ، فكانت تكافح روما سياسيا ، وثقافيا لاحلال سياستها وثقافتها فى كل بلد تدخله ٠

وروما أيضا كانت دولة عالمية ، وتراثها كذلك أيضا أى كانت ترى فيه : هذه الصفة من العالمية ، كانت تكافح الفرس سياسيا ، وثقافيا ، من أجل احلال ثقافتها على كل رقعة يمتد نفوذها عليها ، والمنطقة العربية ، كانت مرة فى حوزة الفرس ، ومرة فى حوزة الروم ، فكان من الصعب أن تستقر على تراث ثقافى ذى طابع واحد ولا سيما أن الذين قاموا به ـ وهم من آباء الكنيسة ـ مضطهدون سياسيا ، ودينيا ، فكان المواطن يعزف عن هذا اللون من الثقافة الحرجة ٠

فلم تكن فى المنطقة العربية دولة ذات طابع استقلالى تبنت الدعوة الى هذا اللون من الثقافة أضف الى كل ذلك : أن المادة الهلينية التى ترجمت جاءت عن الاسكندرية بعدما أتخمتها بالمباحث اللاهوتية ، فلو لاحظ المستشرقون هذه الاعتبارات ، وأخذوا فى أعتبارهم ضعف المادة الهلينية حين فسروا اخفاقها فى الشرق : لما انتهوا الى هذه النتائج ٠

أما موقف من يصم العقلية السامية بالعجز لعوامل وراثية فان النظريات العلمية المعاصرة ذهبت به بحدا(١) يقول ديلاسى أوليرى :

يتتبع التاريخ تطور البنية الاجتماعية التى يوجد المجتمع اليوم فيها ثلاثة عوامل رئيسية تعمل فى هذا التطور وهى :

ـ العنصر القومى ٠

ـ اتجاه تيار الثقافة ٠

ـ انتقال اللغة ٠

أول هذه العوامل فسيولوجى ٠

وأهم عامل فى تطور البنية الاجتماعية هو : تناقل الثقافة والثقافة ليست من الأمور الوراثية ، ولكن تناقل الثقافة يعود الى الاتصال ، لأن الثقافة تتعلم وتستفاد بالتقليد ، ولكنها لا تورث ٠

---

(١) المرجع السابق ٠

ثم قال : وليس فى هذا ما يتصل بمسألة العنصر ، فالثقافة لا تورث باعتبارها جزءا من الميراث الفسيولوجى الذى يرثه الطفل من أبيه ، وانمـــا يجرى تعلمها بالاتصال الناشىء عن الاختلاط بالتقليد ، والتعليم ، وما أشبه ذلك(١) •

فلعدم مدلولها العلمى راينا أن نضرب صفحا عنها (٢) •

وأما الموقف الثانى : وهو ما يرى انا لشرق لا يحب الثقافة ذات النزعة الانسانية فنحب : أن نعرض له ، ونفسح له المجــال :

يقول هذا الرأى ، من خلال وجهة نظر هانزهينرش شيدر : (٣)

كان غزو الاسكندر الأكبر وما تلاه من تكوين امبراطورية يونانية فى غرب آسيا الحادث الفاصل فى تاريخ تطور الروح الشرقية •

فمن هنـــا : وقع الشرق تحت تأثير الثقافة اليونانية ، ودبت فيه حياة جديدة من الحضارات المختلفة ، والتى تتكون منها الحضارة الشرقية عامة ، والتأم شملها فى وحدة جديدة تحمل طابع الروح اليونانية ، وتلك الوحدة هـى التى يســميها باسم الهلينية • ثم يرى المؤلف من خـــلال بعض تعبيراته أنه :

ـ تحت تأثير الثقافة اليونانية : دبت فى الشرق حياة جديدة •

ـ وتحت نفس التأثير • تطورت الروح الشرقية •

ـ وأن الوحدة الحضارية التى ظهرت فى الشرق : تحمل طابع الروح اليونانية •

---

(١) نفس المرجع : ونحيل القارىء اذا أراد معرفة بها الى : تمهيد الفلسفة الاسلامية الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق •

(٢) فى الفلسفة الاسلامية ، منهج وتطبيقه د • ابراهيم مدكور ، الجانب الالهى من التفكير الاسلامى ـ د محمد البهى •

(٣) ألشرق وتراث اليونان ترجمة دكتور عبد الرحمن بدوى بعنوان روح الحضارة العربية دار العلم للملايين • بيروت •

ونهاية رأيه : أنه حصل فى الشرق تطور ، مصدره ، الحضارة اليونانية •

ثم اخذ يشرح وجهة نظره ، من بين رؤيتين للتاريخ يوضح بهما الأثر الزمنى للسيطرة الهلينية ، فيقول :

ـ هناك رؤية المؤرخ السياسى : وهى موقوته بدءا من الاسكندر ، ونهاية حتى قيام ما يدعى بالامبراطورية الرومانية ، فيقول :

«وللمؤرخ السياسى الحق ، حينما يريد أن يفهم معنى الهلينية ، تلك الفترة التى استمرت حتى قيام الامبراطورية الرومانية من أسوس ، حتى اكتيوم وحدها » •

ـ وهناك رؤية للمؤرخ الفكرى ، أو الروحى ، وهى تمتد حتى اعتاب العصر الحديث كل الحداثة فيقول :

لكن الدارس للتاريخ الروحى للشرق القريب ، لا يستطيع الاقتصار على هذا التحديد ، لأنه يجد أمامه هذه الواقعة الا وهى : أن ثمة أفكار يونانية : هى التى أنشأت الحياة الروحية الشرقية ، ووهبتها القوة الدافعة المولدة ، لا فى عصر خلفاء الاسكندر الاثنى عشر وحدهم فحسب ، بل وأيضا فى العهد الرومانى ،والبيزنطى ، الى العهد الاسلامى •

والحضارة الروحية التى اسستها الهلينية : قد امتدت حتى بلغت فى الشرق أعتاب العصر الحديث كل الحداثة ، اى الى نفوذ المدينة الاوربية ، والعلم منذ الأجيال الثلاثة الأخيرة •

والنتيجة كما يقول ـ وفق نظره :

وعلى هذا : فان نقطة ابتداء ، الحضارة الشرقية ، التى بلغت كمالها فى الاسلام ، هى بعينها نقطة ابتداء الحضارة الغربية •

ثم بعد ذلك : طرح سؤالا جعله مقدمة لدراسة مقارنة ، ممهدا له بقوله :

لكن أقل مقارنة بين الخصائص الروحية للشرق الاسلامى الحديث ، ولعالمنا الغربى ، تدلنا : على تباين فى الموقف ينتظم كل شىء : العام

منه ، والخاص ، حتى أبسط الجزئيات ، فنرى أنفسنا أمام هذا السؤال وهو :

كيف أدى قبول قوة روحية واحدة بعينها – ونعنى بها : الثقافة اليونانية – الى نتائج مختلفة كل الاختلاف هناك كما هى الحال هاهنا ؟

للاجابة على ما طرحه من سؤال : أخذ يبين خصائص الشرق الفكرية قائلا :

فى الحضارة الشرقية ، نشاهد الشعور بالسنة والتقاليد وشدة التمسك بهما : قد بلغا أوجهها ٠

بيد أن كليهما يبدو هناك فى تركيبه متميزا بطريقة خاصة من فكرة التقاليد عند الغرب ٠ فالتقاليد معناها فى الشرق : المحافظة على ما هو أصلى وقديم ٠

والتقدم الروحى ، لا يمكن ان يتم عنده ، الا فى التفسير ، والتكيف مع الأوضاع الجديدة ، لا فى التحويل ، والصياغة من جديد لما ورثوه ونقلوه ٠

والعلة الرئيسية فى هذا : انما هى الرابطة الدينية ، والتى فى داخلها يتم تطور الروح فى الشرق ٠

والتقليد (أو السنة) لا يمكن نقضها ، لأنه ينظر اليها : على أنها من الوحى ، وما هو من الوحى : ليس فى مقدور المتأخرين ، ولا من شأنهم ، أن يمسوه ، لأنه مما بلغ للانسان من قبل على أنه الحقيقة ٠

ثم رجع المؤلف متسائلا ، مرة ثانية عن عدم نجاح التراث الهلينى فى الشرق مرة ثانية : كيف أمكن اذن الا يغير اقتحام الفكر اليونانى (للشرق) منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد هذا الموقف الروحى عند الشرقيين ؟

وبالجملة ، ولصياغة المسالة هنا فى صيغة موجزة :

كيف أمكن الا يكون الشرق حتى العصر الحديث قادرا على ايجاد نهضة أو نزعة انسانية ؟

يقول مجيبا : ولقد قدر للشرقيين ، حينما اتصلوا بيونان • أن يجدوا أنفسهم مالكين لثقافة روحية دخلت دور التحجر تبعا لموقفها المحافظ من السنة التقليدية لم تتطور تطورا كافيا •

فلم يكن ثم ما يتعلمونه حقا من يونان بل (على العكس من هذا) لم يكن لهم أن يتعلموا شيئا لأن تقاليدهم قد قدسها الوحى وفضلا عن هذا فقد استقرت الغاية فى تطورهم الروحى فبينما احس الرومان فى اتصالهم بيونان • أن المثل الأعلى للفضيلة والمروءة ، يمكن أن يسمى به الى أعلى صورة ، صورة الدراسات الانسانية ، ومن اجل هذا • اقبلوا على يونان : برغبة فى العلم غير محدودة تمتاز بالحرية الباطنية والتفتح ، اتجه الشرقيون ، لا الى الانسانية وانما الى الظفر بالقداسة وبالنجاة •

ولهذا فان المثل الأعلى ، ذا الطابع الدينى المرتبط بالعقائد الثابتة ، عند الشرقيين ، لم يسم حينما انكشف له الفكر اليونانى الى استهداف غايات جديدة ، وانما •• اشتد فى حركته هو الخاصة •

ولم يكن هذا فحسب : فان الامكانية الحاسمة الجديدة التى تبدت آنذاك أمام الشرقيين : كانت هى استغلال التراث اليونانى من أجل « توكيد » نوازعهم الخاصة •

لذا لم يكن طبع الحضارة الشرقية بطابع الهلينية ، حركة نهضة ، أو ميلادا جديدا ، وبعثا لقديم ، وانما : كان استمرارا فى المحافظة عليه وتخليده •

فاستفاد القوم « الشرق » من القوى اليونانية • امكان تنظيم هذا الخليط العديم الصورة • من المنقولات الأسطورية ، والنبوية ، والتشريعية ، والأمثالية ، وترتيبه وتبويبه تحت وجهات نظر رئيسية موحدة بسيطة ، ثم جعلها تتواتر فى صورة أثبت ، وخوصا وقبل كل شىء : جعل فهم تقاليدهم الخاصة وقيمتها مفتوحا أمام غيرهم ممن هم خارج نطاق جماعتهم الحضارية •

والعلة فى رأيه التى جعلت الأثر اليونانى عقيما فى الشرق هى كما يقول :

وهكذا نرى العلة الرئيسية • فى أن التراث اليونانى فى الشرق ، قد كان ذا عقم بالغ حتى الأعماق ، وان لم يكن هذا التراث أقل نفوذا وتعبيرا

منه عند الرومان ، وهذا العقم لا يمكن ان ننعته الا بانه كان مؤلما أسيان فما تعلمه الشرقيون ، من اليونان : أفادهم فى الاستغلال العربى له ، لا فى الظفر بتنشئة جديدة وتطور فى الثقافة ٠

ومن ناحية أخرى يتبدى جليا الآن : لماذا كان السؤال ـ الموجه الى الحضارة الروحية الشرقية ـ عن العلة : فى أنها لم تستطع ايجاد نزعة انسانية تتجدد من جيل الى جيل ؟

يقول : أى المؤلف : لماذا كان هذا السؤال ليس سؤالا صادرا عن خارج أو عن وجهة نظر لا تقوم فى طبائع الأشياء نفسها ، بل هو سؤال له أساسه فى جوهر الأمور عينها ؟

والنتيجة النهائية هى كما يقول :

فالأمر اذن على هذا النحو : وهو ان كل من يدخل مع اليونانيين فى صلة حيوية يوضع امام الاختيار بين أحد خصلتين :

ـ اما أن يتتلمذ لهم أى لليونانيين ـ عن وعى وارادة ٠

ـ واما أن لا يفعل ٠

يشرح المؤلف ذلك فيقول : فان تاثير يونان له من الصولة ، وكذلك قوة عقلهم المفكر ، المنظم لمجموع الواقع المطلق لنفسه ، هو من الاقناع بالنسبة الى كل انسان يكون على علم به بحيث لا يوجد ثم مندوحة عن هذه القوة وذلك التاثير ، فمن يلق اليونانيين لابد أن يتعلم منهم ، والمسألة : هى فيما اذا كان سيحول هذه الضرورة الى ارادة حرة ويعرف كيف يشكر اليونانيين من أجلها أم لا ٠

نلاحظ ان المؤلف بدأ يظهر بوضوح أله : من عدم استفادة الشرق من التراث الهلينى ، وأخذ يوطىء لذلك بما قاله عن الشرق وهو :

أن عدم نجاح رسالة التراث اليونانى فى الشرق ، راجع بالدرجة الأولى الى تمسك الشرق بتقاليده وتراثه ، فما أحب الشرق أن يكون تلميذا ٠

ولا أحب أن يفعل ، وان كان اليونان أحب أن يكون معلما مسيطرا فان الشرق قد نبذه ٠

ثم يقول : والشرقيون اعتقدوا الثقة بتقاليدهم ، واعتقدوا أنهم لا يستطيعون أن يأخذوا عن اليونانيين : الا ما ينتسب الى الصناعة الفنية ، وليس عليهم ان يتعلموا منهم توجيها روحيا جديدا ، ولم يستطع الشرقيون ٠ أن يرتفعوا الى مستوى الاعتراف الخليق بالنفس العالية الحرة ، الاعتراف بالرسالة اليونانية التى يشير بها « هوراس » للرومان فى قوله « يونان مقهورة تقهر المتبربر الظافر » ٠

بعد ما انتهى الباحث الى هذه النتيجة : وهى أن الثقافة اليونانية رفضها الشرق ، وما أخذ منها : كان بمثابة الاستفادة ، أو ما أدخلوه على صناعتهم الفنية : فالشرق لم يتتلمذ على يونان بوعى وارادة ، لذلك عجز التراث اليونانى ٠ أن يترك أثرا للنزعة الانسانية فى الشرق ٠

ولقد كان من الملاحظ حقيقة ونطمئن اليه ، وهو ما أفزع الباحث وأقلق عليه باله : هو أن حروب الاسكندر استطاعت أن تغلب الشرق سياسيا غير أن ثقافته اليونانية لم تستطع : ان تقهر الشرق ، ثم بعد ذلك ، بدأ منه تجاهل — فى حنق وفى عصبية — لا مبرر له ، ليس فى طرحه سؤاله : انما فى الاجابة عليه ، فهو يقول : ومن ثم تتضح الصعوبة غير العادية ، التى تكمن فى مسألة ما اذا كان على المرء أن يرد مركز الثقل فى الانتاج الروحى — وخصوصا منه الدينى والفلسفى — الذى أبدعه الشرق الى الهلينى أو العنصر الشرقى ؟

وتلك مسألة تعرض نفسها بالحاح خاص فى كل درجة من درجات التطور الروحى للمسيحية ، وبالنسبة اذن الى تلك الحركة التى اقتحمت نطاق اليهودية ، التى انكفأت على نفسها وغلقت أبوابها باطراد متزايد منذ عهد المكابيين ضد العالم الهلينى المحيط بها ، ولكنها فى أصولها لم تظهر بعد بصورة روحية راسخة ، بل ظفرت بها أول مرة بفضل التوغل فى أرض هلينية حقا : ان هذه المسألة يجاب عنها بصورة جلية منذ القرن الثالث بعد الميلاد لما أن نما المذهب المسيحى فى مدرسة الاسكندرية : الى نظام

فلسي استقصيت فيه الذرائع ، وهذا الجواب : هو أنه ما من أحد يمارى فى سيادة الفكر اليونانى فى علم اللاهوت المسيحي من ناحيته التنظيمية المذهبية • بيد ان الاجابة عن هذه المسالة ، تترجح وتتردد : حينما يتصل الأمر بنشأة تاريخ المسيحية ، وأكثر من هذا : حينما يتصل بالحركات ذات الصلة الماسة بهـا ، من حيث التوجيه فى النظرية الكونية ، وتسير موازية لهـا ، وكذلك أيضا حينما يتصل الأمر بالنظرة الاسلامية : فى الحياة والوجود التى أتت بعد ذلك •

نقول : ان اجابة تتردد وفقـا لكون المرء فى أحكامه هنـا يبدأ من الأسس العقلية التنظيمية لهـذه النظرات فى الوجود والحيـاة ، أو يبدأ ـ وهذا أقرب بكثير الى اهتمـام الباحثين اليوم ـ من الموقف الذاتى ، وبالجملة ، من المثل الأعلى للتقوى ومن الحنين الى النجاة الفردية لاتباع تلك النظرات الكونية •

نلاحظ : أنه عندما أخذ يبين الأثر الهلينى : على المسيحية ، واليهودية ، والاسلام ، رأيناه : متحيزا : كما يظهر من تردده حين أراد أن يقومه تساءل هل يرده الى العنصر اليونانى ؟ أو الى العصر الشرقى ؟

ثم بعد تردد نراه يقول : الانتاج الروحى ـ وخصوصا ـ الدينى ، والفلسفى الذى ابدعه الشرق يرجع الى الهلينية •

ثم يتابع قوله عن الشرق الهلينى فيقول :

هنـا يرى : ان فى الشرق ثمرات ابداعيـة : غير أنه أضـافها الى الهلينية وفى هذا ما يفيد لديه : أن التراث الهلينى نجح ، ويصبح ما أحصاه عليه من خصائص تفوق نموه الثقافى : غير حقيقته لأنها ان كانت فيـه فلماذا منعته عن التطور ؟

ويعترف : ان فى الشرق ابداعا غير أن حيرته فى تساؤله ـ هل هو ابداع راجع الى العنصر الهلينى ؟ الذى أعلن أنه فشل فى الشرق ؟ أو راجع الى الشرق ؟ الذى فيه خصائص تعوق نموه الثقافى ؟ : حيرة تنم عن تعصب

وتعيننا على وصف نظراته بأنها تحتاج منه الى مراجعة مع روية واصطناع الأنـــاة ٠

ثم راح المؤلف بعد ذلك : يبين الأثر اليونانى فى الشرق ، واختار فى سبيل اظهار ذلك : قضية الكون والوجود ٠

فقال : ولشق طريق علينا على الأقل خلال هذه الرحلة لابد أن يتساءل المرء :

أين مجال التاريخ الروحى الحقيقى ؟ والى أى نقطة يجب أن يتجه انتباهه ؟ حتى يتبين ، بوضوح : تطور النظرة الكونية ويقدر على ايضاحها ؟

ومن ذا الذى يمكن ان يشك ، وهو يضع السؤال على هذا النحو ، فى أن الأسس التصورية للنظرة الكونية وتطوراتها ، هى بعينها التى يمكن تعرفها بيقين ، وتعرف درجاتها فى تاريخ تطور الفكر والتحرر الذاتى العقل ، بينما التدين الفردى : حينما يكون عامرا بالقوة والميزات الخاصة ، يكون بمعزل عن التطور ، بل عن الارتباط الزمنى الى حد : أن انتظام أصحابه فى خط التطور : يصطدم بعقبات لا تكاد تذلل ؟

ولهذا : فانه لا تكاد توجد امكانية اخرى للتامل التاريخى الروحى عند الشرق ، غير ابتداء هذه الواقعة ألا وهى :

أن الكلم اليونانى والفكر اليونانى ـ وهذا الأخير ممثلا فى صفوة محدودة بحاجة الى مزيد من الوصف ـ وقد أثر كلاهما فى الشرق ، وحى هناك ومازال يحيا حتى العصر الحديث ٠

وتاريخ الفكر اليونانى فى الشرق : يقدم لنـــا الخيط الأحمر ، الذى يعين المرء على ضم كثرة من صور النظرة الكونية ، تحت لواء مركب تطورى واحد ملىء بالمعانى ، وفضلا عن هذا : يسمح بربطته ومقارنته بالتاريخ الروحى للغرب ٠

وهذه المصادرة لا شىء ابلغ فى تحقيق صحتها من مجرى التطور الحقيقى للفكر الشرقى ، تبعـــا لكونه قد خضع بكل اذعان : لتاثير العقل اليونانى منذ اللحظة التى تعارفوا فيها ، وليس فى تاريخ النظرة الكونية فى الشرق :

قوة عقلية واحدة ، يمكن أن تقارن : فى أهميتها وجلال شأنها ، بالقوة اليونانية ، بل يستطيع المرء ، أن يذهب الى أبعد من هذا ، ويقول :

ان اتجاهات النظرة الكونية ــ لدى الشرقيين منذ الهلينية ــ : تبلغ فى كل حالة ، درجة من الوضوح العقلى ، وقابلية التعليم والفاعلية ، الا حينما عملت فيها : نظم التطورات العقلية اليونانية ، والاستثناء الوحيد فى هذا البــاب هو : الديانة التشريعية اليهودية ٠

ثم يقرر المؤلف ــ وهو بصدد بيان الأثر الأغريقى على الشرق ــ : أن نظرات الشرق فى الوجود ، اثر أغريقى ، لانها خضعت فى تطورها : للفكر والتحرر الذاتى للعقل ، واستبعد المؤلف أن تكون هــذه النظرات ، وليــدة التــدين ، لأن التدين ــ فى نظــره ــ حينما يكون عامرا بالتقوى ، والمميزات الخاصة ، يكون بمعزل عن التطور ، بل من الارتباط الزمنى ، الى حــد أن انتظام أصحابه فى خط التطور ، يصطدم بعقبات تكاد لا تذلل ٠

واضح من اتجاهه انه يميز بين نظرتين بالنسبة الى الكون والوجود :

ــ النظرة الدينية : ومميزاتها عدم التطور ، ومتحير فى مصدرها ٠

ــ النظرة العقلية : ومميزاتها التطور ، ويرجع أصلها : الى اليونان ٠

والمؤلف : اذ يضع هذا التمييز بين نظرتين ، نراه لا يبنى حكمه عليهما ولا يراعيهما فى منهجه فضلا عن أننا نلمح تعسفا منه : حينما أســند نظرات الشرق فى الوجود الى الهلينية ، فى الوقت الذى حاول فيه ــ سابقا كما بينا ــ أن يطعن الشرق بعدم قدرته على التطور ، وعاجزا عن متابعة الهلينية كما عجزت الهلينية من وجهة نظره ــ أن تكون دواء لداء الشرق القعيد عن التطور ، فكيف تطور ــ بعد ذلك ــ فى نظراته حول الوجود ؟

ثم يرجع فيقول : ولهذا فان المثل الأعلى ، ذا الطابع الدينى ، المرتبط بالعقائد الثابتة عند الشرقيين : لم يسم حينما انكشف الفكر اليونانى ، الى استهداف غايات جديدة ، وانما اشتد فى حركته هو الخاصة ، ولم يكن هذا فحسب ، بل فان الامكانية الحاسمة الجديدة التى تبدت آنذاك أمام

الشرقيين : كانت هى استغلال التراث اليونانى : من أجل « توكيد » نوازعهم الخاصة ·

لذا لم يكن طبع الحضارة الشرقية بطابع الهلينية ، حركة نهضة ، أو ميدانا جديدا ، وبعثا لقـديم ، وانمـــا كان استمرارا فى المحـافظة عليه وتخليــده » ·

بعد ما قرر المؤلف هذا التقرير : نـــراه ناقضــــه ، وناهضه ، وذلك عندما رد « نظرتهم ، الى الكون والوجود : الى الأثر الاغريقى ، واستبعد أن يكون : وليد تدينهم ·

ولنـــا بعد ذلك سؤال يقول : هل يا ترى تراث الشرقيين ، الخاص بالوجود والكون ، يدخل تحت وصف المؤلف لتراث الشرق « بأنه خليط عديم الصورة » « أو أنها نظرات على مستوى فكرى عظيم » فينحلها الى يونان ؟

حقيقة الأمر أن المؤلف يتحامل على الشرق حينما ينحل اليه « كل خليط عديم الصورة » ·

ونراه لا يرى فى ذلك استثناء واحدا سوى : اليهودية · فيقول :

والاستثناء المميز الوحيد فى هذا الباب هو ، كما سنبين « الديانة التشريعية اليهودية» · بهذا الاستثناء ، بدأ المؤلف : يعطى بعضا من الأصول الثابتة للشرق والأساسية فى تكوين تراثه وخصائصه ، حينما رأى ذلك فى الدين اليهودى وهذا أقدم دين شرقى بلغة السماء نعرفه بكتابه ·

اذا كانت اليهودية مستثناة — وليست كلها — انما شريعتها فما هو المقابل الذى يقدمه المؤلف ويظهر فيه الأثر اليونانى ؟

يقول — وفى مقابل هذا — : نشاهد مثلا : أن الديانة القائمة على عبادة النجوم ، ومنشؤها من البابليين ، ليست مطلقا نتاجا أصليا للتطور الروحى البابلى ، وانما هى بالأحرى : نتيجة تعمق علم النجوم البابلى . والقياسات الفلكية ، بمعاونة التصورات اليونانية ، والفلسفة اليونانية ، وبخاصة : الراقية منهـــا ·

وقوة النفوذ الهائلة ، التى كانت للنظرة الكونية النجومية فى العصر الهلينى ، لا يجب أن نفهم اذن الا اذا اتضح للمرء : أن اللوغوس اليونانى هو الذى نظم تلك النظرية ، وبعث فيها قوة الاقناع ٠

والأمر على هذا النحو ــ ايضا ــ فيما يتصل باستمرار تأثير النظرة الكونية الايرانية الأقدم فى الشرق القريب وما وراءه ٠ فالتفكير الايرانى : يتضمن بعض التطورات التوجيهية ، ذات القوة الرمزية العظمى ، ومضمونها الرمزى الواسع ، قد جعلها : تبــدو أكثر قابلية للتعبير عن الميول الخاصة للثقافة الشرقية ، بنظرتها الكونية فيها عن غيرها ، لذلك : كان لابد لهذه التصويرات الأسطورية المقيدة بالتفكير الاسطورى ، لكى تصبح رموزا كلية مفهومة لدى الجميع فعالة ــ يقول أى المؤلف ــ : أنه كان لابد من دخول العقل اليونانى فيها لينظمها على هيئة مذهب محكم فى تفسير العالم والتاريخ ٠

فما قدمه من نموذج ، وهو الديانة القائمة على عبادة النجوم ، اى الديانة الوثنية ، واعتبره أثرا يونانيا : نوافقه عليه ، بل نوافقه على أن الوثنية التى غزت الشرق ، وغزته : كان أصلها يونانيا ٠

ثم يقول : ولا سبيل ــ بعد كل ما قلناه ــ الى ايضاح المهام الملقاة على عاتق التاريخ الروحى الشرقى ، الا بالتامل فى أهمية الفكر اليونانى بالنسبة الى الشرق ، ووجوهه الخاصــة ، اى بالتامل فى ظــاهرة انعدام النزعة
الى الشرق ، ووجوهه الخاصــة ، اى بالتامل فى ظــاهرة انعدام النزعة
الانسانية فى الشرق ٠

ويحاول المؤلف ، فى النهاية : أن يبين بوضوح أن السبب فى عدم نجاح التراث اليونانى الشرقى : هو عدم اهتمامه بالنزعة الانسانية ، لمــاذا ؟

يقول : ذلك أن الفكر الشرقى لا يقوى على ادراك عالم محكم احكاما لا يوصف ، منظور اليه بقوة بصيرة دقيقة واضحة ، وفيه لكل شىء مكانه ، وتدبير الآلهة وفعل بنى الانسان كلاهما : يجرى على نظام واحد طبيعى ، ان جاز هذا القول ، اذ الفكر الشرقى يوجه كل همه ، نحو الحاجة للنجــاة بالنسبة الى الذات المفردة الخاصة ، ونحو أحدية الله وعلوه على الكون ، وقوته وقدرته التى تهيمن : على كل الأفعال الانسانية ٠

وكذلك ، لن يستطيع : أن يفهم هذه اليقينية التى وصل اليها سقراط ، ألا وهى : ان حياة الانسان الاخلاقية ، لا تملأ معناها عن طريق التفكير العقلى الأخلاقى ، أو التأملى النظرى الميتافيزيقى ، انما عن طريق تحقيق مضمون الحياة كله داخل نطاق الجماعة ، بينما عند الشرقيين ، فى العصر القديم ، قد أصبح التفكير والحديث عن الأمور الأخلاقية : موضوعا للأحاديث الوعظية ، وبهذا فقد القوة الدافعة الى العمل • ولو شاء المرء ، أن يعبر فى صيغة موجزة عن الحد الذى عنده يقف فهم الشرقيين لليونانيين ، لاستطاع أن يقول : ان هذا الحد : هو الفكر الكونى عند اليونان • أعنى : تصور العالم : على أنه كل محكم الاعضاء ، جوهره : يقوم فى انسجام أجزائه •

فتطور الفكر الشرقى ، لا يهدف الى تأمل الكون المنظم ، وانما يهدف الى جمع الصلة بين النفس المفردة المحتاجة الى النجاة ، وبين ربها •

ذلك : أنه اذا اقتصر كل الاهتمام على النجاة الشخصية ، وعلى التوتر بين الكمال الالهى ، وبين النقص الانسانى ، أصبحت العين عمياء عن العالم الخارج عن الذات الخاصة ، ولم يعد ثم تفكير فى نظم العالم الموضوعية •

ثم قال : وهنا نشير ، كذلك الى وجهة نظر أخرى يجب ألا نغض النظر عنها فى السؤال عن عدم تقبل الشرق لتراث اليونان •

عاد ليجيب : فان أتباع الأديان الشرقية التى اثمرها الفكر اليونانى رأوا أنفسهم منقادين الى هذه النتيجة وهى : أن مضمون الوحى الذى كان من نصيبهم : هو الحقيقة المطلقة بالضرورة •

ولبلاغ هذه الحقيقة : كان لابد أولا من « تأويل » وثائق الوحى فى صورتها الأسطورية المنقولة ، تأويلا بوجهتين :

* وجهة تصور الآلهة واضدادها ونشوءها وخصوماتها ونسبتها الى ظواهر كونية •

* ووجهة تعدها بمثابة رموز أخلاقية وتسبغ عليها خيرية النفس وشريتها وما بينهما من صراع ـ بعد ذلك نقول :

ان المؤلف لا يحاول : أن يتراجع ، بعدما قدم من شواهد تثبت عقم التراث اليونانى فى الشرق ، سواء أكان هذا التراث لا يتفق معه ، أم كان لعدم ميله الى الأخذ بالنزعة الانسانية قلنـا لا يحاول أن يتراجع رغم انه بات متحيرا فى حكمه على تراث الشرق ـ ليعيد النظر من جديد فى تراث الشرق وسيكلوجية التقابل بينه وبين الهلينية ٠ على أنه لا يؤخذ من وجهة النظر العـامة للمؤلف : أن الشرق لم يحتفل بتراث اليونان ٠

أما سؤال المؤلف : الذى بدأ به بحثه : وهو أن نقطة مبدأ الحضارة الشرقية : هى اليونان، كان فرضا منه ، الغاه بحثه ٠

وليس معنى : عدم تقبل الشرق للتراث اليونانى ، معناه : تخلفا فى الشرق ، بل قد يكون كما قلنا : راجعا الى نوعية الثقافة التى ترجمت كما قلنـا ٠

وقد يحلو لنا أن نزكى ثقافة ، على ثقافة ، ولكن من المكروه أن نجعلها المقياس الأمثل ، أليس محاولة فرضه هو عين الاستبداد فى الرأى ؟ والاستبداد مرض يوصم صاحبه بالأثره لا يرجى له العلاج منها ٠

وفى ذلك ما يفيد ـ من خلال منهج بحثه ـ تورطه فى معنى التعصب بشامل معناه :

* تعصب وطنى ٠
* تعصب دينى ٠
* تعصب لليونانية ٠

لذلك جاء البحث بنتائج سابقة لا توطىء لهـا مقدماته ٠

ثم نراه يعيب علينا : أن نأخذ من الوحى فى الوقت الذى نراه يستشهد بسقراط فعاب على الشرق ، بما أخذ به ؟

ثم نأخذ عليه : أنه خلط بين الدين الاسلامى ، والدين الوضعى(١) وهو يعلم جيدا ما يعنى مبدأ التفريق بينهما ٠

---

(١) نيترل .. أن الخطب كليا نسبة Hone lies clementincs هى التى حددت الشعور بالرسالة لدى مؤسسى الاديان اللذين ظهرا في الشرق بعد المسيح ، الا وهما:
حددت الشعور بالرسالة لدي مؤسس الايان اللذين ظهرا في الشرق بعد المتبيح ، الاوهما:
ماني ومحمد ٠

وفى النهاية أحب أن أشير الى نقطة جوهرية : بين الثقافة ، والحضارة ٠

واذا كانت الثقافة اليونانية ـ حقيقة كما يتفق الباحثون ـ : لم تتقدم وأنها نمت نموا بطيئا فى الشرق عنه فى الغرب ، وأنها : هى العامل الأول ـ كما يقولون ـ لكل تطور حضارى ، فكيف نفسر اذن الحضارة الاسلامية ابان ازدهارها ؟ وهذا ما لم يثره المؤلف ولم يتعرض له ٠

نقول : انه قد تنتقل ثقافة الى حضارة فتتقدم الحضارة ولا تتقدم الثقافة الوافدة ، ومنها الحضارة الاسلامية قد تكون حددت الثقافة بغايتها الحضارية ٠

فالحضارة الاسلامية ، كانت بعد الوحى : عواملها ذاتية ، واستفادت من الثقافات الأخرى ما وسعها الاستفادة ، فتقدمت الحضارة الاسلامية : لغة وفكرا وتاريخا ، وجغرافية ، وما زال الاسلام مزدهرا وان كان المسلمون فى ضعة وضعف ٠ وأصبح لها وزن خاص وخصائص حضارية خاصة ٠ اذا أخذنا هذا فى الاعتبار فتصبح دعوى « هانز هيترش شيدر » يشوبها روح التعصب لليونانية ، لأن الحضارة ليست مهمتها تنمية التراث الوافد لتعيده مرة أخرى الى حيث أتى ، انما مهمتها الاستفادة التى تيسر لها مسيرتها وتخدم غاياتها ، حتى تحدث آثارها ذكرا بينا فيما يأتى من حضارات ٠ ولذلك كان لابد للثقافة أن تتغير ، وان تكيف نفسها بكيفية الظروف المتغيرة ، وأن تلبى المطالب الجديدة ، لذلك لا يمكن أن تظل وفية لماضيها دون حاضرها ، الا حين تكون حياتها غير حقيقية أو تكون ثقافة : لا وظيفة لها ، وعندما يكون حالها هكذا ، فتصبح وظيفة المجتمع : رفضها ، لأنها أصبحت ، لا تتناسب مع وضعه وقدرته ٠ على أى حال : لم تكن الهلينية من أقوى المؤثرات فى الشرق والمنطقة العربية فيه : انما كانت الأديان السماوية : هى الأثر الوحيد والحقيقى للشرق ، واثره البارز على الغرب ، أو بمعنى اخر : الأديان ـ وهى تراث شرقى ـ اثر تركه الشرق على الغرب ، وأما مناهجه العقلية فهى أثر يونانى فى بعضه ٠

النتيجة النهائية التى يجب أن يصل اليها ، غير أن بحثه لم يمهد لها هي كما يقول : « وأتي العرب معهم بارادة الغزو ، وكلمة دينية جديدة

لكنهم لم يأتوا بحضار ة خاصة يمكن أن تحل محل تلك التى وجدوها فى البلاد التى فتحوها ، وبقدر ما توغل العرب فى المقاطعات القديمة ذات الحضارة وبقدر ما نقلت مراكز سلطانهم من مواطنهم الأصلية : الى سوريا ، ومنها الى العراق ، وجاء العرب عيالا على الحضارة العتيقة الراسخة فى نفسها ذات الطابع الموحد التى كانت عند من أخضعوهم • وهكذا بدأت تبرز ، منذ نهاية القرن الثامن : وحدة الحضارة الاسلامية التى لم تكن شيئا آخر غير تطور عمره ألف سنة • وكانت القوى الروحية المقومة فيها : هى قوة التراث الهلينى •

على أى حال : عرضنا للمد السياسى الهلينى ومراكزه الثقافية فى الشرق والمنطقة العربية فيه ، ثم عرضنا لبحث « هانز شيدر »تبينا أن المؤلف مذعور من عدم نجاح الهلينية فى الشرق ، وكان هذا فى نظره ظاهرة مرضية ـ كما بينا ـ أنه يتحامل على الحضارة الاسلامية ، وعلى الوحى الذى عده عائقا دون نهضة الشرق ، وعده ايضا : من الحواجز الأساسية ، دون قيام النزعة الانسانية فى الشرق ، لذلك صار العرب عيالا على الحضارة العتيقة الراسخة •

ويقول : وكانت القوة الروحية المقومة فيها هى : قوة التراث الهلينى ، اذا كانت هذه نتائج طبيعية ساقه اليها بحثه فلماذا يقول متسائلا :

كيف امكن ألا يكون الشرق حتى هذا العصر ، قادرا على ايجاد نهضة أو نزعة انسانية ؟

على أى حال : ان محاولة الطعن فى الشرق ، أو الاسلام ، كانت رسالة قديمة ، قام بها الجيل القديم من المستشرقين ، وأصبح الجيل الحديث والمعاصر ، يؤدى خدمات جليلة للتراث الاسلامى ، ويعدل كثيرا من وجهات نظر القدامى من المستشرقين مع المحافظة والفهرسة لتراثنا الاسلامى والعربى •

يقول : م٠ رستوفتزف :

« وعلى ذلك فان حضارة العصر الهلينستى لم تصبح فى أى وقت مزيجا من الحضارة الشرقية اليونانية وانما بقيت أو كادت أنتكون اغريقية صميمة فى

جوهرها مع اضافة شيء قليل جدا من العناصر الشرقية اليها ، ولم يكن المظهر الرئيسى الجديد لتلك الحضارة الاغريقية فى العصر الهلينستى هو طابعها الشرقى الاغريقى وانما كان طابعها العالمى ، وهذا ما جعلها مستساغة مقبولة لدى مختلف الحكومات الوطنية الجديدة التى ظهرت فى كل من الشرق والغرب ومع ذلك ففى الشرق لم تتخذ احدى الدول الجديدة ــ ومنها بارثيا ــ باكتريا ــ والهنــد ــ أرمينيا وغيرها ــ الثقافة الأغريقية تماما ، بل بقيت العادات والأفكار الاغريقية طلاء رقيقا يكسوه بنــاء محليا ذا طابع شرقى صميم ، وبالاضافة الى ذلك فان الأثر الاغريقى فى الشرق قد اقتصر وجوده على المدن وعلى الطبقات العليــا من السكان ولم يكن له أى أثر على الاطلاق على ســواد الناس وعامتهم • وكان تغلغله أعمق فى حياة الأمم الغربية من الايطاليين والكلتيين وأهل ايبيريا والتراقيين ولكن الحضارة اليونانية بقيت هنــا أيضا وفية لنشأتها الأولى ولطابعها الحقيقى فكانت هى حضارة المدن وساكنها واستمرت محتفظة بهذا الطابع •

وعلى ذلك كانت الحضارة الهلينستية لا تعدو أن تكون مظهرا جــديدا فى تطور حضارة المدنية الاغريقية فحسب ، بل انه فى الممالك الهلينستية التى قامت فى آسيا الصغرى وفى سوريا ومصر وعلى ضفاف البحر الأسود لم تتأثر الجماهير المقيمة فى الريف بالحضارة الأغريقية مطلقا وانما حرصت على التمسك بعاداتها القديمة وسجاياها وعقائده الدينية الموروثة(١) •

يقول ديلاسى أوليرى : ان الثقافة اليونانية ام تنتقل الى العرب عن هذه الاتصالات الأولى(٢) •

يقول فيليب حتى : ولكن الواقع : هو أن الشرق الهلينى كان شيئا مصطنعا ، فديانة اليهودية : احتفظت بتقاليدها القديمة فى وسط هذا الشرق الهلينى :

---

(١) يراجع تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى ص ٢٣ جـ ١ •

(٢) علوم اليونان ص ٩٠ •

وبالاضافة الى ذلك فان السلوقيين تبنوا العبادات المحلية بأشكال هلينية وأظهر أكثرهم احتراما للالهة المحلية (١) ٠

ولكن هذا لا يعنى جعل الشرق هلينيا بقدر ما يعنى جعل العالم الهلينى شرقيا وأصبح أفراد الجاليات اليونانية بالتدريج : أكثر تأثرا بالحياة السامية من تأثر الوطنين بالحياة اليونانية ٠ ونجحت الحضارة فى سورية الأرامية ، وفلسطين اليهودية ، بأكثر من المحافظة على مكانتها بوجه عام ، فاعطت أكثر مما أخذت ٠

والذى حصل بنتيجة ادخال الهلينية : هو تمزيق البنيان الأساسى والفكرى الذى كان ساميا صرفا ، والسماح للتأثيرات الرومانية بالدخول فيما بعد (٢) ٠

---

(١) أصبح بعل يسمى : زفس واتيم فى معبد أبولـــون ذلك الاله اليـــونانى فى « وقته » وسط غابة من الشجر حيث تكثر المياه (بيت الماء) وأصبح مركزا للخلاعـــة فيما بعـــد ٠

(٢) تاريخ سوريه ولبنان وفلسطين جـ ١ ترجمة : جورج حـــداد وعبد الكريم رافق اشرف علي مراجعته د / جبريل جبور — دار الثقافة ببيروت ٠

الباب الثانى

الهلينية بين الرفض اليهودى والتسليم المسيحى

* اليهودية والهلينية .
* المسيحية والهلينية .
* المسيحية فى المنطقة العربية .
* حول علاقة الرسول بالمسيحية .
* مناقشة العرب للرسول فى مصدر القرآن .

اليهودية ومكافحتها للوثنية الهلينية

لقـد بدأ شتات اليهود Diaspora بعد تخريب أورشـليم ، على يد البابليين(*) عام ٥٨٨ ق٠م ولجأ كثير منهم الى مصر وافناء المنطقة العربية ٠
وعندما سمح قورش باعادة بناء أورشليم بعد هزيمته للبابليين ٥٣٨ فتحها لهم ، غير أن بعضهم فضل الاستقرار خارجا عنهـا ، ولا سيما بنى الاسكندر : مدينة الاسكندرية ، وهم على شتاتهم ظلوا يحافظون على دينهم وعلى قوانينهم حتى عهـد أنطيوخوس ابيفانيس ٤٧٥ ـ ١٦٤ ق٠م Antiochuo Episshanes حاول هذا الملك : أن يشربهم الثقـافة الهلينية ، وأن يدخل عبادة الآلهة اليونانية فى أورشليم ، أدى صنيعه من جانب اليهود الى قيام ثورة بزعامة المكابيين ولم يستطع أنطوخوس أن يقمعها ، وخلع وقتل فى سبيلها : الكاهن الأعظم أونياس الثالث وهرب أيضا : أونياس الخامس ابن الكاهن القتيل لينجـو من الرجس والفوضى اللتين اشـاعتهما سياسة انطيوخوس ٠

فاحسن بطليموس فيلوميتور (١٨١ ـ ١٤٦) وفادتهم وأعطاهم معبدا مصريا مهجورا فى « ليونتو بوليس »(١) حيث أقاموا هيكلا يدعى أونياس ربما نسبة الى أونياس الكاهن ، على صورة هيكل أورشليم ولعل الترجمة(١)

(*) وذلك على يد بختنصر البابلى فكان من اموره على بنى اسرائيل واثخانـه فيهم وهدمه لبيت المقدس واحراقه للتوراة وقتله لأولاد الأنبيـاء واسترقاقه لنسـاء ملوكهم ولذراريهم ــ يراجع و الروض الانف للسهيلى ص ١٨٩ ج ١ ٠

(١) ليونتو بوليس هى : نيتو على عهد الفراعنة ومحلهـا الآن (كفر تل مقدام) بالقرب من مركز ميت غمر من أعمال محافظـة الدقهلية وما زالت آثارة للان تشاهد ٠ قال الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل ج ١ ص ١٩٩ : السامرة (فرقة من اليهود) هؤلاء قـوم : يسكنون جبال المقدس وقرية من أعمال مصر ٠ وقال : ولغتهم غير لغـة اليهود ، وزعموا : أن التوراة كانت بلسانهم وهى قريبة من العبرانيين فنقلت الى السريانية « فقول : لعـل هى لينتوبوليس »٠

(١) كان يقرؤها يهود مصر أيام فيلون الاسكندرى واليهود الذين انشقوا على الربانيين ٠

اليونانية للعهد القديم وهى التى تعرف باسم السبعينية (١) قــد وضعت على مراحل متتالية من اجل هذا الهيكل المحلى ٠

امــا « كاليجولا » الذى نودى به امبراطورا فى ٣٨ ق٠م فقد زينت لــه أوهامه أنه فوق البشر فطالب رعاياه بتأليهه واقامة تماثيله فى مختلف المعابد ٠ ولعله قد تأثرف حداثته بفكرة تأليه الملوك الأحياء وهى فكرة كانت شائعة فى ممالك الشرق الهلينستى ولا سيما فى مصر ، ولكنها كانت غريبة على الرومان فلم تلق بينهم رواجا كبيرا ٠

رفض اليهود الامتثال لأمر الامبراطورية الخاص باقامة تماثيله فى جميع المعابد ، ولم يكن من المعقول أن يقبل اليهود تدنيس معابدهم بتماثيل البشر مهما جل قدرهم وهم يؤمنون باله واحد فاقتحم الاسكندريون معابدهم ونصبوا فيهــا تماثيل كاليجولا بالقــوة فلمــا قاومهم اليهــود اتهموهم بعدم الولاء للامبراطور ٠

وكان من البديهى ألا يسكت اليهود على ما أصابهم من هوان تجــاوز حد الاحتمال فى تلك الفتنة ٠

ففى شــتاء ٣٨/٣٩/٤٠ على الأرجح اوفد اليهود الى روما ســفارة من خمسة أعضاء على رأسهم «فيلون» وأوفد الاسكندريون سفارة مثلها على رأسها «أبيون» لكى يعرض كل من الفريقين قضيته على الامبراطور وشــاء حظ اليهود التعس أن يتلقى كاليجولا وقتئذ نبــأ تدمير الجالية اليهودية لمعبــد أقامه الاغريق فى بلدة بامنيا على ساحل فلسطين فتثور ثائرته ويبعث الى

---

(١) وفى مدرسة الاسكندرية التى كانت تتميز بميزات خاصة أتى أتصال الثقــافــة الشرقية والثقافة الغربية بالثمار فى اصدار الترجمة Septugint النسخة الاغريقية لأسفار العهد القديم ، وقد أطلقت عليهــا هذه التسمية لانه يظن أن سبعين مترجمــــا قاموا بوضعهــا فى القرنين الثالث والثانى ، أو ربما تنسب الى مجلس الشيوخ (gerousia البالغ عــدده واحــد وسبعين عضــوا لموافقته عليهــا وقد عرفت الكنيســة المسيحية « العهد القديم » عن طريق هذه التسمية على الأرض (تراث العالم ص ٢٢١ ج١) .

بترونيوس حاكم سوريا بصنع تمثال له وتنصيبه فى معبد اليهـــود الكبير باورشــليم ٠

وقد تضمنت مطالب اليهود ـ فيما يبدو ـ حرية العبادة وفقا للشريعة الموسوية وتحديد وضــع جاليتهم فى المدينة أو بالأخرى اكتســاب حقوق المواطنة السكندرية صدموا عندما ابتدرهم كاليجولا بأنهم قوم كفرة لا يؤمنون بألوهيته ٠

اجاب الوفد اليهودى بأنهم نحروا الثيران من أجل الامبراطور : مرة عند اعتلائه العرش ومرة أخرى بعد شفائه من مرضه ومرة ثالثة ابتهاجا بانتصاره فى حملته على الرين ٠ وعندئذ قال كاليجولا :

قد يكون صحيحا انكم قدمتم القرابين من أجلى ولكنكم قدمتموها لاله آخر فما فائدة ذلك انكم لم تقدموا القرابين لشخصى(١) ٠

ولم يفز اليهود منه بطائل اذ صرفهم قائلا : يبدو لى أن من تبلغ بهم الغباوة الى الحد الذى لايؤمنون معه بألوهيتى هم أجدر بالرثاء منهم بالعقاب ٠

وبعد أن خلفه بعد اغتياله كلوديوس تراءى ليهود مدينة الاسكندرية أن الفرصة قد حانت لتسوية حسابهم مع الاغريق فتقدموا بمطالبهم وهى حقوق المواطنة الكاملة بهــا ٠

غير أن مطلب اليهود يظهرهم بمظهر المتناقض ذلك أن المدينة اليونانية كانت مدينة وثنية تؤمن باكثر من اله واحد وكان الدين فيهــا مرتبطا بالحيــاة الاجتماعية والسياسية ارتباطا وثيقا فكان خليقا باليهود أن يناوا بانفسهم عن هذه الحياة أو أن يتنازلوا عن دعواهم بأنهم عبدة الاله الحق الأوحد ٠

لذلك يرجح كثير من الباحثين الآن أن اليهود كانوا منقسمين :

* فريق متزمت ٠

---

(١) مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ص ١٠٠ د ٠ عبد اللطيف أحمد على ـ دار النهضة العربية ١٩٧٤ م

* وفـريق متحلل بعض الشىء من قيـود الشريعة الموسـوية ومتاثر بأساليب الحياة اليونانية ٠

لعله كان هناك حزبان بين الاسكندرانيين ٠

* حزب المتهورين أو المتطرفين ٠

* وحزب المتزمتين أو المعتزلين ٠

وعندما أرسل اليهود بمطالبهم أرسلوا بعثتين احدأهما تمثل الطائفة المحافظة ولأخرى تمثل الطائفة المتحررة التى تأثرت بالثقافة وأساليب الحياة اليونانية ٠

وظلت هذه الاشتباكات بين اليهرد والاغريق من ناحية وبين الرومان واليهود من ناحية أخرى ، الى أن قامت ثورة اليهود الكبرى وهى اكبر ثورة نشبت بين اليهود فى مصر منذ الفتح الرومانى فى آخر عهد مكسيموس ٠

أخذت علاقة اليهود والرومان فى التدهور السريع بعد ثورتهم فى فلسطين سـنة ٦٦ وتدمير معبدهم الرئيسى بأورشليم سـنة ٧٠ وقد زادها سـوءا ذلك القرار الذى أصدره فسبسيان بارغام اليهود على دفع ضريبة الدينارين لمعبد الاله جوبيتر فى روما بدلا من دفعها لمعبد لمعبد أورشليم وقراره الآخر بتدمير معبد أونياس فى لينتو بوليس بمصر وهو (تل مقدام) الذى ارتابت فيه الحكومة فى أنه مركزا لنشاط الحركة اليهودية الأخيرة ٠ وصادرت أملاكه وهو معبـد كان قد شـيد حوالى ١٦٠ ق٠م لمنافسة معبد فلسطين ٠ لذلك قام اليهود وتعمدوا بالذات بهدم معابد وتماثيل الآلهة اليونانية : أبوللون ، وزيوس ، وهكاتى ، وغيرها من المعابد كمعبد ايزيس والمعبـد القيصرى ودمروا حمامات المدينة وأروقتها المسقوفة وأنديتها وملاعبها وعاثوا فى الحقول فسادا حتى أصبحت جدباء قاحلة وامتد لهيب الثورة الى قبرص حتى ان مواطنيها أصدروا فيما بعد قرارا يحرم على اليهود أن تطأ أقدامهم أرض الجزيرة ، وتنتهى بوقوف الامبراطور هدريان فى صف اليهود بعد ثورتهم الأخيرة ويقضى بمعاقبة زعماء الاغريق ٠

وكانت ثورة المكابيين على صنيع أنطيوخوس تعني :

* عدم احلال الوثنية محل الدين اليهودى واقامتها مكانه فى معبد

أورشليم • هذه الوثنية آراد أنطيوخوس من تطبيقها اخضاع الشرق له سياسيا ودينيا • وصف اليهود صنيعة هذا « بالرجس المخرب »(١) •

* عدم سيطرة الهلينية من حيث اللغة والثقافة على لغتهم وثقافتهم ؛

* قيام حركة يهودية قوية تدعو الى رعاية تقاليدهم العبرية واستعمال لغتهم ضـد سيطرة الهلينية وثقافتها •

* تضمين دعوتهم بانهم خير الأجناس وعليهم الانفصال عن «الشعوب» غير اليهودية وما فيها وحولها من تطرف •

* لازم قيام هذا التطرف : قيام حركة اليهود الربانيين ، ويبدو : انهـا كانت ذات قدرة ، لأنها تحملت من جانبها عبء دعوة تطبيق الشريعة اليهودية على جاليات اليهود فى أى مكان ، من مراعاة طقوس وسائر السنن الشرعية الى الختان ، وفرضت ذلك فرضا لازما •

ثم أصدرت عدة فتاوى تتسم بالجراة وتخدم الروح الوطنية والدينية معـا منها :

* تحريم قراءة الأسفار المقدسة فى البيعة اليونانية •

* تحريم قيام أى صلات ودية مع الوثنيين أو غيرهم المختونين •

أصبحت الشريعة الموسوية أكثر صرامة ، وازدهارا بفضـل شروح الربانيين •

بهذه الروح القومية والدينية استطاعت اليهودية أن تعمل • وهى فى شتاتها مبعثرة : على احياء دينهـا ، ولغتها وثقافتها ، وترابط جنسها ، وهذا من الأمثلة النادرة فى التاريخ الانسانى •

---

(١) سفر اعمال الرسل •

وبلغ من موقفهم أن أصبحت الأسفار التى أثر فيهـا الفكر اليونانى تعتبر لدى اليهود محذوفة لأنها فى نظرهم تحمل طابعا رواقيـا(١) ٠

ثم أخيرا كانت الأسفار المقدسة التى تنسب اليهم وهى : ـ أى أسفارهم التى تنسب اليهم ـ أربعـة :

الأول : وهو أهمها من الناحية التاريخية : يروى الأحداث التى جرت فى اقليم يهوذا Judee منذ حكم انطيوخوس الرابع حتى موت سيمون (١٧٥ الى ١٣٥ ق٠م) ٠

الثـانى: يتناول قسما من الفترة عينها بصورة موجزة ٠

الثالث : يروى أحداثا عجيبة خاصة بالملك بطليموس الرابع فيلوباتر ، ويعنى خصوصا ببيان كيف أن العناية قد انقذت يهود الاسكندرية من بين أيدى ذلك الحاكم ٠

الرابع : هو بحث فلسفى ينسب الى المؤرخ يوسفوس وفيه يجرى الحديث عن الشهداء الشباب الذين يطلق عليهم خطأ اسم المكابيين السبعة الذين حكم انطيوخـوس ابيفانوس باعدامهـم لأنهـم رفضـوا الاكل من لحـوم ذبحت للأصنام(٢) ٠

وهذه الحركة الاصلاحية التى قامت ضد الهلينية ووثنيتها ، كان من آثارها عند اليهود : أن خلقت لديهم ميلا طبيعيا الى العزلة القومية منعت بهـا السيطرة القومية اليونانية ، ومما لا يمكن انكاره : أن سياسة العزلة

---

(١) نلاحظ عندما نقرأ ما كتبه الشهر ستانى عن اليهودية أو فرقها : عدم وجـود مسحة من التراث الفلسفى اليونانى على اليهودية ، وينسب الشهر ستانى : تحيرهم وتفرقهم: الى دعوة موسى عليهم ، كذلك لا نجد من قريب ولا من بعيد قضية من قضايا الفلسفة ٠ انما الذى لاحظناه : أن الاختلاف يدور حول الاخذ بالنص أو التأويـل ووراء ذلك كله حبهم لعزلتهم القومية ٠

(٢) الشرق والتراث اليونانى هامش ص ٣٢ ترجمة د ٠ عبد الرحمن بدوى ٠

المصطنعة قوت الاخلاص الدينى وأوجدت ســموا خلقيا يناقض الانحلال السائد فى العادات الاغريقية الرومانية ، والاغريقية الشرقية ، وكلها أبعدت الأمم عن أى نصيب فى الميراث الروحى • هذا من جانب ، ومن جانب آخر : أن سياسة العزلة جعلتهم يرون :

ان الالتزام بتبشير الأميين بعقيدة موسى لا يعتبره مبـدأ من مبادىء ناموسهم كما أنهم لم يميلوا الى فرضه على أنفسهم باعتباره واجبا يتطوعون لأدائه •

واليهودية بعزوفها عن التبشير لتتفق تماما مع تعاليمها التى تقضى بأنهـا دين للعبرانيين فقط ، غير أنهـا : راحت تبشر بنوع غريب كالسحر ، وعلم التنجيم ، وكان لديهم كتبهم الخاصة فى السحر ، وتعاويذه ورقاه(١) .

هذا الموقف الصارم ، أو التطرف اليهودى ، أفسح مكانا لوجهة نظر نقدية عامة معاصرة ، تصف الدعـوة بالتطرف حـين قيامها تقول : (٢) أن الثقافة اليهودية لا تعـدو أن تكون منقولة عن الغير وأنهم لا يشاطرون من حولهم أى شعور بالأخوة البشرية ، بل ينطوون على أنفسهم ، وأنهم فى الحقيقة : ملحـــدون ؟ لأنهم يقولون : بأن لا وجود فى الحقيقة لأى اله الا « يهوه » ، وهى تهمة كانوا هم أنفسهم السبب فى اثارتها ، باصرارهم على أن ما تعبده الشعوب الأخـــرى هو الصـــورة والتمثـــال الفعلى ، وليس (كما هو الواقع) الله الذى لم يكن التمثال الا رمزا له(٣) •

على أى حال كافحت اليهودية كثيرا ضد وجهة نظر « أنطيوخوس »

---

(١) يراجع علوم اليونان ص ٥٨ •

(٢) الحضارة الهلينية ص ٢٤٨ •

(٣) كانت العقيدة اليهودية فى القرن الاول ، ذات وضع عجيب : فهى من ناحيـة ونظام يرفض تقبل الافكار الاغريقية ، فى حين أنه يفتح الباب على مصراعيه لتقبـل مؤثرات الشرق ــ كعلم التنجيم ، وعلم مس الشياطين ، والسحر ، ذلك أنها كانت تامل أن تحصل بفضل هــذه الأمور على خدام يخدمن روحها : الحضارة الهلينية ص ٢٤٩ •

غير أنها وقعت ـ وهى اذ تحاول الاحتفاظ بمفهوم المقدس الحقيقى ـ تحت تأثيرات تصوراتها الذاتية عن سمو جنسها : فضيقت معناه تضييقا جنسيا •

اليهودية وانتشارها فى بعض القبائل العربية :

ان اليهود يرغبون عن الدعوة الى دينهم ، على أساس : أن اليهودية للعبرانيين أولاد يهوذا بن يعقوب جنسا ، وأتباع موسى دينـا ، وليست دينـا لغيرهم من الأجناس ، وأن الههم وهو : « يهوه » ، هو الاله الحقيقى ، وغيره من الآلهة انما هو مثل له ، وأن كل نداءات التوراة خاصة « بيهود » فهى ليست دينـا تبشيريا ، لذلك لم يتم الأحبار بالدعوة اليهـا ، وجانب آخر : هو أن عـدم استقرارهم السياسى : سـاعدهم على عدم التبشـير ، وزادهم تمسكا بدينهم •

من هنـا : كانت الديانة اليهودية ، التى دخلت فى بلاد العرب ، لم تكن للتبشير ، انما كانت عندما انتقلت جماعات اليهود الذين فروا من اضطهاد الرومان فى القرن الأول قبيل الميلاد لمجرد الهجرة « ولا شك انه كانت هناك أسباب دعت اليهود الى ترك أوطانهم والنزوح منها الى البلاد العربية وأهم هذه الأسباب :

١ ـ زيادة عدد اليهود فى فلسطين زيادة مطردة ، فقـد قيل : انهم بلغوا أربعة ملايين(١) •

٢ ـ اضطهاد الرومان لليهود فى القرن الأول قبل الميلاد ، ولجوئهم الى أرض الجزيرة العربية ، التى كانت أحب اليهم من غيرها : لأنظمتهـا البدوية الحرة ، ونظرا : لوجودها فى اقاليم رملية بعيدة ، تعوق سـير القوات الرومانية المنظمة وتمنع توغلها(٢) •

---

(١) تاريخ الاسلام العام ص ١٦٣ دكتور على ابراهيم حسن .

(٢) جـ ١ ص ٢٤ .

٣ ـ بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠ م التى انتهت بخراب بلاد فلسطين ودمار هيكل بيت المقدس وتشتت اليهود فى أصقاع العالم قصدت جموع كثيرة اخرى من اليهود بلاد العرب (١) ٠

فاليهودية وجدت فى بلاد العرب نتيجة اضطهاد اليهود وترتب على ذلك أن العرب المجاورين لتلك الأقوام تهودوا دينا أو ثقافة تبعا لمجاورتهم تلك الجماعات اليهودية ٠ وكان أصل اليهود باليمن ـ كما يذهب كتاب السيرة ـ يرجع الى الحبرين الذين رافقا تبعا فى رحلته الى اليمن وهدما البيت المسمى برئام ٠ ومعنى هذا الرأى : أنه يذهب الى ان اليهودية دخلت وفق دعوة تبشيرية ، ولا مانع لدينا أن تكون اليهودية فى عصرها الأول كان لها دعوة تبشيرية أو أنها أرادت أن ترد على الاضطهاد الوثنى لها فبشرت لتهدم البيت الوثنى المسمى « رئام » وهذا كله ان صحت الرواية ٠

يقول السهيلى صاحب الروض الأنف : غير أنه وجد فى الاوس والخزرج من قد تهود وكان من نسائهم من تنذر اذا ولدت أو عاش ولدها أن تهوده لان اليهود عندهم كانوا أهل علم وكتاب ٠

ورأى يرى أن يهودية اليمن ترجع الى أجدادهم الذين ظعنوا الى ذلك القطر منذ عهد سليمان ٠

ومع ذلك لم تستطع اليهودية أن تتغلب على الوثنية فى بلاد العرب لان كثيرا من أحكامها مبنى على المشقة فضلا عن الرفض اليهودى للاندماج الاممى ، ثم اخيرا انصراف العرب عن تحصيل مواردهم الثقافية وعدم ميلهم الى مثل هذا التغيير ٠

يقول اسرائيل ولفنسون :

وهناك شهادات من يهود مدينة دمشق وحلب فى القرن الثالث : بهم أنهم كانوا يستنكرون وجود يهود فى الجزيرة العربية ٠ ويقولون : ان اليهود فى جهات خيبر ليسوا يهودا حقا اذ لم يحافظوا على الديانة

---

(١) تاريخ الاسلام العام ٠

الالهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعا تاما » .

ويقول : كان العالم شير يعتقدان ان اليهود فى بلاد العرب كانت لهـا صبغة خاصة وكانت يهودية فى أساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودى ويقول معلقا : وبقيت هذه البطون العربية على أديان آبائها القديمة ولم تعتنق اليهودية فعدت من موالى اليهود واذا وقفنا الى أن نميز بين يهود الحجاز والعرب من وجه الدين والعقلية فانه المتعذر أن نوفق الى التمييز بين العنصرين من وجه الأخلاق والعادات والنظم والتقاليد الاجتماعية لأن اليهود الذين سكنوا فى بلاد العرب لم يلبثوا أن تخلقوا بأخلاق العرب وتمسكوا بعاداتهم واتبعوا سبيلهم فى النظم والتقاليد الاجتماعية حتى أصبحوا كأن لم يكونوا من جنس آخر غير الجنس العربى .. ويقول ولا أعلم فى تاريخ اليهود القديم اقليما تأثر فيه اليهود بأخلاق وعادات وتقاليد أبنائه الى هذا الحد سوى اقليم الجزيرة العربية (١) .

اليهـودية فى نظر القرآن :

يقول أحمد سوسه : وقد اقتبس هؤلاء قبيل السبى لهجتهم العربية المقتبسة من الآرامية ، وبهـا دونوا التوراة التى بين أيدينا فى الأسر فى بابل أى بعد زمن موسى بثمانمائة عـام لذلك صارت تعرف هذه اللهجة « بأرامية التوراة » وهذه بلا شـك غير الشريعة التى أنزلت على موسى . ويمكن أن نطلق عليها اسم « توراة اليهـود » لتمييزها عن « توراة موسى » .

وهـؤلاء هم اليهود الذين سماهم القرآن كفارا لكذبهم على موسى وتحريفهم التوراة فيقول فيهم : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصـوا وكانوا يعتدون» « آل عمران : ١١٢ » (٢) .

---

(١) تاريخ اليهودية في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ص ١٣ لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤ .

(٢) فتحى رضوان . اليهودية وبنى اسرائيل الاهرام ١٩٧٢/١٠/١٧ وكتاب العرب واليهود فى التاريخ .

وهكذا فرق القرآن الكريم : بين بنى اسرائيل ، ذرية ابراهيم من جهـة وبين اليهود المتأخرين ، من جهة أخرى ، وذلك باستعمال اسمين لهما : فأطلق اسم بنى اسرائيل : فى مواضع الرضا ، وسموا باليهود : فى حالات السخط عليهم ٠

ومن صور المنهج الرفيع فى القرآن ، استعمال اسمين عند التحدث عن العبرانيين : فهم تارة « اليهـود » ، وتارة أخرى « بنو اسرائيـل » ٠ وتقوم عبارة (الذين هادوا) فى بعض المواضع مقام لفظ « اليهـود » ٠ والقرآن الكريم حينما يستعمل الاسمين لا يفعل لأنهما مترادفان ــ كما يقول مثلا المسيح ، وعيسى بن مريم ــ بل يطلق عليهم : الهيود ، والذين « هادوا » فى موضع السخط أو التنديد بسىء أعمالهم ، أو عند حكاية ما أصابهم من الذلة والعبودية لفساد طويتهم وسوء نيتهم ٠

أما اذا جاءت مواضع فى القرآن الكريم تذكر بفضل الله على هؤلاء القوم ذاتهم أو أصطفاء الله لهم واسناد الرسالة الى رجال منهم واسـباغ الحكمة والنبوءة عليهم ٠٠ الخ ٠

واستعمال هذين الاسمين مقصود ، لم يأت عفوا ، فاسرائيل : هـو يعقوب ، ويعقوب نبى من أنبياء الله ، ورث عن ابيه اسحاق وعن جده ابراهيم رسالة الدين الحنيف ٠

ومن هنـا لا يتحدث القرآن عن أولاد يعقوب اى بنى اسرائيل الا بالخير والرضا فاذا صدر منهم ما يغضب ، فالقرآن يسميهم اليهـود ٠

أما الشىء الذى لم يرد فى القرآن : فهو مصطلح (عبرى وعبرانى) لم يرد فى القرآن مطلقا ، وهذا يدل فى نظرنا : على أن العبرى أو العبرانى ليس خاصا باليهود كجنس ٠

المسيحية الهلينية

مما لا شك فيه : أن نشأة الكنيسة المسيحية ترجع الى الكنيس اليهود (*) وأن كتابهما واحد ، وهو بعهديه : العهد القديم لليهودية ، والعهد الجديد للمسيحية ـ وهما معـا يسميان : الكتاب المقدس ، غير أن نظـام الكنيسة المسـيحية من حيث الأسس فى واقعها : تابعت فى نظـام الامبراطورية الرومانية ، وتخلت عن لغتها الأصلية الى اللغة اليونـانية وبذلك اصبحت الكنيسة (الجامعة) الكاثوليكية : ينظمها أساقفة يونـانيون •

وبهذا ساهمت الكنيسة بآبائها اليونـانيين : فى نشر الثقـافة اليونـانية من جانب ، واسباغ ثوب الثقافة اليونـانية على المسيحية من جانب آخر ، وبلغ منهـا : أن باتت تفضل قراءة العهد القديم فى ترجمته اليونـانية •

ثم بدات جهود فردية : تعكف على التوفيق ، بين العقيدة المسيحية والفلسفة اليونـانية ، وظنوا انه بتضافرها مع الفلسفة : يعطيها قوة ، ولكن خيب ظنهم انشقاقها العقيدى الذى ظهر فيما بعـــد •

وظهر الأثر الفلسفى على القـديس بولس ـ وهو رائد التوفيــق بين المسيحية ، وبين التراث الفكرى عند الشعوب الداخلة فيها فى رسائله التى وفق فيها بين المسيحية ، والفلسفة اليونـانية ، وظهر جليا : عندما نشبت الخصومات داخل الكنيسة : صيغت هذه الخصومات فى مصطلحات فلسفيـة يونـانية ،ودارت معاركها وفقا للأصول الفلسفية .

وقد استخدم القديس بولس ـ وهو من أهل طرسوس أحد مراكز الرواقية المختارة ـ : لغة تلك المدرسة : للتعبير عن المجتمع الروحى الذى ينتظم كل

(*)لقد احتفظت المسيحية عندما امتزجت بالهلينية : بمدونة القوانين الخلقية العالية، التى ورثتها عن الدين العبرى ، ثم أن تاريخ نظام الكهنة ونظام القساوسة المسيحيين : اثرت عليه المدونة الكهنية اليهودية ، وتصور العبريين لوظيفة الكاهن غير أن النظـام الكهنوتى المسيحى يختلف عن النظام العبرى . فى أنه ليس وراثيا ويغلب عليه الفردية .
ج ١ ص ٨٩ تراث العالم القديم •

المسيحين أعضاء ٠ وتتردد باستمرار فى رسائلة : فكرة رعوية سماوية ، وفى عظته فى أثينا : اقتبس من أنشودة افلينشى الرواقى لذيوس ، وأعلن فى الفاظ تردد صدى العقائد الأساسية فى المذهب الرواقى : أن الله لا يسكن هياكل مصنوعة بالأيدى ، وانه « صنع من دم واحد : جميع أمم الناس ليسكنوا كل وجه الأرض »(١) ٠

وهكذا منذ البدء : أتيح للكنيسة المسيحية : أن تكون مبشرة بالثقافة العقلية اليونانية ، وبالعقيدة الانجيلية معا ٠

ورأينا وجهة نظر يهودية معاصرة تقول : ان دخول المسيحية فى الهلينية: انحراف منها الى اليسار ، وأنهم يدفعون بأنفسهم فى استهانة متزايدة نحو التراخى ، ويدفعون من جانبهم : الحركة الهلينية فى اطراد الى الأمام ٠

وبسبب هـذه الانتقادات اليهودية : وقعت خصومة (٢) ٠ بين اليهود والمسيحيين ٠

وكان فى هذه الخصومة ما يفيد : أن المسيحية هى وريثة الهلينية ، وذلك عندما سايرت الى حد كبير تيار الفكر الهلينى فى الشرق ٠

وفى النهاية نقول : لقد حققت المسيحية توسعا دينيا ، فأصبحت الدولة الرومانية مسيحية بعد وثنيتها اليونانية ، وأصبح من المعالم البارزة التى طبعها الشرق على الغرب : أن دان الغرب بدين شرقى ، غير أن الغرب أخذها بعد أن طبعها اليونان بطابعه الفلسفى ، مما جعلها فيما بعد ، ابان عصور النهضة الأوروبية : محل انتقاد من بعض ، ورفض وانكار من البعض الآخر ٠

---

(١) (الاعمال ١٧ ، ٢٨) هـو « لاننا ايضا ذريته » يراجع ترات العالم القديم ج ١ ص ٢٣٨ ٠

(٢) قد سجلت الخصومة بين هاتين الطائفتين فى (اعمال الرسل الحواريين) .

وأشار القرآن الى نتائج هذه الخصومة بينهما قال : « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب . كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فا لله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » البقرة : ١١٣ ٠

وفى هذا ما يميز الاسلام عنهما : فهو قد انتشر بلغته ، وكتابه ، وشمل امما ، وشعوبا ، فضلوا لغته على لغتهم • كذلك يتميز : بأنه دين دعوة منذ أن نشأ ، وفى حياة الرسول نفسه : أرسلت سفراء ، وكتب لنشر الدعوة الاسلامية • وكان له من القوة التى كفلت له حمل السيف ، على من نافره العداء ، أو فى سبيل تأمين دعوته ، اذا تعرضت لمناورات الخصوم المعارضين•

وكان من أكبر الأثر الفلسفى على المسيحية : أن صرفت النصارى عن التوحيد دين المسيح ، الى عبادة الصليب وفى هذا التحول : تغير مفهوم المقدس الحقيقى لديها ، لأن الصلب والصليب لم يكن تشريعا منه ، على اى حال لقد توسعت فى مفهوم المقدس : حين أدخلت قضايا فلسفية الى صميم دينها بل الى صميم عقيدتها •

يقول جيبون :

وخلط الغنوصيون ، بالايمان بالمسيح : كثيرا من العقائد ، والمذاهب الغامضة ، تلك التى اشتقوها من الفلسفة الشرقية ، بل حتى من ديانة زرادشت التى تتعلق بخلود المادة ووجود عنصرين والتسلل الغامض للعالم غير المرئى •

واستطاع هؤلاء الهراطقة الغنوصيون أن يخرجوا بدلا من الأناجيل الأربعة التى قررتها الكنيسة بمجموعة كبيرة من التواريخ ، التى تلتئم فيها مناقشات المسيح ، وحوارييه ، وأعمالهم ، مع أفكار كل شيعة بعينها •

المسيحية فى المنطقة العربية :

كيف دخلت المسيحية مكة والجزيرة العربية :

كانت هناك روافد حملت المسيحية الى الجزيرة العربية بل ومكة ذاتها هى :

١ ـ الاضطهاد الذى وقع على المسيحية منذ المسيح ذاته جعل أتباعها يبحثون عن اماكن فى كهوف الجبال وبطون الصحراء ليتواروا عن أعين الرقباء من الرومان •

٢ ـ رحلات قريش التجارية ونظرية تقسيم الناس الى أحرار وعبيد ساهمت بدورها فى ادخال المسيحية فى مكة ٠

٣ ـ دخلت المسيحية الجزيرة العربية دخولا رسميا على يد « الحارث الغسانى » ٠

٤ ـ دخلت المسيحية قلب مكة مع الغزو الحبشى لها ٠

٥ ـ ظهور جماعة يدعون بالحنفاء يرمون من وراء تحنفهم الى سحب الثقة الدينية من الأوثان ، ثم طلبوا أديانا شتى فبعضهم طلب الحنفية وبعضهم طلب الأوثان وبعضهم طلب المسيحية ٠

واذا كانت المسيحية قد دخلت مكة فالى أى حد انتشرت ؟

بقيت المسيحية رهينة لغتها السريانية أو الرومانية فلم تنتشر انتشارا ملحوظا لا من قريب ولا من بعيد ، وكل الذين اعتنقوها من العرب هم الذين كانوا على صلة باللسان الأعجمى ٠

فلم ينتشر كتابها المقدس لأنه لم يترجم الى اللغة العربية ٠ كذلك شعائر صلاتها (القداس) لم تترجم ٠

ليس معنى وجود المسيحية وانتشارها بين العرب تعلم الرسول منها وأنها كانت مصدره فى تأليفه للقرآن لأن الرسول ادعى النبوة وجعل الوحى مصدره فيما قال وفيما فعل ، وقامت شواهد الواقع والتاريخ على صدق دعوته ثم كان القرآن من أكبر شواهد الأدلة بيننا عليه ٠

وأما ما بينهما من عناصر متشابهة ومثلها اليهودية فان القرآن نفسه حسم ذلك حين قال ان ما نزل على محمد ليس بدعا عما نزل على غيره من الرسل « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » (١) والآية ٠٠٠ ويصبح كل بحث يحاول أن يبرز عناصر التشابه بين ما نزل من وحى السماء فهو من غير أن يدرى يدور فى فلك الآية السابقة حين أكدت وحدة وحى السماء وفى نفس الوقت يؤكد دعوى نبوة الرسول وصدق ما قاله ودفع لنوازع النفوس البشرية حين تريد أن تخلق من المتجانسات تنافرا ٠

---

(١) سورة الشورى الآية ١٣ ٠

الشقاقات المسيحية

أولا : النساطرة :

ترجع نزعة التبشير فى المسيحية : الى الاضطهاد الذى تعرضت له من الدولة الرومانية ، لأننا نلاحظ : أن هذه النزعة تظهر للمرة الأولى بعد استشهاد القديس اسطفانوس ، وما تلاه من اضطهاد ولم يكن الاضطهاد هو السبب الوحيد فى انتشار المسيحية ، ولكنه كان سببا من أسباب انتشارها ولعله كان من أهم الأسباب :

نتيجة هذا الاضطهاد لجا على أثرها بعض المسيحيين الى بلاد ما بين النهرين خارج نطاق الامبراطورية الرومانيية ، واستطاعوا : أن ينشئوا كنيسة ما بين النهرين ، وخصوصا فيما حول الرها ، وفى هذه الكنيسة ظهرت المسيحية : بآدابها وبلغتها السريانية ، والترجمة للكتاب المقدس الى السريانية كانت عن النص العبرى ، وليست عن النص اليونانى ٠

واصبحت الرها بتمايزها السريانى : كنيسة ، ومدرسة ، مركزا مشعا وطيد الأركان ، ذات شهرة واسعة : بين سكان ما بين النهرين ، وفارس وممن يتكلمون السريانية ٠ وباعتبارها مركز كنيسة الشعوب المتكلمة بالسريانية : فانها مثلت الجانب السريانى من الحياة العقلية ، وضارعت به الاسكندرية ٠ وانتشرت اللغة السريانية : تدريسا وتعليقا ، فى الرها ، ونصيبين ، وحران ٠

ومن هنا ظهر تمايز بين كنيستين فى الشرق من حيث الوسائل التعليمية :

ــ كنيسة الاسكندرية : وهى يونانية ذات شكل مسيحى ٠

ــ كنيسة سريانية : مسيحية فى تقاليدها (١) ٠

أدى هذا التمايز فى الأسلوب الى حساسية مفرطة ، وأخذت تزداد بفضل النعرة العنصرية ، بين السريان ، والهلينيين : ثقافة أو جنسا ، أدى الى تأليب الاسكندرية (الكنيسة الجامعة) : السياسة الامبراطورية على الكنيسة السريانية ، ورأت الامبراطورية ــ من وجهتها السياسية ــ بأن فى

---

(١) راجع : ما كتبناه عن انطاكية فى هذا الكتاب ٠

هذا تمردا على السلطان : سلطانها السياسى من جهة ، وعلى الكنيسة الجامعة من جهة اخرى ، فمن هنا : راحت تقضى بعنف على تلك الكنائس المحلية، ذات الصبغة القومية ، أو المنزع الاستقلالى : لغـة ودينا • هذا من حيث الموقف السياسى •

وأما من الناحية الدينية : وهو الذى يكمن وراء هذا الاختلاف بين انطاكية والاسكندرية وما بينهما من منافسة وميول متعارضة فان الكنيسة السريانية كانت تنزع الى تناول اللاهوت بما يمكن أن نسميه تناولا عقليا ــ مشوبا بحذر ــ بقدر ما يحتاج اليه النص المقدس : من حيث الفهم ، أو التأويل •

وأما الاسكندرية : فكانت تميل الى تناوله تناولا فلسفيا ، يوافق القواعد اليونانية ، أو تناولا رمزيا ، وفق رمزية الهند ، وفارس ، وتعدى الخلاف الشكلى : الى انقسام حقيقى فى العقيدة •

فاصبحت الكنيسة السريانية : تذهب الى انكار امكان اطلاق لقب والدة الاله على العذراء مريم ، ذاهبة الى أنها لم تكن الا أما لعيسى ، باعتباره بشرا آدميا • وطرد فى سبيل ذلك نسطورس ، بقرار من مجمـع أفسوس سنة ٤٣١ بزعامة كرلس ، بطريرك الاسـكندرية ، ولكن السريان لم يقبلوا هذا القرار ، ورفضوا معه قرارات المجمع ، وانفصلوا ، وعرفوا باسم النساطرة ، وانبرت الرها تعضد نستوريوس(١) بوجه عام • واقترن النساطرة بالرها والمنطقة العربية عموما •

ومنذ أن أصبح المذهب النسطورى مضطهدا ، ونحن نلاحظ سرعة فى انتشاره ، واشرافا ، وتوجيها ، وسيطرة على الكنائس ، والمدارس فى المنطقة العربية • وانتشر نشاط النساطرة بين العرب فى الجنوب الغربى ، ثم اتجه نحو الشرق عبر آسيا الوسطى ، الى أن بلغ الشرق الأقصى •

---

(١) رجع نسطوريوس الى الدير الذى جاء منه بالقرب من انطاكية ثم نفى الى البتراء في بلاد العرب وتوفي بعـد عام ٤٣٩ بقليل •

ولعل معلومات الشهرستانى عن نسطورا غير دقيقة فيقول : النسطورية اصحاب نسطور الحكيم ، الذى ظهر زمان المأمون وتصرف فى الاناجيل بحكم راية •

من المدن العربية الكبرى التى تنصرت : الحيرة ، وذلك حوالى نهـاية القرن السادس ، وذلك حين تنصر النعمان ملك الحيرة وتبع هذا تحول كثير من الأعراب الى المسيحية ، وهم من قبيلة اللخميين يؤلفون الاستقراطية الحاكمة فى الحيرة ٠

يقول ابن هشام : وبنجران بقايا من أهل دين عيسى على الانجيل ، أهل فضل واستقامة من أهل دينهم لهم رأس يقال له : عبد الله بن تامر ٠

يقول :ديلاسى أوليرى : ويبدو أن هؤلاء الذين اعتنقوا المسيحية قد أخذوا المذهب النسطورى ، وارتضوا : أن يقوم بخدمة القداس رجال الدين النساطرة ، الذين يتكلمون السريانية ٠

ورغم هذا كله نشلت المسيحية فى أن تمد جذورها بين العرب فلم يتاثر وسط الجزيرة العربية بالمسيحية ٠ وخلاصة القول كما يقول دوزى : لم تستطع المسيحية بما فيها من تقاليد وعقيدة التثليث وعقيدة صلب المسيح أن تجذب انتباه العرب او أفكارهم (١) ٠

ومن وجهة النظر العامة : عجزت المسيحية أن تنتشر فى الشرق مثـل انتشارها فى الغرب ٠ وذلك لنفس السبب الذى يقوله « رينان » لأنها الوارثة

بلا واسطة آثار الآرميين من مدرسة الاسكندرية ٠

ثانيا ـ أصحاب الطبيعة الواحدة :

يرجع نشر عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة فى المنطقة العربية الى يعقوب البرادعى ٠ ولم يذهب اليها مضطهدا ، شأن نسطورس ، انما جاء به الى المنطقة العربية ، الحارث بن جبلة ملك قبيلة غسان العربية ، وكان قد قدم فى ٥٤٣ ق٠م الى بلاط ثيـودورا وكانت الحكومة البيزنطية تمـده بالمال لقاء حمايتها للحدود السورية وكانت تسبغ عليه لقب ملك بصفة رسمية

---

(١) حضارة الاسلام : ص ٢٨ صلاح الدين خودابخش ترجمة د ٠ / على حسنى الخربوطلى ٠

وحدث فى هذه الزيارة أن طلب الاذن لبعض الأساقفة فأجيب الى طلبه ٠
فأعطى لبصرى : يعقوب البرادعى ٠

وللرها : ثيودور

واصبح أصحاب الطبيعة الواحدة مجتهدين ، وموفقين فى نشاطهم التبشيرى ، وكانوا يجوبون الصحارى فى حمى قبيلة غسان العربية ٠

قال النابغة الذبيانى فى وصف آل غسان :

محلتهم ذات الاله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب
رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب (١)

يقول فيليت حتى :

« وفى أيام البعثة المحمدية : كان معظم هذه القبائل من المسيحيين ، وكانت الأديرة ، والصوامع ، منتشرة فى الوادى كله ، وقد كان رهبان النساطرة : ينتشرون من هذا المركز العام ، فيجوبون خلال بلاد العرب كلها ، ويزورون الاسواق الكبرى ، ويعظون من يصيخون اليهم السمع ، وقد جاء فى السيرة : أن النبى قد ذهب الى سوريا فى شبابه ، والتقى بالقرب من بصرى ، براهب يدعى نسطورا ٠

ثمم يقول فيليب حتى :

وأصبحت بصرى التى بنيت كاتدرائيتها فى عام ٥١٢ العاصمة الدينية فى المنطقة كما اشتهرت كمركز تجارى ، وتقول المرويات الاسلامية : أن النبى محمدا مر بها هو وقافلته ٠

ويضيف « حتى » قائلا :

وهناك اطلع على كثير مما عرفه عن المسيحية ٠

---

(١) محلتهم : مسكنهم ـ دات الاله : بيت المقدس .

ويروى مجلتهم : قال القتيبى : تقديره كتابهم كتاب الله وكانوا نسارى وكتابهم الانجيل. يوم السباسب . يوم الشعانين الاحد السابق لاحد الفصح عند النصارى .

ديوان النابغة الذبيانى ص ١٢ دار صادر .

ويقول حتى :

وقبل أن يزول الغساسنة نقلوا بعض الأفكار المسيحية التى كانت لها تاثير مع بعض أفكار أخرى على الاسلام ٠

وهكذا زودت الحضارة السورية الاسلام ، ببعض العناصر المبدعة ، كما فعلت بالنسبة لليهودية والنصرانية من قبل (١) ٠

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز :

وسوف لا نعول كثيرا على قصة بحيرا الراهب الواردة فى الأثر والتى تذكر أن محمدا قابله وهو فى الثانية عشرة من عمره عندما صاحب عمه أبا طالب فى سفره الى سوريا ٠ فالصواب يمنعنا من الأخذ بهذه المقابلة العارضة واعتبارها مصدرا لتعليم محمد ، لأن الحادثة : اما أنها أسطورية ، أو انه يتعين علينا أخذ كل الوقائع التى تذكرها فى الحسبان ، وحينئذ : نجد أن القصة تذكر أن هذه المقابلة كانت فى حضور جميع أفراد القافلة ، وأن محمدا كان فى دوره « مسئولا » لا مستمعا ، وبانتهاء الاستجواب : خلص الراهب الى نبوءة مضمونها توقع بعثة هذا الشاب رسولا فى المستقبل٠ ان الفكرة اذن تفند نفسها (٢) ٠

ونحب أن نعرض للرواية التاريخية التى ذكرت مقابلة الرسول لبحيرا الراهب ، والرواية التى ذكرت مقابلة ثانية فى مرحلة أخرى من العمر لنسطورا الراهب ٠ أولا رواية بحيرا :

قال ابن اسحاق : التقى بحيرا برسول الله وهو ابن تسع سنين ٠

وفى الطبرى : ابن اثنتى عشرة سنة ٠

---

(١) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ١ ص ٠

(٢) مدخل الى القرآن : عرض تاريخى مقارن ص ١٣٤ الدكتور محمد عبد الله دراز ترجمة محمد عبد العظيم على ومراجعة د / السيد محمد بدوى ٠

اقرا مقال هوارت : بالجريدة الاسيوية عدد يوليو اغسطس ١٩٠٤ بعنوان مصدر جديد للقرآن حيث ورد ما يلى : فى الخاتمة ٠

لا تسمح النصــوص العربية ، التى عثر عليهــا ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بان نرى في الدور المسند الى هذا الراهب السورى الا مجرد قصة من نسج الخيال ٠٠

وكان الرسول قد خرج مع ركب أبى طالب وهو فى تجارته الى الشام فمر على راهب فى صومعته فى بصرى : هو بحيرا ، من هو بحيرا ؟

قال ابن اسحاق : بحيرا كان اليه علم أهل النصرانية ٠

ووقع فى سيرة الزهرى : بحيرا كان حبرا من يهود تيمان ٠

وفى المسعودى : أنه كان من عبد القيس واسمه سرجيس ، تلك رواية بحيرا ٠

ثانيا ـ رواية نسطورا الراهب ٠

رآه الراهب تحت ظل شجرة ، وهو فى رحلته بتجارة خديجة الى الشام ٠

وتذكر الرواية : أنه ليس بحيرا الراهب لأن هذه الرواية كانت بعد العشر ٠

الروايتان يفيدان معا :

التقاءهما بالرسول : وهو فى رحلة تجارية مع قبائل قريش ، وأن الرسول لم يجالسهما ، وانما تكلم فى شانه وشان مستقبله مع شيخ الركب ٠ وأنهما نصحا بعودته خوفا عليه : من الروم أو اليهود ، ولم يقترحا استبقاءه معهما حتى عودة القافلة من رحلتها ، فالمسيحية الأولى : قامت بالدور التبشيرى لمستقبل رسالة الاسلام ونبيه ٠ وهذا ما تقرره الروايتان :

أنهما لم يتحدثا اليه ، لا من قريب ولا من بعيد : فى شان تعلمه ٠

وعلى احتمال : أنه تعلم منهما واستمع اليهما ، فياترى أى شىء تعلمه منهما ؟

وعقيدة أى مذهب تعلم ؟

هل العقيدة النسطورية ؟

أو عقيدة مذهب الطبيعة الواحدة ، وكلاهما كان منتشرا فى تلك المنطقة ؟

ثم ما هى المدة الزمنية التى تكفى لاحاطته بالمسيحية ؟

بعض المستشرقين يرى : أن وراء هذه الروايات دورا تاريخيا فى صلة

الرسول بالمسيحية ، ومثل هذه الآراء ، وجدت من أبحاث المستشرقين : ما ناهضها ، وناقضها ، ووفق مناهج أبحاثهم اثبتوا تفاهتها من عدة أمور منها :

ـ عدم تعرض القرآن لمشكلات المسيحية •

ـ تناقض ما جاء فى القرآن عنها مع شعراء العرب المعاصرين للنبى ، والذى ثبت من تحرير شعرهم أنهم كانوا على صلة بالمسحية : كالأعشى شاعر الغساسنة • وكأمية بن ابى الصلت الذى بات آسفا على نفسه وخيبة رجائه فى فشل قيادته الدينية ، وهم على ذلك الحال لم يتقولوا على محمد بأنه أفاك •

ـ الحاجز اللغوى : الذى أشار اليه القرآن ـ بين الرهبان ومحمد يمنع ما ينتج من هذه الروايات •

ـ يقرر هوارت : Huart

مهما كان اغراء الفكرة التى تقول : بأن تفكير المصلح الشاب (محمد) قد تأثر بقوة عندما شاهد الديانة المسيحية بسوريا ، فأنه يتحتم استبعادها، نظرا لضعف الأسس التاريخية للوثائق التى كانت أمامنا ، وعدم وجود روايات صحيحة غيرها •

وسوف نرى رأيا لمستشرق قدم بحثا مفصلا ودقيقا فى هذه الموضوعات(١)

يقول : ومن البهتان ما شاع من القول أن النبى سمع من هؤلاء قصص التوراة التى تحتل مكانا بارزا من القرآن •

وقد قال أعداؤه : « ثم تولوا عنه وقالوا مجنون » •

وقال : ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين •

---

(١) علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب : د / لاسى أو ليرى ترجمة دكتور / وهيب كامل مراجعة زكى على ص ٨٩ ، ٩٠ ، ١٢٤ •
Voir it Arapic a ccidutal avant l'Hegie La mance.

بلاد العرب قبل الهجرة •

وقال أيضا : وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا » ·

وهؤلاء المسيحيون المستضعفون فى مكة : لم يكونوا هيئة منظمة ، ولم تكن لهم كنيسة ، ولم يكن لهم أسقف ·

ويقول عن أصحاب الطبيعة الواحدة :

وكانت مدينة نجران ، فى بلاد العرب ، غير بعيدة من مكة وهى الأخرى مسيحية تدين بمذهب الطبيعة الواحدة · ولا نستطيع أن نحدد مركزا لأصحاب الطبيعة الواحدة يدعى نقل الثقافة اليونانية الى العرب بنفس الثقة التى حددنا بها مركز النساطره فى جند يسابور ·

ومع ذلك لا يمكن اغفال هذه الصلة ، لأن مراكز أصحاب الطبيعة الواحدة كانت فى الحق أديرة ، ولم تكن الجامعات ، كما كان الأمر فى جند يسابور ، ولذلك لم تكن مراكزهم وثيقة الصلة بالعرب ، كما كانت مدرسة النساطرة ·

ويقول عن مدرسة نصيبين :

وكانت مدرسة نصيبين مزدهرة ابان الفتح الاسلامى ، ولكنها لم تكن فيما يبدو ذات أثر مباشر على العرب ، ولعل السبب فى ذلك أنها كانت لاهوتية صرفة ·

ثم يقول : لم تكن (فى المنطقة العربية) كتب بالعربية ، ولم تكن فى العربية : ترجمة للكتاب المقدس ، ولم يكن هناك قداس باللغة العربية ·

ثم قال : ان الثقافة اليونانية لم تنتقل الى العرب عن طريق الاتصالات الأولى ، ولقد تحقق انتقال العلوم اليونانية الى العرب : عندما استقرت الخلافة العربية فى مدينة بغداد ·

ثم يقول : « ان الفتح العربى فى سنة ٦٣٢ لم يوقف الحياة الدينية او الفكرية لطائفة النساطرة أو أصحاب الطبيعة الواحدة » ·

ويتكلم صاحب تاريخ سورية عن علاقة المسلمين بالمسيحيين فيقول :

« لقد فرض العرب الجزية وتركت الطوائف التى تدفع الجزية حرة تتبع قوانينها وديانتها وتقاليدها وتحيا حياتها الفكرية الخاصة (١) ٠

ولقد كتب أحد بطاركة الكنيسة الشرقية :

ان العرب الذين أولاهم الله السلطة على العالم فى هذا العهد هم كما تعلمون يقيمون بيننا ولا يتخذون من النصرانية موقف عداء بل هم على عكس ذلك يمتدحون ديننا ويجلون الكهنة والقديسين ويجودون بالتقدمات للكنائس والمناسك (٢) » ٠

بعد ذلك نقول عن المسيحية فى المنطقة العربية :

أ عجزت المسيحية ـ قبيل الاسلام ـ رغم تعدد مراكزها وانتشار رجالها فى المنطقة العربية أن تكون دينا للمنطقة العربية ـ سوى بعض قبائل اعتنقوها تزلفا سياسيا ، ولعل عدم انتشارها يرجع الى عدة عوامل كامنة فى المسيحية ذاتها :

ـ التنافس بين مذاهبها ٠

ـ انشقاقاتها العقائدية حول : طبيعة المسيح والموضوعات المتعلقة بها ٠

ـ الاضطهاد السياسى للمذاهب التى تسربت ـ من اضطهاد القيصر لها ـ ثم اعتنقها الناس ٠

ـ عدم رضا بعض رجال الكنائس على عملية التوفيق بين المسيحية والتراث الفلسفى اليونانى التى أظهرت المسيحية من حيث معارفها الفلسفية كأنها منظمة مزيجها يونانى وروماني ، ومخلخلة البنيان من حيث بناؤها الدينى ٠

هذا وغيره ساعد الناس أن يرغبوا عنها لأن الوجه الهلينى الذى ظهرت به أصبغ عليها أخص خصائصه : وهو الوثنية فلسفة الفلسفة اليونانية لا تحب الا أن تكون وثنية فى جوهرها ٠

---

(١) تاريخ سورية ص ١٤٣ ٠

(٢) مدخل الى القرآن الكريم ـ عرض تاريخى وتحليل مقارن د الدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٣٧ ٠

وبات عجز المسيحية واضحا عن الانتشار فى المنطقة العربية ، وبلغ من عجزها : أن ظهرت عبادات قريبة الشـــبه كالزرادشيتة والبوذية بين الجماعات المسيحية نفسها ٠

وظهرت المانوية وهى من أخطر العبادات الجديدة ، وقد أسسها مانى حوالى ٢٤٦ م وقد مات مانى فى السجن بسبب معتقداته ٠ هذا وغيره أدى الى انصراف الناس عنها الى اعتناق هذه المذاهب ، فكانت هذه المذاهب على خطورتها ـ كانت فى نظرهم ـ أقل تعقيدا فى قضاياها ، وأجمع للقلوب لقلة اختلاف ذويها ، ولا تناظر المسيحية من حيث جفاف روحها الدينى ٠

يقول تايلور فى كتابه « المسيحية القديمة » : أما ما قابله محمد وأتباعه فى كل اتجاه : فلم يكن الا خرافات منفرة ، ووثنية منحطة ، ومخجلة ، ومذاهب كنسية مغرورة ، وطقوسا دينية منحلة ، وصبيانية ، بحيث شعر العرب ذوو العقول النيرة : بأنهم رسل من قبل الله ومكلفون باصلاح ما ألم بالعالم من الفساد (١) ٠

يقول الدكتور شوقى ضيف : على أن هناك آفات كانت تشيع فى هذا المجتمع الجاهلى لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار ٠ ثم يقول وأكثر من كان يتجر بها (أى الخمر) اليهود والنصارى وكانوا يجلبونها لهم من بصرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق ٠

ويقول : أنهم كانوا يضربون خيامهم فى بعض الأحياء أو فى بعض القرى ، ويضعون فوقها راية تعلن عنهم : فيأتيهم الشباب ليشربوا ، وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبنهم » (٢) ٠

ومن جانب المقابلة بين التراث الشرقى والتراث الغربى نقول :

استطاع الشرق بعد أن هزم سياسيا : أن يرفض بعنف سيطرة التراث اليونانى الرومانى ، وحاول حصره داخل مدرسة الاسكندرية وأن يصر بعنف بالغ ـ كما رأينا موقف اليهودية ـ على رفض الوثنية الدينية ، وتعرض

---

(١) مدخل الى القرآن ـ عرض تاريخى مقارن د ٠محمد عبد الله دراز ص ١٣٧ ٠

(٢) العصر الجاهلى ص ٧٠ ٠

البهود من أجل ذلك : الى شتات وذلك فى سبيل عقيدتهم · وذلك موقف يصم السياسة : بأنها لا تستطيع أن تغير من عقائد الناس · هذا من ناحية الموقف الرافض للتراث الهلينى من قبل اليهود ·

أما المسيحية بعد ما بينا موقفها فاننا نلاحظ فى النهاية ـ وهى دين شرقى ـ أنها سيطرت من جانبها على الوثنية الرومانية وتشكلت الدولة الرومانية بالمسيحية وحملت ـ ضمن أعبائها ـ عبء مشاكلها وتبعة نشرها ·

وليس فى الأمر ـ كما رأينا عجز فى طبيعة العقل الشرقى أو انحطاط الشرق عن الغرب كما يزعمون · انما كل ما فى الأمر أن الرومان تبنى ـ والغرب بعده ـ الثقافة الهلينية وهى ما كانت تعنيهم ·

أما حضارة الشرق فان الاسكندر ما استطاع ـ ولا خلفاؤه من بعده ـ أن يقهرها وان هزمه سياسيا وحربيا غير أنه لم يقهره ثقافيا ، لأنه لا يحب أن يكون منتميا الا الى نفسه من خلال تراثه السماوى أو الوضعى ، وليس لعلة مرضية كما يزعمون حين يعللون رفض الشرق التراث اليونانى ووثنيته ، واذا كان كذلك فكيف يكون مريضا وعنده من الوعى الحضارى الذى به فرض رسالته الدينية عليه ، وهذا أعقد ما فى المسالة ؟

وفى ذلك ما يفيد ـ من وجه آخر للمسالة : أن رسالة الشرق الدينيـة ضرورية للانسانية ، وذلك يفسر فيما بعد ظهور الاسلام : والا فلماذا أخذ الغرب بالدين الشرقى ؟

السنا أمام مشكلة فيها نقابل الاستفهام وهو : لماذا رفض الشرق التراث الهلينى ؟ ولماذا قبل الغرب الدين الشرقى ؟

وفى النهاية نقول : وحقيقة دور المسيحية واليهودية من خلال مصادر تاريخية انهم كانوا وفق نصوصهم يعتقدون فى « مسيا » (١) جـديد ـ أى : المسوح بالطيب أو الذى مسحه يهوه بالطيب ـ وكانوا يذهبون الى تفسير اضطهادهم بأن التاريخ ـ وفق تصورهم ـ يدور ليحقق عودة مجتمعهم الذى تتحقق فيه الارادة الالهية واستفاضت نبوءتهم · يقول ابن سعد :

---

(١) تراث العالم القديم ص ٩٤ ·

كان فى بنى تميم : محمد بن شعبان بن مجاشع وكان أسقفا يذكر بسبب تسميته محمدا : قيل لأبيه : انه يكون للعرب نبى اسمه محمد ، فسماه محمدا (١) ٠

يقول ابن اسحق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا :

ان مما دعانا الى الاسلام مع رحمة الله تعالى وهداه مما كنا نسمع من رجال يهود ـ كنا أهل شرك : أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فاذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : انه تقارب زمان نبى يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وارم ٠ فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم (٢) ٠

كان اليهود دائما يبشرون بمسيا يخلصهم من وطأة ما وقع عليهم من شدائد حتى بعد مجىء المسيح (٣) ٠

فهذه النصوص التاريخية تفيدنا : أن المسيحية أو اليهودية على حد سواء قامتا بدور تبشيرى بنبى قرب مبعثه فكيف بعد مجىء محمد رسولا ينكرون عليه رسالته ؟ لا أرى باعثا على ذلك على ذلك سوى أنهم يحاولون تزييف التاريخ الدينى للرسالات الالهية وتلك قضية أثبتها القرآن حين أثارها عليهم ٠

مناقشة العرب للرسول فى مصدر القرآن

نسوق هذا النموذج ، بعدما قدمنا ما تعرضت له المنطقة من اتجاهات : فكرية ، ودينية ، يتميز هذا النموذج : بأنه جمع لجنة تمثل اتجاه المثقف ثقافة عقلية فى مدرسة « جنديسابور » : وهو النضر ، واتجاه رجال الدين اليهودى وذلك عندما أفلست الوثنية العربية اتجه رجالها الى يهود يثرب ليسألوهم عن مسائل يختبرون بها الرسول وذلك كان بعد أن اتخذ الاسلام

---

(١) الطبقات الكبرى ج١ ص ١٦٩ ٠

(٢) نفس المرجع ص ١٦٩ ج ١

(٣) تراث العالم القديم ص ٩٤ ٠

طريقه فى قبائل قريش : من الرجال والنساء ، وقريش تحبس من قدرت على حبسه ، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين ، دعا رجال من أشراف قريش من كل قبيلة الى اجتماع بينهم فاجتمع :

عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ٠

وأبو سفيان بن حرب ٠

والنضر بن الحارث ، أخو : بنى عبد الدار ٠

وأبو البخترى بن هشام ٠

والأسود بن عبد المطلب بن أسد ٠

وزمعة بن الأسود ٠

والوليد بن المغيرة ٠

وأبو جهل بن هشام ٠

وعبد الله بن أبى أمية ٠

والعاصى بن وائل ٠

ونبيه ومنبه ، ابنا : الحجاج السهميان ٠

وأمية بن خلف ٠

اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهور الكعبة ٠

قال بعضهم لبعض : ابعثوا الى محمد ، فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا اليه : أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك : فأتهم فجاءهم رسول الله سريعا ـ فهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم ـ ودار ذلك فى نفسه حديثا نفسيا ٠ حتى جلس اليهم ٠

فقالوا له : يا محمد : انا قد بعثنا لنكلمك ـ وانا والله ، ما نعلم رجلا من العرب ، أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقى أمر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك ، فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا : جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ٠

وان كنت انما تطلب به الشرف فينا : فنحن نسودك علينا •

وان كنت تريد به ملكا : ملكناك علينا •

وان كان هذا الذى يأتيك رئيا نراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا ـ فربما كان ذلك : بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك •

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بى ما تقولون ؟

ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ،

ولكن الله بعثنى اليكم : رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى : أن أكون لكم بشيرا ونذيرا •

فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فان تقبلوا منى ما جئتكم به : فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على : أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم •

قالوا يا محمد : فان كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فانك قد علمت : أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ، ولا أقل ماء ولا اشد عيشا منا • فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به : فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهارا كانهار الشام ، والعراق ، حكى القرآن ذلك فقال : (١)

فقال لهم رسول الله : ما بهذا بعثت اليكم ، انما جئتكم من الله بما بعثنى به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم ، فأن تقبلوه : فهو حظكم فى الدنيا

---

(١) وانزل الله علينا فيمـــا سأله قومه لانفسهم من تسيير الجبال وتقطيع الارض وبعث الموتى قال : ولو أن قرآنا سيرت بـه الجبال أو قطعت به الارض او كلم به الموتى بل لله الأمر جميعـــا .

والآخرة ، وأن تردوه على : أصبر لأمر الله حتى يحكم بينى وبينكم ، حكى القرآن فقال : (١)

قالوا : فاذا لم تفعل هذا لنا : فخذ لنفسك (٢) سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ·

وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة ، يغنيك بها عما نراك تبتغى ، فانك تقوم بالأسواق كما نقوم وتتلمس من المعاش ، كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ، ومنزلتك من ربك ان كنت رسولا — كما تزعم — ·

فقال لهم رسول الله : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا ، وما بعثت اليكم بهذا ، ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا ، فأن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وان تردوه على أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بينى وبينكم · قال القرآن حاكيا ذلك منهم (٢) :

---

(١) وانزل عليه فى قولهم : خذ لنفسك ما سألوه ان يأخذ لنفسه ان يجعل له جنانا وقصورا وكنوزا ويبعث معه ملكا يصدقه عما يقول ويرد عنه :

وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الاسواق لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا ، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ، تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا ·

وقال : وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة اتصبرون وكان ربك بصيرا ···

(٢) وانزل عليه فيما قال عبد الله بن آمية ·

وقالوا ان نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا · أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل · سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا ·

ورد عليهم فيما عرضوا عليه من أموال : قل ما سألتكم من اجر فهو لكم ان اجرى الا على الله وهو على كل شىء شهيد ·

قالوا : فأسقط علينا كسفا كما زعمت أن ربك لو شاء فعل فانا لا نؤمن لك الا أن تفعل ٠

فقال رسول الله : ذلك الى الله ان شاء أن يفعله بكم فعل ٠

قالوا : يا محمد : أفما علم ربك : أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم اليك : فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع بنا اذا لم نقبل منك : ما جئتنا به ٠

ثم يقولون : أنه قد بلغنا ، أنك : انما يعلمك هذا : رجل باليمامة ٠

فقد أعذرنا اليك يا محمد ، وانا والله لا نتركك وما بلغت دنا ، حتى نهلك أو تهلكنا ٠

وقال قائلهم ، فمن نعبد ؟ الملائكة أو بنات الله ؟

وقال قائلهم : لن نؤمن لك : حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا ٠

فلما قالوا ذلك لرسول الله : قام عنهم ، وقام معه : عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، بن عبد الله ، بن عمر ، بن مخزوم ، وهو ابن عمته : فهو لعاتكة بنت عبد المطلب ٠

فقال له : يا محمد : عرض عليك قومك ما عرضوا : فلم تقبله منهم ٠

ثم سألوك لأنفسهم أمورا ، ليعرفوا بها منزلتك من الله ، كما تقول ، ويصدقوك ، ويتبعوك ، فلم تفعل ، ثم سألوك : أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ، ومنزلتك من الله : فلم تفعل ٠ ثم سألوك : أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب : فلم تفعل ٠

---

* قال الله تعالى : انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون ٠
فقال عبد الله بن الزبعرى : أكل ما يعبد من دون الله حصب جهنم ٠ قال : فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى ، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم فذكر ذلك لرسول الله من قول ابن الزبعرى فقال رسول الله : كل من أحب أن يعبد من دون الله مع من عبده ، انهم يعبدون الشياطين ٠

فوالله لا أومن بك أبدا ، حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى فيه ، وأنا انظر اليك ، حتى تأتيها ، ثم تأتى معك : بصك أربعة من الملائكة ، يشهدون لك انك كما تقول ، وايم الله : انك لو فعلت ذلك ، ما ظننت أنى أصدقك ، ثم انصرف عن رسول الله ·

وانصرف رسول الله الى أهله : حزينا آسفا مما كان من قومه حين دعوه · ولما رأى من مباعدتهم اياه ·

فلما قام عنهم رسول الله ، قال أبو جهل : يا معشر قريش : انمحمدا قد أبى ، الا ما ترون منه من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا ·

وانى أعاهد الله : لأجلسن له غدا بحجر ، ما أطيق حمله ، فاذا سجد فى صلاته ، لأهوى بصخرة على رأسه ، فأسلمونى عند ذلك ، أو امنعونى فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ·

قالوا : والله لا نسلمك لشىء أبدا فامض لما تريد ·

فلما أصبح ابو جهل : أخذ حجرا ــ كما وصف ــ ثم جلس لرسول الله ينتظره : وغدا رسول الله كما كان يغدو ، وكان رسول الله بمكة وقبلته الشام ، فكان اذا صلى بين الركنين : البرانى ، والأسود ، جعل الكعبة بينه ، وبين الشام فقام رسول الله يصلى : وقد غدت قريش ·

فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟

قال : قمت اليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه ، عرض لى دونه فحل من الابل ، ما رأيت مثل هامته ، ولا أنيابه : لفحل قط ، فهم بى ان يأكلنى · فلما قال لهم ذلك أبو جهل : قام النضر بن الحرث بن كلدة فقال : يا معشر قريش : انه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم بحيلة بعد · قد كان محمد فيكم : غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى اذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم·

وقلتم كاهن : لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ٠

وقلتم شاعر : لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ٠

وقلتم مجنون : لقد رأينا الجنون ، فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ٠

يا معشر قريش : فانظروا فى شأنكم ، فانه والله قد نزل بكم أمر عظيم ٠

وكان النضر بن الحرث من شياطين قريش ، ومن كان يؤذى رسـول الله وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة : وتعلم فيها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفندباز فكان اذا جلس رسول الله مجلسـا : يذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من نقمة الله ، خلفـه فى مجلسه اذا قام ثم قال :

انا والله يا معشر قريش : أحسن حديثا منه ، فهلم الى : فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ، وكان قد تعلم فى فارس :

ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا منى ؟

قال ابن هشام : وهو الذى قال فما بلغنى : سأنزل مثل ما أنزل الله ٠

وكان ابن عباس يقول : نزل فيه ثمانى آيات من القرآن ٠

قول الله عز وجل : اذا تتلى عليه آياتنا ، قال أساطير الأولين ٠

وكل ما ذكر عن الأساطير فى القرآن : وردت فيه ٠

فلما قال لهم النضر بن الحرث بعثوه وبعثوا معه : عقبة بن أبى معيط الى أحبار يهود بالمدينة ، وقالوا لهما : سلاهم عنه ، وصفا لهم صفته ، وأخبراهم بقوله ، فانهم أهل الكتاب وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى قدما المدينة ٠

فسألا أحبار اليهود : عن رسول الله ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ٠

وقالا ، لهم : انكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هـذا ٠

فقالت لهما أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن : فان أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وان لم يفعل : فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم ٠

١ ـ سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول : ما كان أمرهم ؟ فانه كان لهم حديث عجيب ٠

٢ ـ وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها : ما كان نبأه ؟ ٠

٣ ـ وسلوه عن الروح : ما هى ؟

فان أخبركم بذلك فاتبعوه فانه نبى ، وان لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم ٠

فأقبل النضر بن الحرث وعقبة بن ابى معيط حتى قدما مكة على قريش ، فقالا يا معشر قريش : قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ٠ قد اخبر أحبار يهود : أن نسأله عن أشياء أمرونا بها ، فان أخبركم عنها ، فهو نبى، وان لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رايكم ٠

فجاءوا رسول الله ٠

فقالوا : يا محمد أخبرنا :

عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول : قد كانت لهم قصة عجب ؟

وعن رجل كان طوافا : قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ؟

وأخبرنا عن الروح : ما هى ؟

فقال لهم رسول الله : أخبركم بما سألتم عنه غدا ، ولم يستثن ، فانصرفوا عنه ٠ فمكث رسول الله ـ فيما يذكرون ـ خمس عشرة ليلة ، لا يحـدث الله فى ذلك وحيا ، ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف أهل مكة فقالوا :

وعدنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه ، أحزن رسول الله مكث الوحى عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة • ثم جاءه جبريل من الله : بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته اياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف والروح فى سورة الاسراء •

رواية علاقة الرسول بحكمة لقمان :

دعا رسول الله سويد بن صامت الى الاسلام •

فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى •

فقال له رسول الله : وما الذى معك ؟

قال : مجلة لقمان (يعنى حكمة لقمان) •

فقال له رسول الله : اعرضها على : فعرضها عليه •

فقال له : ان هذا الكلام حسن ، والذى معى ــ افضل من هذا ــ قرآن أنزله الله على هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن ودعاه الى الاسلام فلم يبعد منه •

وقال : ان هذا القول حسن ، ثم انصرف عنه •

فقدم المدينة على قومه فلم يلبث أن قتله الخزرج ، وقيل أسلم •

يظهر من المحاورة : يعنى مناقشة الرسول فى مصدر القرآن :

ــ أن محمدا : أعلن اعلانا ذاع بين قومه ومسجلا فى القرآن . أنه لم يتلق علما من انسان ، وسمع ذلك النضر بنفسه ، وغيره ممن شك فيهم العرب : أنهم يعلمون الرسول • لم يعلن أى انسان منهم ، أو من اليهود ، أو من المسيحيين : أنه هو الذى يعلم الرسول فضلا عن أنه لم يدع أحد منهم ذلك •

ــ وكما تفيد الرواية أن النضر بن الحارث على ما كان يدعيه من علم تلقاه من مدرسة جنديسابور كان يعلمهم أخبار الفرس فقط •

ــ وسويد بن الصامت صاحب مجلة لقمان : سمع منه الرسول وقال له : هذا كلام حسن ، ثم أسمعه الرسول فقال له : ان هذا القول حسن• ولم يدع سويد أنه علم الرسول أو أن الرسول أخذ منه شيئا •

وأن اختيار اليهود له ، كان يعنى : اظهـار علامات النبوة وهم أعـلم الناس بها وبدلائلها ، وقالوا للنضر ان أفتاكم فهو نبى مرسل • واليهودية وهى دائما ضد الوثنية الرومانية أمدت الوثنية العربية بعد أن أفلست فى جدلها مع الرسول بأسلحة ماضية لتختبره بها ، ثم تشاء ارادة الله أن تنتهى الوثنية ومعها اليهودية بأسلحتها ويصير سفراء العرب الى دعاة رغم أنفسهم فيظهرون علامات النبوة •

علاقة القرآن بهما :

خلاصة القول : ان القرآن حدد موقفه من اليهودية والنصرانية عـلى حد سواء •

أولا : من حيث المبدأ :

ـ اعترف بهما : دينا سماويا ، وموسى وعيسى رسولين أوحى اليهما(١)

ـ حض على الايمان بهما : وأن ايمان المسلم لا يصح الا بهما وغيرهما من الرسل(٢) •

ـ وضح علاقة الاسلام بهما : أنهما تكميل وتتميم وتصحيح (٣)

ـ قام القرآن بما اشتمل عليه من التاريخ الدينى للرسالات السابقة

---

(١) قال تعالى . « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله » . (البقرة ٢٨٥) •

(٢) قال تعالى . « قل آمنا بالله وما انزل علينا وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ».(آل عمران ٨٤) •

(٣) قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » الشورى ١٣) •

عليه : بنشر مضمون الكتب السابقة عليه ، مظهرا بذلك وحدة السلسلة الدينية(١) ٠

ثانيا : من حيث التفاصيل :

ـ أبدى ملاحظات أساسية عليهما منها :

ـ تنازعهم بعضهم بعضا :

قال تعالى : « وقالت اليهود : ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب »(٢) ٠

ـ تفرقهم فى العقيدة الى فرق لكل فرقة كتابها :

قال تعالى : « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء »(٣) ٠

---

(١) قال تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » (آل عمران ٦٤)

وقال : « وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون » . (العنكبوت ٤٦)

وقال : « ان هذا لفى الصحف الأولى : صحف ابراهيم وموسى »

وقال : « قل للذين أوتوا الكتاب والاميين اأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ » . (آل عمران ٢٠)

ونسوق قولا لفيليب حتى يشهد على حسن معاملة الرسول لأهل الكتاب .

« وكانت الطبقة الثالثة تتألف من اهل الذمة وهم الذين قيل منهم على انه دين منزل ، والمراد بين النصارى واليهود والصابئة ذلك أن الاسلام شملهم بالامان وصانهم بالعهود والمواثيق » .

...

وقد أتاح النبى نفسه « انظر آيات سورة التوبة : ٢٩ والبقرة ، ٩٩ ، ١٠٣ وآل عمران ، ٦٢ ـ ٦٥ ... الخ » . للنصارى واليهود هذا الوضع السمح على اعتبار انهم أهل الكتاب ، ومرد ذلك انما هو اجلال النبى للكتاب المقدس . انظر تاريخ سورية ص ٩٨ جـ ٢ .

(٢) البقرة : ١١٣

(٣) الانعام : ١٥٩

ـــ اهمالهم للتوراة :

قال تعـالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » (١) ٠

ـــ تحريفهم لكتبهم المقدسة :

تحريف فى العقيدة : « كقولهم المسيح ابن الله ٠ وعزير ابن الله » (٢) ٠

تحريفهم مفهوم علاقة البشرية بالله الى بنوة له : قال تعالى « وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله واحباؤه » (٣) ٠

ـــ تحريفهم فى شريعتهم :

قال تعالى : « وأخذهم الربا : وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال النـاس بالباطل » (٤) ٠ وفى القرآن الكثير عن قضية التحريف منها :

قال تعـالى :

(أ) وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعـد ما عقلوه وهم يعلمون (٥) ٠

(ب) يحرفون الكلم عن مواضعه ٠

(ج) وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون (٦) ٠

(د) ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا (٧) ٠

ثم بعد ذلك رسم القرآن للرسول الغاية النهائية من بيان ذلك قائلا :

« واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت : بما أنزل الله من كتاب وأمرت : لأعدل بينكم » (٨) ٠

---

(١) الجمعة : ٥
(٢) من الانجيـل
(٣) المائدة : ١٨
(٤) النساء : ١٦١
(٥) البقرة : ٧٥
(٦) البقرة : ٤٦
(٧) البقرة : ١٧٤
(٨) الشورى : ١٥

لهذه الغاية النبيلة : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (١) ٠

لقد كان موقف أهل الكتاب من القرآن عجيبا :

فان وجدوا بعض ما فى القرآن يتفق معهم قالوا : أخــذه محمد من الكتاب (٢) .

وان وجدوا روايات لا تنتمى الى كتبهم مع أنها خاصة بتــاريخهم قالوا هذا حديث مفترى (٣) ٠

---

(١) البقرة : ١٠٩

وفي عصرنا هذا أخرج يوسف الياس الحداد سلسلة دروس قرآنية :

(ا) الانجيــل والقرآن (ب) القرآن والكتاب ج ١

قال الأستاذ محمد عزه دروزه عنهما في كتابه (القرآن والمبشرون) وقد كتب الخورى لكل من كتبه الاربعة مقدمة برايه الظاهر وفيها دعوة الى التفاهم وتبادل الثقة بين المسلمين والنصارى لانهم يدينون بدين كتابى متحد المصدر والمبادىء والاهداف . غير أنه حشا كتبه بأقوال وبيانات وروايات وتحليلات عن القرآن ومحتوياته ونظمه ولغته وترتيبه وعن شخصية النبى وسيرته ورسالته وصلتها بأهل الكتاب وتجديد اكثر باليهودية والنصرانية وكتبهما فيها الغريب العجيب المذهل من التخرص والتعسف والتجنى والمجازفة وتحريف الكلام واللعب بالالفاظ وعدم التورع عن أقوال فيها افتراء وسوء أدب نحو القرآن ورسوله وكتاب وحيه واصحابه الاولين وتابعيهم ونسبة الدس والزيادة في القرآن ص ٧٢٦.

(٢) يقول فيليب حتى في كتابه تاريخ سورية ج ٢ ص ١٤٤ : ولقد كانت عقيدة التوحيد ويوم الحساب من أروج المواضيع في الادب القرآنى وفي الاناجيل المرفوضة والرسائل الصوفية على السواء ثم يقول : حتى أنهم جعلوا الاسلام من وجوه عديدة وريثا للنصرانية والسريانية .

(٣) يقول الاستاذ محمد عزه دروزه في كتابه القرآن والمبشرون ص ٣٩ : على أن هناك أشياء كثيرة وردت في القرآن من هذه القصص ولم ترد في الاسفار المتداولة .. ومنها ماورد في القرآن والاسفار متغايرا في الجزئيات بل وفي الصور المهمة معا فليس في سفر التكوين مثلا ما ورد في القرآن من أمر الله الملائكة بالسجود لادم وعصيان ابليس والموسوس لادم وحواء في الجنة هو الحية في حين أنه في القرآن ابليس . وليس في هذا السفر ما في القرآن من قصص ابراهيم مع قومه وتخريب لاصنامهم ونظرته في النجوم وحجاجه مع قومه ومحاولتهم احراقه في النار واسكانه بعض ذريته عند بيت الله المحرم أى مكة واشتراك ابراهيم واسماعيل في بناء الكعبة .

وليس في هذا السفر ما في القرآن من محاورة بين نوح وابنه الكافر وعدم ركوب هذا في السفينة وغرقه ومحاورة نوح مع الله تعالى في ذلك . وليس في السفر ما في تمزيق امرأة العزيز قميص يوسف ولا كلام النسوة ودعوة امرأة العزيز اياهن وتقطيعهن أيديهن . وليس في أسفار الخروج والعدد وتثنية الاشتراع التى فيها موسى وفرعون وبنى اسرائيل

واذا تقدمت الأبحاث وعلم الحفائر وأظهرت دلائل تؤيد روايات القرآن وتثبت لهم ما حرفوا فى كتبهم بالزيادة أو الحذف ، وهذا ما قاله القرآن عنهم ، دعوا الى التقائهم وتبادل الثقة ما دمنا ندين بدين واحد ، من حيث المصدر والغاية (١) ٠

وحقيقة أن الدعوى الى التفاهم اشتدت فى عصرنا ، ولكنها دعوى مغلوطة ، لأننا نؤمن بالمسيحية واليهودية وبالأديان السماوية مع الاسلام على حد سواء ٠ فليس بين الاسلام وبين التوراة والانجيل : أزمة ثقة ، أما هم : فاننا نراهم يعانون ازمة الثقة بينهم كطوائف وبين اليهودية كدين ، وهذا قديم تاريخيا ثم أخيرا بينهم جميعا وبين الاسلام أما نحن المسلمين فبراء منها لماذا ؟

لأن الدعوة طرحها القرآن ـ وما زالت مطروحة ـ وعليهم الاستجابة لها وبالتالى : فالمشكلة التى بيننا وبينهم هى فى مدى قدرتهم على الاستجابة نحو الكلمة السواء (٢) ٠

بعد خروجهم من مصر وحياتهم في سيناء ما في القرآن من خبر سحرة فرعون والتقاف الثعبان لحبالهم وعصيهم وسجودهم وايمانهم ومحاورتهم مع فرعون وغرق فرعون وجنوده حينما خرجوا لمطاردة بنى اسرائيل ٠ والقرآن يذكر أن الشخص الثانى الذى اراد موسى أن يبطش به هو عدو في حين أن سفر الخروج يذكر أنه عبرانى ٠ قال الاستاذ دروزه : ونحن نعتقد أن ما ورد في القرآن ولم يرد في الأسفار المتداولة أو ورد فيها مباينا لما ورد فيه قد ورد في اسفار أخرى كانت متداولة بين ايدى اليهود لم يصل الينا وهذه ظاهرة تثبتها الاسفار المتداولة التى ورد فيها أسماء عديدة ليست بين الاسفار المتداولة » ٠

(١) وعجبنا عندما وقف البابا شنوده : ونادى بدعوة التعاون بين الاديان السماوية ثم ذكر شخصيات اسلامية تاريخية ولم يذكر الرسول فهل بذلك صدق مع نفسه أو صدق مع دعوته ؟ أو نقض بنفسه وفي نفس دعوته ما دعا اليه ! ؟

(٢) أما من عوائق التفاهم فهى كما ذكرها الامام عبد الحليم محمود ردا على رسالة كان قد بعث بها اليه د ٠ ميجل دى ايبالثا سكرتير عام الصداقة الاسلامية المسيحية ـ مدريد ـ أسبانيا والرسالتان كما يلى :

السيد المحترم صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر ٠

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

وبعد :

فيسر جمعية الصداقة الاسلامية المسيحية في مدريد أن تتوجه الى فضيلتكم لتشرف باخباركم بما استقر عليه الرأى من انعقاد مؤتمر قرطبة العالمى المسيحى الثالث خلال عام ١٩٧٩ ٠ ان شاء الله وقد رأت ادارة الجمعية اختيار موضوع محمد وعيسى ملهمين للقيم =

. . . .

= الاجتماعية المعاصرة ليكون محور اللقاء الاسلامى المسيحى المقبل . والمقصود أن يشرح المسلمون كيف يعبر النبى صلى الله عليه وسلم عن هذه القيم المعاصرة بالنسبة لمسلمى اليوم سواء برسالته وعقيدته ودعوته . أو بشخصيته وسلوكه ونفسيته المثالية . بينما يشرح المسيحيون كيف يعبر عيسى عليه السلام عن القيم الاجتماعية نفسها عند مسيحى اليوم .. ورغبتنا أن يدرس هذا الموضوع مجموعة ممن يعيشون في مجتمع متكافل يفيض بالمودة والوفاق . وان اختلفت عقائد مواطنيه وتنوعت أديانهم .

وسوف يتولى عملية تنظيم واعداد المؤتمر من الجانب المسيحى الكليات المتخصصة في علوم اللاهوت نذكر منها بصفة خاصة كلية اللاهوت بمدريد . والجامعة البابوية في روما .. ويعد الموضوع — بمشية الله — من الجانب الاسلامى الجامعات المتخصصة فى بعض البلدان الاسلامية . ومؤسسات اسلامية وشخصيات مسلمة ، يستوى في ذلك من يعيشون داخل اسبانيا ومن يقيمون خارجها .

ونعتقد أنه من الممكن دراسة رؤوس الموضوعات التالية في نطاق الموضوع العام الملتقى وهى : الحرية والعدالة والمساواة في مختلف مظاهرها وجوانبها المتعددة في هذا الدين أو ذاك . ولا يعنى هذا — بطبيعة الحال — أن هذه هى الكلمة النهائية ، على العكس نحن نتوجه اليكم منذ الان وفي لحظة نشأة الفكرة آملين أن تثروا الموضوع بما تقترحونه وأن تتفضلوا باضافة ما ترونه مفيدا ونافعا ، ولسنا نشك أنكم ستزودوننا بسديد الرأى وصائبه — باذن الله . فأنتم أدرى بهذا الحقل منا ، ولكم في هذا الميدان خبرة قد لا تتوافر للكثيرين بحكم احتكاكم بالمجتمعات ، وجهودكم في القارات المختلفة. وقد سبق أن شرفتمونا حين تفضلتم بايفاد وفد مثل بلادكم في مؤتمر قرطبة الاسلامى المسيحى الاول الذى عقد فى عام ١٩٧٤ م .

وما نبغيه فى هذه المرحلة — مرحلة الاعداد والدراسة — هو النصيحة وتبادل الرأى ، والاستفادة بالمشورة دون الزام أو التزام بحضور المؤتمر . وسوف نتصل بكم فى مرحلة أخرى ان شاء الله من أجل توجيه الدعوة لحضور جلسات الملتقى نفسه اذا رغبتم في ذلك .

وفى انتظار كريم ردكم نرجو أن تتقبلوا خالص تحياتنا وأطيب امنياتنا بالصحة والسعادة .

وسلام الله عليكم وتحياته ورحمته وبركاته ..

سكرتير عام جمعية الصداقة الاسلامية المسيحية

(المضاء)

دكتور : ميجيل دى أيبالثا مدريد أبريل ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المحترم د . ميجيل دى أيبالثا

تحية طيبة وبعد :

لقد وصلني خطابكم المؤرخ : ابريل ١٩٧٨ م

. . . .

= وانى أشكر لكم هذه الرغبة في التفاهم بين المسلمين والمسحيين واثراء الفكر المعاصر بالحلول التى أوحاها الله تعالى الى محمد وعيسى صلى الله عليهما وسلم . وذلك فيما يتعلق بالمشاكل المعاصرة .

وقد وصلنى أخبار المؤتمرين السابقين .

واحب ان انبه ، في مودة ، ومن أجل تفاهم عميق الى بعض الامور :

١ — ان الاسلام — منذ أن بدأ — خالف الجو العالمى : اليهودى الوثنى ... في أمر عيسى عليه السلام . لقد أعلن الاسلام مباشرة تقديره واحترامه لعيسى وأمه . واما عيسى عليه السلام فهو وجيه في الدنيا والاخرة وأما امه فهى صديقه . نبوة عيسى عليه السلام جزء من ايمان المسلم . وبراءة أمه وطهرها جزء من ايمان المسلم ولم يقف الاسلام من عيسى عليه السلام ومن أمه موقف اليهود الذين ما زالوا على موقفهم الى الان من عيسى وأمه . لقد افتروا — وما زالوا — على عيسى وعلى أمه ورموهما ببهتان شنيع .. أما الاسلام فانه مجدهما وما زال مستمرا في تمجيده لهما .

فماذا لقى المسلمون من المسيحيين في مقابل ذلك ؟

٢ — انه لابد من الاعتراف بالدين الاسلامى وبرسوله حتى ينال المسلمون في اوربا ما يناله اليهود من الاعتراف بأعيادهم وبشعائرهم . . وأنه لا يتأتى التفاهم بين اتباع رسول يحترمه المسلون هو عيسى عليه السلام واتباع رسول لا يعترف به المسيحيون وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

٣ — ان المسلمين والمسحيين يعملون على مقاومة الانحراف والانحلال والمادية والالحاد وكان يجب أن يسيرا في خط متعاون متساند ضد التيارات المنحرفة .. ولكن للاسف — يسير المسيحيون في طريق تنصير المسلمين بقوة : فهم يعملون ليل نهار على أن ينصروا المسلمين في كل مكان في العالم . وكل الدول الغربية وأمريكا ترسل ارساليات لتنصير المسلمين بأسلوب مكشوف واضح أو بأسلوب خفى مستور ، ويضيق المسلمون بذلك ضيقا شديدا . ورغم ذلك فان ملايين الجنيهات تنفق في سعة للتنصير بكل الطرق .

ومما هو ملاحظ أن الدول الاسلامية ليس لها ارساليات تبشيرية .. وقد أرسل المسيح عليه السلام لهداية خراف بنى اسرائيل الضالة . ومع ذلك فان المسحيين تركوا بنى اسرائيل الضالة وأخذوا يعملون على تنصير المسلمين .. تساعدهم الثروة . وتساندهم وسائل الحضارة الحديثة .

ولو حصروا نشاطهم على تنصير الوثنيين لما أثار ذلك ضيق المسلمين الشديد وكراهيتهم للاسلوب ولموضوع التنصير نفسه .

٤ — والمسلمون أقليات في بعض الاقطار المسيحية مثل الفلبين . وهذه الاقليات المسلمة ينكل بها باسم المسيحية : تؤخذ أرضها وتيتم أطفالها وترمل نساؤها . ولا تجد الا ارتياحا في نفوس الاغلبية المسيحية .. ونحب أن ينتهى التنكيل بالمسلمين في الاقطار التى بها الاغلبية المسيحية : نحن نحب أن ينتهى ذلك : انسانيا ونحب أن ينتهى ذلك دينا : وغيرها هناك أسلوبان للحديث :

٥ — وفي المؤتمرات التى تعقد في أسبانيا وغيرها هناك أسلوبان للحديث .

(أ) التزام العقل . وهنا يتحلل المسلمون من مبادىء دينهم فيتناولون المسيح عليه السلام وأمه بالاسلوب العقلى فيكون موقفهم منهما موقف اليهود : يقولون على مريم وعلى ابنها ما يضيق به المسيحيون ضيقا شديدا . ويقولون على المسيحية نفسها ما يضيق بـــه المسيحيون ضيقا شديداً .

ولكن المسلمين في هذه المؤتمرات يتبعون مبادىء دينهم فيحترمون المسيح عليه السلام =

بيد أن موقفهم السيكولوجى ما زال كما قرره القرآن فى قوله :

« ود كثير من أهل الكتاب : لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا ، من عند أنفسهم » ·

فالحرب الصليبية ـ وهى تعتبر أول غزو مسلح ذى شكل دينى قامت به أوربا لغزو الاسلام فى داره ـ وضعت هدفها الظاهر الدعوة التبشيرية للمسيحية كما هو واضح فى اسمها ـ وفى حقيقة الأمر : كانت أطماعا فى لبن الشرق وعسله ـ والدعوة التبشيرية لمن ؟ للاسلام · وتلك دعوة فى ظاهرها مغلوطة فضلا عن رفضها من حيث المبدأ من عدة جوانب : لأن الاسلام كدين يعترف بالأديان السماوية ويعتبر الاسلام نفسه أنه مكمل لها ، وعلى هذه الأديان أن تعاود دراسة تلك العلاقة التى قررها الاسلام · ومن حيث الاسلام ، كدولة ذات سيادة ، فانها تعترف بالدين المسيحى وتحترم المسيحية، فغزو أوربا لحمل دولة الاسلام على الاعتراف بالدين السماوى غير وارد ·

= وامه .. اما المسيحيون فان البعض منهم لا يبالى فيتحدث عن رسول الاسلام بما يضيق به المسلمون : فلا تكون هذه المؤتمرات وسائل تفاهم ، وانما تكون وسائل تنافر ، وذلك كما حدث في المؤتمرين السابقين من بعض المسيحيين ·

(ب) التزام ما تمليه روح التفاهم : فلا يساء الى المسلمين في مقدساتهم ·

٦ .ـ واجب ان اقول ان الاسلام هو العامل الاكبر في تثبيت المسيحية حين اعترف السلام ، احترام امه عليها السلام ···

فماذا قدم المسيحيون ؟ لا شيء ! !

بل على العكس من ذلك لقد هاجموا وما زالوا يهاجمون رسول الاسلام ومبادىء الاسلام فهل يمكن مع ذلك التفاهم ؟

٧ ـ واجب ان اقول ان الاسلام هو العامل الاكبر في تثبيت المسيحية حين اعترف بوجود المسيح عليه السلام وحين برأ امه . ومع ذلك نقد قوبل بجحود لا مثيل له وما زال يقابل بهذا الجحود من المسيحيين على اكبر خدمة اديب للمسيح عليه السلام .

وبعد فانى احب صادقا أن نتعاون في صد كل انحراف .. واحب أن اقول انه لولا تقديرى لكم لما كتبت لكم هذا . واننى يسرنى ان اقرأ لكم .

سأتحدث اليكم عن رايى في موضوع المؤتمر في المستقبل ان شاء الله ·

ولكم تحيتى وتقديرى ···

« د . عبد الحليم محمود » شيخ الازهر

نشر في مجلة الازهر ـ الجزء الثالث ـ السنة الخمسون .
رجب ١٣٩٨ هـ الموافق يونيو ١٩٧٨ م ·

وأما من ناحية علاقة الاسلام – من كونه دينا ودولة – بالأقليـــات الدينية فان حقوقهم قد كفلها لهم الاسلام وباتوا اخوة مع المسلمين فغزوهم لتامين هذه الأقليات غير وارد ايضا كأسباب لغزو مسلح ٠

لذلك قلنا أن الصليبية حملت الصليب رمزا للتعذيب ، ولم ترفع الكتاب رمزا للحب والسلام ٠

وفى النهاية يقول كارلو نللينو(١) : التشريع عند النصارى عمل بشرى ليس له ارتباط متين بأقوال الانجيل ، أما التشريع فى الاسلام فلا يتصور الا كفرع من العلوم النقلية الدينية ، أصوله فى القرآن ، والسنة ، والاجماع ٠

فلهذا السبب أيضا تنطوى كتب الفقه الاسلامية على العبادات التى لا مكان لها فى فقه الأمم النصرانية وكفى ذلك برهانا على عظيم شان القرآن فى الهيئة الاجتماعية الاسلامية ودخول أحكامه فى أمور دنيوية فقط عند النصارى – ص ٩٩ ٠

ومما ذكرته كتب التاريخ الاسلامى عن علاقة المسلمين بالمسيحيين – وفق التوجيه النبوى ٠

ما ذكره ابن سعد فى طبقاته عن كتبه ورسائله الى الأساقفة وديار المسيحية فى العرب وما اوصى به سفراءه : يذكر ابن سعد فيروى :

وكتب رسول الله لأسقف بنى الحارث بن كعب وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم أن لهم على ما تحت أيديهم من قليل وكثير من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم وجوار الله ورسوله لا يغير أسقف عن عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته ولا كاهن عن كهنوته ولا يغير حــق من حقوقهم ولا سلطانهم ولا شيء مما كانوا عليه ما نصحوا أو أصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين (٢) ٠

---

(١) تاريخ الاداب العربية – كارلوا نلينو ط ٢ – دار المعارف ٠

(٢) طبقات بن سعد جـ ١ ص ٢٦٦

وكتب الى ضغاطر الأسقف :

سلام على من آمن أما على أثر ذلك فان عيسى بن مريم روح لله وكلمته ألقاها الى مريم الزكية وانى أومن بالله وما أنزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون والسلام على من اتبع الهدى ..

وفى بعض كتبه لأهل نجران يقول صلى الله عليه وسلم : ولنجـــران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمـــد النبى رسول الله على انفسهم وملتهـم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وبيعهم وصلواتهم لا يغير أسقفا عن أسقفيته ولا راهبا عن رهبانيته ولا واقفا عن وقفانيته وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير وليس ربا ولا دم جاهلية ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ..

الى أن قال : وعلى ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبى أبدا حتى يأتى الله بأمر ان نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ..(١)

---

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٢٦٦

الباب الثالث

الصابئة والمجوسية

* تاريخ الصابئة
* الصابئة فى جزيرة العرب
* أقسامها
* أصول فكرها

تاريخ الصابئة وجغرافيتها الفكرية :

من الملل والنحل التى تحدث عنها القرآن ـ وهو يذكر الأديان والملل : الصابئة ، والصابئة من الملل التى أثار القرآن بعض قضاياها ، وعرض لهـا بالنقاش والجدل فى أكثر من موضع ، وكان من أهمها : « بشرية الرسول » ٠

كذلك عرض لهـا : حين عرض لمقابلها وهو الحنيفية ملة ابراهيم الكبرى كما وصفها القرآن ، فالصبوة ـ كما يذكرها المؤرخون للاديان ـ فى مقابلة الحنيفية(١) ٠

فمن الناحية التاريخية : الصابئة سابقة على الحنيفية التى جاءت مجادلة ومناقضة لها ، يقول الشهرستانى :

وكانت الفرق فى زمان ابراهيم راجعة الى صنفين اثنين :

ـ الصابئة ٠

ـ الحنفـاء ٠

فان كان هذا النص يفيد : أن الفرقتين متساويتان فى النشأة التاريخية فنرى أن هناك من النصوص التى ذكرها الشهرستان : ما تصرح بأسبقية الفكر الصباى على الدين الحنفى ، وذلك حينما : رد فكرهم ـ بتصريحهم ـ الى « عاذيمون » و « هرمس » ورد الحنفيـة الى رأس الحنفاء «ابراهيم»(٢) ٠

والصـابئة كذلك : أقدم من المجوسية ، التى ترتد فى نشـاطها الى «زرادشت»(٣) الذى ظهر فى ملك «بختنصر» الذى جاء بعد «النيروز» بكثير وهو الذى أرسل اليه نبى الله ابراهيم على بعض الروايات التاريخية ٠

من هنا كانت الصابئة من أقدم المذاهب فكرا ٠

---

(١) الملل والنحل ص ٦ ج ١ للشهرستانى المتوفي ٥٤٨ هـ تخريج د / محمد بن فتح الله بدران ، الانجلو ج ١ ، ٢ ٠ وفتح البارى لابن حجر المتوفي سنة ١٨١ ج ١٠ عن أبى بكر الرازى قال : وهم الذين بعث اليهم ابراهيم ٠ والنيسابورى في تفسيره على هامش الطبرى المسمى غرائب القرآن ورغائب الفرقان ص ٣٠١ قال : الذين جاءهم ابراهيم ٠

(٢) الشهرستانى ص ١٠ ج ١ ٠

(٣) مروج الذهب للمسعودى ص ١٧١ ج ١ ـ دار الشعب المتوفي سنة ٣٤٦ ٠

يروى الطبرى : أنهم كانوا بجزيرة « الموصل »(١) ويؤكد هذا النقل المسعود(فيقول : وديارهم بين : بلاد واسط ، والبصرة من أرض العراق(٢)٠

وينقل ابن حجر : كان اهل بابل قوما صابئين(٣) ٠

ويقول النيسابورى : وينسب هذا المذهب الى الكلدانيين(٤) ٠ ويتوسع الشهرستانى فيجعلها تشمل : النبط ــ الفرس ــ الروم ــ الهند(٥) ٠

فهذا المذهب كان واسع الانتشار الجغرافى ، وأمته من الأمم الكبار ٠ وقد اختلف فيه اختلافا كثيرا بحسب ما وصل اليهم من معرفة هذا المذهب ٠ ويفيد نقل الشهرستانى : أنه شمل دولا من الشرق ، ودولا من الغرب ٠

والنقول السابقة ــ عدا توسع الشهرستانى ــ تفيد : أن هذا المذهب نشأ فى بلاد شرقية ، وكانت الدول التى تميزت وتفردت بالسيادة فى الشرق هى دولة الفرس ٠

ودولة الفرس : هى التى حكمت تلك المناطق الجغرافية التى ذكرها الرواة والدولة الرومانية تارة أخرى ٠

فالفرس أخذت الملك من البابليين ، كذلك العراق كانت تحكم تحت حكم ملوك الفرس الأولى ، والثانية ٠

ويقول المسعودى : وان أنهار العراق احتفرت فى عهدهم آخذة من الفرات(٦) فيكون أول الصابئة ظهر فى احــدى ولايات دولة الفرس ٠

يتابع ويقول : ظهر فى ملك « طهمورث » ــ من ملوك الفرس الأولى ــ رجل وفد من الهند ، يقال له : « بوداسف » أحدث مذاهب الصابئة (٧) ٠

---

(١) تفسير جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ص ٢٥٢ ج ١ ط الاميرية ٠

(٢) مروج الذهب نفس الصفحة ٠

(٣) فتح البارى ص ١٨١ ج ١٠ ٠

(٤) تفسيره السابق ج ١ ص ٤٠٣ ٠

(٥) الملل والنحل ص ٢١٠ ج ١ ٠

(٦) مروج الذهب ص ١٦٥ ج ١ ٠

(٧) نفس المرجع ص ١٨٨ ج ١ ٠

ويقال أن هذا الرجل : أول من أظهر آراء الصابئة من الحرانيين والكيماريين ٠

وهذا النوع من الصابئة مباين للحرانيين فى نحلتهم القديمة ٠

وقول المسعودى يفيد : أن نشاتها الأولى فى حران ، وما ينسب لبوداسف هو أنه أظهر آراءهم القديمة ، ونرجع ظهور نشاطها بين ملوك فارس الأولى لميولهم الدينية ، فورد فى وصايا أردشير لابن سابور :

يا بنى : ان الدين والملك : أخوان ، لا غنى لواحد منهما عن صاحبه، فالدين أس الملك ، والملك حارسه ، وما لم يكن له أس : فمهدوم ، وما لم يكن له حارس : فضائع ٠

كذلك من ينظر فى موضوعات عبادتها : يجد بينها وبين اهتمامات الدولة الفارسية شبها كبيرا ، فالمسعودى تحدث عن أعمال ملوك فارس الأولى قائلا :

وتكلم هؤلاء القوم فى مراتب الألوان : من الحمرة ، والسواد ، ومراتب الأنوار : وما وراء ذلك من أسرار الطبيعة ٠

ثم قال : وتغلغل القوم فى هذه المعانى : الى ما علا من الأجسام السماوية من النيرين والأفلاك واختلافها فى الوانها والى غير ذلك من الأشخاص العلوية ٠

هذا التسطيح الفكرى : قابل لأن يجعل منه « بوداسف » مظاهر العبادة ميقول : ان معالى الشرف الكامل ، والصلاح الشامل ، ومعدن الحياة فى هذا السقف المرفوع ، وفى النجوم السيارة ، وفى أفلاكها : التدبير الأكبر(١) ٠

وفى المناظرة التى أوردها الشهرستانى فى كتابل الملل والنحل : ما يفيد أن صاحبها الأول « هرمس » ، « وعاذيمون » لكن بعد انتهاء المناظرة استبعد(٢) الشهرستانى : أن يكون « هرمس من الصابئة » ٠

---

(١) نفس المرجع ص ٦٩ ج ١ ٠

(٢) يقول : وكان في الخاطر بعد : زوايا ، نريد نمليها ، وفي القلم خفايا : اكاد أخفيها ، نعدلت عنها : الى ذكر « حكم هرمس العظيم ، لا على انه من جملة فرق الصابئة ، حاشاه ، على ان حكمته تدل على تقرير مذهب الحنفاء » ص ٤٦ ج ٢ ٠

وربما يقصد الشهرستانى من نفيه عن « هرمس » : أن يكون من الصابئة ، يقصد ذلك النوع الذى نص عليه المسعودى — وهو متقدم عـلى الشهرستانى — : الذى ينسبه الى « بوداسف » الهندى الذى أظهر نوعا معينا من « الصابئة » هذا النوع من الكيماريين ٠

ويبدو أن « بوداسف » الهندى أظهر نوعا معينا من الصابئة « هذا النوع من الصابئة مباين للحرانيين فى نحلتهم » كما يروى المسعودى ٠

وفى نظرنا : يمكن أن ينصرف استبعاد الشهرستانى لـ « هرمس » أن يكون من الصابئة أى هذا النوع الذى أظهره « بوداسف » وهذا النوع الذى أظهره ٠ هو الخاص بعبادة الكواكب ٠

ويؤكد احتمالنا ما رواه ابن النديم عن الكندى أنه قال : انه نظر فى كتاب يتربه هؤلاء القوم : وهو مقالات « لهرمس » فى التوحيد كتبها لابنه على غاية من التقانة فى التوحيد ، لا يجد الفيلسوف اذا اتعب نفسه مندوحة عنها والقول بها(١) ٠

فهرمس يعتبر مؤسس مذهب التوحيد : فى الصابئة و « بوداسف » أحدث الوثنية : فى التوحيد ٠

وعلى ذلك يكون « هرمس » و « عاذيمون » أوجدا الصابئة الأولى : التى تدعو الى الروحانية ، و « بوداسف » أحدث مذاهب عبادة الكواكب وذلك ما تقرره مصادر الاسلاميين (٢) ٠

وسواء أكانت الصابئة الأولى — تعبير الشهرستانى — أم صابئة بوداسف تعبير المسعودى : فانهما معا نبت فكرهما فى الشرق فى بعض المناطق العربية فى بلاد الرافدين ٠

يقول صاحب بلوغ الأرب (٣) : والصابئة قوم ابراهيم : كانوا بحران، فهى دار الصابئة الأولى وكانوا قسمين :

---

(١) الفهرست لابن النديم المتوفي ٣٨٥ هـ ص ٤٤٥ المكتب التجارى .

(٢) يقول ابن حجر في فتح البارى جـ ١ ص ٣٧ رواية عن غيره : هم منسوبون الى صابى بن متوشلخ عم نوح وهذا رأى ثالث يذهب بها بعيد الى نوح ..

(٣) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ص ٢٤ جـ ٢ السيد محمود شكرى الالوسى البغدادى سنة ١٢٧ عنى بنشره محمد بهجة الاثرى جـ ٢١ سنة ١٩٤٢ .

— صابئة حنفاء .

— صابئة مشركون(١).

قال ابن حزم : وكان الذى ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الأرض والغالب على الدنيا ويقول : وهم المكذبون بنبوة ابراهيم(٢) .

انتقالها الى جزيرة العرب :

ولما كانت صلة جزيرة العرب بالفرس قديمة ، من حيث متاخمة الحدود والعلاقات السياسية ، فانه لمن المنتظر : أن نرى انتقالا فكريا ، يتناسب مع طبيعة عقل البدوى ، وهذه العلاقات قديمة ، حتى قيل : أن من ملوك الفرس الأولى من عرب الضحاك (اسمه : بيوراسب) ، وزعموا أنه من اليمن قال الشاعر العربى :

وكان منا الضحاك تعبده الـ جامل والوحش فى مساربها(٣)

ويذكر المسعودى : أن الناس تنازعوا فى ملوك الطوائف أمن الفرس كانوا ، أم من النبط ؟ أم من العرب ؟

وكانت ملوك العرب من مضر بن نزار بن معد من اليمن .

وقد قيل ان أول من نزل من الملوك ببلخ وانتقل عن العراق « يكادوس » وقد كان سار نحو اليمن بعد أن كان له بالعراق — تمرد على الله — ببنيان بناه لحرب السماء .

وملك اليمن الذى سار اليه « كيكاووس » فى ذلك الوقت « شموين فريقس » .

---

(١) يقول عمر بن الخطاب عندما سأله نعيم بن عبد الله : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمدا : هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش .

قال جميل : يا معشر قريش قد صبا عمر !

رد عليه عمر : كذبت ولكنى أسلمت وشهدت أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله . يراجع بن هشام ص ٢١٩ .

(٢) الفصل لابن حزم ج ١ ص ١٠٢ .

(٣) الجامل : جماعة الجمال .

قال المسعودى :

« وقد كانت أســلاف الفرس تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيما له » ٠

وكان آخر من حج منهم ــ الفرس الأولى ــ « ساسان » و « ساسان ابن بك » أهدى غزالتين من ذهب وجواهر قذفها فى زمزم ٠

قال المسعودى : وقد ذهب قوم من مصنفى الكتب فى التواريخ وغيرها من السير أن ذلك كان لجرهم حين كانت بمكة(١) ٠

قال معلقا : وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف لها ٠

فمتاخمة الجزيرة لتخوم الفرس ، وعلاقاتها بها من الناحية الاقتصادية والسياسية ورحلات العرب التجارية : صيفا وشتاء ، تحدث عنها القرآن فقـــال :

لايلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ٠٠٠ السورة ٠

يفيد أنه كما تبودلت السلع التجارية بين العرب وجيرانهم ، تبادلوا معهم افرازات العقول والآراء على قدر ما لهم من حظ العقل ونصيب من الفكر والرأى ٠

وهذا طريق طبيعى لروافد انتقال الاراء الفكرية لأى امة من الأمم ، وأمة العرب ليست بدعا فى ذلك ٠

فاتصالات العرب التجارية بالعراق والشام زودت فى العرب خبرة النقل التجارى والفكرى ٠ بيـــد أن الشهور الطوال التى كان يضربها بابله عبر الصحراء قللت من اهتماماته الفكرية فكان حظه من النقل الثقافى يبـــدو متواضعا بل وساذجا ، لا يتكافأ مع نقله التجارى ٠ كذلك ميلهم الى الشعر يجعلهم ينأون عن استبطان الأمور ٠ ومع ذلك يمكن أن نقول : من هـــذا الاهتمام الضئيل بالمعرفة انتقلت ألوان شاحبة من الصائبة الى الجزيرة العربية ٠

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ص ١٦٦ ــ ١ عن كتاب «السكيكين» ترجمة : عبدالله بن المقفع من الفارسية الاولى ذكره المسعودى واخذ منه النص السابق وقال عنه : الكتاب تعظمه الفرس لـــا قد تضمنه من خبر أسلافهم ٠

فلم يتفرغ دارس من العرب لدراستها انما نقل منها شوائب ألم بها العربى : من تاجر عامله معاملة الصائبة ، فاذا أعجبته نقلها ، ولن عافها نبذها من غير سؤال عنها فى الحالين . ينقل الشهرستانى « ان لهم حدودا وأحكاما » أى أن للصابئة شريعة عملية وذات كيان فكرى وان صح ما تلناه تكون انتقلت الى جزيرة العرب اسما من غير مضمون فكرى لأن استعمالها فى اللسان العربى جعلها بمعنى : مال أو خرج ، أو طلع ، وليست اسما لمذهب فهو لفظ أطلقه العرب على خوارج الجاهلية ، أى الذين خرجوا عن دين الجاهلية ، وعلى كل من استحدث دينا غير دينه . وهم الذين أطلق عليهم صابئة الحنفاء . هـذا الاطلاق فى حد ذاته يرشح رأينا أنها انتقلت اليهم من غير مضمون فكرى .

أو يكون المذهب الصبأى انتقل بمضمونه الفكرى منذ رحلة ابراهيم واسماعيل . ونحن نعلم : أن ابراهيم واسماعيل استوطنا الجزيرة العربية .

هذا الفرض له من آيات القرآن ما يؤيده .

منها ما ورد فى سورة ابراهيم : قال تعالى : « واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام . رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن اتبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم .

ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم : ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » (١) .

ومنها ما ورد فى سورة البقرة فى قوله تعالى : واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا ... الاية .

كذلك ذكر القرآن الكثير من مجادلات ابراهيم للصابئة .

وهناك جانب آخر ذكره انتونى نتنج(٢) ، أنه خلال فترة قصيرة حكم الكلدانيون الشام وبلاد شبه جزيرة العرب وجنوب تركيا خلفا للأشوريين .

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٣٧ .

(٢) يراجع : العرب ص ٦ ترجمة : د . راشد البراوى ، الناشر الانجلو المصرية .

ومع هذا تكون الصابئة دخلت الجزيرة العربية منذ نبى الله ابراهيم واسماعيل بمضمون فكرى غير أنها على هذا الفرض ، دخلت مقابلة للحنيفية وبناء على هذا جعل القرآن ـ والعرب قبله ـ كل من يقابل الحنيفية صابئا ٠

فمن يوم أن دخل مذهب الصابئة العقدى شبه الجزيرة العربية دخل مضطهدا تحدوه لعنات نبى الله ابراهيم أبى الأنبياء ٠ وبهذا نستطيع أن نفسر عدم انتشاره فى الجزيرة العربية ٠ كذلك نستطيع ان نفسر اضطهاد الذين اعتنقوه لأنهم كانوا فى عرف الجاهلية : خارجين عن دين الجماعة ٠

وعندما جاء الاسلام : أكد نبذ هذا المذهب ، ولما لم يكن له كتاب يحمل مكوناته الفكرية ، فقد ضاع ولم يبق منه سوى : مسائل وقضايا عرض لها القرآن ٠

بسبب كل ذلك تعرض المذهب الصابىء لوسائل الضياع المتعددة الكفيلة بمحوه : من عدم كتاب له ومن اضطهاد ومكافحة الى نبذ معتنقيه ، كل ذلك لازم المذهب الصابىء منذ دعوة نبى الله ابراهيم ٠ والاسلام عندما عرض لها مناقشا كان ذلك منه لخطورة قضاياها الدينية وأهمها :

منعهم : أن يكون النبى وسيطا يبلغ عن الله لأنه بشر وأحلوا محله فى الوساطة « النيرات » ثم عبدوها ٠

والاسلام اذ يعرض لها بالنقد الجدلى ، لا يستقى معلوماته من صحف ابراهيم ، فانها لم تكن موجودة لدى العرب ، ولا يستقيها من مصادر أصحابها ، لأنهم لم يكونوا على علم كامل بها ، انما ذكرها له الوحى من حيث قضاياها الفكرية التى قد يثيرها العقل الانسانى ، ويحبب له الجدل فيها ٠ فما أثار القرآن من قضايا حولها كانت تهم الصابئة الأولى والصابئة الأخرى وذلك ما لم يتح للعربى الاضطلاع به أو الاطلاع عليه ٠ ففكر القرآن عن الصابئة كان وحيا لكونه أوسع مما كان يعرفه العرب عنها بل وأوسع مما يعرفه الصابىء العربى وغيره عن مذهبهم ، وفى هذا ما يؤكد : أن فكر القرآن عن

الأديان كان فكرا عالميا ، أى يهم النوع الانسانى المفكر ، دون نظر منه الى مكونات العرب الفكرية خاصة ٠

وفى القرآن آيات تدل على أن عبادة الكواكب دخلت اليمن كما قصتها علينا سورة النمل :

قال تعالى : وتفقد الطير :

فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟

لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتنى بسلطان مبين ٠

فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ٠

انى وجدت امرأة تملكهم واوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ٠

وجدتها وقومها : يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ٠

ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ٠٠٠ آيات ٢٠ ــ ٢٥ ٠

وفى هذا يقول البلخى فى كتاب البدء والتاريخ : من قبائل الصابئة : سبأ الحميرية أول من دان بها من العرب : يعبدون الشمس ٠

وكنانة : تعبد القمر ٠

وجرهم : المشترى ٠

قريش : عبدوا الشعرى « الشعرى اليمانية » ٠

فقد ساد فى جنوب الجزيرة العربية ثالوث من الكواكب ــ وفى أرض الرافدين منشأ الصابئة :

ــ اله نجمة الصباح :

هو عشتر : لدى البابليين والأشوريين ٠

وعشترت : لدى الكنعانيين ٠

ــ اله القمر : هو ود : عند المعينيين ٠

والمقد : عند السبئيين ٠

وعم : فى قتبان ٠

وسين : فى حضرموت ٠

ـــ اله الشمس : اسمه فى قتبان ، وحضرموت : شمس • وشمش : فى رضى الرافدين •

فهذه الصلات تؤيد أن كثيرا من العناصر الدينية فى الشعوب السامية كان يتوقف بعضها على بعض (١) •

ولعل فى تسميتهم : بعبد شمس ، وعبد اللات ، وعبد الشعرى ، ما يفيد عبادتهم للكواكب •

أنبثت مظاهر الصابئية فى الوثنية العربية فارتفعت من مظاهر مادية فى الأرض الى عبادة النيرات أو أفلاكها فى السماء ، فالمذهب الصبأى أثر كثيرا فى الوثنية العربية . ورضى العربى أن يأخذ منه ما يعدل به وثنيته • ففى وثنبته الكثير من العناصر الصبئية مثل عبادة الافلاك ، والحنيفية مثل الكعبة ، والوثنية اليونانية مثل عبادة التماثيل ، فخلطوا بينها وبين وثنيتهم وبينها وبين الحنيفية ، لذلك قلنا : أن ما لديهم من مذاهب الصابئة يعتبر الوانا شاحبة •

وينقل الرواة ــ كما نقلوا من قبل ان عمرو بن لحى أول من نصب الاصنام ــ ينقلون أيضا : أن أبا كبشة هو أول من أتى بعبادة النجوم اليهم ويصبح مفاد الروايتين أن الوثنية العربية قد وفدت الى العرب من بلاد خارج الجزيرة العربية •

معنى الصـــابئة :

رأينا فيما سبق من القول : أن الصابئة نشأت أول ما نشأت فى العراق ، سواء أكانت الصابئة الأولى التى أنشأها « هرمس » ، أو الصابئة الأخرى التى نسبت الى « بوداسف » ، فان النشأة كانت فى العراق وبعض من بلاد فارس •

فهل يا ترى عندما نقلت الكلمة الى الجزيرة العربية نقلت من مصدرها الى العربية كما هى ؟ أم ترجمها العرب عن أصلها الفارسى أو الارامى ؟

---

(١) الحضارة السامية القديمة .
تأليف سبتينو موسكاتى
ترجمة : د . السيد يعقوب بكر .

لا نجد لدينا ما يرجح الاحتمال الثانى ، لأن الكلمة مجهول نسبها الى لغة معينة فيبقى الاحتمال الأول : وهو أنها نقلت الى الجزيرة العربية : واصبحت من الكلمات المشتركة بين اللغتين واللسانين العربى أو غير العربى وذلك جائز ٠

وهناك احتمال ثالث : وهو أن الكلمة وضع عربى ، وأصبحت علما على مذهب غير عربى ، وهذا ما نراه قريبا : الى الصواب ٠

وفيما وصل اليه بحثنا عن أصل الكلمة هو اننا لم نجد لها أو حولها بيتا من الشعر :تناول معتنق هذا المذهب ، مدحا ، أو قدحا — قوى النسبة لشاعر* أو منحول اليه — وهذا يجعلنا نميل الى أن هـــذا اللفظ : أطلقه القرآن اصطلاحا على مقابل الحنيفية وعلى من خالف وثنية الجاهية الأولى وليس من أهل الكتاب ٠

يقول الألوسى : اختلف فى اللفظ ٠

— فقيل : غير عربى ٠

— وقيل : عربى (١) ٠

ثم يترك الألوسى نقله « غير عربى » على عمومه من غير تعقيب يبين فيه أصل هذه الكلمة : أفارسى أم هندى أو سريانى ، أعرض عن هذا ثم راح يبين اشتقاقها العربى (٢) فقال :

— صار معتلا : بمعنى مال/قال الشاعر :

— صار معتلا : بمعنى مال/قال الشاعر :

الى هنـــد صبــا قلبى   وهنـــد مثلهــا يصبى

— وصبأت النجوم : اذا طلعت ٠

يقول ابن منظور : عنوا : انه خرج من دين الى دين ، ونقل عن ابن اسحاق الزجاج قوله فى الصابئين : فمعناه : الخارجين عن دين الى دين ٠

---

(١) روح المعانى ج ١ ص ٢٣١ — المتوفي سنة ١٢٧٠ ٠

(٢) لسان العرب ابن منظور ج ١ ص ١٠٨ يقول ابن منظور يزعمون أنهم على دين نوح وهم كاذبون ٠

وفى حديث بنى جذيمة : كانوا يقولون لما أسلموا : صبانا صبانا •

وكانت العرب تسمى النبى الصابىء(١)*

فى اللسان العبرى :

نرى كذلك الكلمة فى اللسان العبرى تفيد ما يفيده الوضع العربى :

ففى الأسفار :

— فصبأوا على مدين (٢) •

— هصبئتم على أريئل : (٣) •

— أى الصابئون على بيت المقدس •

— وردت (أريا) (٤) بمعنى : سد ، وال فى العبرية بمعنى : الله ، يعنى : ان الصابئين على بيت المقدس أسد الله (٥) •

— وورد بمعنى : الحند (٦) •

— بمعنى : الجهاد أو القتال والحرب (٧) •

---

(١) نفس المرجع ، كذلك يراجع كتاب تهذيب اصلاح المنطق شرح ابن الخيب التبريزى لمتن اصلاح المنطق لابن السكيت قال : صبا — صبا — خرج من دين الى دين •

* لم نجد فيما رجعنا اليه من مصادر اللغة العربية المختلفة بيتا واحدا من الشعر الجاهلى يفيد مدح مذهب الصابئة ، او ذمه ، وذلك — ربما — يرجع — في نظرنا — : الى انه كان مضطهدا ، ولا يستبعد هذا الاحتمال ، لان العربى وان اشتهر بالصلابه والاحتمال ، فان التاريخ لا يروى في عصره الجاهلى : موقفا يشهد لعرب الجاهلية بحبهم للاستشهاد في سبيل عقيدتهم الدينية ، وانما تواتر الينا التاريخ مأثورا عندما هبوا لمنازلة أبرهة ، انصرفوا عنه عندما عرفوا وجهته : أنه يقصد البيت ، قائلين له على لسان سفيرهم المفاوض : أما الابل فهى لى ، وأما البيت فله رب يحميه • فالعربى لا يأته لدينه ، وأثر تاريخيا أنــه استشهد في سبيل الحب : مجانين الهوى ، وبلغت شجاعتهم : أنهم كانوا لا يتهيبون من وعيد قومهم وانذارهم بالبطش •

(٢) سفر العدد ٣١ — ٧ •

(٣) آشعيا ٢٩ — ٧ •

(٤) ايوب — ١٨ — ١٠ •

(٥) ملتقى اللغتين العربية ص ٦٢ ج ١ مراد فرج سنة ١٩٣١ •

(٦) الرجس المخرب كما جاء في دانيال ١١ : ٣١ وتجعل الرجس المخرب •

(٧) سمر العــدد ٣١ — ٣ •

ـــ وأطلق على ما بالسموات من كواكب ونجوم (١) ٠

فالفعل فى اللسان العبرى يشمل : المعنى العربى وزيادة ، فيفيد معنى : تقدموا ، وتجمعوا ، أعدوا أنفسهم للجهاد لله والعمل لما يقضى به أمر الله (٢) ٠

« وصبأ » الأعداء زحفوا وهجموا ، فيها ما يحتمل أنها أطلقت لغويا وليس فيها ما يحتمل انها أطلقت على نحلة ، أو دين ، أو مذهب معين ٠

وتقول دائرة المعارف الاسلامية : أن اسم الصابئة مشتق من الأصل العبرى (ص٠ ب٠ ع) أى غطس ٠ ثم أسقطت العين وهو يدل بلا ريب : على المنديا ، أو الصبوء وهى فرقة يهودية نصرانية تمارس شعيرة التعميد فى العراق (نصارى يوحنا المعمدان) (٣) ٠

ويبدو أن اصطلاح صابئة : أطلق على جماعتين من اليهود :

الجماعة الأولى : هم اليهود الذين خرجوا على المسيح : فهؤلاء صابئة مؤمنون ٠

الجماعة الثانية : هم اليهود الذين وافقوا ٠٠ أبو للونيوس « عندما فتح أورشليم ١٦٧ ، وهو أحد قواد أنطونيوس ، هدم السور ، وبنى فى مدينة داوود قلعة جديدة ، وملأها بالجند ، وجاء فى أعقابه مندوب يحمله أمرا بتحريم الديانة اليهودية ووضع هيكل اغريقى : هو الرجس المخرب(٤) فوق المذبح اليهودى بفناء المعبد ٠ ليحل الوثنية محل اليهودية ، أو كما يقول المؤرخون(٥) ليوحد الديانة بالبلاد ، ولفق كثير من اليهود على الدخول فى تلك العقيدة الوثنية ـــ واليهودى لا يصنع تماثيل للأرباب ـــ وانضموا للحزب

---

(١) سفر العدد ٤ ـــ ١٩ ـــ ٢٧ ٠
(٢) تكوين ٢ ـــ ١ تثنية ٤ ـــ ١٩ واشعيا ٣٤ ـــ ٤ ٠
(٣) دائرة المعارف الاسلامية جـ ١٤ ص ٨٩ ٠
(٤) جاء في سفر دانيال ١١ : ٣١ وتجعل الرجس المخرب ٠
(٥) الحضارة الهلينسية : تارن ص ٢٢٩ ٠

المشـــايع للهلينستنية ، المناصر لأنطيوخوس ، فهؤلاء صـــابئة وثنيون من اليهود • *

فالمعنى فى الوضع اللغوى لكلمة صابىء لا ينبىء ، من قريب أو من بعيد ، عن معنى مقدس ، أراده العربى منها :

فالصابىء عند العربى — مع العبرى — كلمة وصفيـــة تعطى معنى « زنديق » فى العهد العباسى أو فى عصرنا •

فالعرف الجاهلى استعملها وأطلقها : على كل من خرج عن دين الجماعة أو القبيلة ، وعبر بها عن سخطه عندما أراد أن يسخط على كل من جانب دينه الرسمى أو مألوف وثنيته •

وعلى ذلك يكون معناها عند العربى واسعا : يتسع لمن استحدث دينا غير دبن قومه ، ووسعت أيضا كل من خرج من دينه الى غير دين •

يقول الطبرى : والصابئون : جمع صابىء ، وهو : المستحدث بسوى دينه دينا ، كالمرتد من الاسلام عن دينه ، وكل خارج من دين كان عليه الى آخر غيره تسميه العرب : صابئا •

ثم قال : اختلف أهل التأويل فيمن يلزمه هذا الاسم من أهل الملل :

— فقال بعضهم : يلزم ذلك : كل من خرج من دين الى دين •

— وقالوا : الذين عنى الله بهذا الاسم : قوم لا دين لهم (١) •

وهذا يذهب اليه الشهرستانى : عندما عدها نحلة ولم يجعلها دينا(٢)*

---

* يروى ابن حجر في فتح البارى ج ١ ص ٣١٠ رواية عن ابى العالية تقول : الصابئون فرق من أهل الكتاب : يقرءون الزبور ، هذا يؤيد ما ذهبنا اليه أن في اليهود صابئة .

* وتقول دائرة المعارف الاسلامية ج ٨٩ ص ٨٩ : ومن الواضح أن الصابئة الذين ذكرهم القرآن وجعلهم في ثلاثة مواضع : هم من اليهود والنصارى : يعدون من المنديا ، نلاحظ أن النص يحتوى على خطأين .

الخطأ الاول : أن القرآن ذكر الصابئة والنصارى من أهل الكتاب في ثلاثة مواضع ومعها اليهود والنصارى .

الخطأ الثانى : قوله أن اليهود والنصارى يعدون من المنديا . فان القرآن لا يستنتج منه هذه النتيجة وأن ما في القرآن يفيد : أنه مذهب يغاير لمـا عليه اليهود والنصارى لان القرآن ذكر الصابئة معهما كما في سورة البقرة أو بينهما كما في سورتى الحج والمائدة .

(١) تفسيره ص ٢٥٢ ج (جامع البيان في تفسير القرآن المتوفى ٣١٠ .

(٢) روح المعانى للالوسى ص ٢٣١ ج ١ .

*يذكر صاحب فتح البارى : رواية عن ابن مردويه باسناد حسن عن ابن عباس قال : الصابئون ليس لهم كتاب .

فعندما يستعملها العربى فانه يستعملها بمعناها اللغوى : الخروج أو الميل ، أو طلع • قال المشركون للرسول : قد صبأ •

لذلك لم يؤمن بعض العرب : برسول الله لأنهم وضعوا فى اعتبارهم : أن الرسول واصحابه من الصابئة ، أى الخارجين على دين الجماعة •

فلم يستعمله العربى بمعنى : مذهب معين ، أو نحلة معينة ، لجماعة معينة أو يكون قد استعمله لكننا لم نر لذلك نصا انما اطلاقه كان على الخارج مطلقا •

أما الاسلام : فأطلقها على صنف ذى عقيدة ، أخطأت تنزيه الله ، فوسطت الكواكب بينها وبينه ، اذ الكواكب فى عرفهم : تحتوى على النور الالهى •

وبعضهم عبد الملائكة لخاصتها الروحانية ، وكان ذلك اجتهادا منهم او توجيها من بعض حكمائهم •

يقول أبو حنيفة : انهم ليسوا بعبدة أوثان ، وانما يعظمون النجوم كما تعظم الكعبة (١) •

وقيل : هم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ويقرون ببعض الأنبياء كيحيى (٢) •

لعل هذا النص ظاهر الوضع والانتحال لأنهم يقولون بالوسائط الروحانية ولا يقولون : بوسيط بشرى مثل وساطة الانبياء وهذا من أهم عقائدهم التى صادمهم فيها القرآن ، ويمكن حمله على صنف معين : صابئة المنديا أى الذين اتبعوا يوحنا المعمدان وخرجوا على تعاليم اليهود وهذا ما ذهبت اليه دوائر المعارف الأجنبية واختارته لكن المصادر الاسلامية عدتها فرقة من فرقهم •

أما نص أبى حنيفة فان القرآن يؤيده لأنه عدها وسطا بين اليهود والنصارى • ويورد الطبرى : نصا عن ابن وهب يؤكد ما ورد عن أبى حنيفة فيقول :

---

(١) نفس المرجع •
(٢) تفسيره ص ٢٥٢ جـ ١ •

الصابئون ليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبى الا قول : لا اله الا الله(١)٠
فهم قوم يعظمون الكواكب بناء على تفسيرين :

ـــ الاول : أن خالق العالم : الله الا انه أمر بتعظيم هذه الأجرام ٠

ـــ الثانى : أنه خلق الأفلاك والكواكب وفوض التدبير اليها فيجب على البشر تعظيمها لأنها هى المدبرة لهذا العالم ٠

يقول الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق(٢) :

« ومذهب الصابئة ـــ على ما يحيط بتاريخه من غموض ـــ يكاد يتم الاتفاق على أنه يقر بالألوهية ويرى أنا نحتاج فى معرفة الله ومعرفة أوامره وأحكامه الى متوسط يكون روحانيا لا جسمانيا ففزعوا الى هياكل الأرواح وهى الكواكب فهم عبدة الكواكب » ٠

بعد ما سبق نقول : ان الكلمة فى الاستعمال العربى الجاهلى أطلقت على من خرج من دينه سواء الى دين أو الى غير دين ٠ يقول ابو حيـــان المفسر : الصابئون : قيل هم الخارجون من دين مشهور الى غيره ٠

وفى الاستعمال الاسلامى تطلق على جماعة بعينها معتنقة مذهبا معينا غير الحنيفية ٠ لأن القرآن عندما يذكر الصابئة يذكرها مقترنة بدعوتها الى الاسلام أما الحنيفية فان الاسلام يصف بها نفسه ٠

وتبقى كلمة ذكرها المستشرق الألمـــانى يوليوس فلهوزن يقول فيها :

« واذا كانت أقدم تسمية أطلقها على المسلمين من لم يدخل فى زمرتهم هى تسميتهم بالصابئين فلا يمكن أن يكون لها سبب غير ذلك »(٣) ٠

يعلق الدكتور أبو ريده على هذا الهامش فيقول :

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ص ٣٠١ ج ١ للنيسابورى ٠

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق ص ١٠٢ ٠

(٣) تاريخ الدولة العربية ـ نقله من الالمانية وعلق عليه دكتور محمد عبد الهادى ابو ريده ص ٣ راجعه د ٠ حسين مؤنس ـــ الالف كتاب ١٣٦ ٠

ربما يكون قصد المؤلف ما لوحظ من شبه بين بعض عبادات الصابئة وبعض العبادات الاسلامية (١) ٠

نقول : ربما هذا ما قصده المؤلف ، أى أن الشبه بين المسلمين والصابئين هو الذى سوغ للمشركين أن يطلقوا على المسلمين صابئة بينما لو لاحظ — المؤلف — الآيات الثلاث التى تناولت الصابئين لم تعفهم من الدعوة الى الايمان والعمل الصالح وفى الأخرى تناولتهم بالانذار الشديد من الله فلم يهادنهم الرسول ، ولم يصطنع معهم دون غيرهم لينا فى القول ، انما كان موقفه يتسم بالوضوح والحسم مع سائر الأديان ولم يؤثر أن ادعى عليه أنه افتراه من الصابئة أو ادعت عليه الصابئة هذه الفرية ٠

اما من جهة اطلاق المشركين على المسلمين : صابئة ، فان هذا كما بينا كان من باب وصفهم بأنهم خرجوا على دين الجماعة الرسمى ومألوف عقائدها ٠

يقول الألوسى : وأهل دين هؤلاء فيما زعموا أنهم يأخذون محاسن ديانات العالم ومذاهبهم ويخرجون من قبيح ما هم عليه : قولا وعملا :

فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كل دين وتفصيله الا ما رأوه فيه من الحق (٢) ٠

قال ابن كثير : واظهر الأقوال : قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه : أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين انما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويتفهمونه ٠

ولهذا كان المشركون ينبذون من اسلم : بالصابىء ، أى : أنه قد خرج من سائر الأديان ، أديان أهل الأرض اذ ذاك(٣) ٠

---

(١) سالت امراة عربية : صحابيين من صحابة رسول الله : الى اين ؟ قالا : الى رسول الله ، قالت : الذى يقال له الصبانى ؟ ، قالا : هو الذى تعنين ٠ ثم لما رجعت الى قومها قالت : العجب ، لقينى رجلان : فذهبا بى الى هذا الذى يقال له الصابىء : الى آخر الحديث ٠ يقول ابن حجر في فتح البارى ج ١ ص ٣١٠ هناك فرق بين الصابىء : المراد في هذا الحديث ، والصابىء المنسوب للطائفة المذكورة ٠

(٢) بلوغ الارب ص ٢٥٢ ج ٢ : الألوسى ٠

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠٣

أقسام الأصـــابئة(*)

اولا ـــ الصابئة الأولى أو صابئة الحنفاء :

أصل فكر الصابئة الأولى من وجهة نظرنا : القول باحتياجها فى معرفة الله ، ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه : الى متوسط • والتى يقال عنها : انها تنسب الى « هرمس » و « أنماثاذيمون » على ما تذهب اليه مصادر الاسلاميين •

(*) ولعل احسن من توسع في هذا البحث وبين الفرق الصابئية مستندا الى العقل والنقل هو بن الامام ابو الحسن على بن محمد المكنى بأبى على بن سالم التغلبى الفقيه الاصول الملقب سيف الدين الامدى المتوفي عام ٦٣١ هـ . فقد ذكر في كتاب خطى له يدعى (كتاب ابكار الافكار) حقق بعضه د . احمد المهدى . أن أشهر فرق هذه الملة اربع وهي :

الفرقة الأولى

اصحاب الروحانيات : وقد يقال ذلك بالرفع اخذا من الروح وهى جوهر ، وقد يقال بالنصب وهو حالة خاصة به . وقد زعم هؤلاء ان أصل وجود العالم يتقدس عن سمات الحدث وهو اجل واعلى من ان يتوصل الى جلاله بالعبودية له والخدمة من السلفليات وذوات الانفس المنغمسة في عالم الرذائل والشهوات وانما يتقرب اليه بالمتوسطات بينه وبين السلفيات وهى أمور روحانية مقدسة عن المواد الجرمانية (نسبة الى الجرم) والقوى الجسمانية والحركات المكانية والتغيرات الزمانية في جوار رب العالمين . مجبولون على تقديسه وتمجيده وتعظيمه دائما وسرمدا . قالوا . وهم آلهتنا وأربابنا ورسائلنا الى حاجاتنا وبهم يتقرب الى الله تعالى. وهى المدبرة للكواكب الفلكية والمدبرة لها على التناسب المخصوص حيث يتبعها انفعالات في العناصر السفلية . وحركات بعضها الى بعض وانفعال بعضها عن بعض عند الاختلاط والامتزاج المفضى الى التركيب الموجب لتنوع المركبات الى انواع المعادن والنباتات والحيوانات وتصريف موجودات الاعيان من حال الى حال ومن شان الى شان الى غير ذلك من الآثار العلوية والسفلية .

وزعموا أن الكواكب الفلكية هى هياكل هذه الروحانيات وان نسبة الروحانيات اليها في التقدير لها والتدوير ، نسبة الانفس الانسانية الى ابدانها وان لكل روحانى هيكلا يخصه ولكل هيكل فلكا يكون فيه . وزعموا أن المعرف لهم (غارميون وهرمس) اللذان هما اصل علم الهيئة وصناعة النجامة . وهرمس هو اول من قسم البروج ووضع اسماءها واسماء الكواكب السيارة ورتبها في بيوتها وبين الشرف والوبال والاوج والحضيض والمناظر والتثليث والتسديس والتربيع والمقابلة والمقارنة والرجوع والاستقامة والميل والتعديل . واستقل باستخراج اكثر الكواكب واحوالها . وقيل ان غارميون هو شيت وهرمس هو ادريس (ع) .

الفرقة الثـــانية

اصحاب الهياكل : فانهم قالوا اذا كان لابد للانسان من متوسط فلابد من أن يكون ذلك المتوسط كما نشاهده ونراه حتى نتقرب اليه . والروحانيات ليست كذلك فلا بد من متوسط بينها وبين الانسان ، واقرب ما اليها هياكلها فهى الآلهة والأرباب المعبودة والله تعالى

. . . .

رب الارباب واليه التوسل والتقرب . فان التقرب اليها ، تقرب الى الروحانيات التى هى كالارواح بالنسبة اليها . ولا جرم انهم دعوا الى عبادة الكواكب السبعة السيارة ثـم أخذوا في تعريفها وتعريف أحوالها بالنسبة الى طبائعها وبيوتها ومنازلها ومطالعها ومغاربها واتصالاتها ونسبتها الى الى الاماكن والازمان والليالى والساعات وما دونها الى غير ذلك . ثم تقربوا الى كل هيكل وسألوه بما يناسبه من الدعوات فيما يناسبه من الاماكن والازمان واللباس الخاص به والتختم بالخاتم المطبوع على صورته . والهياكل عندهم أحياء ناطقة بحياة الروحانيات التى هى ارواحها ومتصرفة فيها . ومنهم جعل هيكل الشمس رب الهياكل والارباب . وهذه الهياكل هى المدبرة لكل ما في عالم الكون والفساد على ما سلف في تعريف مذهب الفريق الاول . وربما احتجوا على وجود هذه المدبرات وأنها أحياء ناطقة بأن حدوث اذ الكلام فيه اما ان يكون مستندا الى حادث أو قديم ولا جائز أن يكون مستندا الى حادث اذ الكلام فيه كالكلام في الاول والتسلسل والدور محالان فلم يبق الا أن يكون مستندا الى ما هو في نفسه قديم وذلك القديم اما أن يكون موجبا بذاته أو بالاختيار . فان كان الاول ، فاما أن يكون كل ما لابد منه في ايجاد الحوادث متحققا معه ، أو انه متوقف على تجدد . فان كان الاول فيلزم قدم المعلوم والقدم علته وشرطه مجاد . وان كان الثانى ، فالكلام في تحديد ذلك الامر . كالكلام في الاول وهو تسلسل . فلم يبق الا أن يكون فاعلا مختارا وليس في عالم الكون والفساد فاعل قديم مختار الا الافلاك والكواكب ولذلك حكموا بكونها احياء ناطقة .

الفرقة الثـالثة

اصحاب الاشخاص : وهؤلاء زعموا انه اذا كان لابد من متوسط مرئى فالكواكب وان كانت مرئية ، الا أنها قد ترى في وقت دون وقت لطلوعها وأفولها وظهورها وصفائها نهارا فدعت الحاجة الى وجود أشخاص مشاهدة نصب اعيننا تكون لنا وسيلة الى الهياكل التى هى وسيلة الى الروحانيات التى هى وسيلة الى الله تعالى . فاتخذوا لذلك اصناما وصورة على صور الهياكل السبعة . كل صنم من جسم مشارك في طبيعته لطبيعة ذلك الكوكب ودعوه وسألوه بما يناسب ذلك الكوكب في الوقت والمكان واللبس والتختم بما يناسبة والتحيز المناسب له فلى حسب ما يفعله أرباب الهياكل الا أنها هى المعبودة على الحقيقة . وهذا هو الاشبه بسبب اتخاد الاصنام . ويحتمل أن يكون اتخاذ الاصنام بالنسبة الى غير هـذه الفرقة وتعظيمها لاتخاذها قبلة لعباداتهم أو لانها على صورة بعض من كان يعتقد فيه النبوة والولاية تعظيما له . أو لان قدماء أرباب الهياكل والاصنام وعلماءهم ، ركبوا فراغ طلاسم ووضعوها فيها وامروهم بتعظيمها لتبقى محفوظة بها . والا فاعتقاد الألوهية فيما اتخذوه صورا من الاخشاب والاحجار وكونه خالقا لمن صوره ومبدعا لمـا وجودة قبل وجوده من العالم العلوى والسفلى ، مما لا يستجيزه عقل عاقل . بل البداهة شاهدة برده وابطاله وان وقع ذلك معتقدا لبعض الرتاع (كذا) ومن لا خلاق له من العوام منهم ، فلا يلتفت اليه ولا معول عليه .

الفرقة الرابعـة

الحلولية . (وقد سماها ابن بطوطة وغيره من ثقات المؤرخين بالحرانية وهو الاصح عندنا) وهؤلاء زعموا ان الاله المعبود واحد في ذاته وأنه أبدع اجرام الافلاك وما فيها من الكواكب وجعل الكواكب مدبرة لما في العالم السفلى فالكواكب آباء أحياء ناطقة والعناصر

والحنفاء : هم الذين اتبعوا ملة ابراهيم · وعندما يرتبط الاصطلاحان ببعضهما يصبح المعنى الاصطلاحى مغايرا لكل من الاصطلاحين على حـــدة وينفرد بمعنى جديد وسوف نتتبع معالمه : فالصائبة كانوا يرون فى الوسيط : وجوب روحانيته ، وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها ، وقربها ، من رب الأرباب · وروحانية الوسيط ـــ يرون فيها ـــ أنها تتنافى مع الجسمانى ، فجسمانية الوسيط تجعله بشرا مثلنا ، يحتاج مثل ما نحتاج اليه : من أكل وشرب ، ويماثلنا ، فى المادة ، والصورة ، عبر ، عن هـــذا المعنى الفكرى القرآن فقال عنهم حاكيا :

« ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون » ·

فهم يرون : أن بشرية الوسيط تتنافى مع وساطته وعدم الجمع بينها وبين النبوة ، فبشريته تحجبه عن الاتصال بالله ، يبنون ذلك على أصل فكرى لديهم يقول : أن أصل وجود العالم يتقدس أن يتوسط بينه وبين عالم الأرض بشر من الأرض أو النفس الانسانية لتغلبها فى عالم الرذائل والشهوات وانما يتقرب اليه وسيط من القوى الروحانية المفارقة للمادية قالوا عنها : هى آلهتنا وأربابنا ورسائلنا الى حاجتنا وبهم يتقرب الى الله وهى المدبرة للكواكب ·

ثم قالوا ـــ من وجهة نظرهم ـــ : أن الكواكب الفلكية هى هياكل هذه الروحانيات وأن نسبة الروحانيات اليها فى التدبير لها نسبة الأنفس

امهات وما تؤديه الاباء الى الامهات ، تقبلها بارحامها فتحمل من ذلك المواليد وهى المركبات والاله تعالى يظهر في الكواكب السبعة ويتشخص بأشخاصها من غير تعدد في ذاته وقـد يظهر ايضا في الاشخاص الارضية الخيرة الفاضلة وهى ما كان من المواليد وقد يتركب من صفو العناصر دون كدرها واختص بالمزاج القابل لظهور الرب تعالى فيه ، اما بذاته واما بصفة من صفات ذاته على قدر استعداد مزاج ذلك الشخص · وزعموا أن الله يتعالى عن خلق الشرور والقبائح والاشياء الخسيسة الدنيئة كالحشرات الارضية ونحوها بل هى لازمة ضرورة اتصالات الكواكب سعادة ونحوسة واجتماعات العناصر صفوة وكدورة · وزعموا ايضا انه على راس ستة وثلاثين الف سنة واربعمائة وخمس وعشرين سنة يحدث روحانى على راس الدور الآخر وكذا الى ما يتناهى ، وأن الثواب والعقاب على اعمال الخير والشر كل دور واقع لكن في الدور الذى بعده في هذه الدار لا في غيرها · من كتاب السيد عبد الرازق الحسينى : الصابئة قديما وحديثا ·

أعطانا نسخه منه زميلنا الدكتور مصلح بيومى

الانسانية الى أبدانها ، وأن لكل روحانى هيكلا يخصه ولكل هيكل فلكا يكون فيه (١) :

ـــ فهم يؤمنون بالله •

ـــ يؤمنون بالوسيط من العالم العلوى مثل : النـــيرات لشفافية نورها وروحانيتها ، فهم يقدسونها دون العبادة •

ـــ ينكرون : أن النبوة تجامع البشرية •

وهؤلاء هم الذين قال فيهم أبو حنيفة : أنهم ليسوا بعبدة أوثان انما يعظمون النجوم كما تعظم الكعبة • وقول أبى حنيفة : يلقى مزيدا من الفهم للوسيط حيث يجعل تعظيمهم للنجوم ليس تعظيم عبادة انما تعظيم تقديس كما تعظم الكعبة •

لكن ابن كثير قال : اختار الرازى أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء ، أو بمعنى أن الله فوض لها تدبير أمر هذا العـــالم •

ثم قال : وهذا القول هو المنسوب الى الحرانيين الذين جاءهم ابراهيم ردا عليهم ومبطلا لقولهم •

قال ابن كثير : قال القرطبى والذى تحصل من مذهبهم فيما ذكر بعض العلماء : أنهم موحدون ويعتقدون تاثير النجوم وأنها فاعلة • يبـــدو أن ما اختاره الرازى وما حصله القرطبى متعلق بنوع معين هم الكلدانيين(٢) • وما قاله أبو حنيفة يصدق على اتباع « هرمس » •

ويرجع تقديسهم الكواكب لما يقررونه عن « روحانية الوسيط » فلمـــا

---

(١) يراجع الصابئة : قديما وحديثا ص ١٧ السيد عبد الرازق الحسنى تقديم أحمد زكى باشا ط ١ ١٩٢٥ المطبعة الرحمانية ـــ مصر •

(٢) يطلق على الصار العادات التنجيمية اسم عام وهو الكلدانيون ويشمل المذهب الكلدانى مجموعة من المعارف المختلطة نوعا ما •

وأولها واهمها كشف الغيب بواسطة النجوم وخاصة التنبؤ على أساس تاريخ الميلاد فالكلدانيون مجرد قراء طوالع واطلق عليهم هذا الاسم بحكم وظيفتهم لا بحكم أصلهم •

وجدوا فى النيرات ونورها شفافية الروحانيات : قدسوها ــ كما نقدس الكعبة أو كما نقدس الرسل تقديسا دون العبادة(١) ٠

يقول الألوسى : انهم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ٠

فهؤلاء هم الصابئة الأولى أو صابئة الحنفاء قال فيهم الألوسى : صابئة الحنفاء شاركوا أهل الاسلام فى الحنيفية ٠

منهم هلال بن محسن الصابىء صاحب الديوان الانشائى و الرسائل ٠

وأبو اسحاق الصابىء كان صابئا وعرض عليه عز الدولة أن يسلم فامتنع وقيل بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول فلم يفعل ٠ والصابئون يحرمون الفول والحمام ٠

يقول الدكتور زكى مبارك : ولكن حرصه على دينه لم يحل بينه وبين التحلى بأكرم الخصال فى رعاية الاسلام ٠ فقد كان يصوم رمضان مساعدة وموافقة للمسلمين وحسن عشرة منه لهم ويحفظ القرآن حفظا يدور على طرف لسانه وسن قلمه ٠

حتى لما مات بكاه الشريف الرضى فى قصيدة واستكثر الناس عليه فى دينه وجاهه ، أن يبكى رجلا صابئا : بمثل هذا الشعر الحزين ولكنه أجاب بأنه انما بكاه لفضله(٢) ٠

نأخذ على الدكتور زكى مبارك قوله : مساعدة وموافقة للمسلمين وحسن عشرة منه لهم ٠ قد يكون هذا التعليل راجعا الى حفظه للقرآن وقد يكون

---

(١) قال أبو حيان في تفسيره البحر المحيط جـ ١ ص ٥٣٩ ٠
وقيل : قوم يعبدون الكواكب ثم لهم قولان :

أحدهما : انه خالق العالم وهو الله الا انه أمر تعظيم الكواكب واتخاذها قبلة للصلاة والتعظيم والدعاء ٠ والثانى : أنه تعالى خالق الافلاك والكواكب ثم ان الكواكب هى المدبرة لما في هذا العالم من الخير والشر والصحة والمرض : فيجب على البشر : تعظيمها لانها هى الآلهة المدبرة لهذا العالم ثم انها تعبد الله وهذا المذهب هو المنسوب للذين جاءهم ابراهيم عليه السلام رادا عليهم : البحر المحيط : اثير الدين عبدالله محمد ابن على بن يوسف بن حيان الاندلسى الغرناطى الجيانى الشهير بابى حيان المولود في ٦٥٤ المتوفي بالقاهرة ٧٥٤ ٠

(٢) النثر الفنى في القرن الرابع الهجرى جـ ٢ ص ٢٩٠ دكتور زكى مبارك

حفظ القرآن راجعا الى حرصه على الأدب لا على الدين الاسلامى أما صومه رمضان فهذا يرجع الى شريعة الصابئة الحنيفية ٠

وأما تحليه بأكرم الخصال فهم قوم يخرجون على رذائل الخصال ودناءة الطبع الى كريم السجايا وطهارة الطوايا : راجع قول الألوسى السابق فى تسميتهم صابئين ، فاسحاق الصابىء كان صابئا مخلصا فما ظنه الدكتور زكى مبارك فيه وحمله على محمل حسن عشرة منه للاسلام والمسلمين هو فى واقع الأمر شريعة صابئية كما قدمنا وأما بكاء الشريف عليه انما هو كما قال بكاه لفضله ٠

ونرجع فنقول : أما تسميتهم صابئة حنفاء فمرد ذلك فى نظرنا الى أنهم وافقوا الحنيفية من حيث العقيدة : فى التوحيد ومن حيث الشريعة : فى بعض مبادئها ، لذلك صح تسميتهم بحنفاء ٠

وفارقوا الحنيفية فى انكارهم أن يكون الوسيط ــ النبى ــ بشريا ٠

وقولهم : بوسائط الكواكب لروحانيتها ونورانيتها ٠

فيقول الألوسى : ولهذا لم تكن الصابئة من الأمم المستقلة التى لها كتاب ونبى ، وان كانوا من أهل دعوة الرسل فما من أمة الا وقد أقام حججه وقطع عنه حجتها لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وتكون حجته عليهم(١) ٠

فلكونهم من قوم ابراهيم وأخذوا ببعض دينه وأعرضوا عن جانب منه أطلق عليهم « صابئة حنفاء » اى فيها جانب من الفكر الصبأى ، وجانب من الدين الحنيفى ٠

فالصابئة الأولى : كان منهم الصابئة الحنفاء ، بيد أننا بعد التعرض لشرح تسميتهم نضيف بعض تمايز رأيناه تمايزا مهما هو :

أن الصابئة الأولى : هى التى نشأت بعيدة عن الجزيرة العربية ٠

ويذكر عن بعض الباحثين :

« ان الصابئة الذين ورد ذكرهم فى القرآن سكنوا بلاد العرب ومصر

---

(١) بلوغ الارب ص ٢٢٥ ج ٢ ٠

قبل الاسلام ، وقبل النصرانية ، واليهودية ، وقد انقرضوا وعفت أخبارهم فأصبح من المتعذر علينا بيان معتقدهم بالتفصيل »(١) ·

وصابئة الحنفاء يكونون هم الذين خرجوا من الحنفية العربية الى تعاليم الصابئة التي وفدت الى الجزيرة العربية واعتنقتها « سبأ الحميرية » من هنا أصبحت صابئة الحنفاء مذهبا عربيــا له مكوناته الفكرية من أهمها انكار بشرية الرسول مع بقائهم على روحانياتهم وبقايا من دين ابراهيم · كذلك يفيد واقع تسميتهم أنهم جوزوا بفكرهم العقلي : الجمع بين دينهم ، ومذهبهم الصابىء · أى الأخذ ببعض مبادىء الوحى ـــ مذهبهم الحنيفى ـــ مع بعض مبادئهم الوضعية ـــ نحلتهم البشرية يذكر البيرونى أنه كانت لهم أصنام وهياكل كما يذكر حكاية أن الكعبة وأصنامها كانت لهم (٢) ·

ثانيا ـــ صابئة بوداسف : أو صابئة مشركون :

التراث الهنـــدى :

ظهر « بوداسف » بأرض الهند ، وكان هنديا ، وتنبأ وزعم أنه رسول الله وأنه واسطة بين الله وخلقه ·

ويفيدنا التراث الهندى : أن دعوة « ابراهما » من الدعوات الدينية (الوضعية) التى ليس لله فيها وجود ، واعتبرها الباحثون الاجتماعيون نموذجا قويا على ان الأديان ليس جميعها تدعو الى الله ·

يصدر معتقد هذه الطائفة عن فكرة تقول : « ان أول من هبط من العالم العلوى الى العالم السفلى (عقل سماوى) اكتسى بكسوة بشرية لكى يتناسل فى الأرض ويسعى فى عمارها واسمه (برهما) (٣) ·

فالهنود ـــ حسب دينهم ـــ يعتقدون أن الله جسم ، وأن الملائكة أجسام، ويرون : أن عليهم تقديس علمائهم ، وحكمائهم ، ورفع صورهم فى معابدهم

(١) الصابئة : قديما وحديثا : السيد عبد الرازق الحسنى تقديم احمد زكى باشا ـــ ط ١ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٥ .

(٢) الآثار الباقية ص ٢٠٤ للبيرونى المتوفي سنة ٤٤٠ هـ .

(٣) مفتاح الابواب ص ١٠ ٥ / ميرزا محمد مهدى خان رئيس الحكماء ط ١٢١ .

تقديسا لهم دون عبادتهم فهؤلاء — حسب دينهم — مجسمة ومشبهة ٠

قال المسعودى : وظلوا على هذا حتى نبههم بعض حكمائهم على أن الافلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية اله ، وأنها حية ناطقة ، وأن كل ما يجرى فى هذا العالم : فانما هو على قدر ما تجرى به الكواكب من أمر الله٠ فعظموها وقربوا لها القرابين (١) ٠

ومن هنا يظهر لنا أن دعوة « بوداسف » الهندى أخذ تمنابعها من التراث الهندى ، الحافل بألوان من الوثنية والشرك والزندقة ، واتخـذ (بوداسف) روافد لدعوته عبر السند ، وسجستان ، الى أن بلغ فارس وذلك فى أوائل ملك « طهمورث » ٠

يقول المسعودى : وهو — بوداسف — أول من أظهر مذاهب الصائبة ٠

وجدد « بوداسف » عند الناس عبادة الأصنام والسجود لها ، لشبه ذكرها ، وقرب لعقولهم عبادتها بضروب من الحيل والخدع ٠

فصائبة « بوداسف » : صائبة مشركون ، جانبوا الصائبة الأولى : فى توحيدها ، وانزال الوسيط معبودا غاية ، وليس وسيلة وزلفى ، وفارقوا الحنيفية : فى وحيها السماوى ، واتبعوا وثنية « بوداسف » الهندية ، ويرى المؤرخون انها أصناف :

صائبة النبط والفرس والروم : مفزعها السيارات ٠

صائبة الهند : مفزعها الثوابت ٠

صائبة فزعت الى الأشخاص التى لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى عنهم شيئا ٠

صائبة الحرانية ٠

صائبة الفلاسفة ٠

صائبة البطائح ٠

هؤلاء الاصناف من الصائبة يمكن ردهم الى مسمى واحد أطلقه القرآن ويدخلون تحته هو : « الذين اشركوا » ٠

---

(١) مروج الذهب ص ٨٩ ج ١ ٠

وذلك عندما صيروا مفهوم الوسيط فى الصائبة الأولى ـــ وكان عندهم له صفة التقديس والوسيلة ـــ الى غاية ومعبود ، كذلك حولوا مفهوم الوسيط الروحانى : الى أشكال مختلفة من الصور المادية ، فأدى هذا التحول الى دراسة الفلك وتكوين علم له ، فالذين فزعوا الى الهياكل ، التى هى السيارات السبع ، درسوا : بيوتها ومنازلها ، ومطالعها ، ومغاربها ، واتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة ، مرتبة على طبائعها ، وتقسيم الأيام والليالى والساعات عليها ، ثم تقدير الصور والأشخاص والأقاليم ، والأمصار عليها واستطاعوا من خلال رصدهم لها : أن يعينوا اليوم «زحل» أو غيره مثلا ليوم السبت ، وراعوا فيه ساعته الأولى ، وتختموا بخاتمه ، والمعمول على صورته ، وهيئته ، وصنعته ، ولبسوا اللباس الخاص به ، وتبخروا ببخوره الخاص ، ودعوا بدعواته الخاصة به ، وسألوا حاجاتهم منه ، وترتب على هذا الاتجاه الدينى نحو الكواكب : أن تسرب الى الدين نوع من الوثنية وأخلاط من الشرك هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، نتجت دراسة طيبة تكون منها علم الفلك ، ثم النهاية : خلطوا الطلسمات المذكورة فى كتب السحر ، والكهانة ، والتنجيم ، والتعزيم ، والخواتيم ، خلطوها كلها بعلم الفلك ٠

يقول ابن حجر معللا :

وكانت علومهم أحكام النجوم ، مع ذلك فكان السحرة منهم : يستعملون سائر وجوه السحر ، وينسبونها الى فعل الكواكب ، لئلا يبحث عنها وينكشف تمويههم(١) ٠

وهؤلاء هم صائبة الفرس ، والنبط ، والروم ، والهند ٠

صائبـــة الأشخاص :

أما الصائبة الذين فزعوا الى الأشخاص ، فقالوا : اذا كان لابد من متوسط يتوسل به اذا كان من الروحانيات ، فاننا لا نستطيع رؤيته ، ولا مخاطبته ، واذا أخذنا هياكلها وسائط ، فان الهياكل قد ترى فى وقت ، ولا ترى فى آخر ، لأن لها أفولا وطلوعا ٠

---

(١) فتح الباري ص ١٨١ ج ١٠ ٠

لذلك كان لا بد لنا من صور أشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب اعيننا نعكف عليها فاتخذوا : أصناما (أشخاصا) على مثال الهياكل السبعة صوروها بصورتها وراعوا فى ذلك : الزمان ، والوقت والسـاعة والدرجة الدقيقة ، فان أرادوا حاجة : تبخروا بالبخور ، وتجنبوا الساعة وراحوا يسألونه حاجاتهم ٠

فاصحاب الهياكل : هم عبدة الكواكب اذ قالوا بآلهيتها ٠

وأصحاب الأشخاص : هم عبدة الأوثان وهذا النوع من الصابئة : انتقل الى الجزيرة العربية على يد عمرو بن لحى ، وسوف نعرض له ٠

وصابئة الحرنانية(١) قالوا : « ان الصانع المعبود واحد وكثير » ٠

أما واحد : ففى الذات ، والأول ، والأصل ، والأزل ٠

وأما كثير : فلانه يتكثر بالاشخاص فى رأى العين وهى المدبرات السبعة٠

والاشخاص الأرضية ونماذجها : الخير ، والعلم ، والفضيلة ، فانه يظهر بها ويتشخص بأشخاصها ولا تبطل وحدته فى ذاته (٢) ٠

وواضح أن صابئة الحرانية : أخلاط : من فلسفة اليونان ، وفلسفة هندية ، ففيها : مثل أفلاطون ، وفيها : تجسيد « برهما » الديانة الهندية ٠

وهؤلاء هم من قال فيهم ديبور :

وقد أخذوا عن حسن نية بحكم وبأراء موضوعة ترجع للعصر الاغريقى المتأخر وربما يكون بعض هذه الحكم قد وضع بين ظهرانيهم (٣) ٠

ويذهب ابن النـديم الى أن الصابئة ليست مذهبـا للحرانيين انما هى منحولة لهم :

---

(١)مدينة حران ظلت مركزا دائما للثقافة اليونانية وكانت الى جانب هذا نقطة مهمة للتبادل والاتصال وكان جيرانهم من النصارى ينظرون شزرا الى الحرانيين وكانوا يسمون مدينتهم (هلينوليس) مدينة اليونانيين احتقارا لهم وتهكما عليها وكانت الدراسات : رياضية سحرية فلسفية طبية وعند الصابئة كانت للفلك المكانة الاولى وكانت حران مشهورة بوثنيتها في منطقة مسيحية ، ووثنيتها : مزيج من الديانة البابلية ومن الوثنية الاغريقية والافلاطونية المحدثة ٠

(٢) الملل والنحل ص ٥٣ ج ٢ الشهر ستانى تحقيق د / محمد بن فتح الله بدران ٠

(٣) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٢٥ نقله د / محمد عبد الهادى أبو ريدة ٠

فيقول :

قال أبو يوسف أيشع القطيعى النصرانى فى كتابه فى الكشف عن مذاهب الحرنانيين المعروفين فى عصرنا بالصابئة : أن المامون اجتاز فى آخر أيامه بديار مصر ، يريد بلاد الروم للغزو ، فتلقاه الناس يدعون له ، وفيهم جماعة من الحرنانيين ، وكان زيهم اذ ذاك لبس الأقبية ، وشعورهم طويلة بوفرات(١) كوفرة قرة جد سنان بن ثابت ، فأنكر المأمون زيهم ، وقال لهم : من انتم من الذمة ؟

فقالوا : نحن الحرنانيون ٠

فقال : أنصارى أنتم ؟

قالوا : لا ٠

قال : أمجوس أنتم ؟

قالوا : لا ٠

قال لهم : أفلكم كتاب أو نبى ؟

فمجمجوا فى القول ٠

فقال لهم : فأنتم اذا الزنادقة ، عبدة الأوثان ، وأصحاب الرأس فى أيام الرشيد والدى ؟ وأنتم حلال دماؤكم لا ذمة لكم ؟

فقالوا : نحن نؤدى الجزية ٠ فقال لهم : انما تؤخذ الجزية لمن خالف الاسلام من أهل الأديان ، الذين ذكرهم الله فى كتابه ، ولهم كتاب ، وصالحهم المسلمون عن ذلك ٠

فأنتم لستو من هؤلاء ولا من هؤلاء فاختاروا الان أحد أمرين :

أما أن تنتحلوا دين الاسلام ، أو دينا من الأديان التى ذكرها الله فى كتابه ٠

والا قتلناكم عن آخركم ؟ فانى قد أنظرتكم الى أن أرجع من سفرتى هذه فان أنتم دخلتم فى الاسلام ، أو فى دين من هذه الأديان التى ذكرها

---

(١) قال أبو حبان في البحر المحيط ج ١ ص ٢٣٩ : قال قتادة والكلبى هم بين اليهود والنصارى يحلقون أوساط رؤوسهم ويحبون مذاكيرهم ثم قال انه رأي غريب قرأته وذكرته ولم يتحقق لدي ،

الله فى كتابه ، والا أمرت بقتلكم واستئصال شأفتكم ، ورحل المـأمون يريد بلد الروم فغيروا زيهم وحلقوا شعورهم وتركوا لبس الأقبية وقد تنصر كثير منهم شعورهم ولبسوا زنانير ، وأسلم منهم طائفة وبقى منهم شرذمة بحالهم ، وجعلوا يحتالون ويضطربون حتى انتدب لهم شيخ من أهل حرابة فقيه ، فقال لهم : قد وجدت لكم شيئا تنجون به وتسلمون من القتل فحملوا اليه مالا عظيما من بيت ما لهم أحدثوه منذ أيام الرشيد الى هذه الغـاية وأعدوه للنوائب ٠

فقال لهم : اذا رجع المأمون من سفره فقولوا له : نحن الصائبون فهذا اسم دين قد ذكره الله جل اسمه فى القرآن فانتحلوه فأنتم تنجون به ، واتفق أن المأمون توفى فى سفرته تلك عام ١٢٨ هـ ٠

انتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت ، لأنه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة ، فلما اتصل بهم وفاة المأمون : ارتد كثير ممن كان تنصر منهم ورجع الى الحرنانية ، وطولوا شعورهم ، حسب ما كانوا عليه قبـل مرور المأمون بهم على أنهم صابئون ، ومنعهم المسلمون من لبس الأقبية ومن أسلم منهم لم يمكنه الارتداد خوفا من أن يقتل فأقاموا متسترين بالاسلام فكانوا يتزوجون بنساء حرانيات ويجعلون الولد الذكر مسلما والأنثى حرنانية وهذه كانت سبيل كل أهل « ترعوز » « سلمسين » القريتين المشهورتين العظيمتين بالقرب من حران الى منـذ نحو عشرين سنة هـ ٠ ٠

فان الشيخين المعروفين : بأبى زرارة ، وأبى عروبة علماء أهل حران : بالفقه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وسائر مشـايخ أهـل حران وفقهائهم : احتسبوا عليهم ومنعوهم من أن يتزوجوا بنساء حرانيات أعنى صابئات وقالوا : لا يحل للمسلمين نكاحهم لأنهم لسن من أهل الكتاب ٠

وبحران أيضا منازل كثيرة الى هذه الغاية بعض أهلها حرنانية ممن كان أقام على دينه فى أيام المأمون وبعضهم مسلمون وبعضهم نصارى ممن كان دخل فى الاسلام وتنصر فى ذلك الوقت مثل : قوم يقال لهم : بنو أيلوط ، وبنو قبطران وغيرهم مشهورون بحران (١) ٠

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ ٠

فما ذكره ابن النديم المتوفى ٣٧٨ هـ يفيد من ظاهر نصه أن نحلة الصابئة انتحلت لهم فى عصر المأمون وهو قابل للطعن وغير قابل للرفض •

أما قابليته للطعن : فان ما ذكره الشهرستانى عند الحرنانيين « بأنهم جماعة من الصابئة (١) هذه العبارة : تتيح مجالا للطعن فيما قاله ابن النديم فضلا عن كتب التاريخ الفكرى التى تجعل حران مركزا مهما للتبادل الثقافى فى تلك المنطقة ، وتجعل أهلها وثنيين يعبدون الكواكب مما دفعهم الى ملاحظة السماء والتعمق فى الدراسات الفلكية ، هذه الدراسات لها عند الصابئة مكانتها الأولى العلمية والتقديسية ، ومما يضاف الى الطعون السابقة قول الألوسى : وهؤلاء أى الصابئة كانوا قوم ابراهيم وهم أهل دعوته وكانوا بحران (٢) •

ونرى أنفسنا أمام روايات متعددة تسند لحران مذهب الصابئة حينا وتجعلها مركزها القديم سوى نص ابن النديم الذى يقرر : أن الصابئة منحولة للحرنانيين •

لذلك قلنا أن النص قابل للطعن وتيار الطعن قوى •

فالشهرستانى : يجعل الحرنانيين جماعة من الصابئة •

والألوسى : يقول أن الحرنانيين أصل الصابئة •

المسعودى : ينسب الى بوداسف أول من أظهر آراء الصابئة من الحرانيين والكيماريين وهذا النوع من الصابئة مباين للحرانيين فى نحلتهم •

هذه أقوال يمكن أن تتيح مجالا للطعن فى رواية دون أخرى •

فاذا اعتبرنا قول ابن النديم منصرفا الى هذه الجماعة بذاتها فانا نصدم بتعقيب داخل النص نفسه يقول : « وانتحلوا هذا الاسم منذ ذلك الوقت لانه لم يكن بحران ونواحيها قوم يسمون بالصابئة » فنص ابن النديم هو رواية عن كتاب ذكره على أنه حكاية فى أمرهم من غير استقصاء تاريخى وعلى

---

(١) الملل والنحل ص ٥٨ جـ ٢ •

(٢) بلوغ الارب ص ٢٢٤ جـ ٢ يذكر أحمد أمين رواية ابن النديم ويأخذ بها فيقول : وهم الذين تسموا بعد ذلك — فى عصر المأمون وبعده بالصابئين وكان منهم كثيرون من المؤلفين ومن تولوا الترجمة : فجر الاسلام ص ١٣٠ جـ ١١١ •

ذلك فقد نقبلها ونصرفها الى هذه الجماعة بذاتها وانها غير الصابئة ، ونرفض ما فيها من تعليقات ، ولا سيما أن ابن النديم نقلها من غير تعليق وأسندها الى غيره ، وبذلك تتعاون النصوص على اثبات الصابئة للحرنانيين ·

وسواء قوى نص ابن النديم أو ضعف أمام نسبة الصابئة الى حران فان هناك شيئا جوهريا ينبغى التعقيب عليه وهو أن الصابئة المذكورة فى القرآن ليست هى صابئة حران (١) ·

ثالثا : صابئة الهنـــد :

صابئة الهند مفزعها الثوابت من حيث انهم ربطوا عبادتهم بزحل وزحل من شأنه البقاء والثبوت وهم الذين قالوا : بالتناسخ والحلول ·

١ ـــ التناسخ : يعنى لديهم أن تتكرر الأدوار والأكوار الى ما لا نهاية به له ويحدث فى كل دور مثل ما حدث فى الأول ·

والثواب والعقاب فى هذه الدار لا فى دار أخرى لا عمل فيها ·

٢ ـــ الحلول : يعنى لديهم الشخص ربما يكون ذلك بحلول ذاته وربما يكون بحلول جزء من ذاته على قدر استعداد مزاج الشخص ·

والهياكل تحل فيه فينطلق بلسانها ويبصر بعينها ويسمع باذانها ويقبض ويبسط بها (٢) · وفى هذا يقول مجاهد : هم قوم لا دين لهم ليسوا بيهود ولا نصارى ·

---

(١) يقول السيد عبد الرازق الحسينى في كتابه : الصابئة قديما وحديثا ص ٢١ .
من المتعذر جدا أن يتوفق الباحث الى معرفة ما بين هذه الفرق من الرابطة . فقد ذكر القرآن قسما من الصابئة وفسرها المفسرون بعد أن نسبوا لها أصولا وتقاليد تختلف كثيرا عن الصابئة الحرانية ، كما أن هذين القسمين من الصابئة يختلفان كثيرا عن صابئة البطائح المبثوثين الآن في مدن العراق النهرية .

والحق أن كل فرقة من هذه الفرق تختلف في أصول معتقداتها عن الاخرى اختلافا واسعا فقد سكن الصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن بلاد العرب ومصر قبل الاسلام وقبل النصرانية واليهودية وقد انقرضوا وعفت أخبارهم فأصبح من المتعذر علينا بيان معتقدهم بالتفصيل .

(٢) الملل والنحل ص ٥٠١ ج ٢ تحقيق د / محمد بن فتح‌الله بدران .

رابعا : صابئة الفلاسفة :

وهم الذين بدعوا عبادة الكواكب وأبراجها ، وصفهم المسعودى بقوله :

« ألا أنهم من حشوية الفلاسفة » ويقول : انما أضفناهم الى الفلاسفة اضافة سبب لا اضافة حكمة ٠

يقول الألوسى : والفلاسفة يأخذون بزعمهم بمحاسن ما دلت عليه العقول وعقلاؤهم يوجبون اتباع الأنبياء وشرائعهم ، وبعضهم لا يوجب ذلك ولا يحرمه ، وسفهاؤهم وسفلتهم يمنعون ذلك (١) ٠

ويبدو أن فلاسفتهم اتصـــلوا باليونان وكان بينهم وبين اليونانيين محاورات مما سوغ اطلاق فلاسفة على حكمائهم ، وآية ما ينسبه ابن النديم للكندى أن له «رسالة فى ماجرى بين سقراط والحرانيين» بذا لا يجانبنا الصواب ان اعتبرنا لهم ففلاسفة بمعناها اليونانى على خلاف ما يرى المسعودى ٠

يقول الألوسى :

فهؤلاء الصابئة كفروا بالأصلين اللذين جاءت بهما جميع الرسل والأنبياء من أولهم الى آخرهم ٠

أحدهما : عبادة الله وحده لا شريك له ، والكفر بما يعبد من دونه من اله٠

والثانى : الايمان برسله وما جاءوا به من عند الله تصديقا واقرارا وانقيادا وامتثالا ٠

وليس هذا مختصا بمشركى الصابئة كما غلط فيه كثير من أرباب المقالات بل هذا مذهب المشركين من سائر الأمم ، لكن شرك الصابئة كان من جهة الكواكب والعلويات (٢) ٠

---

(١) نفس المرجع ص ٢٢٦ جـ ٢ ٠

✻ لابن تيمية بعض اطلاقات خاصة بالصابئة غير دقيقة مثل قوله : وهكذا تكون مناظرة الصابئة الفلاسفة والمشركين ونحوهم وقوله : الصابئ الفيلسوف ، وقوله : وهو الغالب على الصابئة المبدلين مثل أرسطو وأتباعه ٠

ثم يقول : وعربت طائفة من كتب الاعاجم من المجوس والفرس والصابئين الروم ، والمشركين الهند براجع الفتاوى جـ ١ ص ٦٥ ، ٧٧ ، ١٢٠ ، ٢٩٧ و جـ ٤ ص ١١٣،١١٥

والمعتمد عند علماء الاسلام أنهم ليسوا أهل كتاب ولا نبى أى هؤلاء الفلاسفة الصابئة ٠

خامسا صابئة أهل الكتاب :

(أ) صابئة اليهود :

وهم نوعان :

النوع الأول : هم الذين اتبعوا المسيح من اليهود فهم فى عرف اليهود صابئة ٠

النوع الثانى : وهم الذين وافقوا أبر للونيوس عنـدما أعلن الوثنية فى معبدهم ووضع تمثالا لهيكل اغريقى ٠

(ب) صابئة : مسيحيون :

وهم الذين اتبعوا القديس يوحنا المعمدان فى شعيرة التعميد (وهؤلاء هم المنديون) ولا يزال قوم منهم يسكنون الى الآن الأغوار المحاذية لمصب الفرات(١) ٠

لهذه الأصناف الكتابية يمكن أن تحمل عليها ما نذكره من آثار :

قال ابن أبى نجيح قوم تركب دينهم بين اليهودية والمجوسية لا تؤكل ذبائحهم ٠

- قال ابن عباس هم قوم من اليهود والنصارى لا تحل مناكحتهم ولا تؤكل ذبائحهم ٠
- وقال أبو العالية : قوم من أهل الكتاب ذبائحهم كذبائح أهل الكتاب يقرءون الزبور ويخالفونهم فى بقية أفعالهم ٠
- وقال الخليىء هم اشباه النصارى قبلتهم مهب الجنوب ويقرءون الزبور ويعبدون الملائكة (٢) ٠

---

(١) تاريخ سورية ص ٩٨ ج ٢ ٠

(٢) تفسير البحر المحيط لابى حيان ج ١ ص ٢٣٩ ٠

سادسا : صابئة البطائح :

« يعيش بين ظهرانينا فى العراق قسم من الناس لهم تقاليدهم ، وعاداتهم ولغتهم • ويكادون أن يكونوا ممتازين بكل مظاهر حياتهم وحتى بأشكالهم وسحنة وجوههم ، ويطلق عليهم اسم (الصابئة) وقد يكون هؤلاء هم الصابئة الأصليون وقد لا يكونون • الا أن الشيء المحقق هو أن قسما كبيرا من عبادة الصابئة القديمة وطقوس دينهم ، بارزة بين معتقدات وطقوس هؤلاء القوم • فعبادة النجوم واستقبال نجم القطب وتأليه الكواكب وغير ذلك من أصول الدين الصابئى مما يتدين به هذا المجموع الممتاز •

وقد يتعرف الباحث من اللغة التى يتكلم بها هؤلاء ومن اسبالهم شعور لحاهم ورؤوسهم ، انهم شعب غريب نزح الى هذه البلاد واستوطنها واحتفظ بما له من تقاليد وعادات والتزم بالسكنى على ضفاف الأنهر وبقرب المياه الجارية نظرا لما يقيمه من الطقوس التى لا تتم الا بالارتماس فى المـاء الجارى لذا عرف هذا القسم من الناس بصابئة البطائح نسبة الى بطائح العراق المشهورة •

أما هذا الشعب قد انحدر من الصابئة الحرانية أو أنه من بقية الصابئة الأقدمين ، فأمر مشكوك فيه وموكول الى فحص التاريخ الدقيق •

ونظن أن أحسن رواية ــ وقد تكون أقربها الى الحقيقة ــ هى التى أثبتها الهنرى يونيون فى كتابه الفرنسى الموسوم بـ (الرقم المنـدائية) المطبـوع فى عام ١٨٩٨ فقد جاء فى ص ٢٢٤ منه تحت عنـوان (الفرقة الدستائية) وهى المندائية التى اشتهر بها الصـابئة الحاليون ما مضمونه : ان صاحبها (أى صاحب هذه الفرقة) كان متسولا وقد جاء من بلاد ما بين الزابين الى ميسان (أى جنوب العراق) للتسول وكان مسيحيا اسمه (دبدا) واسم أمه (أم كشطا) ثم توطن ضفاف نهر قارون وأسس ديانة جديدة وعقائد مأخوذة معظمها من المرقيونيين والمانويين والكنتيين وغـيرها من الفرق الصائبة ، ثم توسعت هذه الطائفة على ممر السنين وسموا بالصابئة المغتسلة لأن جميع طقوسهم الدينية لا تتم الا بالاغتسال فى الماء الجارى ا هـ •

والذى يؤسفنا كثيرا ويجعـل تاريخ الصابئة مفصـولا وغير مرتبط الحلقات ، خلو هذا التلخيص من الزمن الذى يعين قدوم (دبدا) الى جنوبى العراق (ميسان) الأمر الذى يوقفنا على تاريخ منشأ صابئة البطائح والصلة بينهم وبين الصابئة الحرانية • ومع ذلك فهو لا يخلو من فائدة تاريخية تكشف لنا عن تاريخ غامض من تاريخ الصابئة (١) •

حول نسبة مذاهب الصـــائبة

هرمس وعاذيمون :

نسب الشهرستانى مذهب الصائبة الأولى الى هرمس قائلا :

قالت الحنفاء : بم عرفتم ـــ معاشر الصابئة وجـود هذه الروحانيات ؟ والحس ما دلكم عليه ، والدليل ما أرشدكم اليه ؟

وقالوا ، أى الصابئة : عرفنا وجودها وتعرفنا أحوالها من : «عاذيمون» و « هرمس» و « شيث » و « ادرس » عليهما السلام •

هذا النص يعطى الباحث ارتياحا نفسيا لما يفيده ويكشفه عن واضع هذا المذهب ، ولكن عندما يأتى الباحث على آخر المحاورة التى عقـدها الشهرستانى بين الحنفاء والصابئة يرى نصا يقول فيه الشهرستانى : وكان فى الخاطر بعض زوايا : نريد نمليها ، وفى القلم خفايا أكاد أخفيها فعدلت **عنها الى ذكر ((حكم هرمس العظيم)) لا على أنه من جملة فرق الصابئة ، حاشاه ، بل على أن حكمه مما يدل على تقرير مذهب الحنفاء فى اثبات الكمال فى الأشخاص البشرية وايجاب القول باتباع النواميس الالهية على خلاف مذاهب الصابئة •**

يفيد النص استبعاد « هرمس » أن يكون واضعا لمذهب الصابئة وحاشاه كما يقول : الشهرستانى ، فوقع فى النفس سؤالان :

من هو هرمس العظيم ؟

ومن يكون اذا واضع مذهب الصابئة اذا لم يكن واضعه ؟

---

(١) يراجع الصابئة قديما وحديثا ص ٢٥ ، ٢٦ •

فانتقلنا معه فى كتابه لنعرف من هو هرمس العظيم ونتعرف على سر عظمته فالفيناه يقول : عندما أراد أن يحقق شخصية « هرمس » وشخصية « عاذيمون » : يقال : أن عاذيمون ، وهرمس ، هما : شيث ، وادريس عليهما السلام ٠

وأسند الشهرستانى لعاذيمون وضع المبادىء الأولى وهى خمسة (١) ٠ البارى — والعقل — النفس — والمكان — والخلاء ٠ وبعدها وجود المركبات ولم ينقل هذا عن « هرمس » ٠

ثم أسند أيضا لهرمس طائفة من الحكم وهو — فى نظر الشهرستانى — : الذى وضع أسامى البروج والكواكب السيارة ورتبها فى بيوتها واثبت لها : الشرف ، والوبال ، والأوج ، والحضيض ، والمناظر : بالتثليث والتسديس ، والتربيع ، والمقابلة ، والمقارنة ، والمراجع ، والاستقامة ، ويبين : تعـديل الكواكب وتقويمها ٠ وأما الأحكام المنسوبة الى هذه الاتصالات فغير مبرهن عليها عند الجميع ٠

وللهند والعرب طريقة أخرى فى الأحكام أخذوها من خواص الكواكب لا من طبائعها ورتبوها على الثوابت لا على السيارات ٠

فهرمس عند الشهرستانى غير واضح فى تاريخه وفى نسبه وفى موطنه وكل ما يعرفه به قول جاء على صيغة المجهول لا يلتمس من ورائه شىء سوى دفع الى مزيد من البحث يقول فيه : يقال هو ادريس النبى عليـه السلام ٠ فالعبارة فيها احتياطها العلمى للمتشكك فى أمره أو الذى يحاول على وجه من التاريخ اثباته ٠

وأورد الشهرستانى نصا يفيد : أنه عايش الصابئة وحمل معهم مسئولية فكرهم وهو قوله : « انظروا — معاشر الصابئة — كيف عظم الرسالة حتى قرن طلعة الرسول — الذى عبر عنه بالناموس — بمعرفة الله تعالى » ٠

على أى حال فان الشهرستانى لم يحقق شخصية هرمس لا لنفسه ولا للتاريخ وان كان أسبغ عليه لقب العظيم ربما كان ذلك منه لكى يخفى قلقه

---

(١) يقول ابن تيمية : مذهب اليونانيين يقول أن القدماء خمسة : الرب ٠ النفس — المادة الدهر — الفضاء ٠ الفتاوى ج ١ ص ٦٥ لتفصيل الخمسة فيه خلاف بين ابن تيمية والشهرستانى ٠

من عدم معرفته وأن ما ذكره عنه من حكم : يبدو عليها التكلف ، وطابع التأليف الشهرستاني .

وأما قوله : يقال هو ادريس النبي .

فان المقارنات الحقيقية بين نصوص الشهرستاني فقط لتستبعد هذا القول وربما هذا ما جعل الشهرستاني يقف عند قوله « يقال » مرتين دون تعقيب مريح أو غير مريح ، ونأخذ على الشهرستاني عبارات تجعل هرمس في فترة تاريخية بعد الحنفاء منها : « أن حكمه تدل على تقرير مذهب الحنفاء » . فلو كان هرمس معايشا للحنفاء لكانت حكمه مؤسسة لمذهبهم أو واضعة له فوصف حكمه بأنها مقررة لمذهب الحنفاء فيها ما يفيد بأنه وجد في فترة تالية لهم .

وعبارة هو ادريس ، تفيد : أنه مقدم على نوح أو هو جده ، والحنفاء يرجع نسبتها الى ابراهيم .

وصاحب كتاب فقر الحكماء ونوادر القدماء والعلماء (١) : اختار مجموعة من الفلاسفة ، وذكر عنهم بعضا من حكمهم ، ونوادرهم ، ذكر من بينهم : « هرمس الفيلسوف » فذكر حكمه ونوادره ، دون ذكر شيء عنه ، وعند مطالعتنا تلك الحكم تبينا منها : أنها هي الأخرى مجموعة تأليفات أخذت من حكم « لقمان » في القرآن ، يقول الدكتور : عبد الرحمن بدوي : ويلوح أن المؤلف كان اديبا في غالب أمره ولم يكن من المشتغلين بالفلسفة أو علوم الأوائل الا على سبيل الثقافة العامة وقبل ذلك قال : على أن نقد المصدر لا يستطيع أيضا ان يعتمد على النقد الباطن لمضمون الكتاب وانما تهجم المشاكل حين يتعرض الباحث لما فيه :

واولها مشكلة الأسماء التي نسب اليها حكما نادرة فبعضها لا نعرف

---

(١) هذا الكتاب نشر للدكتور عبد الرحمن بدوى ضمن رسائل فلسفية للكندى والفارابى وابن باجة وابن عدى من منشورات الجامعة الليبية ــ بنغازى ج ١ ١٩٧٣ ص ٢٧٧ .

يراجع الفهرست لابن النديم ص ٥٦ ذكر فيها كتبه وعدها ثلاثة عشر كتابا أو رسالة في صفحة ٤٩٧ ذكر أسما الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة .

بالدقة من هم ؟ وهذا ينطبق على : زيمون الشاعر ـــ أرطيبوس ـــ زيموس ٠

وعند مراجعتنا ابن النديم وجدناه يقول : قد اختلف فى أمره ٠

فقيل : أنه كان أحد السبعة السدنة الذين رتبوا لحفظ البيوت السبعة ٠

وقيل : أنه كان اليه بيت عطارد وباسمه يسمى ، فان عطارد باللغة الكلدانية (هرمس) ٠

وقيل : أنه انتقل الى ارض مصر لأسباب وانه ملكها وكان له اولاد عدة منهم : طاطا وصا ، وأشمن ، وأثريب ، وقفط ، وأنه كان حكيم زمانه ولما توفى : دفن فى البناء الذى يعرف بمدينة مصر بأبى هرمس ، ويعرفه العامة بالهرمين ، فان أحدهما : قبره ، والاخر قبر زوجته ، وقيل : قبر ابنه ، الذى خلفه بعد موته ٠ وذكر لهرمس كتبا منها : كتب فى النجوم ، والنيرنجات ، والروحانيات ، وكتاب قيلادس ، تلميذ هرمس ، فى رأى هرمس ٠ وعده ابن النديم من بين أسماء الفلاسفة الذين تكلموا فى الصنعة فقال : وهم : هرمس وأغاذيمون ٠

والآراء : والأقوال ، التى ذكرها ابن النديم : نراها لا تذكر ما رواه الشهرستانى بانه : قيل ادريس ، فاذا أضفنا ما قاله الشهرستانى وهو ، لم يذكره ابن النديم فانه يعتبر قولا رابعا لأنه لا يلتقى مع ما ذكره ابن النديم

وينبغى أن يذكر : أن ابن النديم ذكر أقوالا هى فى مجموعها لها علاقة باسم « هرمس » ، ومن جانب آخر أن ابن النديم يجزم أنه اسم لشخص وذكر مؤلفاته وأبناءه ، فالمؤلفات العربية ترى فى هرمس انسانا له دوره التاريخى ٠

ونحن فى سبيل التحقيق رجعنا الى معجم اللغة الفارسية واستعرضنا المادة فوجدناها تطلق على الاتى : هرماس : شيطان ٠ أهريمن ٠

هرمز : اسم كوكب المشترى ٠ اليوم الأول من كل شهر شمسى ٠ واسم يوم الخميس ورب النوع لدى الزردشتيين ٠

وتلفظ : أرمزد ٠ أورمز ٠ أهرامزدا ٠

هرمس • هومزة : عطارد : رب النوع اله المصريين (١) •

فقوامنيس اللغة الفارسية لم تذكر انه أطلق على شخص ما انما كل ما ذكرته أنه اسما لاله أو لكواكب أى يحمل معنى من معانى المقدسات •

ويذكر اميل برييه عن كرنوس
فى كتابه : نصا يقول فيه :

ان هرمس . « هو اللغوس الذى أرسلته الالهة من السماء نحونا » ثم يقول : كلمة هرمس ترجع الى أن اللغوس هو وسيلة دفاعنا وانه كفالة لنا • ثم يقول : وهرمس هو رئيس النعم •

واللغوس : عند فيلون : هو رسول الالهة :

وهرمس : قائد الأرواح •

وهرمس ولد عن زوس •

فاتخذ زوس ومايا (ابنه أطلفس ومه عطارد) هذا الاتحاد كان منه هرمس •

فهرمس كانسان غير واضح تاريخيا ونسبا وموطنا وزمنا ، والمصادر التى تكلمت عنه يناقض بعضها بعضا فضلا عن ضعف روايتها الكائن فيها •

ويترتب على ذلك ضرورة ظهور السؤال الثانى وهو لمن ينتسب مذهب الصائبة ؟ على فرض عدم نسبتها .(لهرمس ' وهذا ما ذكره الشهرستانى ضمنا فى محاورة الحنفاء للصابئة عندما نفاها عنه ـ مع أنه نفسه لا يعرف من هو « هرمس » حين تكلم عنه فى كتابه الذى خصصه لمثل تلك البحوث التاريخية الدينية وهو الملل والنحل : وصنعته فيه تحقيق التاريخ الدينى وسوف يظل السؤال : لمن تنتسب الصابئة ؟

أما ابن النديم وهو الذى توسع فيه توسعا يغلب عليه الاحاطة فاننا نراه

---

(١) يراجع المعجم المعجم الذهبى فارسى ـ عربى الدكتور محمد التونجى فرهنك طلائى ص ٦٠٢ دار العلم للملايين ـ بيروت

خدم منهجه — وهو جمع المعلومات عن المؤلف ومؤلفاته — فهو كوراق — ليس مطلوباً منه أكثر مما قدم وهو فهرسته • ومن العناصر التاريخية — من خلال ما ذكر — ما يؤكد أن هناك ارتباطا بين هرمس وبين عناصر مقدسة ويطعن فى نحلة الاسم لشخص •

يقول الدكتور : أبو العلا عفيفى :

من بين الوثائق اليونانية الهامة : مجموعة من المقالات الفلسفية الدينية كتبها متأخروا العصر اليونانى بالاسكندرية فيما بين القرن الأول والثالث المسيحيين على وجه التقريب وتعرف هذه المجموعة باسم :

أى الكتابات الهرمســية نسبة الى هرميس الاله اليــونانى المصرى (١) المعروف باســم : هرميس المثلث الحــكمة أو « المثلث العظمة : ——— (٢) وقد كان لهذه الكتابات أثر بالغ فى تشكيل الحياة الروحية المسيحية وتشكيل العقلية الاسلامية الفلسفية والصوفية • وهذه الكتابات الهرميسية هى الحلقة المفقودة فى تاريخ التراث اليونانى والفلسفة الاسلامية •

ثم يقول : لا عبرة لما ذهب اليه المؤرخون القدماء وتابعهم فى القول مؤرخو العرب من ان الكتابات الهرميسية منسوبة حقا الى هرميس المثلث الحكمة الذى عاش فى زمن موسى أو قبله ، وأنه كان مصدر علوم اللاهوت والاسرار التى اختص بها كهنة مصر منذ عصور سحيقة فقد أظهر التحليل التاريخى النقدى بطلان هذه الأسطورة منذ أواخر القرن السادس عشر وبرهن على ان هذه المقالات صدرت عن أقلام كتاب عديدين لا كاتب واحد وان

---

(١) الآراء الدينية والفلسفية (فيلون الاسكندرى) تأليف الاستاذ اميل برييه ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى ، وعبد الحليم النجار ص ١٥٣ .

(٢) بينما ثورة اليهود محتدمة بينهم وبين السلطات الرومانية تكتب « يوداليموئيس » الى ابنها ابو للونيوس في ٣٠ يونيو من عام ١١٦ مؤكدة له أنه بمشيئة الاله وخاصة هرميس (الاله هرمو بوليس) الذى لا يقهر ..

لعله هو الذى لا يقهر .. ص ١٩٥ .

يراجع مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الاوراق البردية د . عبد اللطيف احمد على .

الفلسفة اليونانية ، الافلاطونية والفيثاغورية بوجه خاص — كانت أصلا لها ومصدرا على عكس ما كان يعتقد من أن فلسفة هرميس كانت الأصل الذى استقى منه الفيلسوفان اليونانيان فلسفتهما ويختلف شرح هذه الرسائل باختلاف كتابها ، فأحيانا ترى الحديث : يدور بين هرميس وابنه طاط ، أو بينه وبين اله الطب أسقليبوس ، أو بينه وبين الملك آمون : وأحيانا يصور هرميس بصورة التلميذ الذى يتلقى الوحى أو عن الاله بويمندريس كما هو الحال فى الرسالة الأولى أو عن الاله اغاثا ذيمون ٠

وتدل الشواهد التاريخية : على أن كتابات هرميس قد وصلت الى المسلمين لا عن طريق الاسكندرية التى هى منبعها الأصلى ، بل عن طريق « حران » التى ورثت ثقافة الاسكندرية وحافظت عليها قرونا عديدة قبل الاسلام وبعده ٠ ولكننا لا ندرى على وجه التحقيق كيف بدأ وصول هذه الكتابات الى حران ولا فى أى زمن بدأ ولا الرجال الذين تم على أيديهم نقل هذه الثقافة ٠

ويحدثنا التاريخ أيضا : أن جماعة الحرنانيين الذين كانوا يعرفون باسم الصابئة ٠ قد اتخذوا فلسفة هرمس : دينا لهم ، واعتبروا هرميس وأغاثا ذيمون وغيرهما من الحكماء الذين وردت اسماؤهم فى الرسائل الهرميسية : انبياءهم ، كما اعتبروا هذه الرسائل : كتابهم المقدس ، وأن وثنيى حران عندما أمنوا جانب المسلمين ونال بعضهم الحظوة عند خلفاء بنى العباس تدفق سيلهم على بغداد وأسسوا المدرسة الأفلاطونية الحديثة أشبه بالمدرسة الأفلاطونية الحديثة التى كانت قائمة فى أثينا حتى أغلقها الامبراطور جوستنيان حوالى سنة ٣٥٠٠ م غير أن مدرسة بغداد الحرانية جعلت من أول أغراضها نشر تعاليم هرميس واذاعتها بينما أغفلت أختها الأثينية هذه التعاليم وأهملتها (١) ٠

---

(١) الاثر الفلسفى الاسكندرى فى قصة حى بن يقظان ابو العلا عفيفى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بحث مستخرج من مجلة كلية الاداب الاداب المجلد الثانى ١٩٣٤ م

منذ ذلك الوقت اشتهر اسم هرمس في الأوساط الاسلامية وقيل استحدث عنه ومن عجائب حكمته وعلمه وظل موضع اجلال المسلمين واحترامهم حتى نهاية القرن السادس الهجرى ورفعه المسلمون لا الى مصاف الآلهة كما فعل اليونان والمصريون بل الى مصاف الأنبياء مما ثبت قطعا أن الفلسفة الهرميسة لم تصل الى المسلمين في صورتها اليونانية الخالصة بل وصلتهم بعد أن امتزجت ببعض الأفكار والعقائد الاسرائيلية • ومما يثبت تأثر الفلسفة الهرميسية التى وصلت المسلمين بالأفكار اليهودية أن تعدد الهرامسة عندهم وأصبحوا ثلاثة :

الأول : هرميس الهرامسة الذى قالوا : أنه ادريس النبى أو أخنوخ • ذكروا : انه ولد بمنف ، وعاش قبل الطوفان ، وعنه ظهرت كل العلوم التى عرفها الانسان فى ذلك العهـد •

الثانى : هرميس البابلى ، الذى اعتبروه من تلاميذ فيثاغورث ، ذكروا : أنه عاش بعد الطوفان ، وأنه كان عالمـا بالطب والفلسفة وطبائـع الأعداد والكيمياء • ونسبوا اليه : ثيرا من الروحانيات والطلسمات بل قالوا انه انتقل الى مصر وحكمها كان له أولاد منهم طاط وأشمن وقفط وغيرهم

الثالث . هرميس المثلث الحكمة : قالوا سمى كذلك لأنه ثالث الهرامسة الحكماء ومثلث العظمة •

وليس من شك فى أن هرميس الأول من خلف الخيال اليهودى وأن هرميس الثانى اسم اخترعه العرب لمؤلف المقالات الهرميسية التى تدور حول العالم علوم الأسرار من السحر والطلسمة والكيمياء وما اليها •

اما هرمس الثالث : المثلث الحكمة فلم يعرفه العرب بالاسم فقط بل عرفوا الرسائل المنسوبة اليه ، يقول القفطى فى تاريخه ونقلت من صحف هرمس المثلث بالحكمة : نبذا ، هى من مقالته الى تلميذه طاطى على سبيل سؤال وجواب بينهما وهى على غير نظام وولاء ، لأن الأصل كان باليـا مفرقا ، وغير القفطى كتاب كثيرون يشيرون الى رسـائل هرميس ويجـدونها فى أصل عربى ، أو ترجمة سريانيه والى اقتباسهم منها مما لا يدع مجالا للشك

فى أن العرب عرفوا هذه الرسائل فى صورتها الأصلية • نرد على ذلك ان كتبـا عربية وضعت برمتها ملخصة الفلسفة الهرميسية مما ساعد كثيرا على ذيوع هذه الفلسفة وشيوعها بين المسلمين • من هذه الكتب : كتابان اشار اليهما العلامة الأستاذ « سانتلانا » فى محاضراته فى الفلسفة الاسلامية بالجامعة المصرية القديمة وهما :

« كتاب « سر الخليفة » المنسوب لبليتوس (وهو ابن (لونيوس الطيانى من أهل طيانة) الفيثاغورى من حكماء القرن الأول المسيحى •

وهذا الكتاب مخطوط بمكتبة باريس وهو يحمل طابعا هرميسيا لا يشك فيه الأستاذ سانتلانا •

* والثانى : رسالة « هرميس المثلث بالحكمة فى معاتبة النفس أو معازلة أوزجر النفس » •

وقد تعرف أيضا باسم (رسالة المعانى) وتنسب خطأ الى سقراط وأحيانا الى أفلاطون أو أرسطو •

وقد طبع الأبواب السبعة الأولى منها الأستاذ « فلايشر » سنة ١٨٧٠ وطبع الباقى منها الأستاذ (باردنهافر) سنة ١٨٧٣ •

ونشر الرسالة برمتها فى العصر الحديث الراهب الخورى « فليمون » الكاتب احد رهبان دير المخلص سنة ١٩٠٣ ببيروت (١) •

من كل هذا يتبين الى اى حد انتشرت تعاليم هرميس فى الشرق القديم قبل الاسلام وبعده •

بوداسف :

ذكر المسعودى صاحب كتاب مروج الذهب : أن الذى جدد مذاهب الصابئة « بوداسف » وفد من الهند الى فارس فى حكم طهمورث من ملوك الفرس الأولى : وما ذكره المسعودى لم نره لغيره •

---

(١) اعتمدنا فى الكتابة الخاصة عن هرمس بصفة أساسية على البحث السابق ، دكتور أبو العلا عفيفى •

فرايت ان اتتبع تاريخه فى المعاجم الفارسية ولا سيما بعد ما انتهينا من البحث عن تاريخ «هرمس» الذى ذكره الشهرستانى فى المحاورة التى وقعت بين الحنفاء والصابئين ورأينا ما وصل اليه البحث من نتائج •

فتتبعته فى المعاجم الفارسية فلم اعثر له على ذكر فيها غير انه غلب على ظنى أن «بوداسف» الذى أورده المسعودى محدثا لمذاهب الصابئة ولا سيما انه نشا فى الهند ـ كما ذكر أيضا ـ هو : «بوذا» واضع الديانة البوذية•

و «بوذا» «ينطق بالفارسية» بوذا ويبدو أن المسعودى ـ وهو الذى انفرد بذكره ، نقله محرفا ، او نقله ترجمة عن الفارسية ، بتلك الزيادة من بعض الرسائل القديمة • واذا كان «بوداسف» هو بوذا ، فهناك علاقة بين ما ذكره المسعودى ـ وبين تعاليم «بوذا» ؟

يقول الدكتور محمد غلاب •

ليس عندنا من المصادر عن الديانة الفارسية السابقة على (زرادشت) القدر الكافى لاعطائنا عنها صورة واضحة تمكننا من تحليلها على الطريقة العلمية القيمة • وانما كل ما نعرفه فى هذا الصدد : هو أن نقوشا أثرية ، يرجع تاريخها الى القرن الرابع عشر قبل المسيح وجدت فى الشمال الغربى من بلاد فارس ووجدت فيها : أسماء آلهة هندية وهى و

* ميتهرا •
* ادرا •
* فارنا •

ولما كان من غير الممكن أن تصل هذه الآلهة الهندية الى ذلك المكان دون أن تخترق البلاد الفارسية استنتج بعض الباحثين ونخص منهم بالذكر الأستاذ «دينيس سوريه» : أن للديانة الهندية أثرا عظيما على الفارسية الأولى• ثم يقول الدكتور غلاب : ومهما يكن من الأمر فان تأثر الفارسية بالهندية أمر مقطوع به اذ أننا نجد مثلا فى الكتاب الفارسى المقدس اسطورة تحدثنا «بيما» أول انسان أطعم ابناءه لحما محرما ولعله «لحم ثور» ليصيرهم خالدين •

ويلاحظ : أن بيما الذى هو أول انسان عند الفرس هو نفس (باما) أول انسان فى الديانة الهندية (١) ٠

هذا من وجهة النظر العامة ولا يبعد عما يفهم من كلام المسعودى وهذا نصه : ويقال ان هذا الرجل أول من أظهر آراء الصابئة من الحرانيين والكيماريين ٠ وهذا النوع من الصابئة مباين للحرانيين فى نحلتهم ٠

لفهم هذا النص ينبغى توضيح بصفة عامة : آراء الحرانيين والكيماريين ٠

حران مدينة من مدن العراق وعرفت مدرستها فى التاريخ الفكرى بأنها مدرسة وثنية ٠ كانت ذا أهمية كبرى لمرور طرق القوافل وأن اشتقاق اسم المدينة فى البابلية «خرانو» أو «حرانو» تعنى الطريق ٠

كما اشتهرت فى التوراة فى سفر التكوين : ٢٤ : ٤ ، ٢٩ : ٢١ ، وأنها كانت الموطن الأصلى للآباء العبرانيين الأوائل قبل ذهابهم الى فلسطين ، والمرجح كثيرا أن ابراهيم وأحفاده من أراضى هذه المنطقة كما تشير الى ذلك التوراة نفسها (٢) فى هذا المركز عاشت الصابئة وهى كما يقول الشهرستانى : الحرانية هم جماعة من الصابئة ٠

ثم يقول : عن مذهبها الحلولى :

« ثم من المواليد قد يتفق شخص مركب من صفوها — أى العناصر — دون كدرها — ويحصل له مزج كامل الاستعداد فيتشخص الاله به فى العالم ٠

هذا فضلا عن فصل آخر للشهرستانى عنهم عنونه بقوله : « مزاعم الحرنانية(٣) » ٠

---

(١) يراجع الفلسفة الشرقية : بحوث تحليلية — الدكتور محمد غلاب مقالات نشرت بمجلة الرسالة سنة ١٩٣٧ السنة الخامسة ٠

(٢) يراجع : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ص ٢٩٣ ٠ د ٠ طه باقر ٠

(٣) الملل والنحل الشهرستانى ص ٥٨ جـ ٢ ٠

ويصفها « أوليرى » بصفة عامة فيقول :

هذا وكان هناك بعض مصادر ثانوية متفرقة للعلوم اليونانية مثل مدينة حران التى كانت مستعمرة يونانية ظلت متشبثة بوثنيتها فى منطقة مسيحية ويغلب على الظن انه كان لها نصيب فى نقل العلوم اليونانية الى العرب ولو فى أضيق نطاق ، فمدرسة حران عرفت وتخصصت فى الوثنية ولا نرى مؤلفا أو باحثا فى تاريخ الفكر العربى يذكرها دون أن يصفها بالوثنية •

فمدينة «حران» ظلت مركزا مهما دائما للثقافة اليونانية فى المنطقة التى يتكلم أهلها اللغة الآرامية الشرقية ، وكانت الى جانب هذا نقطة مهمة للتبادل والاتصال ، أما أهلها فكانت الغالبية منهم وثنيين يعبدون الكواكب مما دفعهم الى ملاحظة السماء والتعمق فى الدراسات الفلكية.(١) •

فالآراء التى حملها «بوداسف» تتميز بالوثنية كوثنية حران وليست هى آراء حران انما تتفق فى الوثنية فقط مع الحرانيين • وديانة (بوذا) من الديانات التى تتميز بالالحاد ومن أقدمها التى لا تعترف باله خارج عن عناصره •

فنتساءل : ما هو الاله ؟

هل هو نفس العناصر ، اذا كان ذلك فلا يكون فى الأمر جديد سوى وضع اسم مكان آخر ، واذا كان وغيرها ولهـــا هذه الخواص التى نشاهدها فقد ثبت خلوه هو من بعض الخواص الثابتة للعناصر ، وهو نقص فيه واذا كان له كل خواصها فلم يكن فى حاجة اليها ، لاتخاذها وسيلة لايجاد العالم ، واذا فنحن أمام خلاء من الالوهية يؤيده منطقها (٢) •

أخذت هذه الاراء عدة تحويرات حتى تطورت الى « حلولية » على يد « سانكرا » الذى قرر : أن هذا العالم الظاهر ، ليس هو حقيقة الاله انما هو كائن أدنى محدث ، ولكن كل جزئية منه ، تشتمل على طرف من تلك الحقيقة الالهية • غير أن « سانكرا » لم يكد يعلن هذه الاراء حتى وصفه البراهمة

---

(١) علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب . دلاسى اوليرى ترجمة د. وهيب كامل ص ٣ .

(٢) الفلسفة الشرقية : بحوث تحليلية دكتور محمد غلاب .

بأنه بوذى ، يتقمص : جسم « براهمى » ، أو زنديق يرتدى . ثوب متدين ، وكان ذلك مؤافقا بالمصادفة لأوان الفتح الاسلامى وعلى بدء تاريخ جديد ببرز للباحثين أثر الاسلام فى تلك الأصقاع على صورته الحقيقية فالالحاد الوثنى يتغلغل فى البوذية وتعاليمها وذلك أول ديانة — كما تزعم لنفسها — تتخلى عن الله ولا تخرجه عن العناصر الكونية •

يقول الدكتور ميرزا مهدى

وأهل هذا الدين ، يعتقدون آن (بوذا) : هو أول من ظهر فى الأرض على صورة البشر ويجبر هذا الدين تابعيه : بأن ينزهوا ملوكهم عن الغلطات ويقدسونهم عن الهفوات ، فلذا نرى معابذهم : مزينة بصـــور سلاطينهم ، وأكابر رجال كهنوتهم ، وأعاظم ملتهم ، وهؤلاء القوم ليس عندهم خبر نصي ، أو أثرى رمزى عن ظهور مجدد أو مصلح جديد فى المستقبل ليقوم ما اعوج من دعائم دين (بوذا) الا أنهم يزعمون : أن بوذا سوف يظهر مرة أخرى بنفسه عندما يرى عودته (١)

لاحظ « ميجاشنيس » وهو عامل يونانى فى بلاط مجاذا وقد وضع كتابا وصف فيه الهند : أن بعض الهنود كانوا يرفعون بوذا الى مرتبة الاله يقول أوليرى معلقا : ملاحظة لها طرافتها لأنها ترينا أن البوذية فى عهده كانت قد جاوزت فعلاً طورها البدائى الذى كان فيه بوذا يعتبر مجرد معلم دينى وأنها كانت فى هذا الحين تنتقل الى طورها الثانى الذى أله فيه بوذا والتى ادت الى تصوير بوذا فى صورة انسانية (٢) •

اذا هذه الديانة البوذية كانت ترى فى الالحاد والوثنية عقيدة لهـــا غير أن وثنيتها ليست عبادة الكواكب كما كان يرى أهل جران فمن هنا حصل التباين بين عقيدتين وثنيتين كما ذكر المسعودى •

---

(١) مفتاح الأبواب : زعيم الدولة الدكتور ميرزا محمد مهدى خان رئيس الحكماء الايرانى والاذربايجانى التبريزى نزيل مصر ص ٨ — ١٥ الطبعة الاولى بمطبعة المنار الاسلامية بشارع درب الجماميز بمصر في غرة رجب ١٣٢١ •

(٢) علوم اليونان ص ١٧٢ •

هل البوذية خرجت من الهند ؟

يرى المؤرخون أنها خرجت من هناك بيد أنهم يختلفون حول أسباب خروجها فبعضهم يرى ذلك عندما اغتال برهمى متعصب اسمه سنجا آخر ملوك أسرة (ماوريا) وهو بوشيا ميترا سنة ١٨٤ ثم اغتصب العرش وأخذ يضطهد البوذيين ، أى أن الاضطهاد السياسى كان وراء خروجها ٠

وبعضهم يرى أن الديانة البوذية كانت فى بدايتها طائفة زهدية صغيرة ولكنها فيما بعد نمت وانتشرت حتى صارت احدى ديانات العالم الكبرى ويرجع أصل هذا الدين ــ فى نظر أوليرى ــ الى نظام السانخيا الفلسفى الذى كان قائما من قبل والذى بدأه كابيلا ٠

أما الدكتور غلاب فيرى : أن « كامبيلا » وبوذا متعاصران ، اذ قد عثر فى هذا المذهب ، وفى المذهب البوذى : على تأثرات قوية متبادلة بين المذهبين مما يدل على أنهما متعاصران تقريبا ٠

ثم يقول الدكتور محمد غلاب : ولكن هذه الديانة حينما أجلتها البراهمية فى القرون الأولى للميلاد المسيحى لم تكن قد انعدمت من الوجود وانما كانت قد تفرقت شمالا وجنوبا الى الصين : واليابان وجاوه وسومطره (١) ٠

أما الى أى حد انتشرت البوذية فعلا فى العالم القديم فمسألة مستعصية ٠ لكن يمكن القول أن الديانة البوذية فى عهد « سوكا » : ASOQS ثالث ملوك أسرة « ماوريا » التى اعتبرها الهندوك أسرة نجسة لأنها لا تنتمى لطبقة الكهنة ، أو طبقة الجند ، هذا الملك اعتنق البوذية لأنها لا تعر نظام الطبقات أى أهمية ، فالديانة البوذية لقيت تعضيدا قويا من هذا الملك ودعا الى عقد مجمع بوذى ثالث فى (الأسو كاراما) فى باتالى بوترا ، وتلك قرية كان بوذا قد زارها فى سالف الزمان ، ونوقشت فى هذا المجمع ثمانى عشرة مشكلة مذهبية وتم التصالح بشأنها ٠ ولكن الأهم من كل هذا انه قد تقرر فيه : ان البوذية ينبغى أن تنهج سياسة تبشيرية تدعو فيها شعوب العالم كلها

---

(١) الفلسفة الشرقية نفس المرجع ٠

الى اعتناق ما يقضى به (قانون التقوى) وطبقا لهذا القرار أوفدت الى الجنوب والى الغرب (١) • فالقرار الذى اتخذه أسوكا : جعل الدعوة الى الديانة البوذية دعوة عالمية وعلى الداعين أن يحملوا عبء الدعوة اليهـــا ما انتشروا فى أفناء الأرض ثم أخيرا زاد من انتشار أتباعها اضطهاد البرهمين ولأتباعها •

فالعنصر للبوذى الذى ظهر فى شرق فارس يرجع الى مدينة « باميان » جنوبى بلخ وكان فيها مركز بوذى عام •

وفى القرن الثالث عشر يصف ياقوت : صنمين كبيرين لبوذا فى هـــذه المدينة ويقعان فى بهو واسع محفور فى جانب الجبل • وهما صنمان يعرفان باسمه :

* سشق بد : أى بوذا الأحمر •
* وخنج بد : أى بوذا الأشهب •

وكانا قائمين فى أيامه :

وذكرهما القزوينى كذلك •

وقد دمر (جنكيز خان) مدينة باميان هذه (٢) •

فالبوذية خرجت من الهند واختلطت بتراث فارسى هروبا من الاضطهاد الذى لاحقها من البراهمة ، كذلك من ناحية انتهاجها الدعوة التبشيرية التى قررتها لنفسها أخيرا •

واصبحت مدرسة (جند يسابور) التى انشئت فى النصف الثانى من القرن الثامن أيام الملك خسرو وأنو شروان وبفضل العلماء الذين طردوا من الرها آنذاك تقوم بعبء المزج بين التراث اليونانى والشرق وفى هـذه المدرسة أيضا اتصل العلماء اليونانيون والسريان والفرس بعلمـــاء الهنـــد وتأثر بعضهم ببعض وزاد ازدهارها حين أقفل « جوستينيا » مدارس أثينـــــا

---

(١) مراجع علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ص ١٦٦ •

(٢) المعجم الذهبى : فارسى — عربى د • محمد التونجى لرهنك طلائى ص ٥٢٦ • ٥٦٢ دار العلم للملايين •

وتولى الفلاسفة عنها الى جند يسابور ، وجلبوا معهم كتبا فى الفلسفة والعلوم الهند • ومن بين تلاميذ « جنديسابور » الحارث بن كلدة وابنه النضر •

ثم لما ظهر مانى (١) أو « ماتنيس » مؤسس الديانة المانوية (ولد فى بابل ٢١٥) من أم فارسية من نسل الملوك الأشكانيين وأبوه من (رجالات همدان) هاجر الى بابل فى تلك البلاد وادعى مانى النبوة وسمى نفسه «مارقليط» الذى أخبر عنه المسيح وقتله أحد الملوك الفرس سنه ٢٧٥ بعد المسيح كانت عقائده مزيجا من الهندية ، والزرادشتية ، واليهودية ، والمسيحية قبل وضع قواعد الكنيسة ثم تبعه مزدك من الطرف الشرقى من نهر دجلة فى بلدة اسمها (ماذارايا) فى عهد الملك « قبـاذ » الذى حكمه سنة ٤٨٨ م ليقرر اشتراكية فى الأموال والنساء وقتل هو الآخر مع ثمانين ألفا من اتباعه

ويقول ابن قتيبة أن قباذ بنى فارس والأهواز مدينة « أريجان » فأسكن فيها سبى (همذان) فوثب فيها « مردق » وقال بدعوته (٢) •

فبوداسف الذى أظهر مبادىء الصابئة فى ملك طهمورث ربما يكون هو « بوذا » •

اصـــول فكر الصابئة الأولى :

مدار مذهبهم . التعصب للروحانيين •

والصابئة ترى : أن مذهبها الاكتساب ••

هذا من جهة الصفة العامة الغالبة على المذهب أما تفصيلاته فهى

أولا : الاقرار بالقوة الالهية :

يعتبر أن للعالم صانعا فاطرا حكيما مقدسا عن سمات الحدثان

---

(١) ينقل صاحب حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ج ٢ ص ١٧٢ أن الصابئة قبل من المانوية .

(٢) المعارف لابن قتيبة تحقيق د ثروت عكاشة ص ٦١٣ .

ثانيا : الاقرار بالعجز الانسانى :

فى الانسان عجز عن ادراكه ، أى للاله وعلينا الاقرار بهذا العجز ، وفى نفس الوقت علينا التقرب اليه لحاجتنا اليه ، فاتخذوا سبيلهم اليه بالمتوسطات المقربين لديه ·

ثالثا : الاقرار بامكانية الاتصال به :

أدى شعورهم بالحاجة اليه الى اعمال الفكر لكيفية تصور امكانية العلاقة بينهم وبين القوة الالهية ، بيد أن هذه العلاقات كما تصورها انها لا يمكن ان تكون مباشرة ؛ لما عليه الانسان من دنس النفس واظلامها بالشهوات الطبيعية، لذلك رأوا ان الوسيط يجب أن يكون روحانيا ·

والروحانى — فى نظرهم — هو : المقدس من المواد الجسمانية المبرء عن القوى الجسمانية المنزهون عن الحركات والتغيرات الزمانية ·

فللاتصال به علينا أن نطهر أنفسنا من علائق القوى الشهوانية حتى تحصل مناسبة ما بيننا وبين « الروحانيات » فحينئذ نسأل حاجتنا منهم ونعرض أحوالنا عليهم ·

وهذا التطهير والتهذيب لا يحصــل الا باكتسابنا ورضتنا وفطامنا عن دنيا الشهوات ·

والاستمداد هو : التضرع واقامة الصلوات وبذل الزكاة والصــيام وتقريب القرابين وتبخير البخور · وفى هذه الحالة قد لا يحتاج الانسان الى وسيط ·

لذلك رفضوا، كل وساطة من البشر فقالوا عن الأنبياء أنهم أمثالنا فى النوع واشكالنا فى الصورة يشاركوننا فى المادة يأكلون مما تأكل ويشربون مما نشرب ويساهموننا فى الصورة ·

أناس بشر مثلنا فمن أين طاعتهم ؟

وبأية مزية لهم لزمت متابعتهم ؟

قال تعالى : حاكيا ذلك عنهم : « ولئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون » •

انواع المتوسطات :

والوساطة قد تكون عبادة العناصر الطبيعية وقد تكون عبادات تنجيمية ظهرت على أنها عبادة واحدة ثم انقسمت الى نجوم وسماء •

١ — منها مدبرات الكواكب السبعة السيارة في افلاكها وهى : هياكلها فلكل روحانى : (هيكل) ، ولكل « هيكل » : « فلك » ، ونسبة الروحانى الى ذلك الهيكل الذى اختص به نسبة الروح الى الجسد فهو ربه ومدبره ومريده •

وكانوا يسمون العناصر : أمهات •

وفعل الروحانيات فيها هو : تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات فى الطبائع والعناصر لمزج المركبات فتتكون القوى الجسمانية وتركب عليها نقوش روحانية مثل :

* أنواع النبات •

* انواع الحيوان •

٢ — والتاثير قد يكون كليا صادرا عن روحانى كل : فمع جنس المطر ملك هو هذا الكلى •

والتاثير قد يكون : جزئيا صادرا عن « روحانى » جزئى أى مع كل قطرة ملك : هذا هو الجزئى •

٣ — ومنها مدبرات الآثار العلوية :

* الظاهرة فى الجو مثل : الأمطار والثلوج والرعد والبرق •

* الظاهرة فى الأرض مثل : الزلازل والأبخرة •

٤ — ومنها متوسطات القوى مثل : قوى الحس •

٥ ـ ومنها : مدبرات الهداية مثل : العقل ٠

وهذه الروحانيات لهـــا طعامها الذى يتنـاسب معها وهو :

التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد وأنسهم بذكر الله وطاعته ٠

اعمال الصابئة كلهم :

يصلون ثلاث صلوات ، ويغتسلون من الجنابة ومن مس الميت وحرموا أكل الجزور والخنزير والكلب ٠

ومن الطير ما له مخلب ، والحمام ٠

ونهوا عن السكر فى الشراب وعن الاختتـان ٠

وامروا : بالتزويج بولى وشهود ٠

ولا يجوزون الطلاق الا بحكم حاكم ولا يجمعون بين امرأتين ٠

هياكلهم :

بنى : الصابئة هياكلهم على أسماء الجواهر العقلية الروحانية واشكال الكواكب السماوية فمنها : هيكل العلة الأولى : ودونهـــا : هيكل العقل وهيكل السياسة وهيكل الصورة وهيكل النفس ـــ مدورات الشكل ٠

وهيكل زحـــل : مسدس ٠

وهيكل المشترى : مثلث ٠

وهيكل المريـــخ : مربع مستطيل ٠

وهيكل الشمس : مربـــع ٠

وهيكل الزهرة : مثلث فى جوف مربع ٠

وهيكل عطارد : مثلث فى جوف مربع مستطيل ٠

وهيكل القمـــر : مثمن ٠

يقول المسعودى : والذى بقى من هياكلهم المعظمة فى هذا الوقت وهـــو (سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة) ٣٣٢ بيت لهم بمدينة حران فى باب الرقة يعرف بمغليتيا هو هيكل أبى ابراهيم عندهم ٠

رؤسائهم : ذكرهم ابن النديم فى فهرسته من أراد الوقوف عليهم فليرجع لها (*) •

تعقيب حول فكر الصابئة :

ثم أخيرا ، ولقد خلفت الصابئة أثرا شاهدا على تاريخها : وهو عبادة النجوم التى تولد منها التنجيم •

ذلك أن النجوم وفوق كل شىء الكواكب كانت فيما يبدو وفق قوانين ثابتة • تقول بالتقابل والتوافق : أى أن السموات من فوق والأرض من تحت شقيقان متكاملان ، فما كان يحدث فى العالم النجمى كان يعاد اخراجه على الأرض ، وهذا هو الأمر الحيوى فى الموضوع •

بيد أن حركات العالم النجمى ثابتة فاذا كان هناك اذن تقابل فكل ما يحدث على الأرض كان ثابتا ، ذلك والحال بالمثل بالنسبة لأفعال الناس أيضا فهى ثابتة وذلك لأن الانسان هو كون مصغر فهو الشقيق المكمل للعالم الكبير ، وروحه شرارة من تلك النار السماوية التى تتوهج فى صفحة النجوم • من هنا نشأ مذهب من أفظع المذاهب التى عذبت الانسانية على مر الزمان وهو المذهب البابلى المسمى (القضاء المحتوم) الذى كان يتحكم على السواء فى النجوم والأرض والناس •

فحركت هذه الكائنات جميعا ثابتة بفضل قوه باقية لا تتبدل وهى قوة لا علاقة لهـــا بالأخلاق • قوة لا تحب ولا تكره ولكنها تواظب على مسارها بطريقة لا هوادة فيها مواظبة النجوم فى مسارها عبر القبة الزرقاء •

وقد استطاع التنجيم فى النهاية أن يتغلغل فى كثير من الديانات ويصبغها بلونه • وكان هناك أكثر من نظام للتنجيم •

* عبادة الكواكب •
* أبراج الفلك وعلاماتها الاثنتا عشرة •

بيد أن التنجيم القائم على الكواكب كانت له قوة أعظم • فالكواكب

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى ص ٦٠ ، ٤١ ج كذلك يراجع المسعودى ص ٤١٧ — ج١ مروج الذهب •

السبع هى : الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحـــل كانت فى عبادتهـــا الميسرات للقضاء والقدر وفى النهاية هى مستقر عروش « حكام هذا العالم » الذين أصبحوا فيما بعد معادين لروح الانسان وشرا عليها بصورة قاطعة لانهم أصبحوا يجرون المقادير عليها بلا هوادة ٠

كذلك خصص للكواكب السبعة الوانها الخاصة المقابلة للطوابق السبعة للمعبد البابلى

كما خصص لها معادنها الخاصة ونباتاتها وحيواناتها

* أما أبراج الفلك فقد كانت تحكم فى مصائر الشعوب ومدنها المتنوعـة وتشهد العملة بان أنطاكية ونصيبين كانتا تحت سيطرة برج الحمل

والرها تحت سيطرة برج الدلو ٠

وأن سنجاراو « ريسانينا » تحت برج القوس (١) ٠

ولئن الذى كان يهم الناس هو أن مصائرهم كانت ثابتة منذ الولادة بفضل نجومهم كما أن المنجم المقتدر كان يستطيع أن يتنبأ لهم بالمستقبل عن طريق حسبانه لطوالعهم وساهم التنجيم فى ادخال عناصر كثيرة غير منطقية مثــل

الحــظ

الفرص

ثم تحدد مسار الكفاح الانسانى ضد سيطرة النجوم عليه بثلاثة خطوط رئيسية حاول بها الانسان الفرار من تأثير نجومه عليه وكلها تعتمد على الاعتقاد فى الله الأقوى من كل شىء أعطى الانسان كثيرا من الحرية والارادة ، والعقل البشرى سيادته من خلال توجيهات الوحى الذى استطاع به أن يثور ضـــد ثقل : « الجبرية » ــ للقاهر بسبب الاعتقاد فى تأثير النجوم بأفلاكها عليه وعلى مصدرها ٠

---

(١) الحضارة الهيلينستية ن٠ن٠ تارن ترجمة عبد العزيز جاويد ص ١٤١ ـــ ١٤٢ ٠

والخطوط الثلاثة هي •

* الدين •
* المعرفـــة الروحيـــة •
* السحر •

وكفاح الدين ضد سيطرة النجوم على الانسان سوف نعرض له من خلال محاورة نبي الله ابراهيم معهم •

اما المعرفة الروحانية : فهي العلم بكنه الاشياء وليست هي المعرفة التى تتوافر للفيلسوف •

فالمعرفة الروحانية الحقيقية تجعل الانسان يأمن من قضاء وقدر النجوم على أساس اعتقاده أن روحه بعيدة عن منالها ، وهذا من المبادىء الرفيعة للمعرفة الروحانية التي تساعد الانسان الا يذل لغير الله وهذا ما يـ فق مـــع العقـــل •

السحر :

اما السحر فالفكرة الأساسية فيه : هي انه باستخدام الوسائل الصحيحة يمكن اجبار القوى الخفية على العمل فمن اهداف السحر التى يراها الانسان القديم أن يعود بالحرية اليه من سيطرة الكواكب عليه ، ويعطى الانســـان مزيدا من السيادة على القوى الخفية وتصبح كل عبادة للنجوم التي تعطى لنفسها السيادة على الانسان فى نظر السحر والسحرة مرفوضة •

فالسحر طريق اتخذه الانسان للحصول على رغائبه المادية والروحية ، وفلسفته قائمة على منح الانسان قدرته على تغيير ما قضت النجوم عليه •

واوشك السحر أن يصبح نظاما دينيا •

وكانت للسحر صلات باشكال المعرفة الروحانية السفلى فانت تستطيع أن تجبر القوى الروحية ان يطلع الانسان على ما لديها من خفايا واسرار ، بيد أن المعرفة الروحية فى اسمى مراتبها تنبذ السحر كذلك الدين ينبذه ، لأن

السحر اذا كان يغير من قضاء المقدر من لدن الأرواح ، فان الدين يرفعك فوق قضاء التنجيم اذ الهدف العام للدين هو أن يجعلك مرتبطا بالله مؤثرا كل قضاء خارج عنه ٠

من قضايا الصابئة وموقف القرآن منها :

من مشاكلهم التى أثارها القرآن :

١ ــ ابطال عبادة الكواكب ٠ وعبادة الأصنام كما فى محاورة ابراهيم ٠

٢ ــ ابطال القول بأن بشرية النبى تمنعه من الاتصال بالله ولا تتفق معه ليكون وسيطا ٠

المشكلة الأولى : ابطال عبادتهم للكواكب والاصنام ٠

ابراهيم والصابئة :

ساق القرآن محاورة من الأدب الراقى بين نبى الله ابراهيم وعبادة الكواكب تعتبر تأسيسا لعلم الكلام الدينى وبيانا مقارنا بين علم الكلام الدينى وعلم الكلام الوثنى ٠

ونلاحظ من تحاور ابراهيم مع قومه أن علم الكلام الوثنى قد نشأ بجانب علم التوحيـــد ٠ وابراهيم نبى الله اذ يهدم العبادات الطبيعية التى انتشرت ابان بعثته ــ وهى التى ألهت العالم الطبيعى ــ كان بعضها من النيرات مثل الكواكب ، والبعض الآخر له شكله الأدنى من حيث الاشراك أيضا مثل عبادة الأصنام وعرض لها نبى الله ابراهيم وهو اذ يهدم هــذه المظاهر يبين لهم فى النهاية أن الآلهة التى تحتوى عليها وثنيتهم ليست الا أسماء كاذبة أطلقت على بعض أجزاء من العالم المادى ٠

يقول الله تعالى :

« واذ قال ابراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين » ٠

« وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » .

« فلما جن عليه الليل رأى كوكبا » .

« قال : هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين » .

« فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » .

« فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برئ مما تشركون » .

« انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » .

« وحاجة قومه قال اتحاجونى فى الله وقد هدان ولا اخاف ما تشركون به الا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شئ علما افلا تتذكرون » .

« وكيف اخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فاى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون » .

« الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »

« وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم » ٧٣ : ٨٣ الأنعام .

الواضح : أن نبى الله ابراهيم قدم سعيا تدريجيا مصحوبا بنقد حقيقى لهذا اللون من العبادة ، والسعى واضح من محاورة نبى الله ابراهيم لأبيه — وليس لذات ابيه — وانما هو لكل عباد هذا اللون من العبادة — عبادة مظاهر الطبيعة — ونقدا حقيقيا للتنجيم وللعبادات الكونية وذلك ليس نقدا جدليا بل هو وصف تدريجى لمنحنى النفس الداخلى آخذا نقطة بدئه من المحسنات منتهيا به الى اللامعقول .

والشك الذى أراد نبى الله احداثه فى نفوسهم حول هذه العقائد فانه ليس الا طريقة تمهيدية لحكمة ارفع شانا وهى معرفة الانسان لنفسه . هذه المعرفة هى التى تميز فينا ثنائيتنا وهى .

* الروح وهى غير مرئية غير أن لها قدرة السيطرة على الجسم .

* والجسم وهو مرئى وخاضع للروح .

كذلك معرفة الانسان لنفسه الذى اراد نبى الله ابراهيم لفت النظر اليها هى التى تحملنا على تأمل المعقول واللامعقول كذلك تتيح للانسان الانتقال من الكون الى الانسان ثم من الانسان الى الكون انتقالا عن علم وبصيرة نافذة وسبيل ذلك كله : هو الوحى الالهى أساس علم التوحيد .

. وأفادت المحاورة أن هذه الكواكب ليست شيئا من حيث عبادتها او الاعتقاد فى أنها مدبرة انما كما قررها القرآن آيات كونية فقط .

. قال تعالى : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون »
(٣٧ فصلت) .

ويقول الرسول : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان ولا ينخسفان لموت احد » . كذلك درأ القرآن انحرافهم بعلم الفلك الى علم تنجيم ليستطيع الانسان من خلاله التنبؤ بمصير الانسان ، فربطوا مثلا : بين الحب الأكبر ، وبين الاتحاد بين الناس ، وبين انضاج الثمار والقمر كذلك مبدأ قراءة المستقبل بالتنجيم : موجود لدى عبادها . ويمكن التنبؤ بالحوادث : من شروقها ، وغروبها ، وكسوفها ، وخسوفها وفى نظرهم اذا كانت النبوة لها قدرة التنبؤ بالمستقبل ، فوسائلهم لها أيضا : قدرة التنبؤ ، وهى فى نظرهم أرهف شفافية ، لذلك عرض الاسلام هذاالاتجاه مقرر : انها ليست محلا للعبادة وليس لها علاقة بمشيئة الانسان .

فالاسلام : لا يقرر ما يقول به علم التنجيم ، لأنه يسند كل شىء الى غير مشيئة الله فلا يمكن أن تجرى الحوادث طبقا لسلطان الكواكب كما يعتقد الصابئة .

واصبح هذا الرأى : هو السائد بين المسلمين وعقيدتهم ، فلم يعد ينظر الى الكواكب على انها هى المسيطرة والموجهة للحوادث كما كانت فى علم التنجيم الوثنى بل أصبحت تعد مظاهر كونية وآيات من آيات الله ٠

وهذه النظرة التى قررها الاسلام تخالف ما عليه الصابئة وما كانت عليه اليهودية والمسيحية ٠

فاليهود يعترفون صراحة بالكواكب على أنها (حكام) استنادا على ما جاء فى سفر التكوين ١ ، ١٤ ، ١٦ : أن الله وضع أنوار السماء ليحكم الأرض ٠

وقد جرى المسيحيون على نهجهم فى هذا الصدد :

وفى هذا الصدد نعرض لكلمة قالها : ديلاسى أوليرى فى مقدمة كتابه الفكر العربى ومكانه فى التاريخ ٠

قال فيها : والحق أن هذه الثقافة الاسلامية فى اساسها وفى جوهرها جزء من المادة الهلينية الرومانية ٠ بل انه حتى علم التوحيد الاسلامى قد تحدد وتطور بواسطة منابع هلينية ٠

ثم يقول : وتظهر أعظم قوة لها فى أنه قد عرض المادة القديمة فى شكل جديد جدة تامة ، فهنا مثلا أى تشبه : بين اليهودية والاسلام ، أو المسيحية والاسلام فى هذا المقام الذى عرضناه ٠

ثم أخيرا نقول : أى تشابه بينه وبين الهلينية ، التى قررت الوثنية منذ ان بدأ الانسان اليونانى يفكر من خلال مدارسه الطبيعية عندما أجاب على سؤال: ممن تكون العالم ؟

أبالماء أم التراب أو النار ؟ وحصر فكره فيها ، من هنا تأسست الوثنية التى قررت أن مظاهر الطبيعة صالحة للعبادة حينما اسندت لها قدرة الكون والفساد أو التدبير ٠

المشكلة الثانية : أن الاتصال بالله لا يحتاج الى وساطة الوحى :

الوساطة بين الانسان والله :

ان اتخاذ وسيط بين الله والروح الانسانية ، سمة كل الأديان والمذاهب الروحية القديمة من صابئة ومجوسية ووثنية وشرك . والوساطة قد تتنوع بتنوع المذاهب المختلفة :

* ففى الدين السماوى : تظهر فى الوحى الالهى فى الاسلام ، او «الكلمة» فى المسيحية ، أو اليهودية ، هذه الوساطة لا شرك معها ولا تأثيم ، لانها توجه صاحبها الى عبادة الله وتوحيده . فالوساطة هنا ليست معبودة ، وانما لها مظهر من مظاهر العبادة : وهو التقديس .

* وفى الفلسفة : تظهر فى العقل الفعال ، وبواسطته كان الفيض الالهى ، وهذه فكرة فلسفية ترجع الى التراث اليونانى ، وهذا أول ميل فكرى نحو الشرك المنزه عن المـــادة .

* والديانات الوضعية فى الشرق : تميل الى فكرة الوساطة المجسدة ، اما فى شكل نار ، أو حيوان ، أو جمادات ، ويشترك مع نزعة الشرق الفلاسفة الطبيعيون الأول فى اليونان وذلك حينما اعتبروا العناصر من ماء وهواء ونار وتراب أصل العالم .

فالمظاهر المادية التى رافقت الانسان فى تفسيره لله وشابت علاقته به كانت أصلا لنشأة الوثنية لأنها اعتبرت مبادىء مدبرة والهية لا مادة للعالم .

فالوساطة : اما أن تكون موجهة الى التوحيد ، والى السلوك الطبيعى للعبادة ، وذلك : كالوحى أو الكلمة فلا شرك فيها ولا ميل فيها الى الشرك .

واما أن تكون الوساطة شركا ، أو داعية الى الشرك ، وذلك اذا كان الوسيط يقوم مقام الله أو يشترك مع الله ويقوم الانسان بعبادته أو يعتقد فيه انه فى حاجة الى وسيط .

واضح : ان فكرة الوساطة (الشريك) نشأت بعيدا من الدين السماوى وليس ذلك وحسب بل ان الدين السماوى نبذها وحاربها بمختلف وسائل المحـــاربة .

فالوساطة التى انشأها الانسان ليعبدها تجدها نشأت اما فى مجتمع خال من الدين فابتدعها الانسان تعبيرا عن ميله الفطرى للعبادة ، أو تنشأت فى مجتمع حـــافل بالفكر الذى يكثر القـــول عن السبب الأسمى ، فان استطاع الفيلسوف تصور قيمة هذه الفكرة ، فان عوام المجتمـــع لسوف

يهربون من تلك التصورات المنطقية الجافة ثم يقعون وهم يفرون من فكرة العقل الفعال فى نظر الفلاسفة فى حوزة الوسيط المجسد — لأن الوصول اليه عسير ٠

واضح : ان فكرة الوساطة (الشريك) نشأ تبعيدا من الدين السماوى وليس ذلك وحسب ، بل ان الدين السماوى نبذها وحاربها بمختلف وسائل المحاربة .

والكائنات التى رشحها الانسان للعبادة ليست وسطاء بين الله والعالم فقط بل وبين الله والنفس الإنسانية المتعطشة للدين حتى — لاستحالة صعودها الى أعلى وانبهار بصرها من التامل — لا يسعها الا الوقوف عند درجة أدنى ٠

فمذهب الوسطاء ليس مؤداه استحالة خلق الله للعالم بل استحالة وصول النفس مباشرة الى الله ٠

وما نستخلصه من وراء مذاهب عبادة الوسطاء وجود الروح الدينية العميقة المتغلغلة فى النفس الانسانية ، وانها سلكت بالانسان طريق العبادة وطريق الفكر الميتافيزيقى ٠

واذا كان فراغ المجتمع الاغريقى من الدين فانه لم يستطع أن يلغى الاحساس بضرورة الحاجة الى العبادة ، وذلك باستحداثه أنماطا من الوساطات الدينية ليدين لهـا ٠ واذا كان الفكر الفلسفى لم يستطع أن يقدم للانسان شيئا عن الله وعن علاقته به سوى الدعوة الى التامل فقط ، وكان فى ذلك توسعه لمعنى المقدس ، فان الدين السماوى — الاسلام وهو المقدس الحقيقى — هو الدعوة الطبيعية والآمنة من فراغ المجتمعات من الدين ولنبذ وثنية الوساطة والشرك التى يحوم حولها عندما ينعدم الدين الالهى منها ٠

ملاحظات على ما أورده الشهرستانى فى المناظرة بين الصابئة والحنفاء :

اورد الشهرستانى مناظرة بين الحنفاء والصابئة وكان لنا عليها ملاحظات:

أولا : أنها خالية من تاريخ زمنها ومكانها فهل كانت ايام بعثة ابراهيم راس الحنفاء ؟

هذا الفرض لا نجد له فى المناظرة ما يؤيده لأن الشهرستانى ضمنها بيتين من الشعر لزهير :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه   فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها   فليس الى حسن الثناء سبيل

كذلك ضمنها آيات من القرآن ٠

كذلك ضمنها اصطلاحات فلسفية منها ما يرجع الى الفكر اليونانى وبعضه الى افلاطون كقوله : ان النفوس كانت فى البدء فى عالم الذكر ثم هبطت الى عالم النسيان ٠

وبعضه الى أرسطو مثل : الهيولى والصورة والحيوانية الناطقة ٠

ومنها ما هو منسوب الى مدرسة الاسكندر أو التراث الهلينى مثل :

العقل الفعال : ماهيات مجردة من المادة ، العقل المستفاد ، العقول المفارقة ٠

ومنها ما هو منسوب الى اصطلاحات صوفية اسلامية مثل : وما أشرق عليه من الانوار القدسية : وحيا والهاما ومناجاة واكراما ٠

ومنها ما هو تاليفات شهرستانية مثل : النفس النبوية — الحيوان الناطق المائت ، المتكلم الحنيف ، المتكلم الصابئ ٠

فالمناظرة حوت الكثير من المصطلحات المختلفة من حيث الزمن والمكان ومن حيث الألوان الكفرية ففيها الفلسفى القديم والوسيط والدينى الاسلامى وغيره والعربى وغير العربى ٠

وهذا مما يجعلنا نميل الى أنها ثقافة شهرستانية — صياغة ، وفكرا ،

ويصبح الاعتماد عليها لبيان أصولها الفكرية مقدوحا فيه لتصرف الشهرستانى فيها ، ولقد صرح بهذا التصرف فقال :

وقد جرت مناظراته ومحاوراته بين الصابئة والحنفاء فى المفاضلة بين الروحانى المحض وبين البشرية النبوية ٠

« ونحن أردنا أن نوردها على شكل سؤال وجواب » ٠

هذا فضلا عما يظهر فيها من التكلف المنطقى الذى يجانب الفكر الشرقى القديم ٠

ثانيا : ومما يلاحظ — وهو شئ غريب — أن المناظرة خالية من النصوص القديمة التى تمثل صحف ابراهيم ٠٠ انما اعتمدت على الجدل المنطقى ٠ فاستوفاها الشهرستانى من كل شئ عدا نصوص من صحف ابراهيم ٠

ثالثا : لم يذكر الشهرستانى من صاحبها ولا تاريخ نشأتها ولا مكانها وفى المناظرة ما يفيد — من خلال كلام الصابئة أنفسهم وبتصريحهم — أنها تنتسب الى «هرمس» و «عاذيمون» •

غير أن الشهرستانى فقط — أى على لسانه هو دون لسان الحنفاء — استبعد أن يكون هرمس من الصابئة ، وهذا تصرف جرىء لا يقدر عليه الا اذا كانت المحاورة من تأليفاته •

رابعا : وفى المناظرة فكر يخدم الفكر الانسانى من حيث النظرة العامة ، وفيها :

ما لا ينفع الحنفاء — حيث انهم ورثة ابراهيم بل ويناقض مذهبهم •

وهذا وقع فيه الشهرستانى وهو يصوغ فكره معتمدا على أسلوبه الفلسفى دون الرجوع الى مستندهم الحقيقى •

خامسا : ومما ينبغى لفت النظر اليه أن الشهرستانى حاول — وهو غير مسبوق اليها — أن يضع تمييزا بين الحنفاء والصابئة •

ملاحظات على ما ذكره المسعودى عن الصابئة فى كتابه مروج الذهب :

ذكر المسعودى أخبارا عن الصابئة فى موضوعين :

الموضوع الأول :

ذكر فيه تاريخا عن أحدث مذاهب الصابئة واسم الملك الحاكم • وذلك فى صفحة ١٦٨ •

الموضوع الثانى :

عاود القول عنهم فذكر البيوت المعظمة والهياكل المشرفة للصابئة • وغيرها ، وغير ذلك مما لحق بهذا الباب واتصل بذلك المعنى وذلك فى صفحة ٤٦٧ — ٤٧٠ •

ومما نلاحظ عليه :

أنه قدم معلومات محددة ودقيقة فيها استقصاء لبعض استفهامات يحاول المسعودى وهو مؤرخ أن يثيرها مثل قولهم « هيكل العقل » •

يقول المسعودى متسائلا : وما أدرى أشاروا الى العقل الأول أم الثانى ؟

حول هذا الاستفهام الذى يدل على نزعة المسعودى الفلسفية — وهو مؤرخ — يقدم اجابات مسندة الى مراجعها القديمة •

وعندما أخذ فى شرح الهياكل قدم لنا شواهد كثيرة تؤيد ما يسوقه لنا منها :

— حكاية رجل من ملكانية النصارى من أهل حران يذكر اسمه فيقول : يعرف بالحارث بن سنبلط للصابئة الحرانيين حكى للمسعودى أشياء قال عنها : امتنعنا عن ذكرها مخافة التطويل .

— وقدم ما شهده من هياكلهم وحدد السنة التى شاهد فيها هيكل آزر .

— وذكر لابن عيشون الحرانى القاضى — المتوفى بعد الثلثمائة — قصيدة طويلة يذكر فيها مذاهب الحرانيين المعروفين بالصابئة .

— وروى شيئا مما رآه فى وصفه : ورأيت على باب مجمع الصابئة بمدينة حران مكتوبا على مدفنه بالسريانية قولا لأفلاطون فسره مالك ابن عقبون وغيره : من عرف ذاته تأله .

وما ذكره المسعودى من مشاهدة العيان يفيد بوضوح الأثر الأفلاطونى فى مبادىء هذا المذهب .

ثم تكلم عن مراجع الصابئة قرأ فيها أخبارا عن مذاهب الصابئة الحرانية .

فمن ذلك كتاب رآه لأبى بكر محمد بن زكريا الرازى الفيلسوف صاحب كتاب المنصورى فى الطب وغيره : ذكر فيه مذاهب الصابئة الحرانيين دون فيه مذهب الصابئة الحرانيين منهم دون من خالفهم من الصابئة الكيماريين .

ثم قال وقد خاطب مالك بن عبقون وغيره منهم بشىء مما ذكرناه وغيره مما عنه كتبنا .. ثم قال ممتحنا ما دونه عنهم :

فمنهم من اعترف ببعض وأنكر بعضا من ذكر القرابين وغيره من الآراء مثل : فعلهم بالثور الأسود .

ومن ذلك أيضا ما قدم من روايات تاريخية مسندة الى روايات سمعها بنفسه أو شاهدها لآثارهم كل ذلك وفق منهجه التاريخى .

وما قدمه عن الصابئة من الناحية التاريخية فيه جديد لم يذكره الشهرستانى — أكبر مؤرخ دينى كتب الكثير عن الصابئة . مثل : بوداسف الذى أحدث مذاهب الصابئة فى فارس وفى الهند : كذا أفاد صلة حران بالصابئة من قديم على خلاف ما ذكره ابن النديم .

وفى كلامه ما يفيد : صلة المذهب الصابئى بالأفلاطونية •

كذلك ذكر أن للصابئة فلاسفة بيد أنهم حشوية يقول فيهم افمتنا أضفناهم الى الفلاسفة اضافة سبب لا اضافة حكمة •

وخلاصة القول : أن ما ذكره المسعودى ليعتبر مصدرا مفيدا عن الصابئة وهو بتقدمه الزمنى والتاريخى على الشهرستانى قدم مادة تاريخية فيها كثير من الالتزام العلمى ، كما قدم مراجع وشخصيات تاريخية تخدم الباحث فى تكوين تصور ما عن الصابئة وهذا ما لم يتوافر للشهرستانى •

وللمسعودى : كتب فى الدين المقارن ، هذا الفن الدينى نراه كثيرا ما كان ينبه اليها ويحيل القارىء عليها منها :

* المقالات فى أصول الديانات •
* الاستبصار •
* الصفوة •
* سر الحياة
* الدعاوى •

فى هذه الكتب ما يشير الى عنايته بهذه القضايا رغم أن هذه الكتب مفقودة الى الآن ، غير أننا كنا نلاحظ من خلال النصوص التى كان يذكرها المسعودى فى كتبه منها أنه كان متخصصا فى تاريخ المذاهب والديانات ، واللمحات التى ذكرها لتنبىء عن أصالة ثقافته فى هذا المجال ••

الزندقة عند عرب الجاهلية :

ملاحظات على ما ذكره ابن قتيبة عن أديان العرب وزندقتهم :

ذكر ابن قتيبة أديان العرب فى الجاهلية فقال (١)

* كانت النصرانية فى « ربيعة » و « غسان » وبعض قضاعة •
* وكانت اليهودية فى « حمير » و « بنى كنانة » و « بنى الحارث بن كعب » و « كندة » •
* وكانت المجوسية فى بنى « تميم » •

منهم زرارة بن عدس التميمى وابن حاجب بن زرارة وكان تزوج ابنته

---

(١) المعارف ، ابن قتيبة ، تحقيق د • ثروت عكاشة ٣٧ دار المعارف • وابن قتيبة هو : ابن محمد عبدالله بن مسعود ٢١٣ هـ •

ثم ندم . ومنهم الأقرع بن حابس ـــ وكان مجوسيا ، وأبو سودة جـــد وكيع بن حسان ـــ وكان مجوسيا .

* وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من « الحيرة » وكان « بنو حنيفة » اتخذوا فى الجاهلية الها من « حيس » فعبدوه دهرا طويلا ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقال رجل من « بنى تميم » شعرا :

أكلت ربهـــا حنيفة من جـــو ع قـــديم ومن اعـــواز

نلاحظ أن المادة العلمية التى قدمها ابن قتيبة غير دقيقة لا من جهـــة الموضوع ولا من جهة الحصر ولا من جهة تحديد القبائل التى تدين بالدين الذى نسبهم اليه .

فهو أولا لم يعد الصابئة ضمن أديان العرب .

وثانيا : أنه ذكر الزندقة من أديان العرب .

فاخرج الصابئة وهى داخلة فى أديانهم وادخل الزندقة وهى خارجة عنهم .

وفى نظرنا يعتبر الوحيد الذى ذكر الزندقة والوحيـــد أيضا الذى لم يعـــد الصابئه .

يقول الألوسى : (١) .

والذى يظهر أن مراد ابن قتيبة من الزندقة التى نسبها الى بعض العرب الذين اعتنقوا الثنوية أو القائلين بالنور والظلمة بمقتضى قوله : أخـــذوها من الحيرة فانها من بلاد الفرس .

وان كان سكانها وملوكها العرب المتدينون بدين الفرس أو دين المسيح لو كان مراده من لا يؤمن بالآخرة وبالربوبية لمـــا كان لقوله (أخـــذوها من الحيرة) وجه فان كثيرا من قبائل العرب كانوا كذلك فتعين أن مراده ما ذكرنا ".

---

(١) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، السيد محمود شكرى الالوسى ط ٢ ص ٢٢٨ ج ٢ .

ثم يقول فى لفظ زندقة : وهو أى الزندقة اصطلاح جديد ولا مشاحة فيه والزندقة اصطلاح فارسى يرجع الى العصر العباسى اتهم به البرامكة ·
يقول ابن قتيبة :

وكذا البرامكة يرمون بالزندقة وفيهم قال الأصمعى :

اذا ذكر الشرك فى مجلس	أضاءت وجوه بنى برمك
وان تليت عندهم آية	أتوا بالأحاديث عن مزدك

يقول صاحب لسان العرب : (٢) ·
الزنديق القائل ببقاء الدهر فارسى معرب ·
وليس فى كلام العرب زنديق ·
وانما تقول العرب : زندق وزندقى اذا كان شديد البخل ·
فاذا ارادت العرب معنى ما تقوله العامة قالوا ملحد ودهرى بفتح الدال ·
أما معناه فى المسموع : دهرى بضمها ·

ويرجع اصطلاح الزندقة الى (مانى) وذلك أن الفرس حين أتاهم (زرادشت) أتاهم بكتابه المعروف : « بالبستاه » باللغة الأولى من الفارسية وعمل له التفسير وهو : « الزند » وعمل لهذا التفسير شرحا سماه « البازند » وكان الزند بيانا لتأويل المنزل ·

ومن أورد فى شريعتهم شيئا بخلاف المنزل الذى هو البستاق وعدل الى التأويل الذى هو الزند قالوا : هذا زندى فاضافوه الى التأويل وأنه منحرف عن الظواهر من المنزل الى التأويل وهو بخلاف التنزيل ·

فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس وقالوا : زنديق وعربوه ، والثنوية : هم الزنادقة ·

قال المسعودى : والحق بهؤلاء : سائر من اعتقد القدم وأبى حدوث العالم (١) ·

يقول الشهرستانى : ومما اتفقت حوله الأديان والملل : أن للعالم قوة

---

(١) لسان العرب لابن منظور ·
(٢) مروج الذهب ص ١٧٣ ·

الهية مدبرة لـــه ، بيد أنها لها أسماء شتى :

* تسمى عند : « زرادشت » : « مشاسيد » •
* وعند الصابئة : المدبر الأقرب •
* وعند الفلاسفة : العقل الفعال ومنه الفيض الالهى •
* وعند المانوية : الأرواح الطيبة •
* وعند العرب : الملائكة •
* وفى الاســـلام : الله •

ولعل ما لاحظه الشهرستانى كان موضع تقدير لدى الذين حاولوا توحيد الأديان ، وذلك على أساس أن الشعوب المختلفة انما تعبد فى الحقيقة : الاله نفسه ، تحت أسماء مختلفة ، وأنه يمكن بناء على ذلك توحيد الأسماء والنحل وهذا الاعتقاد هو ما جعل أنطيو خوس الرابع يعتقد أنه لن تكون هناك صعوبة شديدة تستعصى على ادخال عبادة « زيوس » حتى فى بلاد اليهودية نفسها •

المجوسية أقدم من زرادشت :

ترتد الديانة المجوسية من حيث تشابه عناصرها الى التراث الهندى وتناقضها مع ديانة جيرانهم الساميين ٠٠ يقول دى بورج :

فى ازمان ما قبل التاريخ ترك فرع من الأسرة الهندية — الأوربية موطنهم الأصلى فى أراضى السهوب شمال قزوين ، وهاجر فى اتجاه جنوبى شرقى ٠ ولقد سار بعضه عبر ممر خيبر الى البنجاب بينما استقر البعض الآخر فى شرق الهضبة الايرانية العظيمة ٠ وفى بواكير السنوات الألف الثانية ، يممت هذه القبائل اليرانية (سمت نفسها آرية ومن هذه التسمية اشــتق الاسمان المطيان آريا وايران) صوب الغرب الى المرتفعات التى تحف سهول ما بين النهرين وكلديا ، وبعد ذلك بالف سنة ، نجد الميديين الى الجنوب من بحر قزوين والبرتيين فى خراسان والبكتريين فى منحدرات الهندوكوش الشمالية والفرس فى الجبال التى تشرف على الخليج الفارسى الى الشمال الشرقى ٠ وكانت سلاسل جبال الهندوكوش وسليمان تقوم حاجزا من جهة الهنــد ٠ ولقد أحضر هؤلاء الآريون معهم الحصان وهو من نتاج سهول السهوب ولم يكن للبابليين أيام حمورابى عهد به ولكن استخدمه الأشوريون كعدة حرب (١) ٠ ولقد حملوا معهم كذلك دينا متميزا ، يتناقض تناقضا يسترعى البال مع دين جيرانهم الساميين المستوطنين السهل ، وكان يختلف أيضا — على الرغم من أساس مشترك داب على المحافظة على نفسه بين الفرس الى الى يومنا — عن دين الآريين ذوى قرابتهم فى الهند (٢) ٠ وبينما أخضعت العقيدة الهندية كل الآلهة الأخرى الى اله اعظم اوحد فان الدين الايرانى

---

(١) كما يدل على هذا الاسم البابلى للحصان « جحش الشرق » .

(٢) بين العناصر المشتركة عبادة ميترا وهو اله الشمس وذابح المارد (اندرا الهندى) وعبادة النار والاعتقاد بشرعة قدر يتفوق على الآلهة والانسان ٠ انظر ف ٠ كيمون (F. Cumont) (Les mysteres de ص ١ — ٣ وكان وارونا أعظم اله خلقى في مجمع الآلهة الفيدية تطورا موازيا لاهور مزدا ومن اصل ارى مشترك .

كان له مظاهر ثنائية (١) وكان مجمع آلهتهم يأتلف حول قوتين لهما السيادة، الواحدة قوة الخير وهى ايجابية خالقة ومصدر النور والحياة والأخرى قوة الشر وهى الظلمة والموت ، وهى سالبة ، وكانت القوتان تسميان على الولاء ، اهور امزدا (أورمزد) وأهريمن • والصراع خارق العادة ، بين هاتين القوتين الالهيتين غدا ينعكس فى مجرى تاريخ البشر • وبين الاثنتين ، يقف الانسان وقد وهب الحرية الخلقية التى يتوقف على استخدامها مصيره فى العالم الذى يقبع فيما يلى اللحد • وكان الدين الايرانى ينزع الى آداب السلوك ، ولم تكن آلهته كآلهة الآريين الهنود • معان مجردة تصورية ولكنهم كانوا شخوصا خلقيين ولم يكن هدف الجهد الانسانى الاندماج التألهى فى مطلق وحدة الوجود ولكن سعادة أبدية فى السماء حيث يحكم اهورا مزدا وما كانت الحياة الانسانية وما يلازمها من فروض اجتماعية وأفراح وأحزان بخدعة ولكنها المجال للعمل فى همة والقيام بالواجب الخلقى • وفى اعترافه بقيمة الثقافة الدنيوية واتجاهه الى غاية يكون فيها الخلاص الفردى وليس الخلاص القومى ، فان دين ايران كان يختلف عن دين العبريين وان تشابه معه فى تعليمه الخلقى الرفيع • وكان الفرس يتسامحون مع الديانات المحليـــة عندما لا تناصب دينها العداء ، ومع هذا فان عقيدتهم انتشرت صوب الغرب بتوسع امبراطوريتهم • وفى نقاوته كما نهض به النبى زرداشت ، كان دون ريب ، عقيدة القلة أكثر من أن يكون عقيدة الكثرة ، وكان من شأنه ، بين أيدى المجوس (وهم طبقة من الكهنة) أن يتدهور الى فرائض رسمية بينما أصبحت الجماهير تفسر تعليمه فى صبغ ديانة ما قبل زرداشت القديمة (٢) • وكان مرجع قوته الحقيقية الى اصراره على المسئولية الخلقية •

---

(١) ولكن براهما الأعلى فى دين التوحيد الهندى كان لا سبيل للوصول اليه وكان الناس مشتاقين الى استرضاء الهين أقل شأنا هما سيوا ووشنو •

(٢) عاش زرادشت على الراجح حوالى عام ٦٥٠ ق•م وتحوى الأسفار الفارسية المقدسة التى يطلق على مجموعها لفظ أوبتا ، الجاتات وهى ترانيم ربما كتبها النبى نفسه • ويقرب المذهب الزردادشتى أن يكون توحيدا • وكانت عبادة النار لها شأن عظيم اذ كانت النار انقى مظهر لاهورا مزدا ، ويظهر أن المجوس الاوائل كانوا معادين لمذهب زرداشت ولم يحفل

زرادشت :

يرجع تطور المجوسية فى نشأتها الى رجل فارسى يدعى « زادرشت » ظهر فى عهد سلطنة (كشتاسب) أو (هيستاسب) ملك الملوك الفــارسى (شاهنشاه) وأتى بكتاب ــ قال انه سماوى ــ وأوستوزند ٠

وهذه الديانة لا تجيز عبادة الأصنام أو احترام الأوثان مطلقا ولا يقرون الا بإله واحد أزلى سرمدى أبدى ليس له شريك فى الملك ومنه الأمر واليه يرجع ويسمون الله : (أورمزد ٠ أو ٠ هرمز ٠ أو هرمس) والاله (ايزد) ويعتقدون بخلود النفس وبعالم آخر بعد الموت يكون فيه العقاب والثواب ٠ ولكن يعتقدون بأن الله خلق مع الخلق قوتين عظيمتين :

اسم أولاهما : يزدان مصدر الخير ٠

واسم الثانية : أهرمن أى مصدر الشر ٠

فجميع الخيرات والشر فى هذه الدنيا ينسب الى هاتين القوتين ويفسرهما حكماؤهم : بالعقل والنفس ٠

وهم يبجلون ويعظمون كل الأقمار والكواكب والنجوم وجميع المنيرات المضيئات بقولهم : انها مظاهر الأنوار الأحـــدية ، لا سيما الشمس فانهم يتعاونون فى تعظيمها ٠ لاعتقادهم فيها انها مصدر النور والحرارة وهما أصل مادة الحياة وأعظم واسطة عند الله وأكبر مظهر من مظاهر الله ولولاها لمــا وجد كائن حى فى العوالم التى تحت نظامها ٠

ويوجد فى كتبهم أخبــــار متعددة عن ظهور مجدد ومصلح جديد يوجد

مخبر هيرودوت بهم كثيرا ٠ ولقد اثرت عبادات فارس ، كعبادات مصر وبابل في الدين الغربي أول ما اثرت في العهد الذى اعقب غزوات الاسكندر ٠ وفي العهد الرومانى ، كما سنرى فيما بعد ، كانت عبادة ميترا اجد شائعة في عالم البحر المتوسط واثرت الثنائية الفارسية على المسيحية في الشرق انها أصل الاعتقاد في شيطان شخصى ٠ انظر كيمون Cumont في الكتاب السباق الاشارة اليه ، المقدمة ص ٦ ــ ٨ ، وفصل الله (عند الايرانيين) قاموس التوراة لهيستنج ٠
Hastings' Dictimary of the Bible

يراجع : تراث العالم القديم ج ١ ص ٥٣ ، ٥٤ ٠

لهذا المصلح علامات فى تلك الكتب ينطبق البعض فيها صراحة على أحوال حضرة صاحب الرسالة (الرسول) • والبعض تلميحا وتأويلا (١) •

والمجوس انما يعظمون النار لمعان فيها منها : انها جوهر شريف علوى • ومنها : أنها ما أحرقت ابراهيم •

ومنها : ظنهم أن التعظيم لها ينجيهم فى « المعاد » من عذاب النار •

وبالجملة : هى قبلة لهم : ووسيلة واشارة •

ومن عجيب الأمر أن نار فارس المقدسة لو كانت فى عصرنا لدلت العلماء على آبار البترول التى تغذيها ، فالنار كان وراءها سر عجيب وهو البترول كم أفنت تلك النار آبارا •

يقول الشهرستانى : ولقد كان فى كل أمة من الأمم قوم مثل الأباحية والمزدوكية والزنادقة والقرامطة وكان تشويش ذلك الدين منهم وفتنة الناس مقصورة عليهم (٢) •

ويقول فيليب حتى : عبدة النار (المجوس) من اتباع زادشت (٣) • هى أصفى واطهر العناصر المخلوقة لاعلى انها هى الخلاق المعبود •

وقال مشيرا الى أن المجوسية سابقة على أن زادشت قد استخلص من أخلاط المجوسية وسطا بين العقيدة الوثنية الأولى والعقيدة الالهية الحديثة (٤) •

ويقول الشهرستانى : فارقا بين المجوسية والحنيفية :
ان الحنيفية هى الملة الكبرى والشريعة العظمى وذلك هو الدين القيم •
والتوحيد من أخص أركان الحنيفية ولهذا : يقترن نفى الشرك بكل

---

(١) يراجع : مفتاح باب الأبواب زعيم الدولة الدكتور ميرزا محمد مهدى خان رئيس الحكماء الايرانى والأذربيجانى التبريزى نزيل مصر ط ١ مطبعة مجلة المنار سنة ١٣٢٩ •

(٢) راجع الملل والنحل ج ١ ص ٢١٦ ، كذلك يراجع المسعودى مروج الذهب ج ١ ص ١٧٣ •

(٣) تاريخ سورية ج ٢ ص ٩٩ •

(٤) الله ص ١٠٩ ، ١١٠ •

موضع ذكر فيه الحنيفية « حنيفا » وما كان من المشركين .

ويقول : .

« حنفاء لله غير المشركين » .

ثم ان التنية اختصت بالمجوس اثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين ؛ يقتسمان الخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد . يسمون أحدهما : النور والآخر الظلمة ، وبالفارسية : يزدان وأترامان .

ومسائل المجوسية كلها تدور على قاعدتين اثنتين :

احداهما : بيان سبب امتزاج النور بالظلمة .

والثانية ، بيان سبب خلاص النور من الظلمة .

وجعلوا الامتزاج مبدأ والخلاص معادا (١) .

وقد أصاب الشهرستانى حين قال : إن هذه الثنوية هى ازم سمات المذاهب المجوسية لانها تتراءى فى كل مذهب منها بلا استثناء . وهى كذلك أبقى منها فى مجال التفكير ومجال الاعتقاد على السواء لاننا نرى منها ملامح اليونان(١) .

المجوسية والعرب :

يقول ابن قتيبة : وكانت المجوسية فى تميم :

منهم : زرراه بن عدس التميمى وابن حاجب بن زرارة وكان تزوج ابنته ثم ندم .

ومنهم الأقرع بن حابس . وكان مجوسيا .

وابو سودة جد وكيع بن حسان . وكان مجوسيا (٣) .

قال أبو حاتم : أن المجوسية لم تكن فيهم (العرب) على ما ذكره الرواة .

---

(١) الشهرستانى ــ إلملل والنحل جـ ١ ص ٢١٢ .

(٢) الله ــ للعقاد ص ١١٩ .

(٣) بكتاب المعارف ـ حققه وقدمه د . ثروت عكاشة دار المعارف ص ٣١ وهو أبو محمد عبدالله بن مسلم ٢١٣ هـ .

وقالوا : سمى ابنته (دقنوس) باسم ابنة كسرى وتزوجها فعيره بذلك اهل بيته ·

فقال : أليست لى حلالا فى دينى ؟ ثم ندم على ذلك وأنشأ يقول :

لحـا الله دينـك من اغلف   تحـل البنات لنـا والخوات
احشت على أسرتى سـوءة   وطوقت جيـلى بالمخزيات
وأبقيت فى عقبى سـنة   مشاتم تحيا بعيـد الممات(١)

ثم قال : ولم يتمجس منهم أحد قبل ·

ويقول : ويقال : ان المجوسية كانت فى بنى تميم ·

ويقول : وروى عن أبى عمرو بن العلاء أن نسرا كان صنما لبعض حمير وكانوا فيما يزعمون مجوسا ·

وهم الذين ذكروا فى كتاب الله ·· وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ·   النمل ٢١ ، ٢٤

ويقال أن بقايا المجوس الذين كانوا باليمن والبحرين منهم ·

علاقة الاسلام بهم :

سنن ابن داود :

قال رجل من الاسبنذيين من أهل البحرين (١) — وهم مجوس — هاجر الى رسول الله فمكث عنده ثم خرج ·

---

(١) وقال ابو حاتم الرازى وهو الشيخ ابو حاتم احمد بن حمدان الرازى المتوفي سنة ٣٢٢ هـ · وفي كتابه الزينة في المصطلحات الاسلامية عارضه وعلق عليه حسين بن فيض الله الهمدانى اليعبرى سنة ١٩٥٦ ·

وذكر مراجعة : المعارف لابن قتيبة ٢٢٩ ·

الشعر والشعراء : ٤٤٦ ·

العقد الفريد : جـ ١ ص ١٧٤ ·

اعلام النبوة للماوردى ·

١٦٨ سنن ابى داود في الخراج عن محمد بن المسكين والذخائر عن عبدالله بن عباس ٣١٣ ·

١ بعث رسول الله العلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى العبدى وهو بالبحرين يدعوه الى الاسلام وكتب اليه كتابا ·

فكتب الى رسول الله يقول : وانى قد قرأت كتابك على أهل هجر فمنهم من احب الاسلام· وبارض مجوس ويهود .. (طبقات ابن سعد) ·

فسألته ما قضى الله ورسوله فيكم ؟

قال : بشر .

قلت : مه .

قال : الاسلام أو القتل .

قال : وقال عبد الرحمن بن عوف قبل منهم الجزية .

قال ابن عباس : فاخذ الناس بقول عبد الرحمن وتركوا ما سمعت أنا من الأسبذى ، (الأسبذيون منسوبون الى أسبذ بلدة بهجر بالبحرين) .

وقيل الكلمة فارسية ومعناها فى : عبدة الفرس وكانوا يعبدون فرسا والفرس فى لغة الفرس : أسب .

وفى حديث آخر عن عمر بن أوس :

فرقوا بين كل ذى محرم من المجوس .

ثم قال : وفرقنا بين كل رجل من المجوس وحرمه فى كتاب الله .

مرويات لم تحقق :

عن ابن عباس قال : ان أهل فارس لما مات نبيهم كتب لهم ابليس كتابا .

القدرية والمجوس :

قال ابن الأثير فى النهاية فى غريب الحديث والأثر (ج ٤ ص ٨٥) من حديث أبى هريرة .

القدرية مجوس هذه الأمة .

قيل : انما جعلهم مجوسا لمضاهاة مذهبهم المجوس فى قولهم بالأصلين وهما : النور والظلمة .

يزعمون أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة .

وكذا القدرية : يضيفون الخير الى الله ، والشر : الى الانسان والشيطان، والله تعالى خالقهما معا لا يكون شىء منهما الا بمشيئة الله فهما مضافان اليه خلقا وايجادا والى الفاعلية لهما : عملا وكتابا .

المشركون والمجوس :

الذين اشركوا ٠

قال : الألوسى : هم المجوس : ووصفوا بالاشراك لأنهم يقولون بالنور والظلمة (روح المعانى جـ ١ ص ٢٧٠) ٠

النيسابورى على هامش الطبرى يقول : جـ ١ ص ٩٧ ٠

ومن الذين أشركوا عبدة النار وهم المجوس ٠

لمـــاذا حاجب بن زرارة هو الذى تمجس ؟

يقول صاحب السيرة الحلبية ص ١٠ ٠

لمـــا أجدبت أرض تميم « بدعاء » النبى عليهم ذهب سيدهم حاجب بن زرارة والد عطارد رضى الله عنه الى كسرى ليأخذ منه أمانا لقومه لينزلوا ريف العراق لأجل المرعى ٠

فقال له كسرى : أنتم قوم غدر وأخاف على الرعايا منكم ٠

فقال له حاجب أنا ضامن أن لا نفعل شيئا من ذلك ٠

فقال له كسرى ومن لى بوفائك ؟

قال : هذه فرسى رهينة ٠

فحمقه كسرى وجلساؤه وضحكوا منه ٠

فقال له : العرب لو رهن أحدهم شيئا لا بد أن يفى به ٠

فكانت بنو تميم تعد ذلك القول من مفاخرها ٠

اورد البلاذرى فى فتوح البلدان ٠ حيث قال : أخذ رسول الله الجزية من مجوس هجر ٠ ومجوس أهل اليمن وفرض على كل من بلغ الحلم من مجوس اليمن من رجل وامرأة دينارا ٠ هذه روايات تفيد أن المجوسية هى دين زاردشت فى المفهوم العربى ٠

وأما الروايات التاريخية الخاصة بتمجس حاجب بن زرارة فهى من وجهة نظرى غير صحيحة لأننا تتبعنا كلمة وفد بنى تميم بين يدى الرسول فما وجدنا فيها ما يشير من قريب أو من بعيد الى نسبة المجوسية اليهم أو نسبتهم اليها سواء أكان قول خطيبهم أم كان القول قول حسان بن ثابت ٠

واذا كان رفضنا الرواية الخاصة بحاجب بن زرارة فانا لا نمنع أن يكون بينهم من تمجس ولا سيما انهم كانوا من غسان وهم ملوك الشام وهم وسط الأعاجم ، يقول حسان :

فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا ولا تلبسوا زيا كزى الاعاجم

وجاء فى كلمة وفد بنى تميم ما يفيد على لسان الزبرقان (من أسماء القمر) :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا منا الملوك وفينا تنصب البيع

يقال عن الزبرقان يرفع بيتا من عمائم وثياب وينضح بازعفران والطيب ، وكانت بنو تميم تحج ذلك البيت ، قال الشاعر وهو المخبل السعدى واسمه كعب بن ربيعة :

واشهر من عوف جلولا كثيرة

بلوغ الأدب ص ٣٣٦ .

الباب الرابع

الكعبة مركز العرب الدينى

* بناء البيت والدعوة الى التوحيد ·
* المرحلة العبثية ·
* الاتجاه التوفيقى بين المظهر القبلى والدينى ·
* مذهب قريش الدينى ومحتواه الفكرى ·
* التشكك فى الأوثان وسحب الثقة منها ·

مكة وبنـــاء البيت

رأينا من عرضنا السابق لتاريخ المنطقة العربية وخاصة شبه الجزيرة العربية أنها لم تكن معزولة عما حولها : سياسيا ، أو اقتصاديا ، أو ثقافيا، أو دينيا ، فرأينا قامت هنا او هناك تحت اشراف الكنيسة التى انشاتها وساعدت علىقيامها مدارس ولميول مذهبية تنظمر المدرسة ويشتت أبناؤها • وهكذا كنا نرى : أنها ما تكاد توجد الا ويعطل رئتيها الهواء • وهذه المدارس الوليدة كانت ذات صبغة دينية ولسانها لا يرطن غير السريانية لغتها القومية •

ومع هذا الاضطهاد وجدت قبائل عربية ذات مظهر حضارى اعتزلت الأوثان الى المسيحية وكنا نلاحظ أن الدافع الى هذا التغيير ليس دينيا خالصا انما بعضه كان سياسيا •

ووجدت قبائل يهودية الأصل ، أو يهودية الدين ، غير الجنس ، اى قبائل عربية فى يثرب ، يختلف المؤرخون : حول تاريخ نزولهم ، وأصلهم ، فى هذه المنطقة ، وهل هى قبائل يهودية الأصل ؟ أو قبائل عربية تهودت ؟ والاحتمال الثانى له من أسمائهم العربية ما يبرره هذا فضلا عن التيارات الأخرى •

كانت هذه التيارات حول مكة ، مركز المنطقة العربية ، فهل تجاوبت مكة مع هذه التغيرات ؟ أو بمعنى آخر هل مكة أحست بهذه التغيرات وما هى دلائل هذا الاحساس ؟ لا شك أن هذه الأشياء بددت سكون المنطقة العربية ، وأحلت فيها تغيرات شاهدناها محصورة على مستوى أفراد من القبائل ولم يبلغ مستوى عمقها الى الشعور الاجتماعى •

- فوجدنا من تمرد على الوثنية ، وأطلقوا على انفسهم : « المحنثين » •
- ومن اعتنق المسيحية •
- ومن اعتنق الحنيفية وأتى بها من الشام •
- ووجدنا من تثقف ثقافة عامة تلقاها فى مدرسة جنديسابور مثل : النضر بن الحارث ووالده الحارث بن كلدة •

- ومن كان عنده مجلة لقمان مثل سويد بن صامت •
- والداعون الى توحيد الله بفطرتهم مثل : قس بن ساعدة •
- وطبقات من الحكماء : مثل أكثم بن صيفى •
- والاباحيون الذين يسبون أصنامهم : مثل امرىء القيس
- ورواية تاريخية تسند الى عمرو بن لحى : انه أتى بصنم من بلاد البلقاء بعد غزو الاسكندر للشرق •
- ووجدنا فيها الصابئين والمجوس •

ونلاحظ أن هذه التغييرات كان منها ما هو شرقى وما أكثره ومنها ما هو هيلينى ، وذلك يظهر فى الأصنام • كذلك لم تبق الجزيرة العربية بمنأى عن دينى التوحيد الكبيرين اللذين قاما على حدودها فقد نفذت اليهودية والمسيحية الى الصحراء •

لكن السؤال هو : اذا كانت الاتجاهات الدينية وجدت فى مكة وكلها أو أكثرها وفد اليها فما هو الاتجاه الدينى لمكة ؟

نبى الله ابراهيم والجزيرة العربية (١) :

عصر ابراهيم الخليل يرجع تاريخه الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد وهو عصر عربى بحت قائم بذاته بلغته وهى مرتبطة بالجزيرة العربية وبلغتها وبقبائلها التى تسميت فيما بعد بالعرب البائدة لانقراضها •

وقد كانت القبائل العربية المعروفة بالقبائل البائدة آنئذ على قيد الحياة فى جزيرتهم فى هذا العهد وقد لعبت دورا مهما فى تنمية الحضارة العربية السامية •

وقد نبه القرآن الكريم على ذلك بربط صلة ابراهيم الخليل بالجزيرة العربية وبيت الله العتيق وليس بفلسطين •

ان الأثريين ميزوه عن الأدوار التالية واطلقوا عليه تسمية (عصر الحوالين) •

---

(١) من كتاب الدكتور أحمد سوسة •

ومن المهم ذكره فى هذا الصدد أن القرآن الكريم كان أول من كشف لنا عن هذه الحقيقة ، وقد جاءت المكتشفات الأثرية حول الهجرات السامية ودراسة علم المقارنة بين اللغات مؤيدة لهذه الحقيقة نفسها التى تربط صلة ابراهيم بجزيرة العرب ٠

والتوراة ترى أن أرض فلسطين باعتراف التوراة ذاتها كانت أرض غربة بالنسبة الى آل ابراهيم وآل اسحاق وآل يعقوب ، اذ كانوا مغتربين فى أرض فلسطين بين الكنعانيين سكانها الأصليين ، والتوراة تتحدث عنها بصفتهم غرباء وافدين طارئين على فلسطين (١) ٠

أما وطنهم الأصلى فهو (أرام النهرين) أى منطقة حران (حران الحالية) حيث كانت العشائر الآرامية المنتمون اليها قد استقرت عند منابع نهر البليخ بعد هجرتها من الجزيرة العربية (٢) ٠

ثم نزحت فروع من هذه القبائل الى جنوبى العراق (منطقة بابل) فكان ابراهيم الخليل من ذريتها ٠ وقد وردت كلمة (اغتراب) كلما ذكر تنقل ابراهيم الخليل فى فلسطين وفى مصر ، فقيل : (تغرب ابراهيم فى رض الفلسطينيين) (٣) ٠

---

(١) وقال ابراهيم لعبده كبير بيته المستولى على ما كان له ٠ ضع يدك تحت فخذى فاستحلفك بالرب اله السماء واله الأرض لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين اللذين أنا ساكن الذين انا ساكن بينهم ٠ بل الى ارضى والى عشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى اسحاق (تك ٠ ٢٤، : ٣ — ٤) « ثم أخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه ومضى وجميع خيرات مولاه في يده فقام وذهب الى آرام النهرين الى مدينة ناحور » (تك ٤٠ : ٢ — ١٠) راجع أيضا (تك ٢٤ : ٣٣ — ٣٨) ٠

(٢) أليست هذه عادة أصيلة لا علاقة لها بالتقاليد اليهودية ! ثم ألا يستشف منه أن سيدنا ابراهيم الخليل (ع) كان غريبا وفردا في أرض كنعان ! أو لم يكن بامكانه نيما لو كان هناك يهود من عشيرته تزويج ولده من احدى بناتهم بدلا من ارسال عبده الى آرام النهرين لجلبه عروسا لابنه من هناك فلا يفرح بزواج ولده الوحيد : راجع أيضا : ٢٨ : ١ — ٢ ٠ (تك ٤٧ ، ٩) ٠

(٣) يجب التمييز هنا بين بنى اسرائيل عند هجرتهم الى مصر في القرن السابع عشر قبل الميلاد وهم أسرة واحدة لم يتجاوز عدد أفرادها السبعين شخصا ، وبين قوم موسى عندما نزحوا الى فلسطين في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، لأن أسرة اسرائيل انصهرت وذابت في المجتمع المصرى على مر الزمن بحيث لم يبق لها أى أثر عندما غزا النبى موسى عليه السلام وأتباعه أرض فلسطين بعد خروجهم من مصر بعد مرور حوالى ستمائة عام على زمن دخول أسرة يعقوب الى =

و « انحدر ابرام مصر للتغرب هناك » (١) وانتقل ابراهيم الى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور فى جرار (٢) ٠ ٠ ولمـا اشترى ابراهيم مغارة المكفيلة من الحيثيين فى حبرون قال لهم : « انا غريب ونزيل عنـدكم أعطونى ملك قبر معكم لأدفن ميتى (٣) ومثل ذلك ورد فى التوراة فيما يخص اسحاق ويعقوب : « وسكن يعقوب فى أرض غربة أبيه كنعان (٤) » وجـاء يعقوب الى اسحاق أبيه الى حبرون ٠ حيث تغرب ابراهيم واسحاق (٥) « تصرح وتقول أمام الرب الهك : أراميا تائها كان أبى فانحدر الى مصر وتغرب هناك » وهكذا فلا يمكن أن تكون كلمة « تغرب » بمعنى اتجه نحو الغرب لأن ورود كلمة (أرض الغربة) تنفى هذا الاحتمال ٠

ثانيا : أن ابناء اسرائيل الاثنى عشر ولدوا كلهم باعتراف التوراة فى فران آرام منطقة حران (٦) حيث مكث يعقوب المسمى اسرائيل عشرين سنة (٧) ويعنى ذلك أن مولدهم ونشاتهم كانا خارج فلسطين وهؤلاء هـم بنو اسرائيل الذين ورد ذكرهم فى التوراة ٠

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا » (قرآن كريم)

يتضح مما تقدم أن تسمية ابراهيم (ابراهيم الخليل) بالعبرانى كما فى

= مصر ». لقد كان هؤلاء يؤلفون حملة مصرية بحتة اكثرها من بقايا الهكسوس ومن الجنود المصريين الفارين كما سنوضح ذلك فيما بعد ».

(١) ٣٢ : ١ : ١٠، ٠

(٢) تك : ٢٠ : ١

(٣) تك : ٢٣ : ٤

(٤) تك : ٣٧ : ١

(٥) راجع أيضا (وظهر الرب لاسحاق وقال لا تنزل الى مصر اسكن في الأرض التى اقول لك تغرب في هذه الأرض) تك ٢٦ : ١ — ٣) ٠

(٦) تك ٣٥ : ٢٧ راجع أيضا ثم أخذ عيسو نساءه وبنيه وبناته وجميع نفوس بيته من وجه أخيه يعقوب لان أملاكهما كانت كثيرة على السكن معا ولم تستطع أرض غربتهما أن تحملهما من أجل مواشيهما . « تك ٢٦ : ٦ — ٧ » ٠

(٧) وكان بنو يعقوب اثنى عشر .أخا ، بنو ابنه : روابين وشمعون ولاوى ويهوذا وعساكر وزبولون وابنا راحيل : يوسف وبنيامين ، وابنا بلهة جارية راحيل : دان ونفتالى وابنا زلفة جارية ليئة جاد وأشير وهؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا في فران آرام (تك ١٥:٢٣—٢٦)

التوراة كان يراد بها معنى (العبريين) القبائل البدوية العربية ، والقبائل الارامية التى ينتمى اليها الخليل نفسه ، وبهذا المعنى جاءت كلمة (عبيرو) التى عثر عليها فى النصوص المصرية والتى تعود الى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد ، ويعترف جورج بوست فى مصنفه « قاموس الكتاب المقدس » بأن لقب ابرام بالعبرانى لم يقصد به الاسرائيلى وانما يمكن تأويله على تعبيره بابرام السائح أو المهاجر (١) فقد عثر فى تل العمارنة بمصر على ست رسائل من أحد ملوك منطقة اورشليم الكنعانية اسمه « عبد — خيبا » موجهة الى فرعون مصر أمنوفيس الرابع « العبيرو) الذين اجتاحوا بلاده • ولما كانت أرض فلسطين فى هذا الدور محمية مصرية فان « عبد — خيبا » يقول فى رسائله : لم يبق فى أرض مولاى الملك شىء • •نهب (العبيرو) كل البلاد من سيدى الملك •• البلاد وقعت فى أيدى (العبيرو) ومن الواضح هنا أنه يمكن أن يكون (العبيرو) الذين ورد ذكرهم فى هذه الرسائل هم اليهود • وهكذا فان التوراة حين تصف ابراهيم الخليل بالعبرانى تساير واقع الحال باعتباره من قبائل الخبيرو (العبيرو) التى ينتمى اليها ، أى القبائل الأرامية ، قبل أن يكون لليهود وجود بعد • ويؤيد ذلك المستشرق توردارسون ، أستاذ اللاهوت فى جامعة أيسلندا ، فيرى أن ابراهام شبه بدوى ينتمى الى القبائل القديمة المسماة بالعبيرو ولعله ينحدر من هذا العرق القبائلى نفسه (٢) فقد عاش ابراهيم فى القرن التاسع عشر قبل

---

(١) يلاحظ ان هذه العبارة قد حذفت من الطبعة الجديدة لقاموس الكتاب المقدس لعام ١٩٧١ بل واكثر من ذلك حذفت جميع الدراسات العلمية التى قام بها العلامة جورج بوست ليوضح مكانها ، خلافا لما جاء في المقدمة ما يؤكد ربط اليهود بعصر ابراهيم الخليل واعتبار كلمة عبرانيين او عبرانيين شاملة لكل ادوار اليهود التاريخية التى تبدا بابراهيم الخليل وفقا للتقاليد اليهودية التى تعتبره جد اليهود ، ويلاحظ ايضا ان هذا القاموس الجديد يدعم النظرية الصهيونية الحديثة التى تعتبر جميع الاسماء الواردة في التوراة من اسماء اشخاص وأماكن عبرية اى يهودية بقصد ارجاعها الى عهد العبريين (العبيرو) عن طريق الاستغلال في ذلك الخلط بين العبرى واليهودية الذى صار عليه في وقت متأخر للتمويه • ان العبرية القديمة هى في الحقيقة لغة عهد (العبيرو) اى الكنعانيين لان العبرية بمعنى اليهودية متأخرة ولم يكن قد وجدت في ذلك العهد القديم من ملاحظات — د • سوسة في كتابة السابق •

(٢) انظر ما تقدم عن الاخلامو والخبيرو في بحث الاراميين في الفصل الاول •

الميلاد ، أى فى زمن يسبق عهد موسى بسبعمائة عام • وقد ظلت هذه التسمية أى تسمية عبرى وعبرانى ، تطلق على الجماعات من القبائل النازحة من البادية ومن جهة فلسطين الى مصر وعلى هذا الأساس صار المصريون يسمون الاسرائيليين بالعبرانيين باعتبارهم من تلك الجماعات البدوية (١) • وأما ما أورده الباحثون من أن كلمة « عبرى » مشتقة من عبر اى قطع نهرا أو غيره أو من « عابر » أحد أسلاف ابراهيم (٢) فغير مستند الى اى دليل أو أساس وهى من قبيل الحدس والاجتهاد وقد نبه القرآن الكريم الى هذه الناحية حيث قال تعالى : (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون ••• ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين (٣) •

ولهذه الآية الشريفة معنيان : المعنى الأولى : هو أن ابراهيم ما كان على دين (يهوه — اله اليهود — بل كان حنيفا مسلما) كما تقدم • والمعنى الثانى : هو أن دور ابراهيم الخليل هو غير دور اليهود ولا يتصل بدور اليهود الأخير •

يتضح من التنبيه الذى ورد فى القرآن الكريم أن هناك من وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الكتاب العرب بربطهم عهد ابراهيم الخليل باليهود ، وأن هذا التنبيه الى أن ابراهيم الخليل ظهر قبل وجود اليهود وانه لا يمكن أن يكون يهوديا ثم الاشارة الى اتصاله **بالجزيرة العربية (بيت الله العتيق) يتفق تماما مع ما توصل اليه العلماء فى ضوء الاكتشافات الأخيرة وعلى الباحثين أن يتنبهوا ما نبه اليه القرآن الكريم فى هذا الموضوع** ، لأن استعمال كلمة عبرى بمعنى يهودى عندما يبحث عن تلك الأزمان القديمة

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ١٩٢٥ ، م ١ ، ص ٤٥ •

(٢) تك : (٣٩ ، ١٤ — ١٧ ، ٤٠ — ١٥ ؛ ٤١ — ١٢ (خر ١ — ١٥ ، ١٦ ؛ ١٥ — ٢ ، ٧ و ١١ و ١٣) •

(٣) تك : (١٠ ، ٢٤ ، ١١ : ١٤) •

(٤) فتحى رضوان : « اليهود وبنو اسرائيل » الأهرام (١٧٪١٠٪١٩٧٢ ص ٧) •

(٥) سورة آل عمران : الآيتان : ٦٤ ، ٦٦ •

لا يتفق ح المستند العلمى التاريخى فضلا عما يحدثه من ارتباك اذ يربط اليهود بأدوار تاريخية قديمة ٠

اله ابراهيم الخليل غير اله اليهود :

ان الاله الذى كان ابراهيم الخليل يدعو لعبادته هو غير اله اليهود الذى تصفه التوراة ، لأن دعوة براهيم الخليل لعبادة الاله الواحد كانت دعـوة عامة موجهة الى جميع السكان الوثنيين فى عصره بلا استثناء ٠ الاله الأوحد خالق السموات والأرض وجميع البشر ، رب جميع المخلوقات بدون تمييز بين الأقوام (١) ومما يؤيد ذلك أن ابراهيم الخليل لمـا استدعى عبده وأمره بأن يذهب (٢) الى « حاران » ليأخذ زوجة لابنه اسحاق من عشيرته هناك قال له : فأستحلفك بالرب اله السماء واله الأرض ان تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن معهم (٣) وقد ورد ذكر هذا الاله الذى دعا ابراهيم الى عبادته باسم (ايل) فى التوراة (٤) وهو مفرد لكلمة (اباهييم) الكنعانية المراد بها الجمع والتعدد ، اى الآلهة ، ومنه جاءت تسمية « بيت » (٥) و « ايل » هو الالة تكلم مع هاجر (٦) وقد ورد هذا المصطلح نفسه فى النصوص الكنعانيين والآرامية ثم فى النصوص المصرية التى ترجع الى عهد الهكسوس بهذا المعنى فقيل (يعقوب ايل) و (يوسف ايل (اى يعقوب الاله أو يوسف (٧) عملا بالطريقة التى كانت متبعة باضافة اسم الى اسم الشخص تبركا به كما هو متبع الآن بتسمية الأشخاص بعبد الله وعبد الاله الخ ٠٠ وذلك مما يدل على أن كلمة (ايل) بمعنى الاله الواحد كانت معروفة فى كنعان فى عهد ابراهيم الخليل وفى عصر الهكسوس

---

(١) فتحى رضوان : « اليهود دبنو اسرائيل » الأهرام (١٧ ٪ ١٠ ٪ ١٩٧٢ ص٧) ٠

(٢) تك ١٤ : ١٩ ٠

(٣) تك ٣٤ : ٣ ٠

(٤) تك ١٢ ١٢ : ٨ ، ٧٣٥ — ٨ ٠

(٥) تك ١٢ : ٨ ، ١٣ : ٣ ٠

(٦) تك ١٦ : ١٣ — ١٤ ٠

(٧) انظر ما تقدم عن الهكسوس في الفصل الاول وما تقدم عن عصر ابراهيم واسحق ويعقوب في هذا الفصل ٠

الذى يليه اى قبل أن يظهر موسى واليهود بعدة قرون ، ولما ظهر اليهود عبدوا الههم الخاص بهم الذى سمى باسم (يهوه) الاله الذى لا يهمه من العالم والخلق سوى اليهود و شعبه المختار ، وذلك على غـرار مبدأ التفريد وهو المبدأ الذى اعتنقه الأقوام القديمة عندما كانت كل مدينة تختص باله واحد من بين مجموعة الآلهة بدون نبذها عبادة الآلهة الأخرى والقضاء عليها(١) . وهو حاكمها وهو قائدها على صورة البشر والبشر على صورة الاله ، مسكنه فى السماء وينزل أحيانا الى الأرض ، فيتفحص الأشكال البشرية ، ويكلم البشر بصوت ولفظ ويأكل ويشرب الخ ..(٢) وهكذا كان الاله الذى تصوره اليهود الها قبليـا خاصا بهم ويناقش آلهة الأقوام الأخرى ويحـارب معهم كما كانت الحال عليه فى عصر دويلات المدن فى العراق القديم ولا يخفى أن دعوة ابراهيم الخليل للوحدانية الخالصة بدات من العراق وليس من فلسطين وهى موجهة الى جميع الوثنيين فى عصره ولم تخطر على بال ابراهيم الخليل فكرة الشعب المختار ، وهى البدعة التى اختلقها مدونو التوراة وادخلوها فى الكتاب المقدس بعد ربطها بابراهيم الخليل ، اذ لا يمكن أن تكون هذه الادعاءات منزلة من الاله خالق السموات والأرض الذى دعا ابراهيم الخليل الى عبادته قبل أن يكون ظهر اليهود بعدة قرون . لذلك كله تعتبر دعوة ابراهيم الخليل الى الوحدانية الخالصة اول دعوة عامة للتوحيد بالمعنى الدقيق لمصطلح التوحيد فى تاريخ البشرية ، وهى عربية لغة ووطنا ، كما جاءت بعدها رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، النبى العظيم خاتم الأنبياء ، وقد نزلت عليه باللغة العربية ايضا **لأن اللغة التى كان يتكلم بها ابراهيم الخليل والآراميون معه فى تلك الأزمان هى اللغة العربية الأم التى يرجع وطنها الاصلى الى الجزيرة العربية ، وكانت لغة واحدة تتكلم بها جميع القبائل وذلك قبل ان تتفرق هذه اللغة الأصلية** الى لهجات مختلفة ضمن كتلة اللغات السامية ، وما كان الاسلام الا ملة

---

(١) طه باقر ، (مقدمة ... ، ج ٢ ، ص ٣٠٢) .

(٢) تصور التوراة الاله كشخص يحارب بنفسه من أجل اسرائيل (خر ١٤ : ١٤ . يش ١٠ : ٤٢ ، ٢٣ ، ٣) وله رجلان ويمشى كالانسان (خر ٢٤ : ١٠) ويكتب باصبعه (خر ٣١ : ١٨ ، ٣٢ : ١٥ — ١٦ ، ١٩ ، ٣٤ :) ويندم على بعض اعماله (١ صم ١٣— ١٤ الخ ...) .

ابراهيم حنيفا فيقول الدكتور هوميل : « ومما لا شك فيه ان اللغة الآرامية فى عصر ابرام (ابراهيم الخليل) كانت لهجة عربية ، ويقصد هنا اللغة الأصلية التى كان يتكلم بها الأراميون فى الجزيرة العربية قبل هجرتهم منها ، لان التى كان يتكلم بها الأراميون فى الجزيرة العربية قبل هجرتهم منها ، لان ما نسميه بالآرامية لم يظهر الى حيز الوجود الا بعد زمن متاخر جدا وان ما يعرف بارامية التوراة ارامية عصر المسيح يرجع الى زمن الفرس وفترة العصر المسيحى (١) .

وقد ورد اسم الاله (ايل) مضافا الى أسماء عدد من الملوك المعينيين فى اليمن ومنهم : « وقه — ايل » ، « يصدق ايل » ملك حضرموت ومعين الذى كان حكمه حوالى سنة ٢٠١ ق.م و « يثع ايل » كما ورد اسم الاله ايل مضافا الى أسماء بعض ملوك سبأ والمعروف منهم « يدع ايل » « كرب ايل » وتر الأول والثانى والثالث والرابع والخامس « وهب ايل » ، ففى ذلك دليل واضح على ارتباط ابراهيم الخليل بالجزيرة العربية وأن الاله الواحد الذى كان يدعو الى عبادته ابراهيم الخليل كان معروفا فى جزيرة العرب بصفته « الاله العلى » مثل ما كان معروفا عند الكنعانيين والآراميين بهذه الصفة ، وأن اضافة اسمه الى اسماء بعض ملوك اليمن دليل على ان اسم « ايل عربى الأصل أى الاله » .

ومما يدل على أن عبادة ابراهيم الخليل للاله « ايل » منفصلة تماما عن عبادة اليهودية للاله « يهوه » التى ابتدعها كتبة التوراة بعد عهد ابراهيم الخليل بأربعمائة والف سنة ، ان أسرة ابراهيم الخليل فى ثلاثة أظهر كانت تضيف اسم الاله « ايل » الى أسماء زعمائها . فابراهيم الخليل نفسه هو النبى الوحيد الذى سمى .. « خليل الله » كما ورد فى القرآن الكريم (واتخذ الله ابراهيم خليلا) (٢) .

ومن المرجح أن كلمة خليل عربية مركبة من (خل) وايل ، بمعنى

---

(١) Dr. F. Hommel «The Ancient Hedrew Tradition» p. 202

(٢) سورة النساء الآية ١٢٥ .

صديق الاله (ايل) ٠ ومثلها اسم اسماعيل الذى معناه ليسمع الاله (ايل) وكذلك اسم يعقوب (اسرائيل) الذى معناه عبد الاله « ايل » ٠

ويؤيد المستشرق ثورير ثوردارسون أستاذ اللاهوت فى جامعة ايسلندا كون ديانة التوحيد التى دعا ابراهيم الخليل الى عبادتها هى خاصة به بعشيرته ولا صلة لها باليهودية فيقول فى ذلك : « لقد اظهرت المدونات الآشورية من القرن العشرين قبل الميلاد والكتابات التى تعود الى العصور التى تلى ذلك العصر أن ديانة ابراهيم تستند الى الايمان بالاله العلى ، وهذا يتفق مع الصورة التى نجدها فى التوراة (أنا اله ابراهيم أبيك) (١) فابراهيم اذن هو مؤسس وحامل لواء هذه الديانة التى تدعو الى عبادة الاله العلى وأصبحت تقترن بصلة وثيقة بعشيرته (٢) ٠

ومما يذكر فى هذا الصدد أن التوراة عندما تتحدث عن ابراهيم الخليل وعن كلامه مع الاله تستعمل كلمتى « الله » و « ايل » وقال الله لابراهيم ٠٠ (٣) مع أنها تستعمل احيانا كلمة « الرب » ومثل ذلك هى الحال بالنسبة ليعقوب ثم قال « الله » ليعقوب قم واصعد الى بيت « ايل » وأقم هناك واصنع هناك مذبحا لله ٠٠٠ (٤) وظهر الله ليعقوب الخ (٥) ٠

أما الاله « يهوه » فانه لم يبدأ استعماله الا فى عهد النبى موسى (ع) اله اليهود وحدهم (٦) ٠

النبوة الالهية عربية لفظا ومعنى :

ويؤكد المرحوم الأستاذ العقاد أن الاسرائيليين (اليهود) تعلموا النبوة الالهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب ، ولم تكن لهذه الكلمة عند

---

(١) تك ٢٦ : ٢٤ .
(٢) دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٢٥ ، ج ص ٤٥ .
(٣) تك ١٧ : ٩
(٤) تك ٣٥ : ١
(٥) تك ٣٠ : ٩
(٦) خر ٦ : ٣ ٠ ٣ : ١٥ ، ٦ : ٦

الاسرائيليين (اليهود) لفظه تؤديها قبل وفودهم على أرض كنعان ومحاورتهم للعرب المقيمين فى ارض مدين ، فيقول : « ان كلمة نبى عربية لفظا ومعنى لأن المعنى الذى يؤديه لا تجمعه كلمة واحدة فى اللغات الأخرى والعبريون قد استعاروها من العرب فى شمال الجزيرة بعد اتصالهم بها ، لانهم كانوا يسمون الأنبياء القدماء بالآباء ولم يفهموا من كلمة النبوة فى مبدأ الأمر الا معنى الانذار ... فكانوا يسمون النبى بالرائى (١) أو الناظر او رجل الله ، ولم يطلقوا عليه اسم النبى الا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين فى التوراة ، وهم ملكى صادق وأيوب وبلعام وشعيب الذى يسمونه يثروب وهو معلم موسى الكليم » (٢) • وقد سمى ابراهيم الخليل برئيس الآباء (٣) ويستشهد العقاد ببعض علماء الأديان الغربيين الذين ذهبوا الى تأييد اقتباس اتباع موسى كلمة النبوة من العرب مثل الأستاذ هولشر والأستاذ شميدت اللذين يرجحان أن الكلمة دخلت اللغة العبرية بعد وفود القوم على فلسطين • فتشير التوراة الى ان عاموس اغتاظ وغضب لما أطلق عليه اسم نبى وقال : « لست انا نبيا ولا انا ابن نبى بل انا راع وجانى جميز » •

فأخذنى الرب من وراء الضأن وقال الرب اذهب تنبأ لشعبى اسرائيل (٤) •

---

(١) صا ٧ : ١٢ •

(٢) العقاد ، « الثقافة العربية » - ص ٧١ •

(٣) عب ٧ : ٤ •

(٤) عا ٧ : ١٤ — ١٥ •

الكعبة بيت الله الحــرام

الكعبة مركز دينى قديم عده المؤرخون من أحد البيوت السبعة المقدسة ووصفه القرآن بانه أول بيت وضع للناس وهو الذى بمكة مباركا فيه آيات بينات ، ويسند القرآن تجديد بنائه الى ابراهيم واسماعيل فيقول ٠

« وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » ويقــول : واذ يرفع ابراهيم القواعــد من البيت واسماعيــل ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم ٠

وليس فى القرآن ما يدل على أن ابراهيم دعا سكان البلد الحرام أو جاورهم الى دعوته الحنيفية ، وكل ما اشــار اليه القرآن أن ابراهيم كلف بأمرين :

الأمر الأول : ايداع اسماعيل وأمه فى جوار البيت ٠

الأمر الثانى : بناؤه واسماعيل البيت الحرام ٠

كانت مكة وهى المدينة الرئيسية بالحجاز والتى اشتق اسمها من كلمة (محراب) بلغة أهل سبأ (١) تضم ما لايقل عن ثلثمائة وثن ترضى كل ذوق ٠

اى أوجدت كل قبيله وكل اسرة بل كل محراب مستقل طقوس دينه ومادة عبادته كما عمدت الى تغييرها ولكن الأمة العربية فى كل عصر خضعت لدين مكة كما احنت الراس امام لهجتها ٠

ويرجع تاريخ الكعبة حقا الى ما قبل العصر المسيحى ٠ وقد لاحظ المؤرخ اليونانى « ديودوروس » فى وصفه لشاطىء البحر الأحمر أن هناك معبدا شهيرا يقع بين رض ثمود وارض سبأ يبجله العرب لما له من قدسية ســامية ٠

وجدير بالذكر ان الكسوة المصنوعة من التيل أو الحرير كان أول من قدمها ملك تقى من ملوك حمير عاش قبل زمن محمد بسبعمائة سنة (٢) ٠

---

(١) العرب ص ٢٢ نتنج ترجمة د ٠ راشد البراوى ٠

(٢) اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها تاليف : ادوآرد جيبون ٠

ترجمة : د ٠ محمد سليم سالم مراجعة محمد أبو درة ٠

تعتبر مكة من البلاد القديمة قدم بيتها • وكان اليونانيون يعرفون مكة ويطلقون عليها « ماكواريا » يقول جيبون : وهذا اللفظ يدل على عظمة هذه البلدة • (١)

ويبدو ان اسم مكة (٢) لم يكن معروفا قبله وذلك يظهر من قول ابراهيم حكاية عنه فى قوله تعالى : ربنا أنى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » •

واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام • (ابراهيم)

واذ بو أنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا • (الحج)

وواضح من الآيات أن نبى الله ابراهيم لم يدعها مكة وانما دعاها : بواد غير ذى زرع مرة ، وبلدا آمنا مرة أخرى ، والبلد الأمين الثالثة •

ثم يذكره لله بقوله : واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت •

فلم تذكر مكة فى الروايات التاريخية للقرآن — كما راينا — وفى هذا مدخل لبعض مؤرخى اليهود أو المسيحية لينكروا رحلة ابراهيم الى مكة وبناءه البيت حيث لم يسمعوا ذكرا لمكة ، ويذكر المؤرخون المنصفون بعض الاسماء القديمة التى تشير الى ذلك : يقول الشهرستانى : نقلا عنهم : وكما ورد فى التوراة : أن الله تعالى : جاء من « طور سيناء » وظهر « بساعير » واستعلن « بفاران » •

---

(١) المرجع السابق ص ١٢ ج ٣ •

(٢) اسماء مكة : من تمككت العظم اذا اجتذبت ما فيه من المخ وتمكك الفصيل ما فى ضرع الناقة . فكأنها تجتذب الى نفسها ما في البلاد من الناس والاقوات التى تأ يها من المواسم• وقيل لمـا كانت في بطن واد فهى تمكك الماء من جبالها عند نزول المطر وتنجذب اليها السيول :

قال الراجز :

اذا الشريب آخذته أكـه فخلـه حتى تبك بكـه

فالأكة : الشدة واكاك الدهر : شدائده •

بكة : من انها تبك الجبابرة اى تكسرهم وتقرعهم وقيل من التباك وهو الازدحام •

قال ابو عبيدة ان بكة اسم البطن لانهم يتباكون فيها اى يزدحمون •

وايضا يذكر من اسمائها : الراس — وصلاح — وام زحم — وكوثا •

ساعير : جبال بيت المقدس التى كانت مظهر عيسى عليه السـلام : وفاران : جبال مكة التى كانت مظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم • فمن يتمعن الآيات القرآنية نجدها لا تشير من خلال رواياتها التاريخية أن ابراهيم سماها مكة •

ويغلب على وجهة نظرى من خلال آيات القرآن : أن ابراهيم سار بهاجر وابنه اسماعيل بوحى الهى وليس كما تزعم الروايات الأخرى أن سارة طردتها ولطمتها فتلك نزعة عرقية من اليهود تراودهم فى كل وقت : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه » • هذه النزعة صورت لهم دائما انهم سلالة واحدة وعنصر لا يزاوج العناصر الغريبة عنه وهذا الاسراف فى فهم الذات جعلهم مولعين بتزييف بعض الروايات التاريخية التى تخدم فكرتهم • ولذلك فان نبى الله ابراهيم سار بهاجر واسماعيل وفق نداء الله وحكمته فى قوله « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل » فكانت المسيرة ذات هدف وظيفى وليس طردا أو غضبا ولنا فى ذلك حجة بالغة هى قوله تعالى :أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » ، وأما تساؤل أهل الكتاب عن مصدر معرفة الرسول من أين استقى أخباره عن ابراهيم وبعضها غير موجود فى التوراة والانجيل فان الله رد عليهم بقوله : « يا أهل الكتاب لمـا تحاجون فى ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلاتعقلون • ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم ونتم لا تعلمون » •

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين• ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » آلى عمران : فروايات التوراة والانجيل كانت من بعده فلا تنهض حجة لموقف سارة من هاجر (١) • ومما نحب أن نقوله : أن

---

(١) يقول أبو حيان صاحب التفسير ج ١ ص ٣١٧ انهم ذكروا قصصا كثيره واستطردوا من ذلك للكلام فى البيت المعمور والحجر الأسود وطولوا في ذلك بأشياء لم يضمنها القران ولا الحديث الصحيح وبعضها يناقض بعضا وذلك على جرى عاداتهم في نقل مارب وما درج ولا ينبغى ان يعتمد الا على ماصح في كتاب الله وسنة رسوله • قال ابن عطية •

والذى يصح من هذا كله أن الله امر ابراهيم برفع القواعد من البيت •

الآيات القرآنية الخاصة باسماعيل وصفته بالنبوة والرسالة معا فهو نبى ورسول واشترك مع والده فى بناء البيت واعداده مثابة للناس وامنا • غير أن القرآن لم يوضح أو لم يشر الى أى قوم كان مبعثه ، من العرب أو غيرهم ويبدو ان رسالته كما أشار القرآن كانت الى أهله •

قال تعالى : « واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا • وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » « مريم » وأهله هم الذين حطوا بجوار زمزم وتزوج منهم • ومما أشار اليه القرآن انه كان من الصابرين • قال تعالى : « واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين » • (الأنبياء)

وبالرغم من أن دعوة اسماعيل كانت الى ذلك الرهط الذى نزل بجوار زمزم وتزوج منهم اسماعيل فانه كان من الصابرين ، ويبدو أن قريشا خلفهم لم يكونوا بأحسن حال من سلفهم نسب أبيهم اسماعيل •

ومما يحسن الالتفات اليه أن رسالة اسماعيل كانت لا تخرج عن ملة ابراهيم لأن القرآن كثيرا ما كان يذكر العرب بأن الاسلام ملة ابراهيم حنيفا وهو الذى سماكم المسلمين من قبل • وفى هذا ما يشير الى أن ملة ابراهيم هى دعوة اسماعيل غير أنه أسند اليه أمر الدعوة فى قومه العرب • فمنذ أن أقام ابراهيم واسماعيل قواعد البيت مثابة للناس وامنا ودين التوحيد أقيم معه لو لا ما طرأ عليه من عوامل التغيير ، وتصبح رحلة ابراهيم تعنى اقامة أهله حول البيت ثم رفع قواعده وتأسيس دين التوحيد ، وممن بقى من العرب على بقية من دين اسماعيل : « معد وربيعة ومضر كانوا جميعا على بقية من دينه » (١) •

« والدين العربى القديم هو الخطوة السابقة للدين البابلى الآشورى المعقـد ، كما أن ذلك الدين العربى القديم هو الذى مهد لهـذا التطور التـاريخى للدين العربى لليهودى مع حرصـه على الاحتفاظ بدين الآباء دين الصحراء البدائى الذى دان به آباء الشعب وأجداده الأولون كما أنه بقى زمنا طويلا موضوع نزاع وعراك شديدين بين العقيدتين الدينيتين : السامية الشمالية والسامية الجنوبية والذى تطور أخيرا الى الثالوث الالهى (أب وابن

---

(١) الأصنام ص ١٣ للكلبى تحقيق أحمد زكى باشا •

وروح قدس) ومن ثم خطا خطوة الى التوحيد المسيحى فى صورته القديمة التى نعرفها فى الحضارة العربية القديمة * (١) ٠

ومن بين الباحثين المتخصصين الذين اكدوا الدور الفعال الذى لعبه الساميون العرب من شبه جزيرتهم العربية فى التطور السياسى والحضارى لمنطقة الشرق الأدنى وعلاقته الوثيقة بالعنصر السامى الألمانى دكتور أنطون موتكات اذ يقول : لا تعتبر بلدان الشرق الأدنى مركز الديانات وحسب بل مصدر الاشعاع الدينى الذى أنار الأرض بكاملها (٢) ٠

ويؤيد هذا ما يشير اليه الكلبى فى رواية اخرى غير رواية عمر وبن لحى الى أن الوثنية طارئة والأصل عندهم عبادة التوحيد التى كانت اثرا من دعوة ابراهيم واسماعيل فيقول : وكان الذى سلخ بهم الى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يطعن من مكة طاعن الا احتمل حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة فحيثما حلوا وضعوا وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمنا منهم بها أو صبابة بالحرم وحبا له ففكرة الأحجار المقدسة نشأت من حبهم لمكه ٠

وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتبرون على ارث ابراهيم واسماعيل ، ثم سلخ ذلك بهم الى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره فبدوا الأوثان وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم (٣) ٠ ويقول المقدسى : وكان فى مشركيهم بقية من دين اسماعيل كالنكاح والختان والمناسك وتعظيم الأشهر الحرم وغير ذلك (٤) ٠

وذكر الشهرستانى من سننهم التى وافقهم عليها القرآن الكريم فقال :

قال محمد بن السائب الكلبي : كانت العرب فى جاهليتها تحرم أشياء نزل القرآن بتحريمها : كانوا لا ينكحون الأمهات ، ولا البنات ، ولا الخالات ، ولا العمات ٠

---

(١) يراجع العرب واليهود في التاريخ ص ١٩٨ د ٠ احمد سوسة ٠

(٢) التاريخ العربى القديم ص ٥٣ د ٠ دنتلف نيلش ورفاقه ٠

(٣) الأصنام ص ٦ ٠

(٤) البدء واى تاريخ ج ٤ ص ٣٢ ٠

وكانوا : يطلقون ثلاثا على التفرقة ، قال « عبد الله بن عباس » رضى الله عنهما : أول من طلق ثلاثا على التفرقة « اسماعيل بن ابراهيم » عليهما السلام .وكان العرب يفعلون ذلك ، فيطلقها واحدة وهو أحق الناس بها ، حتى اذا استوفى الثلاث : انقطع السبيل عنها ومنه قول « الأعشى : ميمون بن قيس » حين تزوج امرأة فرغب قومها عنه ، فأتاه قومها ، فهددوه بالضرب أو يطلقها ،

أيا جارتى بينى فانك طالقة كذلك أمور الناس غاد وطارقة

قالوا : ثنه ، فقال :

وبينى ، فان البين خير من العصا وأن لاترى لى فوق رأسك بارقة

قالوا : ثلث ، فقال :

وبينى حصان الفرج غير ذميمة وموموقة قد كنت فينا ، ووامقة

قال : وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ، ويحرمون ، قال « زهير » :
وكم بالقنان من محل ومحرم .. ويطوفون بالبيت سبعا ، ويمسحون بالحجر ، ويسعون بين الصفا والمروة ، قال ابو طالب :

وأشواط بين المروتين الى الصفا وما فيهما من صورة وتخايل

وكانوا يلبون ، الا ان بعضهم كان يشرك فى تلبيته ، فى قوله : « الا « الا شريك هو لك ، تملكه وما ملك » ، ويقفون المواقف كلها ، قال « العدوى » :

فاقسم بالذى حجت قريش وموقف ذى الحجيج على اللالئ

وكانوا يهدون الهدايا ، ويرمون الجمار ، ويحرمون الأشهر الحرم ، فلا يغزون ويقاتلون فيها ... الا «طئ» وخثعم وبعض «بنى الحارث بن كعب» . فانهم كانوا لا يحجون ، ولا يعتمرون ، ولا يحرمون الأشهر الحرم ولا البلد الحرام وكانوا يكرهون الظلم فى « الحرم » ، وقالت امرأة منهم تنهى ابنها عن الظلم :

أبنى ! لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبير
أبنى ! من يظلم بمكة يلق أطراف الشرور
أبنى ! قد جربتها فوجدت ظالمها يبور

قال صاحب الروض الأنف :

وينسبون الى الوليد بن المغيرة قوله : يا معشر قريش لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم الا طيبا لا يدخل فيه مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس ٠

ثم قال معلقا :

يدل على أن الربا كان محرما عليهم فى الجاهلية كما كان الظلم والبغاء ٠

يعلمون ذلك ببقية من بقايا شرع ابراهيم ، كما كان بقى فيهم الحج والعمرة وشىء من أحكام الطلاق والعتق ٠

وفى هذا ما يفيد ويقوى ما نحن بصدده : وهو أن الدعوة الى التوحيد رافقت بناء البيت ، واذا كانت ملة ابراهيم الملة الكبرى ، فان رحلته فى التاريخ الرحلة الكبرى ، فكان لها أثرها فى فلسطين وكان لها اثرها فى مكة وأن الاله « ايل » لنراه منتشرا من مكة الى فلسطين وما دعا الى الله الا بعد أن حارب الصابئة وأبطل عبادة التنجيم وحارب الوثنية وحمل مسئولية تحطيمها الى صنمهم الأكبر امعانا فى الزراية بهم ٠

الكعبة والمرحلة العبثية :

ولقد كانت الكعبة حرم الله الآمن : موطنا لدعوة اسماعيل واهلها من نسله فكانت منذ أن عهد الله ببنائها الى ابراهيم واسماعيل هى محل تقديس وارضا لدين سماوى أقامه اسماعيل فيها وحولها الى أن آلت مقاليدها الى جرهم — ظلما من ولد اسماعيل — ورأى ولد اسماعيل عدم منازعتهم لخئولتهم من جهة واعظاما لحرمة البيت من جهة أخرى ٠

بيد أن جرهم بغوا بها واستحلوا حلالا من الحرمة : فظلموا من دخلها

من غير أهلها واكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها فرق أمرهم فلما رات بنو بكر عبد مناة بن كنانة وغبشان من خزاعة ذلك أجمعوا على حربهم وإخراجهم من مكة فلأذنوهم بأحرب فاقتتلوا فغلبتهم بنو بكر وغبشان فنفوهم من مكة وآل امر البيت الى رئيسهم عمرو بن لحى ·

وكانت مكة فى الجاهلية : لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ولا يبغى فيها أحـــد الا أخرجته ·

الاتجاه نحو الوثينة وكيف نشات :

إمامنا روا يتين نتحدث عن نشاه الوثنية العربية الأولى نرى أنها وافده والثانية نرى أنها نشأت نشأة محلية أما عن الراوية الأولى فانها وفدت · مع عمرو بن لحى حين غلبت خزاعة على البيت ونفيت جرهم عن مكة قد جعلته العرب ربا لا يبتدع لهم بدعة الا اتخذوها شرعة لأنه كان يطعم الناس ويكسو فى الموسم · · تذكر الرواية التاريخيـــة أنه أول من أدخـــل الأصنـــام الحرم ·

يقول الرازى المفسر : اعلم أن اليونانيين كانوا قبل خروج الاسكندر عمدوا الى بناء هياكل لهم معروفة بأسماء القوى الروحانية والأجرام النيرة واتخذوها معبدا لهم على حـــدة وقد كان هيكل العلة الأولى وهى عندهم : الأمر الالهى ·

وهيكل العقل الصريح ·

وهيكل العامة المطلقة ·

وهيكل النفس والصورة مدورات كلها ·

وكان هيكل زحـــل مسدسا ·

وهيكل المشترى مثلثا ·

وهيكل المريخ مستطيلا ·

وهيكل الشمس مربعا ·

وهيكل عطارد مثلثا فى جوفه مستطيل ·

وهيكل القمر مثمنا ·

فزعم التاريخ : أن عمرو بن لحى لما ساد قومه وترأس على طبقاتهم وولى أمر البيت الحرام اتفقت له سفرة الى البلقان فرأى قوما يعبدون الأصنام فسألهم عنها فقالوا هذه أربابنا نستنصر بها ننصر ونستسقى فيها فنسقى فالتمس اليهم أن يكرموه بواحد منها فاعطوه الصنم المعروف « بهبل » فسار به الى مكة ووضعه فى الكعبة ودعا الناس الى تعظيمه وذلك فى أول ملك « سابور ذى الأكتاف » .

واضح من الرواية انها تسندان أول من ادخل الأصنام الحرم : الى عمرو ابن لحى تى بها من اليونان ، فالوثنية اليونانية دخلت مكة ، وهذا من الآثار اليونانية ، وهذه الرواية يبدو انها أكيدة لأن الأصنام غير « هبل » كانت حجارة خالية من الفن ، والذوق الجمالى ، فلو أنهم أبدعوها لألبسوها مسحة فنية جمالية ، وفى هذا ما يشير : الى أن العرب غير من دينه الحنيفى ، لكنه ظل محبا لرمزياته المقدسة ، ومن أهمها : الكعبة فحينما ابتدع أصناما أو حينما أتى بها من الخارج فى بعض رحلاته فانا نراه يودعها فى الكعبة ، فالرمزيات المقدسة عند العربى ، لا تخرج عن معنى : الالف ، والعادة ، والارث ،ولا تحمل لديه : مضمونا فكريا أو دينيا ، لذلك كنا نراه : لا يعنى بالدين فى شىء ، فالمعنى الدينى عنده : لا يخرج عن معنى العصبية القبلية ، ولعل ماقاله لهم عمرو بن لحى : تستنصر فننصر ، وقرت عقيدة بينهم توارثوها ، ونراها : ظهرت فيما بعد على لسان عبد المطلب وهو يفاوض ابرهة حينما قال : اما الابل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه . وتعنى هذه العبارة فى نظرنا : ان العربى يتميز بنظرته المادية ، هذا من ناحية وأما من ناحية الموقف العربى القبلى أمام ابرهة فلم يظهر بالمستوى اللائق به فانه كان قبليا فى تشتته وليس عربيا ، فالوحدة العربية ظهرت مع الدعوة الاسلامية ، ولعل ذلك يرجع فى نظرنا : الى العربى نفسه ، حين أيد وجهة نظر العربى المفاوض : أن الأمان حين يأمن الاقتصاد ولو أوذى الدين وليس

---

(١) راجع : تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ٢٣٢ وفتح البارى ص ٤٧٢ ج ٨ وسيرة ابن هشام ص ٦٢ ط والروض الانف ص ٦٢ ج ١

الأمان فى الدين حين يهدد الاقتصاد ، وكانت هذه النظرة من اهم ما كافحها الاسلام ، ونظرته المادية هذه هى التى دفعتهم وفقا لما يقول المؤرخون الاسلاميون أن فكرة الحجر المقدس نشأت أساسا من حبه الكعبة وارتباطه الدينى بها منذ أن بناها أبوه ابراهيم وربط بها ملته الحنيفية غير أن العربى أكثر من الرمزيات المحسوسة دون مضمون فكرى وراءها فكانت وثنيته من غير مضمون فكرى وأصنامه من غير مسحة فنية والوثنية العربية ساذجة ٠

واما عن الرواية الثانية فانها ذكرت فى أكثر من مصدر يقول الألوسى : وقد بلغ تعظيم العرب لمكة أنهم كانوا يحجون البيت ويعتمرون ويطوفون فاذا أرادوا الانصراف أخذ الرجل منهم حجرا من حجارة الحرم فنحته على صورة أصنام البيت فيجعله فى طريقه قبلة ويطوف ويصلى له تشبيها بأصنام البيت وافضى بهم الأمر بعد طول المدة الى ان كانوا يأخذون الحجر من الحرم فيعبدونه فلذلك اصل عبادة العرب للحجارة فى منازلهم شغفا منها بأصنام الحرم وليس تذوقا للمعنى الدينى القويم ٠

ثم نعود فنقول نحن بين روايتين :

رواية عمرو بن لحى تقرر أن الأصنام وافدة من اليونانيين ، أى نشأت عن مصادر خارجية ٠

والرواية السابقة : تقرر انها ليست وافدة وانما هى منهم ، أى نشأت نشأة محلية ولا مانع لدينا ان نأخذ بالروايتين معا على أساس أن عمرو بن لحى استقدم التماثيل مما يوافق هوى قومه من حبهم للاحجار وتصبح رواية عمرو بن لحى مخصوصة بالاحجار المصورة المنحوتة وليس بأصل عبادتها ٠

مظـاهر معبـوداتهم

ثم انتشرت الاصنام والأوثان بعد دخول الوثنية بين العرب فرأينا :

غمدان : الذى بناه الضحاك على اسم الزهرة بمدينة صنعاء ــ ضربه عثمان بن عفان ٠

نوبهار وبلخ : الذى بناه « متوشهر الملك » على اسم القمر ٠

ثم كان لقبائل العرب أوثان معروفة مثل :

« ود » بدومة الجندل لكلب بن وبرة من قضاعة ٠

« وسواع » لبنى هذيل برهاط أرض ينبع ٠

« ويغوث » لبنى مذحج ٠

« ويعوق » لهمدان بأرض اليمن ٠

« ونسرا » بأرض حمير لذى الكلاع ٠

« عميانس » بأرض خولان لخولان ٠

« واللات » بالطائف لثقيف ٠

« ومناة » بيثرب للخزرج ٠

« والعزى » لكنانة بنواحى مكة ٠

« وأساف ونائلة » على الصفا والمروة ٠

« أوال » كان لبكر بن وائل وتغلب بن وائل من عرب اليمن ٠

« سعد » لبنى ملكان ٠

صنم دوس : لدوس ٠

هبل : لقريش ٠

قال بن هشام : يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم ٠

ولا يقال وثن الا لما كان من غير صخرة كالنحاس ونحوه ٠

أورد ابن هشام نصا يفهم منه خلاف ذلك وهو رواية عن عمر بن الخطاب يقول فيه : اللهم غفرا ، لقد كنا فى الجاهلية على شر من هذا نعبد الأصنام ونعتنق الأوثان ٠

يفهم من قول عمر أن الأصنام تطلق على مظاهر عبادتهم والأوثان على

عقائدهم ، فهى على القولين ليسا من المترادفات فنقول مثلا ان آلهة الوثنيين أصنام فالوثنى يترادف مع المشرك ويتقابل مع الموحد فالزواية التى ذكرها ابن هشام وتشير الى التفريق بين الصنم والوثن نراها غير دقيقة فالوثنية عقيدة والصنم مظهرها •

سـدنتهـا

من هم السدنة ؟ هم الذين يقومون بأمر الكعبة أو بطواغيتها •

فكان للات سدنتها وحجابها من بنى معتب من ثقيف ولمناه سدنتها من الأوس والخزرج وللعزى سدنتها من بنى شيبان خلفاء بنى هاشم •

يقول صاحب الروض الأنف :

وهذه أسماء سريانية (١) وقعت الى الهند فسموا بها أصنامهم التى زعموا أنها الدرارى السبعة ثم ادخلها عمرو بن لحى • ثم أصبحت عبادتها تقليدا حتى خلفت الخلوف وقالوا : ما عظم هؤلاء آباؤنا الا لأنها ترزق وتنفع وتضر واتخذوها آلهة • فاتخذت العرب مع الكعبة هذه الطواغيت وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب وتهدى اليها كما تهدى للكعبة وتطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها مع عرفانها بفضل الكعبة • والطواغيت أطلقها القرآن على كل معبود من دون الله والجبت : الكاهن •

قال الرازى : كلمتان وضعتا علمين على من كان غاية الفساد (٢) •

---

(١) الروض ص ٦٢.

(٢) الرازي في تفسيره ص ١٤١ جـ ٣ •

قال عكرمة : الجبت بلسان الحبشة شيطان • الطاغوت الكاهن •

قال ابن عباس : الجبت الاصنام والطواغيت الذين كانوا يعبرون من الاصنام بالكذب او يترجمون للناس عنها الاكاذيب •

(٣) يقول ابن حجر في فتح البارى ص ٤٧٠ جـ ٨ هذه الاصنام كانت آلهة يعبدها العرب في عبادة الاصنام بعد نوح أم من الشيطان ؟

قال بعض الشراح : يحصل مما قيل في هذه الاصنام قولان : أحدهما أنها كانت قوم نوح الثانى الثانى : انها كانت اسماء رجال صالحين ثم ارجع ابن حجر الرأيين الى رأي واحد وانهـا كانت في المبدأ سماء رجال صالحين •

قال ابن الكلبى : وكان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه فاذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به واذا قدم من سفره كان أول ما يصنع اذا دخل منزله يتمسح به أيضا (١) ·

واستهترت العرب فى عبادة الأصنيام :

فمنهم من اتخذ بيتا ومنهم من اتخذ صنما ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت : نصب حجرا أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه البيت ، وسموها : الأنصاب ، فاذا كانت تماثيل دعوها الأصنام ، والاوثان ، وسموا طوافهم : الدوار ، وكان الرجل اذا سافر فنزل منزلا ، أخذ أربعة أحجار فنظر الى احسنها ، فاتخذه ربا ، وجعل الثلاث : اثافى القدرة ، واذا ارتحل : تركه فاذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك · فكانوا يفحرون ، ويذبحون عندهم كلها ويتقربون اليها ، وهم على ذلك : عارفون بفضل الكعبة عليها ، يحجونها ويعتمرون اليها ، وكان الذين يفعلون من ذلك فى أسفارهم انما هو للاقتداء بما يفعلون عندها ولصبابة بها · وكانوا يسمون ذبائح الغنم التى يذبحون عند أصنامهم وأنصابهم تلك : العتائر ، والعتيرة فى كلام العرب : الذبيحة والمذبح الذى يذبحون فيه لها العتر ·

ويقول الكلبى : وكانت للعرب حجارة غير منصوبة يطوفون بها و يعترون عندها يسمونها الأنصاب ويسمون الطواف بها الدوار (٢) ·

ما زالت بداية ظهور الحاد العرب سرا غامضا ولكننا نعتقد أن الحادهم كان يختلف عن أى نوع من الالحاد عند الامم الأخرى ·

واذا نظرنا الى تقدمهم العقلى نجد افكارهم الدينية ساذجة وبسيطة واذا سلطنا عليهم أضواء التاريخ نجد لديهم نوعا من أحط انواع الوثنية ·

ففى العصر الجاهلى : لا نجد أى تعاليم جوهرية ، ولكن رغم ذلك فان الأحداث كما يقول « كرهل » : لا تثبت اذا ما كان الشعب السامى الذى هاجر الى بلاد العرب من الشمال الشرقى قد اعتنق العبادة التى وجدها

---

(١) كتاب الاصنام لابى المنذر محمد بن السائب الكلبى تحقيق الاستاذ احمد زكى ·

(٢) الاصنام ص ٣٢ ، ٣٣

فى البلاد ، أم دخل نوعا جديدا من العبادة التى انتشرت وتطورت تدريجيا بين العرب (١) ٠

فتحولهم من التوحيد الى الوثنية والالحاد ، لم يكن مباشرة وانما تم بعد مرحلة جرهم العبثية ، فسد فيها الدين وشوه ، فلما ولى عمرو بن لحى : دفعه الى الوثنية لون من العصبية ، وليست قضايا عقلية شغلته ، فأراد لها حلا فتحول بسببها الى الالحاد ، انما كانت العصبية ، والتقليد ، وهجر ماكان عليه جرهم من افساد وعبث ٠

وهذا التعدد فى الأصنام والأوثان والانصاب واختلاف أسمائها ليس نتيجة فكر شغل به العقل العربى انما كان ذلك ناشئا من مجاورتهم لأهل هذه الملل والنحل « ان أديان العرب كانت مختلفة بالمحاورات لأهل الملل والانتقال الى البلدان والانتجاعات » (٢) ٠

ولم تأت هذه الآلهة جميعها من التراث القومى فبعضها وفد من الشعوب المجاورة طبقا لاستعداد عام بين العرب الجنوبيين يحدوهم الى النقـل والاستيعاب استعداد يسر فى مراحل متـأخرة دخول عقـائد اليهودية والمسيحية ٠

الاتجاه التوفيقى بين المظهر القبلى والدينى :

ولى قصى : البيت وأمر مكة ، وجمع قومه من منازلهم الى مكة ، وتملك على قومه وأهل مكة فملكوه ، فكان قصى : أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكا أطاع له به قومه ، ثم أعطوه مقاليد الأمور فكان له أمر :

الحجـابة ٠
والسقاية ٠
والرفادة ٠
والنـدوة ٠
واللـواء ٠
وبها حاز شرف مكة كله ٠

---

(١) حضارة الاسلام صلاح الدين خودا بخش ص ٢٥ ٠
(٢) اليعقوبى فى تاريخه ج ١ ص ٢١٠ ٠

فأعاد تخطيط مكة ، فقطعها رباعا بين قومه : فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها ، وأصبحت داره بيت شورى لقريش والعرب فلا يقضى أمر من مورها إلا فيها تشريعاته ٠

أقر للعرب ما كانوا عليه ، وذلك إنه كان يراه دينا فى نفسه ، لا ينبغى تغييره ، فأقر : آل صفوان ، وعدوان ، والنسأة ، ومرة بن عوف : على ما كانوا عليه حتى جاء الاسلام ٠

على أى شىء أقرهم ؟

آل صفوان :

كان صفوان هو الذى يجيز للناس بالحج من عرفة ، ثم بنوه من بعده ، حتى كان آخرهم الذى قام عليه الاسلام كرب بن صفوان ٠

وعدوان :

كانت الافاضة من المزدلفة : فى عدوان ، يتوارثون ذلك كابرا عن كابر حتى كان آخرهم الذى قام عليه الاسلام : أبو سيادة بن الأعزل.

والنسأة :

هى التى كانت تحرم صفرا أو غيره ، من الأشهر بدلا من الشهر الحرام

ومرة بن عوف :

يلى للناس الاجازة بالحج من بعد عرفة

والغوث :

وكان الغوث اذا دفع بالناس يقول :

لا هم انى تابع تباعه   ان كان اثم فعلى قضاعة

وتقول بعض الأخبار ان ولاية الغوث بن مر كانت من قبل ملوك كنده ٠

ثم بعد تقسيمهم على مكة ، فرض على قريش : رفادة الحاج وهى : وضع طعام لمن لا زاد له من الحجاج فقال :

يا معشر قريش : انكم جيران الله ، وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وأن الحجاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحجج ، حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا ٠ وظلت سنة ، حتى بعد الاسلام ولم تنقطع الا فى عصرنا هذا ، وأصبح قصى فى قومه :

لا يخالف ولا يرد عليه شيء صنعه فكان أمرة فى قومه من قريش فى حياته ومن مماته كالدين المتبع لا يعمل بغيره ٠

لاحظت تشريعات قصى هذه الاعتبارات فاعطت لقبيلة قريش : امكانية السيطرة على من جاورهم من العرب ، فاصبح لها الزعامة السياسية ، والدينية ، فزعامتها السياسية مكنتها من تخطيط مكة مرة ثانية ، وحفظت عليها وضعها وقيادتها ، وزعامتها الدينية أعطتها سلطة تشريعية فى الدين ، فشرعت مذهبها الدينى : وهو ما عرف بتشريع الحمس ٠

وهذا التشريع : حفظ عليها دينها ، وعصبيتها القبلية ، وساعد على انتشار ما ورثوه من وثنية عمرو بن لحى ، وبقايا دين اسماعيل ، وبفضل هذا اصبحت أسرة ذات كيان مقدس وذلك بمظهرها الطبقى الدينى ٠

ولقريش محامد تنسب اليهم ٠

* فمنهم كعب بن لؤى : هو أول من جمع يوم العروبة ولم تسم العروبة الجمعة الا منذ جاء الاسلام ٠

* والياس : أول من اهدى البدن للبيت ٠

* **وعبد بن قصى** : اول من ادخل الكتاب العربى ارض الحجاز قبل تعلمه بالحيرة وتعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبياء ٠

* **واسعد الحميرى** : قال الرسول لا تسبوا اسعد الحميرى فانه اول من كسى الكعبة ٠

* **ودار قصى** : دار الندوة جعل بابها الى مسجد الكعبة ففيها كان قريش تقضى أمورها

* **وهاشم** : اول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء ، والصيف ، واول من اطعم الثريد للحجاج وكان يسمى : الفيض لسماحته ٠

بجانب طبيعتها الدينية كانت ذا مظهر حضارى أيضا ٠

« ويبتدىء يقصى التاريخ ، تاريخ جديد ليس لقريش ولكنه لمكة كلها ٠ ٠ نظم أمور مكة على شكل مبتكر جمهورى ــ قبلى ، يمكن أن يشبه بجمهوريتى : البندقية ، وقرطاجة ، لسيطرة الماليين من أرباب التجـارة ورؤوس الأموال عليهـا ٠

ولا يفترق قصي في وصفه هذا عن (الملك) في الملكية الرومانية الأولى ، الا بأنه لا يحمل لقب ملك ، والمؤرخون المسلمون منحوه فيما بعد هذا اللقب رمزا لهذه السلطة الواسعة (١) وكانت فوق ذلك تحوز أكبر الأصنام .

١ ــ العــزى :

وكان الذين اتخذوا العزى : ظالم بن أسعد .

كان بواد من نخلة الشامية يقال له : حراض بازاء الغمير عن يمين المصعد الى العراق من مكة ، وذلك فوق ذات عرق الى البستان بتسعة أميــال ، فبنى عليها بسا (يريد بيتا) وكانوا يسمعون فيه الصوت ، وكانت العرب وقريش تسمى بها عبد العزى . وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقــول (٢) :

والـــــــلات والعــــزى	ومناة الثالثة الأخرى
فانهن الغــرانيق العـــــلا	وان شفاعتهن لترتجى

كانوا يقولون : انها بنات الله وهن يشفعن اليه

وكانت قريش قد جمعت لها شعبا من وادى حراض يقال له : سقام ، يضاهون به حرم الكعبة ، وكان لها منحر : ينحرون فيه هداياهم ، يقال له : الغبغب ويقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها ، وتخصها بالاعظام ، وسدنة العزى : بنو شيبان بن جابر بن مرة من بني سليم وكان آخر من سدنها منهم دبية بن حرمى السلمى .

فلم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه فعابها وغيرها من الأصنام ونهاهم عن عبادتها ونزل القرآن فيها :

---

(١) الاسلام في حضارته ونظمه ــ ص ٥٢ الأستاذ أنور الرفاعى ــ دار الفكر .

(٢) يقول ابن الكلبى : وقد بلغنا أن رسول الله ذكرها يوما فقال لقد أهديت للعزى شاه عفراء وأنا على دين قومى ص ١٩ . يكذب هذه الرواية حديث لرسول الله ورد فيه أنه ما عبد صنما قط .

« افرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر له والأنثى تلك اذا قسمة ضيزى أن هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان » ٠ (سورة النجم)

فاشتد ذلك على قريش ، ومرض أبو أحيحة مرضه الذى مات فيه ، فدخل عليه أبو لهب يعوده فوجده يبكى ، فقال : ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ امن الموت تبكى ولابد منه ؟

قال : لا : ولكننى أخاف ألا تعبد العزى بعدى ٠

قال ابو لهب : والله ما عبدت فى حياتك لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك ٠

كانت للعزى شيطانة تاتى ثلاث سمرات ببطن نخلة فلما فتح النبى مكة بعث خالد بن الوليد فقال له :

ايت بطن نخلة ٠ فانك تجد ثلاث سمرات ، فاعضد الأولى ، فأتاها نعضدها ، فلما جاء اليه ، قال : هل رأيت شيئا ؟ قال : لا ٠٠ قال : فاعضد الثانية ، فأتاها فعضدها ، ثم اتى النبى فقال : هل رأيت شيئا ؟

قال لا : فاعضد الثالثة فأتاها فاذا هو بحبشية نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها تصرف بأنيابها وخلفها دبية وكان سادنها ٠ فلما نظر الى خالد قال :

أعزاء : شدى لاتكذبى   على خالد ألقى الخمار وشمرى
فانك الا تقتلى اليوم خالدا   تبوئى بذل عاجلا وتنصرى

فقال خالد :

يا عز كفرانك لاسبحانك   انى رايت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق راسها ، فاذا هى حممه ثم عضد الشجرة وقتل دبية السادن ، ثم أتى النبى فأخبره فقال : تلك العزى ، ولا عزى بعدها للعرب؟ أما انها لن تعبد بعد اليوم ٠ قال ابو المنذر ولم تكن قريش بمكة ومن اقام بها من العرب يعظمون شيئا من الأصنام اعظامهم العزى ثم اللات ، ثم مناة ، فأما العزى فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدية ، وذلك فيما أظن كان لقربها منها ٠

وكانت لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها وكان أعظمها عندهم هبل (بعل) وكان فيما بلغنى : من عقيق أحمر على صورة الانسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدا من ذهب ، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضره وكان يقال له هبل خزيمة وكان فى جوف الكعبة قدامه : سبعة أقداح مكتوب فى أولهـــا : صريح ، والآخر : ملصق •

فاذا شكوا فى مولود أدوا له هدية ثم ضربوا بالقداح فان خرج صريح ألحقوه وان خرج ملصق : دفعوه •

وقدح على الميت ، وقدح على النكاح ، وثلاثة (١) لم تفسر لى على مـــا كانت •

فاذا اختصموا فى أمر ، أو أرادوا سفرا ، او عملا اتوه : فاستقسموا بالقداح عنده ، فما خرج عملوا به وانتهوا اليه ، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله ولد الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الذى يقول له ابو سفيان بن حرب حين ظفر يوم أحد : اعل هبل ؟ اى علا دينـــك •

فقال رسول الله : الله أعلى وأجل (٢) •

٢ ــ هبـــــل :

هو الصنم الذى أتى به عمرو بن لحى ونصبه على البئر الذى حفره ابراهيم

---

(١) يقول بن هشام : وكان عند هبل قداح سبعة كل قدح فيها كتبا :

(١) قدح فيه (العقل) اذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة فان خرج العقل فعلى من خرج حمله •

(٢) وقدح فيه (نعم) للامر اذا ارادوه يضرب به القداح فان خرج قدح نعم عملوا به •

(٣) وقدح فيه (لا) اذا ارادوا امرا ضربوا به في القداح فان خرج ذلك القدح لم يفعلوا ذلك الأمر •

(٤) وقدح فيه (منكم) •

(٥) وقدح فيه (ملصق) •

(٦) وقدح فيـــه (من غيركم) •

(٧) وقدح فيه (المياه) •

اذا ارادوا ان يحفروا للماء ضربوا بالقدح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج ضربوا به •

(٢) ــ يراجع كتاب الاصنام ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ •

عليه السلام فى بطن الكعبة وكان تمثالا من عقيق أحمر على صورة الانســـان مكسور اليد اليمنى ادركته قريش كذلك فجعلت له يدا من ذهب وكما هـــو واضح فى الرواية أن الصنم واسمه مستعربان •

لذلك رأينا للمؤرخين خلافا حول اصل اشتقاق اسمه :

بعضهم يذهب الى ان اصل اشتقاقه من العربية يقول : هبل : اظنه من الهابل وهو الكثير اللحم والشحم ويستأنس بقول عائشة : والنساء يومئذ لم يهبلن اللحم أى : لم يسمن •

او من الهبل والهبالة : وهو الغنيمة أن يغتنم عبادته او يغتنم من عبده (١) •

أو من الهبل والثكل يراد به ان لم يطعمه هبله : أى ثكله •

نلاحظ ان هذا التحليل فيه تكلف التوجيه ومشقة الرد الى أصل عربى وخروج باللفظ عن حـــد الاعتدال فى تأويله

* وبعضهم يذهب الى أن لفظ هبل لا اشتقاق له فى العربية من معناه • فهو غير مشتق من لفظ عربى • ويقول : انه عبرانى أصله هبعل ومعنى بعل السيد •

وزاد على ذلك فقال : ان الهاء فى العبرى اداة التعريف مثل : ال العربية فباضافة هذه الأداة الى بعل يريد الأكبر •

وقال أما العين الزائدة ، فسهل اهمالها بالتخفيف ، ثم ضياعها بالاستعمال وخصوصا فى لفظ بعل ، لان الكلدانيين كانوا يلفظونه « بل » باهمال العين وهو اسم هذا الاله عندهم • وقيل ان هبل القريشى هو بعل الاسرائيلى (٢) •

وعلى ذلك : اذا صح تعليل الأستاذ جورجى زيدان اللغوى فلا يبقى شك فى أن هبل هو بعل والذى هو يؤكد صحة هذا الرأى أن الله اورده فى التنزيل « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » •

---

(١) معجم البلدان لياقوت جـ ٤ ص ٩٧ •

(٢) التاريخ الاسلامى العام ص ٢٤٤ د • على حسن ابراهيم

فقال الله : بعلاولم يقل هبلا ٠

وفى هذا يدل على أنه كان يسمى بعلا عند الاسرائيليين (١) ٠

والأوفق عندى من خلال الأبحاث الحديثة : أن بعلا كان اله العبرانيين ولكن متى عرف العبرانيين وثنية بعل يرجع ذلك عندما استقر العبرانيون فى كنعان تمت عملية امتزاج بطيئة تركت عرضا علامات فى دين العبراييين مثل عبادات آلهة الكنعانيين (بعليم : اسباد البلاد) ٠ ولم يكن هؤلاء البعليم على غرار بهوه آلهة حرب ولكنهم كانوا آلهة طبيعة مسالمين تتمثل فى شخوصهم قوى الخصب والحياة المنتجة ويتآلفون أزواجا : ذكرا (بعلا) وأنثاه (عشتاروت) ٠

ولهم ديانات محلية متباينة تصحبها الشهوة المخزية فربما كان دين العبريين قد هبط فى يسر الى مستوى الدين الكنعانى ولكان بهوه قد اندمج فى البعليم ولما ترك العبريون طابعا على تاريخ البشر الروحى ٠ ٠ وظل يهوه بين كل ما تمثلوه من العبادات الكنعانية كالمرتفعات والصور الخشبية لعشتاروت او العمد المقدسة اله شعبه المختار ٠ وهذا أثر كنعانى على العبريين ٠

واما العبرانى فهو أقدم من بنى اسرائيل وان كان اسرائيل منهم غير أن العبرانى اعم من جهة ثانية لأنه يشمل ابراهيم وقومه وهم غير اليهود « فكان بعل هذا هو اله قوم ابراهيم ويقارب أن يكون اسمه (هبعل = البعل) ولعله يقابل (مردوخ) البابليين وبعل الكلدانيين فأصلة لاشك دخيل » (٢) ٠

حاول عمرو بن لحي : بأن يجعله اله الجزيرة الأكبر ، اذ بمقارنة وظائف هذه الآلهة مع ما روى عن هبل ، يتضح لنا : أنه كان اله الخصب ٠ والرزق ، ومن ثم اله السعادة عند العرب ، وربما ايضا كان اله الحرب ، فلا يرحل الراحل ولا يؤوب الآيب المغترب ، الا ويطوف به ، وكانت عنده أقداح الازلام ولا يستقسم بها الا أمامه ، ومراسم الأفراح والأحزان عنده ايضـــا ٠

---

(١) نفس المرجع ٠

(٢)الاسلام في نظمه ص ٤١ الاستاذ انور الرفاعى ٠

يقول : على حسن ابراهيم : وتشير اقامة هبل على البئر الكائن فى بطن الكعبة الى أنه كان ذا علاقة بالرزق والخصب فى عقيدة العرب » (١) ٠

يقول محمد عبد المعين خان : لا أتردد أن أقول ان هبل كان اله الخصب والرزق ومن ثم اله السعادة وشبه رب الأرباب فى عقيدة العرب (٢) ٠

وفى الروايات ما يؤكد عدم تردد خان فى أن هبل هو الاله الذى عناه عمرو بن لحى حينما قال : ان ربكم مصيف باللات لبرد الطائف ويشتو بالعزى لحر تهامة (٣) ٠

وبذلك يكون هبل أو بعل ــ رب الأرباب عند العرب وله جميــع السطات واهمها : الخصب والتجارة والرزق ــ ومنه اللات والعزى ومناة ــ هم بناته يتشفع بهن لديه ــ تكون عائلة وثنية مقدسة ٠ ابطلها الله بقوله : « أفرأيتم اللات العزى ومناة الثالثة الأخرى الكم الذكر وله الأنثى تلك اذا قسمة ضيزى : ان هى الا اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بهــا من سلطان » ٠

معاهداتهم التجارية :

وكان لقريش معاهدات تجارية عرفت بالايلاف ٠

والايلاف كتاب أمان : يعنى أن يأمنوا عندهم فى أرضهم بغير حلف انما هو امان الطريق وكان فى قريش يقول الهروى فى الغريبين : الايلاف عهود بينهم وبين الملوك ٠

* تعاقد هاشم مع الروم على امان التجارة فى طريق الشام ومات فى احدى سفراته بغزة ٠

* وتعاقد المطلب بن عبد مناف الى اليمين وأخذ من ملوكهم عهدا لمن تجر اليهم من قريش وهلك بردمان من اليمين ٠

* وتعاقد عبد شمس بن عبد مناف الى الجيش فأخذ ايلاف وهلك بمكة فقبره بالحجون ٠

---

(١) الأساطير العربية ص ١١٠ محمد عبد المعين خان .

(٢) نفس المرجع ص ١١٧ ٠

(٣) اخبار مكة جـ ١ ص ٧٤ ٠

* وتعاقد نوفل بن عبد مناف فأخذ عهده من كسرى لتجار قريش وايلافا ممن مربه من العرب ثم خدم ورجع الى العراق ومات بسلمان

بهــذه الايلافات (العهود الآمنة) لمسالك التجارة اتسعت تجارة قريش وكثرت اموالها (١) .

المحتوى الفكرى لمذهب قريش الدينى : التحمس (٢) :

الحمس جمع الأحمس وهم : قريش ، ومن ولدت قريش ، وكنانة ، وبجيلة ، وقيس ، سموا حمسا : لأنهم تحمسوا فى دينهم ، أى تشددوا والحماسة الشجاعة ، بمعنى : أنهم كانوا يقفون بمزدلفة ، ولا يقفون بعرفة ، ويقولون : نحن أهل الله فلا نخرج من الحرم ، وكانوا لا يدخلون البيوت من ابوابها وهم محرمون . وكانوا قد ذهبوا فى ذلك مذهب التزهد والتأله ، يقول ابن اسحق : لا أدرى قبل الفيل . أو بعده ابتدعت رأى الحمس ، ويغلب على ظنى أنهم ابتدعوا هذا المذهب قبل عام الفيل منذ أن استقر أمرهم على البيت بعد قصى ووزعوا مقاليد الزعامة بينهم وأحسوا بعصبيتهم القبلية وتميزهم ، فبيتهم : بيت العرب ، ورب قبيلتهم : رب العرب ، فنشأت : فكرة الجمع بين فكرة الألوهية ، وفكرة الملكية للبيت ليصبغ عليهم الصفة المقدسة

---

(١) يراجع الامالى والنوادر ملحق بالامالى لابن على اسماعيل بن القاسم القالى البغدادى ج ٢ ص ٢٠٤ .

دار البار للنشر والتوزيع .

وحاشية الشهاب على البضاوى ج ١ ص ٣٩٩ .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ١٢٣ وكذا النهاية في غريب الحديث والاثر لابن الاثير ج ١ في حديث : هذا من الحمس فما باله خرج من الحرم وكتاب مروج الذهب للمسعودى ج ١ ص ٢٠٧ قال النبى للانصار : انا رجل احمس ؛

عن قيس بن حازم قال دخل ابو بكر على امراة من احمس يقال لها زينب بنت المهاجر لا تتكلم فقال ما لها لا تتكلم قالوا : حجت مصمته ، قال لها تكلمى فان هذا لا يحل ، هــذا من عمل الجاهلية ، فتكلمت .

قال جبير بن مطعم حين رآه واقفا بعرفه مع الناس ــ قبل الهجرة وقبل النبوة ــ قال : هذا رجل احمس : فما باله لا يقف مع الحمس حيث يقفون ابن هشام ص ١٣٥ ج ١ قال السهيلى : وذكر وقوف النبى بعرفة مع الناس قبل الهجرة وقبل النبوة توفيقا من الله .

فقالوا عن سبب تميزهم الطبقى والدينى : نحن بنو ابراهيم ، وأهـل الحرمة ، وولاة البيت ، وقطان مكة وسكانها ، فليس لأحد من العرب : مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب : مثل ما تعرف لنـا ، فلا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم ، فانكم ان فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم وقالوا : قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم ٠ فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها — وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين ابراهيم — ويرون لسائر العرب أن يفيضوا منها ٠

الا انهم قالوا : نحن أهل الحرم فليس ينبغى أن نخرج من الحرمة ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس ٠ والحمس : أهل الحرم ، ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحـل والحرم : مثـل الذى لهم بولادتهم اياهم قد دخلوا معهم فى ذلك ، ثم أبتدعوا فى ذلك امورا لم تكن لهم حتى قالوا : يحل لهم ما يحل لهم ويحرم عليهم مايحرم عليهم ، وكانت كنانة وخزاعة ترى : أنه لا ينبغى للحمس : أن يأتقطوا ، ويأكلوا السمن وهم لا يدخلون بيتا من شعر ولا يستظلون الا فى بيوت الأدم ما كانوا حرما ٠

ثم رفعوا فى ذلك فقالوا : لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا بـه معهم من الحل الى الحرم اذا جاءوا حجاجا أو عمارا ولا يطوفوا بالبيت اذا قدموا أول طوافهم الا فى ثيأب الحمس فان لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة ٠

فان تكرم منهم متكرم من رجل او امراة ولم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل لقاها اذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بهاولم يمسها هو ولا احد غيره ابدا ٠ وكانت العرب تسمى تلك الثياب اللقى ٠

فحملوا على ذلك العرب فدانت به ووقفوا على عرفات وافاضوا منهـا وطافوا بالبيت عراة أما الرجال فيطوفون عراة وأما النساء فتضع احداهن

ثيابها كلها الا درعا مفرجا ثم تطوف فيه (١) ٠

قال الشاعر يذكر شيئا تركه من ثيابه فلا يقربه — وهو يحبه :

كفى حـــزنا كرى عليها كأنهـــا ... لقى بين أيـــدى الطائفـــين حريم

عليها : أى حرام لا تمس ٠

نلاحظ أن هذا المذهب الدينى عندما وضعته قريش رمت به ربط قبيلتها بقدسية البيت سواء أكانت اقبيلة قائمة فى حرمه الأمن م كانت فى الحل فكل من ينتمى الى قريش توالدا : تشريعه الخاص فى نسكه ٠

هكذا أصبح للعبادة فى الكعبة مراسيم وثنية معينة : يحج الناس اليها فى التاسع من ذى الحجة : فيحرمون ، ويطوفون ، ويلبون ، ويرمون الحجارة ، ويتمسحون بالأنصاب والأوثان التى فيها ، ويهدون ما هم مهدون ثـــم ينصرفون ٠ وكان أهل الحرم : يؤمون الناس فى المناسك ، وسدانة البيت عندهم : وراثية فى آل (عبد الدار) « وهم يشبهون الأسر الدينية التى كان بيدها تنظيم الأعياد الدينية لدى اليونان » (٢) ٠

ومن جانب آخر عززت قريش بكل قوتها مركزها المالى باستغلال مركز مكة التجارى فنظمت القوافل فكان لها رحلتان : رحلة الشتاء : الى اليمن ، ورحلة الصيف : الى الشام ، عدا الرحلات : الى الحيرة ، وتزيدت فى اليمن ، وبالغت فى نشر قداسة البيت الحرام لحماية نفسها وحماية تجارتها فى الصحراء من غزو الفتاك ٠

وبهذا الايلاف ربطت علائقها مع الأمم المجاورة أى باتفاقاته ٠

عقد هاشم بن عبد مناف : أحدها مع أمراء الغساسة والرومان ، فاذن له ولقومه بالتجارة من الولاية العربية فى بصرى ومع ولاية فلسطين فى غزة وعقد عبد الشمس أخوة : اذنا مع ملوك الحبشة بأكسوم ونال مثـــل

---

(١) والذين يطوفون بالبيت أصناف ثلاثة : هل الحمس : يطوفون في ثيابهم . وأهل الحل : يطوفون عمراة اذا لم يجدوا ثياب الحمس ، أو في ثيابهم ثم يلقونها محرمة عليهم . وأهل الطلس : كانوا يأتون من اقصى اليمن من الغبار فيطوفون بالبيت في تلك الطلس . ولعلهم يقصدون من طرح الثياب الذنوب التى اقترفوها .

(٢) الاسلام في حضارته ونظمه ص ٥٥ أنور الرفاعى .

هذا الاذن اخوانه نوفل والمطلب من الحميريين فى اليمن ومن فارس والمناذرة فى العراق ، وبذلك « نشأت فى مكة بيوت تجارية « وكالات » للحبشة وللرومان ولعلها نتيجة لهذه الاتفاقات وبلغ من تغلغل التجارة فى قريش أن قيل من لم يكن من قريش تاجرا فليس بشىء » (١٦٠) ٠

عززت قريش ، وضعها الاقتصـــادى : برحلاتها التجارية ، وعززت أيضا وضعها القبلى : بتشريعاتها الوثنية ، وارتباطها بالبيت حتى أصبح كل من يتمرد على قريش : فهو يتمرد على قدسية البيت ، ومن يتمرد على البيت : فهو يتمرد على قريش ، وبهذا أصلت الوثنية الوضع القبلى وأصبح هدم النظام القبلى يستدعى هدم النظام الوثنى وهذه عقبات فى سبيل الاصلاح

من نتائج التحمس القرش : الطواغيث

ولما رأت العرب ذلك طلبوا بيوتا يضاهون بها الكعبة ٠ قال ابن هشام وكانت العرب قد اتخذت من الكعبة طواغيث وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب وتهدى اليهـــا كما تهـــدى للكعبة وتطوق بهـــا كطوافها ٠

بيت رضى : فاصبح هناك بيت لبنى ربيعة : يدعى بيت : رضى هدمه المستوغر فى الاسلام ٠

وذو الكعبات بسنداد : لبكر وتغلب ابنى وائل : وكان لاياد كعبـــة أخرى بسنداد من أرض الكوفة والبصرة فى الظهر ، وهى : التى ذكرها الأسود بن يعفر ، وقد سمعت ان هذا البيت لم يكن عبادة انما كان منزلا شريفا فذكره ٠

والقليس : وقد كان أبرهة الأشرم : قد بنى بيتا بصنعاء ، كنيسة ، سماها : القليس ، بالرخام وجيد الخشب المذهب وكتب الى ملك الحبشة يقول : انى قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها أحد قط ولست تاركا العرب حتى أصرف حجمهم عن بيتهم الذى يحجون اليه فبلغ ذلك بعض نساة الشهور

(١) الاسلام في حضارته ونظمه ص ٥٢ ٠

فبعث رجلين من قومه وامرهما أن يخرجا حتى يتغوطا فيها • ففعلا • فلما بلغه ذلك غضب وقال من اجترأ على هذا ؟ (١) • فقيل بعض أهــل الكعبة فغضب وخرج الى الحبشة فكان من ألره ما كان •

اللات : بيت لثقيف بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة •

كعبة نجران : وكان لبنى الحارث كعبة بنجران يعظمونها وهى التى ذكرها الأعمش •

وكعبــة نجــران حتم عليــ
ــك حتى تنــــاخى أبوابها

وقد زعموا انها لم تكن كعبة عبادة انما كانت غرفة لأولئلك القــوم الذين ذكرهم •

رئام : كان لحمير ، بصنعاء يعظمونه ويتقربون عنده : بالذبائــح ، وكانوا فيما يذكرون : يكلمون منه ، فلما انصرف تبع من مسيره الذى سار فيه الى العراق قدم معه الحبران اللذان صحباه من المدينة فامراه بهــدم رئــام •

قال : ما شانكما به فهدماه وتهود : تبع وأهل اليمن ، ثم لم أسمع بذكر رئام ولا نسر فى شىء من الاشعار ولا الأسماء •

بيت الحوراء : وكان رجل من جهينه يقال له : (عبد الدار بن حديب) قال لقومه : هلم نبنى بيتا (بأرض بلادهم يقال لها الحوراء) نضاهى بــه الكعبة ونعظمه حتى نستميل به كثيرا من العرب فأعظموا ذلك وأبو عليه •

ولعل نشأة تلك البيوت المقدسة أو الطواغيت يرجع — فى نظرنا — الى نشأة مذهب قريش الأحمس الذى صبغ البيت الحرام بصبغة قبلية قرشية اضطرت القبائل المجاورة إن تحاكيها بمثل بيتها •

---

(١) القليس : هى الكنيسة التى بناها ابرهة في صنعاء وهو لفظ اخذه العرب عن الروم ثم حرف فيما بعد الى كنيسة ويظن بعضهم ان القليس لفظ عربى مبنى ومعنى يقول عبد الرحمن بن محمد : سميت القليس لارتفاع بنيانها من القلانس لانها اعلى الرؤس • معجم البلدان • مادة قليس تاريخ الاسلام العام ص ٥٥ هامش د • على حسن ابراهيم •

تقويم التحمس القرشي :

ينازعنا القول فى محاولتنا الادلاء برأى يحدد بوجه تقريبى تاريخ ابتداع قريش تحمسهم ٠

يغلب على ظنى أن ابتداع الحمس القرشى كان قبل غزو أبرهة للبيت لان مذهب الحمس يؤكد على عصبية قريش القبلية وكانوا يرون فى ذلك امتيازا طبقيا « فليس لأحد من العرب مثل حقنا » فلا يساوى الحرم وساكنيه بالحل وساكنيه وقالوا لبعض : « ان فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمتكم » واقتضاهم رأيهم فى تحمسهم أن يخرجوا فيه عن بعض دين ابراهيم « فتركوا الوقوف على عرفة والافاضة منها وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين ابراهيم » ٠

فتالهم العصبى « العرقية » جرفاهم عن الالتزام بدين ابراهيم ٠

وكما أنهم خرجوا بتحمسهم عن دين ابراهيم ليرفعوا عصبيتهم على دينهم فانهم فرضوا تحمسهم على العرب « فحملوا على ذلك العرب فدانت به » وكان من نتائج ذلك على العرب وقريش أن أعتبر العرب أن مسئولية البيت تقع بالدرجة الأولى على قريش وظهر ذلك عندما سأل أبرهة عن سيد اهل هذا البلد وشريفها فقيل له : عبد المطلب فلما جاء اليه عبد المطلب سأله أن يرد اليه البعير قال أبرهة لترجمانه قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى اتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ! قال له عبد المطلب : الابل لى والبيت له رب يحميه ٠

هذا يعنى ان قريشا عزلت نفسها والبيت عن العرب كذلك من حيث ابرهه وغزوه للبيت لدى كتاب السير كما لو كان الأمر مكيدة لعبد المطلب وبينه فقط فلم يتحرك له العرب وهم أشعلوا الحروب القبلية أو بين القبيلة الواحدة لاتفه الأسباب وعلى ما نظمه أن الأمر فى هذا لا يفهم الا من خـــلال رأى قريش فى التحمس وهو أنهم عزلوا أنفسهم به من حيث أرادوا تسيدا ورفعة قبلية ٠

وكانت النتيجة أن ظهرت قريش وعليها طابع القلة عند مفاوضتها لأبرهه وتخلف العرب عنه يقول ابن هشام : ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهه وجنده ·

ويبدو لنا أن حلف الفضول — وهو يحمل فى طياته نزعة انسانية عالية حيث تعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا أقاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ·

قلنا يبدو لنا — ولا سيما انه كان معه حملة أبرهه — انه رد فعل لموقف العرب من قريش وأبرهه وتطوير للجانب السياسى والاجتماعى لمذهب الحمس القرشي وصفه الرسول بقوله : لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به الى الاسلام لأجبت - تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها والا يعز ظالم مظلوما » ·

بينما قريش وصفته بقولها (١) :

لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر فلم يكن الحلف واقعا من قريش موقع الرضى انما اعتبرته قريش تدخلا فى فضل من الأمر ·

ونلاحظ أن الدعوة اليه كانت فى دار عبدالله بن جدعان ولو رضيت عنه قريش لدعوا اليه فى دار ندوتهم ·

على أى حال فان ما ابتدعته قريش من رأى الحمس فاننا نراه يرجع الى ما قبل أبرهه بكثيرة منذ نزعت العرب الى تقليد الكعبة بطواغيتها · أورد ياقوت نصا فيه يؤيد ما وصلنا اليه يقول فيه كانت تحج اليها وفود حمير وكنده وغسان ونحن فيدينون للحمس من قريش ويرون تعظيمهم والاقتداء بآثارهم فرضا وشرفا عندهم ·

واذا صح ما ذهبنا اليه وهو أن مذهب الحمس القرشى بانت أصوله

---

(١) معجم البلدان :

أما الأرزقى فانه يرى ان ظهور الحمس بعد حادثة الفيلى ج ١ ص ١١٨ أخبار مكة ·

قبل حملة ابرهة الحبش وحملت قريش العرب عليه فتسكون مظاهر الوحدة العربية وأسياده القريشية بدأت تسبق العصر الاسلامى فدينهم الوثنى دين الجزيرة وبيتهم بات مركزا للأصنام الممثلة للقبائل — كما حكى الأزرق أنه وجد فى مكة ما يربوا على ثلاث مائة صنم — أى لكل قبيلة صنمها فى ربعها وصنم فى بيت الأصنام ٠

كذلك يتبع المظهر العام للوحدة ، المظهر اللغوى ونعنى أن لغة قريش اصبحت سائدة ولا سيما فى المناسبات الرسمية التى تقتضيهم قرض الشعر والمفاخرة به واذاعته فى منتدياتهم الرسمية : عكاظ ومجنة وذو المجاز ٠ وهى فى مجموعها ما يطلق عليه مؤرخوا الأدب « بالمعلقات » نقول اتجه العرب على اختلاف لهجات قبائلهم الى صياغة معلقاتهم بلغة قريش — وذلك واضحة من قراءتنا لها — حيث لا يبدو اختلاف لهجتهم عليها ٠ وفى تعليقها على جدار الكعبة ما يؤيد ما نذهب اليه هو أن هذه المعلقات تكلف لهــا العرب لغة قريش لترفع على بيت قريش ٠

وتعتبر ظواهر الوحدة — أى طابع قريش العام — لغه ودينا ونسك الحج والاقتصاد — سيطرت على العرب قبل الاسلام عوامل ممهده لنزول القرآن بلغة قريش اذ ليس من المعقول أن ينزل القرآن بلغة قبيلة من قبائل العرب دون أن يكون وراءة تبريرا تاريخيا يشهد لسمو هذه اللغة القرشية على غيرها وفى رأينا — وله شواهده التاريخية — إن هذه اللغة القرشية تعدت نطاق قبيلة قريش فحملوها معهم — وهم رسل التجارة — فى بطن الجزيرة ومشارقها وخارجها فكتبت بها العهود التجارية التى ابرمتها مع الرومان — الفرس — اليمن — الجبشة وفى النقل التجارى عوامل حيوية الى سبيل التطور فعندما نزل القرآن بلغة قريش كان يتفق مع الروح العربية فى اصطفائها لغة قريش : لغة ثقافة وحضارة وحين كتبت بها معلقاتها ٠

أما من ناحية المضمون الفكرى فنرى أن القضايا الفكرية التى تناولتها لائحة قريش التنفيذية خالية من عمق فكرى فلا نرى فيها ما يشير من قريب

او من بعيد الى مشكلات المجهول : كقضايا البشرية ، والخلق ، ويبدو أنها كانت لا تراود عقل العربى •

فدينهم الوثنى : لا حياة فيه ولا معنى له ، ولا يساعد أحـــدا منهم : على أن يحدد العلاقات التى تربط هذه الآلهة المتعددة بالبشر • وصرفهم عن فهم ما لديهم من فكر غامضة عن قوة عالية فـــكانوا يقدسون الأوثان باعتبارها تمثل هذه القوة بواسطة طقوس وثنية ورثوها عن أجدادهم •

وثنية العرب لم تستطع أن تجيب اجابات مقنعة على الإسئلة البدهية التى تتزدد فى ذهن كل شخص مفكر :

من أين خلقت ؟ الى اى نهاية مصيرى ؟ ما هدفى وغرضى من الحياة ؟

« لم يشغل العربى ذهنه بشىء من القضايا أو من قبيلها انما كانت حيـــاة العربى حياة حرية ومرح وسرور ومجون وكانت الخمر والنساء والحرب هى الأشياء الثلاثة التى يحبها العربى ويهتم بها» • فهو اما أن يستغرق فى الخمر أو ينصرف الى الفسق أو يستنفذ قوته وطاقته فى الحروب القبلية أو سلب جاره • وكانت حياة مرح لا يعكر صفوها افكار خطيرة أو تأملات دينية لم يكن هناك ميل للصدق أو رغبة فى عمل الخير •

« كان كل هدفهم من الحياة أن يتمتعوا بحاضرهم وأن يحرزوا النصر فى معاركهم ، والى يومنا هذا نجد البدوى محتفظا بهذه الصفات فهو فى غالب حالاته لا يتقيد بالدين (١) •

« والدلائل تشير الى أن الوثنى فى الجاهلية على العموم لم يكن يتمسك فى دينه بعقيدة نابعة من شعور دينى عميق أو عاطفة روحية شديدة قائمة على عقل سديد أو تفكير سليم انما هى عادات تأصلت فى نفوسهم تقليدا بغيرهم أو تمسكا بسلوك آبائهم وأجدادهم السابقين » (٢) •

ويحلل بلاشير (٣) : العاطفة الدينية عند الجاهلية فيقول :

ان العاطفة التى كانت تسيطر على النفوس فى المحيط العربى قبل ظهور

---

(١) تاريخ الاسلام العام ص ١٨ •

(٢) تاريخ الادب الجاهلى على الجندى ج ١ ص ١١٧ •

(٣) تاريخ الادب العرب ص ١٦ •

الاسلام شبيهة بالعاطفة التى كانت تسيطر على النفوس عند العبرانيين فى مرحلة البداوة وهى :

الاعتقاد بتعدد الشياطين وهذا نوع من المذهب النفسى ومن صفاته : شعور الرجل بأنه محاط بقوى خفية يصعب عليه تحديد ما هيتها وتسميتها بأسماء خاصة الا أنه يعجز دوما عن تشخيصها ٠

فان عبادة الأوثان والايمان بالجن والأغوال (وهى نفوس شريرة تهاجم الانسان فى الوحدة) كل هذا يشكل ساس الدين ومذهبه الفكرى فى علاقتهم بالحياة ٠

وأن تعد الآلهة فى صلته الضيقة مع تعدد الشياطين يدل على استعداد العرب القدماء على تشخيص القوة الكامنة فى الأشجار وينابيع المياه وتسميتها بأسماء وربطها مع الالهيات ومهما يكن منشأ تعدد الآلهة فلا نرى أبدا انه أفاد العرب باستثناء بعض النفوس المتزمتة فى بعض المراكز الحضارية ــ الى جعل الدين مصدر تأملات أو ابحاث نظرية ٠

على أن حوادث الحياة والتجارب مع العلم بان قوى الطبيعة هى الغالبة فى الصحراء قد نمت فى العربى المحارب تدرية عميقة لا لأن العربى يشبه ايوب الصابر على الأذى بل لأن العربى المحارب بالاضافة الى المتناقضات فى خلقه لا يحتمل أحداث الحياة بصورة سلبية فان موقفه منها فى بادىء الأمر هو : موقف المناضل غير أنه اذا وجد أمام المقدور انحنى خاضعا شاعرا بعقم الجهد أمام هذه القوى الهائلة المنطوية تحت كلمة « الدهر » ٠

ويمل هذا الاستسلام النهائى عليه حكما ذات بساطة لا تخلو من سمو موحيه اليه بتصرفات مرضية ولكنها مؤثرة جدا فى بعض الأحيان وهكذا فان العربى بارتفاعه فوق نظراته التافهة للوجود قد عوض الى حد ما عن فقر فكره الدينى ٠

موقف القرآن من التحمس :

اذا كان التحمس مذهب قريش فان من المتصور لرجل الاصلاح وهو قرشى انه سوف ينهض بدعوته من هذا المذهب ليجذب أفراد قبيلته

اليه من جانب ، ويحى عصبيتها القبلية والدينية من جانب آخر كان ذلك هو المتصور • لكن واقع الأمر كان غير ذلك فرسالة الاصلاح التى اضطلع بعبئها الرسول لم تكن نابعة من تصوره ولا مدفوعا اليها رغبة فى زعامة أو رياسة أو جاه حتى تكون وفق ما تصورنا انما كانت رسالة الهيئة تبغى الاصلاح ما استطاعت اليه سبيلا ، رسالة هزت كيان القبائل العربية وأوثانها وكان على رأس هذه القبائل جميعا قبيلته صلى الله عليه وسلم فهدم عصبيتها القبلية والدينية ليحل محلها معان جديدة مدلولها الانسانى كمبدأ الأخاء والتضامن والتكافل ، هدم بها عصبيتها الدينية فألغى تشريعاتها التى عرفت بالحمس « وحل محلها دينه وفرض حجه • قال تعالى : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم •
يعنى على قريش أن تتساوى مع الناس فرفعهم معهم فى فريضة الحج الى عرفات والوقوف عليها والافاضة منها •

وأنزل عليه ، فيما كانوا حرموا على الناس من طعامهم ولبوسهم عند البيت حين طافوا عراة وحرموا ما جاءوا به من الحل من الطعام ، قوله :
« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا وأشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك يبين الآيات لقوم يعلمون » •

وقال معيبا عليهم : سلوكهم الدينى : « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية » أى أنهم كانوا : يطوفون عراة ويصفقون ويصفرون •
وقال : وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها •

لأن الحمس لا يدخلون تحت سقف ولا يحول بينهم وبين السماء عتبة باب ولا غيرها فان احتاج أحدهم فى داره تسنم البيت من ظهره ولم يدخل من الباب فرد الله ذلك عليهم •

بقوله : وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون •

ثم بين أنهم يسندون هذه الشعائر الى ابراهيم •

واذا كانت ملة ابيكم ابراهيم ، فابراهيم لم يكن من المشركين ٠

وأخيرا : ألغى الوحى الالهى مظهر البيت القبلى القريش ، ومظهره الوثنى واتى على مذهب الحمس فعصف به ثم رفع الوحى من شأن البيت الحرام وجعله مثابة للناس وآمنا وقبلة الناس جميعا وأصبحت عالمية البيت الحرام بالاسلام حقيقة مقررة ٠

أسماء الذين أمرهم الرسول بتكسير الأصنام :

١ ـــ مناة : بعث النبى عليا فهدمها وأخذ ما كان لها وقيل أبا سفيان ابن حرب ٠

٢ ـــ القلس : هدمه على ٠

٣ ـــ اللات : هدمها المغيرة بن شعبة وحرقها بالنار ٠

٤ ـــ العزى : هدمها خالد بن الوليد ٠

٥ ـــ أساف ونائلة :

٦ ـــ هبـــــل ٠

٧ ـــ ذو الخلصة : هدمه جرير بن عبد الله البجلى (١) ٠

٨ ـــ ذو الكفين : هدمه الطفيل بن عمرو الدوسى فضرقه ٠

٩ ـــ ذو الشورى ٠

١٠ ـــ الأقيصر : كسرها النبى صلى الله عليه وسلم ٠

---

(١) عن جرير قال : كان في الجاهلية بيت يقال له الخلصة وكان يقال له الكعبة اليمانية الشامية ٠

فقال رسول الله : الله هل أنت مريحى من ذى الخلصة والكعبة اليمانية والشامية ٠ فنفرت في مائة وخمسين من أحمس فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده فأخبرته ٠ قال فدعا لنا ولأحمس ٠

قال النووى : ذى الخلصة بيت في اليمن كان فيه أصنام يعبدونها والمراد أن ذا الخلصة يسمونها الكعبة اليمانية ٠ وكانت الكعبة التى في قسمى الشامية ٠

قال القاضى عياض : ذكرُ الشامية وهم وغلط من بعض الرواة والصواب حذفه ٠ وقد ذكره البخارى بهذا الاسناد وليس فيه هذه الزيادة والوهم ـ صحيح مسلم ج ١٦ ص ٥٣ فضائل جرير ٠

وأمر بهدم بقية الأصنام والأوثان والانصاب ، أما الاصنام التى كانت منصوبة حول الكعبة فطعنها الرسول بسبة قوسه فى عيونها ويقول : «جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » ثم أمر بها فكفئت على وجوهها ثم أخرجت من المسجد فحرقت •

من موقف الرسول مع المذهب الأحمسى القرشى ، وموقفه من الاوثان العربية وأصنامها وانصابها ، وضح : أن مصدر الاسلام لا يتصل بسبب الى الوثنية العربية ، انما مصدره الوحى الالهى •

التشكك فى الأوثان وسحب الثقة منها :

يقول خودا بخش : كان العرب كما يبدو يقدسون آلهتهم فيحجون الى اماكنهم المقدسة ويقدمون الأضحيات فى معابدها ويخضبون بدماء هـذه الاضحيات الهياكل المصنوعة من الأحجار أو الخشب ويستجيرون بكهنتها فى وقت الشدة ويسالونهم عما يخبئه المستقبل ولكن كان ذلك تظاهرا وتصنعا فلم يكن هناك شعور بايمان حقيقى •

يقول دوزى : كان العربى يبدى غضبه لأقل شىء على الآلهة ويخاطبهم وكأنه يعرف حقيقتهم فيسخر منهم •

من هذه المظاهر التى لوحظت عليهم وضح لنا : أن عرب ما قبل الاسلام كانوا فى حالة قلق دينى عاجزين عن الوصول الى ما هو أحسن بحيث يرضى حاجاتهم ومطالبهم ، يمارسون عبادة الأوثان ولكن بدون شعور بايمان حقيقى، ووجود المسيحية واليهودية بينهم أبرزت حالة القلق الدينى وادت ببعض منهم الى تحويل أفكارهم من الوثنية الى أفكار أسمى وسعوا فى طلبها •

وسنقدم عدة نماذج من الذين سخطوا على أوثانهم وكان وراء هـذا السخط بعض الخطوات الفكرية ومن أهم ما نشير اليه : تلك الخطوات الفكرية « عدم معقولية الاله أو المعبود » وهذا المعنى : يفيده موقف الساخطين، ولازم أيضا للذين تشككوا فى أوثانهم ورغبوا عنها الى ملة سماوية •

حضارة الاسلام ص ٢٨ •

اولا : موقف الساخطين على الأوثان :

١ ــ ذو الخلصة وأمرؤ القيس :

لمـــا أقبل امرؤ القيس بن حجر ، يريد الغارة على بنى أسد ، مر بذى الخلصة ، وكان صنما يتباله ، وكانت العرب جميعا تعظمه ، وكانت له ثلاثة أقداح : الآمر ، والناهى ، والمتربص ، فاستقسم عنده ثلاث مرات : فخرج الناهى ، فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا　　مثلى وكان شيخك المقبـــورا

لم تنه عن قتـــل العداة زورا

لو كان ابوك قتل ما عوقتنى ثم غزا بنى اسد فظفر بهم ٠

فلما فتح رسول الله مكة وأسلمت العرب ووفدت عليه وفودها قدم عليه جرير بن عبد الله مسلما فقال له : يا جرير ألا تكفينى ذا الخلصة ؟ فقال : بلى فوجهه اليه ، فخرج حتى أتى بنى أحمس من بجيلة فسار بهم اليه فقاتلته خثعم ، وباهله دونه فقتل من سدنته من بأهله يومئذ مائة رجل واكثر القتل فى ختعم وقتل مائتين من بنى قحافة بن عامر بن خثعم فظفر بهم وهزمهم وهدم بنيان ذى الخلصة ٠ وأضرم فيه النار فاحترق ٠ وذو الخلصة اليوم عتبة باب مسجد تبالة ٠

٢ ــ ســـعد :

وكان لمـــالك وملكان ابنى كنانة صنم يقال له : سعد ، وكان صخرة طويلة ، فأقبل رجل منهم بابل له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها فلما أدناها منه نفرت منه وكان يهراق عليها الدماء ، فذهبت فى كل وجه وتفرقت عليه وأسف فتناول حجرا فرماه به وقال : لا بارك الله فيك الها نفرت على ابلى ثم خرج فى طلبها حتى جمعها وانصرف عنه وهو يقول :

أتينا الى ســـعد ليجمع شملنا　　مشتتنا سعد ٠ فلا نحن من سعد

وهل ســـعد الا صخرة بتنوفه　　من الأرض لا يدعى لغى ولا رشد

٣ ــ وقال أوس بن حجر يحلف باللات :

وباللات والعزى ومن دان دينها ... وبالله ان الله منهن أكبـــر

٤ ــ وقال بعضهم حين وجد الثعلبان يال على راس صنمه :

اله يبــول الثعلبـــان برأسه ... لقد ذل من بالت عليـــه الثعالب

وقال شـــاعر :

أكلت ربهـــا حنيفة من ... جوع قديم بهـــا ومن أعواز

وقال آخـــر :

اكلت حنيفـــة ربهـــا ... زمن التقحـم والمجـــاعة

ولم يحـــذروا من ربهم ... ســوء العواقب والتباعة(١)

ثانيا : المتشككون فى أوثانهم :

الحنيفيـــة :

خرج زيد بن عمرو بن نفيل : يطلب دين ابراهيم ، ويسأل الرهبان والأحبار حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها ثم اقبل : فجال الشام كلها حتى انتهى الى راهب « بميفعة » من ارض البلقاء كان ينتهى اليه علم اهل النصرانية فساله عن الحنيفية دين ابراهيم ؟

فقال : انك لتطلب دينا ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم • ولكن قد أظل زمان نبى : يخرج من بلادك التى خرجت منها ، يبعث بدين ابراهيم: الحنيفية ، فالحق بها فانه مبعوث الآن ، هذا زمانه •

وقد كان سأم اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئا فخرج سريعا ، حين قال له ذلك الراهب ما قال ، يريد مكة •

ما معنى الحنيف ؟ فى معنى الحنيف اقوال :

١ ــ هو المائل عن الأديان كلها قاله ابن عباس •

٢ ــ أو المائل عما عليه العامة • قاله الزجاج •

---

(١) الأصنام ص ٤ هامش ، وتاج العروس مادة ث • ع • ل • ب •

٣ — أو المستقيم ، قاله قتيبة ٠

٤ — أو الحاج ، قاله ابن عباس وابن الحنيفية ٠

٥ — أو المتبع ، قاله مجاهد ٠

٦ — أو المخلص ، قاله السدى ٠

٧ — أو المخالف للكل ، قاله ابن حجر ٠

٨ — أو المسلم ، قاله الضحاك ٠

٩ — قالوا : فاذا جمع الحنيف مع المسلم فهو الحاج أو المختتن ٠

١٠ — أو الحنف هو الاختتان واقامة المناسك وتحريم الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات ٠

روى ابو حيان المفسر (١) عشرة أقوال متقاربة فى المغنى ٠

وانما خص ابراهيم بالامامة لما سنه من مناسك الحج والختان وغير ذلك من شرائع الاسلام مما تبتدىء به الى قيام الساعة ٠

وصارت الحنيفية علما مميزا بين المؤمن والكافر ٠

وسمى الحنيف من ابتعد واستقام على هديه وسمى المنكث عن ملته بسائر أسماء الملل ٠ فقيل : يهودى ، ونصرانى ، ومجوسى ، وغير ذلك من ضروب الملل ٠

والآراء الكثيرة المذكورة تتجه وجهتين :

وجهة الاتجاه اللغوى عند العرب ، وتعنى : المائل أو المخالف ٠

والوجهة الثانية اصطلاحية : وتعنى من اتخذوجهته نحو ابراهيم دينا ،

---

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٤٠١ وقال الراغب الاصفهانى ج ١ ص ٢٩٠ على هامش النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٠

وسمت العرب : كل من حج او اختتن حنيفا تنبيها انه على دين ابراهيم وابن الأثير في كتابه السابق اورد معانى أخرى فقال: خلقت عبادى حنفا : اى طاهرى الاعضاء من المعاصى ، وقيل اراد أنه خلقهم حنفاء مؤمنين لما اخذ عليهم الميثاق « الست بربكم قالوا بلى » فلا يوجد احد الا وهو مقر بأن له ربا وان اشرك به واختلفوا فيه : والحنفاء جمع حنيف وهو المائل الى الاسلام الثابت عليه ٠

والحنيف عند العرب : ما كان على دين ابراهيم ٠

من حيث التوحيد أو شريعه من اختتن أو شعائر الحج ، ومن حيث المنهج الاسلامى : سوى القرآن بين الحنيفية والاسلام والفطرة .

يجعل الشهرستانى : (١) أن الصبوة فى مقابل الحنيفية فيقول : وكانت الفرق فى زمان ابراهيم راجعة الى صنفين اثنين : حنفاء وصابئة .

مدار مذهب الصابئة : التعصب للروحانيين .

والصابئة تدعى : أن مذهبها هو الاكتساب .

مدار مذهب الحنفاء هو : التعصب للبشرية الجسمانيين .

والحنفاء تدعى : أن مذهبها الفطرة .

وكانوا يقولون : انا نحتاج فى المعرفة والطاعة الى متوسط من جنس البشر تكون درجته فى الطهارة والعصمة والتاييد فوق الروحانيات :

يماثلنا فى البشرية .

ويمايزنا : فى الروحانية .

يتلقى الوحى بطرف الروحانية ، ويلقى الى النوع الانسانى بطرف البشرية .

قال تعالى : «قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد» .

وقال : قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا .

قررها : ابراهيم ، وأطلق عليها : الملة الكبرى ، والأنبياء بعده أطلقوا على دينهم : وصف الحنيف ، ولا سيما القرآن فالتوحيد : كان من أخص أركان الحنيفية ، ولهذا يقترن عدم الشرك بكل موضع ذكرت الحنيفية فيه .

قال تعالى : حنيفا وما كان من المشركين .

وقال : حنفاء لله غير مشركين به .

والصابئة بمذهبها الروحى وعمقها التاريخى تضع أمامنا مشكلة وهى :

كيف عرف الانسان الاتجاه الروحى — وهو أعقد من الاتجاه المادى ؟ أعرفه بالعقل ؟ أم بالوحى ؟ وهل الانسان : فكر أولا ماديا أو روحيا؟

---

(١) الملل والنحل ص ٦ ج ٢ .

يجيب الشهرستانى فى المناظرة بين الصابئة والحنفاء : أنهم عرفوه أى الاتجاه الروحى من الأنبياء (١) ٠

بعد ما قلنا عن معنى الحنيفية نرجع الى الحنفاء الشاكين فى أصنامهم نقول : ان التعدد فى الأصنام ، والأنصاب ، وانشاءهم لبيوت مقدسة ، يزاحمون بهكا الكعبة ، مع نظرات الساخطين عليها ، الى وجود المسيحية ، بجانب اليهود ، واشتات من الصابئة ، ولاجئين من المجوس ، كل ذلك : حفلت به الجزيرة العربية وله آثاره الواضحة فى خلق آفاق جديدة من التفكير لدى بعض أفراد أداهم ميولهم العقلى الى تقييم ما حولهم من وثنية واضطلعوا بعبء مسئولية التفكير فيها ٠

قال الشافعى : فى الام : فكانت المجوس يدينون غير دين أهل الأوثان ويخالفون أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى بعض دينهم وكان اهل الكتاب اليهود والنصارى يختلفون فى بعض دينهم ٠

يقول : الشيخ مصطفى عبد الرازق معلقا :

وكان هذا الجدل يتناول بالضرورة شئون الألوهية والرسالة والبعث والآخرة والملائكة والجن والأرواح ويدعو الى الموازنة بين المذاهب المختلفة فى تلك الشئون وقوى أمر هذا الجدل الدينى فى ذلك العهد حتى تولدت نزعة ترمى الى تلمس دين ابراهيم أبى العرب (٢) ٠ وبذلك تسرب الشك فى الأصنام والأوثان الى نفوس العرب ٠

قال ابن إسحاق : واجتمعت قريش يوما فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويدبرون به وكان ذلك عيدا لهم فى كل سنة يوما ٠ فخلص منهم أربعة نفر نجيا ثم قال بعضهم لبعض تصادقوا وليكتمن بعضكم على بعض ٠

قالوا : أجل وهم :

ورقة بن نوفل ، وعبد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد

---

(١) راجع ما سبق في باب الصابئة ٠

(٢) التمهيد ص ١٠٣ ٠

ابن عمرو بن نفيل (١) ٠

فقال بعضهم لبعض : « تعلموا والله ما قومكم على شيء لقد أخطئوا دين أبيهم ابراهيم ما حجر نظيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟

يا قوم التمسوا لانفسكم فانكم والله ما انتم على شيء » فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم ٠

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب ٠

وأما عبيد الله بن جحش : فاقام على ما هو عليه من الالتباس حتى اسلم ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعه امراته أم حبيبة بنت ابى سفيان مسلمة فلما قدمها تنصر وفارق الاسلام حتى هلك هناك نصرانيا وكان عبيد الله بن جحش حين تنصر يمر بأصحاب رسول الله وهم هنالك من أرض الحبشة فيقولون ٠

فقحنا أى أبصرنا وصأصأتم : اى تلتمسون البصر ولم تبصروا بعد ٠

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده ٠

قال صاحب الروض : أن قيصر الروم كان قد توج عثمان وولاه أمر مكة فلما جاءهم بذلك أنفوا من أن يدينوا للملك وصاح الأسود بن أسد بن عبد العزى الا أن مكة حى لقاح لا تدين فلم يتم له مراده ٠٠ قال وكان يقال له البطريق ولا عقب له ومات بالشام مسموما سمه عمرو بن جفنة الغسانى الملك ٠

وأما زيد بن عمرو : فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب ابراهيم ونادى قومه بعيب ما هم عليه ٠

---

(١) ذكر المسعودى في كتابه مروج الذهب : اسماء اناس من العرب دعوا قومهم الى الله ونبهوهم على آياته في زمن الفترة كقس بن ساعده ، ورباب السيتى وبحيرا الراهب وكان من عبد قيس ٠

خرج الى الشام يسأل عن الدين ؟ ويتبعه فلقى عالما من اليهود فسأله عن دينهم وقال انى لأحب أن أدين بدينكم فأخبرونى فقال لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله قال زيد ما أفر الا من غضب الله ولا احمل من غضب الله شيئا أبدا وانى أستطيعه فهل تدلنى على غيره قال ما أعلمه الا أن يكون حنيفا ٠

قال : وما الحنيف ؟

قال : دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله ٠

فخرج زيد فلقى عالما من النصارى فذكر مثله فقال لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله قال ما أفر الا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضب الله شيئا أبدا وانى أستطيع فهل تدلنى على غيره قال ما أعلمه الا أن يكون حنيفا ٠

قال : وما الحنيف ؟

قال دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله ٠

فلما رأى زيد قولهم فى ابراهيم خرج فلما برز مع يديه فقال اللهم انى أشهدك أنى على دين ابراهيم ٠

وفى حديث للبخارى عن أسماء بنت أبى بكر قالت رأيت زيد بن عمرو ابن نفيل قائما مسندا ظهره الى الكعبة يقول : يا معشر قريش والله ما منكم على دين ابراهيم غيرى وكان يحيى الموءودة يقول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها أكفك مؤنتها فيأخذها فاذا ترعرعت قال لأبيها ان شئت دفعتها اليك وان شئت كفيتك مؤنتها ٠

ومن شعره يقول زيد بن عمر بن نفيل :

أربا واحدا أم ألف رب ... أدين اذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعا ... كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا أبنيتها ... ولا صنمى بنى عمرو أزور
ولا هبلا أدين وكان ربا ... لنا فى الدهر اذ حلمى يسير

عجبت وفى الليـــالى معجبات وفى الأيام يعرفها البصــير
بأن الله قـــد أفنى رجـــالا كثيرا كان شـــأنهم الفجور
وبينا المـــرء يعثر ثاب يوما كما يتروح الغصـــن العطـــير
ولكن أعبـــد الرحمن ربى ليغفر ذنبى الرب الغفور
فتقوى الله ربكم احفظـــوها متى ما تحفظـــوها لا تبور
ترى الأبرار دارهم جنـــان وللكفـــار حـــامية ســـعير
وخزى فى الحيـــاة وأن يموتوا يلاقوا ما تضيق به الصـــدور

وقال مما ذكره ابو الفرج :

أدين الاها يستجار ولا أرى أدين لمن يسمع الدهر داعيـــا

مما سبق نلحظ أن هؤلاء الاربعة خرجوا عن الوثنية ثم بعد ذلك تفرقوا الى وجهات مختلفة غير وجهة الوثنية ٠ وكانت لهم وجهة نظر فى اطراح الوثنية هى : أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع وهم اذ يقولوا هذا فانهم ما خرجوا عن وصف قطعة الحجر فى أنها كذلك ، غير انهم لم يبحثوا فيما وراء ذلك من مشكلات دينية وبالرغم من أنهم لم يستهزئوا بالدين انما استهزأوا بالاله المصنوع من حجر وغيره ، فان من الواضح أن فكرة وجود اله مغاير لما عليه الأصنام كانت تؤرقهم غير أنهم لم يبحثوها ولو من ناحية تحقيق حاجاتهم الدينية التى كانوا يحسون أن ما هم عليه لا يحقق رغبتهم الدينية ولا سيما بعد ما بدا لهم أن آلهتهم تعتبر غريبة على هذا العالم ٠

انما رأوا أن عليهم اختيار دين مما هو منتشر بينهم فبعضهم اتخذ سبيل المسيحية والبحث كورقة ومن تحير الى أن تنصر ومات كعبيد الله بن جحش وآخر وقع فى براثن السياسة فاهلكته والذى قال : «كذلك يفعل الجلد الصبور» تحسس المسيحية واليهودية الى أن وقع هواه على الحنيفية دين أبيه ابراهيم ٠

«وسمى هؤلاء المفكرون بـــ (الحنفاء) ولكنهم لم ينتظموا فى طائفة ولم يرتبطوا برباط وأحد ولم يشتركوا فى عبادة واحدة معينة ثم ظهر الصابئة

الذين كانوا يسمون أيضا الحنفاء نبذ هذان النوعان من الحنفاء : اليهودية والمسيحية وآمنوا بدين ابراهيم وكانت تعاليمهم بسيطة فطرية تتفق مع سلوك العرب •

ولتصبح الحنيفية دين العرب كانت فى حاجة الى تعاليم محددة وتنظيم قوى وطقوس دينية وكتاب سماوى ولما كانت الحنيفية توزها الأسس السماوية التى تجذب الانسان فانها لم تتمكن من الانتشار بحيث تصبح دين العرب •

وخلاصة القول : منح الاسلام العرب عقيدة التوحيد فى أنقى صورها غير متأثرة بغيرها وأشعرهم بمسئوليات الحياة وقضى على الفساد الاجتماعى من جذوره •

وحطم حياتهم الانعزالية وجعلهم رسل الحضارة ولا نجد ما يعبر عن البحث خيرا مما قاله الأستاذ براون : فقد رأينا فى موقعه « ذى قار » علاقات تدل على حيوية العرب العظيمة وشدة بأسهم بينما كان جيرانهم ينظرون اليهم على أنهم كميات مهملة بشكل غير مألوف كما كانوا فى عصر ما قبل الاسلام (١) •

أما الاسلام ذلك القانون الالهى الفريد الذى يستطيع متتعلم منصف أن ينكر عظمته فقد جعل العرب يأخذون نصيبا كبيرا ويؤدون دورهم فى الحضارة • •

بعد ذلك نحب أن نذكر بعض التعليقات حول بعض الأسماء التى أطلقت على ذلك النفر من بعض كتب السيرة فبعضها أطلق على هؤلاء النفر «حنفاء» والبعض الآخر أطلق عليهم «المتحنثون» •

فمن ناحية كلمة «حنفاء» يجوز اطلاقها عليهم من ناحية المعنى اللغوى أى الذين خرجوا على دين قومهم •

---

(١) حضارة الاسلام ص ٣١ صلاح الدين جودا ابخش ترجمة على حسنى الخربوطلى •

ومن ناحية المعنى الاصلاحى فانه يشملهم جميعا من باب قصدهم فهم قصدوا جميعا — عند ما سحبوا من الأوثان .ودين قومهم — الحنيفية او من باب التغليب اى لما كان منهم من انتسب الى الحنفاء سموا جميعا بالحنفاء لأن الذى اعتنق الحنيفية بعد أن بحث عنها واحد منهم فقط .

أما من ناحية : أهل الحنث .

— حنث اليمين : أى نقضها .

قال الجوهرى : بلغ الغلام الحنث : أى بلغ المعصية أو الطاعة .

— وفيه أن الرسول كان يأتى حراء فيتحنث فيه : اى يتعبد فيه .

— يقال فلان يتحنث : أى يفعل فعلا يخرج به من الاثم والحرج .

— ومنه حديث حكيم بن حزام : أرأيت أمورا كنت اتحنث بها فى الجاهلية . أى اتقرب بها الى الله .

ومنه حديث عائشة : ولا أتتحنث الى نذرى أى لا أكتسب الحنث وهو : الذنب .

— ومنه : تكثر فيهم أولا الحنث اى أولاد الزنا .

ما عرضناه من معان لكلمة « الحنث » فهى معان صالحة لاطلاقها عليهم . فهم حنثوا اى نقضوا ما تواعدوا عليه وهو طلب الحنيفية ثم لم يطلبها غير واحد .

وبعضهم بلغ بحنثه (عبادته) المعصية ولا سيما ما كان من بعضهم عندما ترك الحق واتبع السياسة فأهلكته ، والبعض الآخر بلغ بحنثه الطاعة وكلهم طلبوا أمورا صالحة فى نظرهم لتعبدهم وكلهم فعلا خرجوا به من الاثم الى الطاعة بحسب اجتهادهم .

.. وهكذا أوقفتنا معاجم اللغة — كما رأينا — أمام حشد من المعـــانى دون تنبيه منها يبين متى نشأ المعنى الاصطلاحى للفظ أو متى نقل من معناه اللغوى الى معناه المذهبى .

الباب الخامس

موقفهم من قضايا الفكر الديني

١ ــ الألوهية ٠

٢ ــ الرسالة ٠

٣ ــ المغيبات ٠

٤ ــ رموز أساطيرهم ٠

٥ ــ على هامش الأخبار العربية ٠

نظرة تحليلية حول الوثنية العربية :

راينا فيما سبق أن الجاهلى عرف حياة دينية تعمق به حينا ويطفوا بها على السطح حينا آخر يطفوا بها حتى يتسرب الشك الى نفسه حتى يخيل الينا أن البدوى قليل الدين قلما يكترث لمـا يعبد ٠

والعربى : اذ يتعمق حياته الدينية أو يسخط عليها فانما يصدر فى ذلك عن طبيعته البدوية وليس عن فكر دينى فى أغلب الأحيان ٠

فالعربى ذكى الى حد تكفيه الاشارة فماثور الحكمة والأمثال يشهد بذكائه وحاضر بديهته وطبيعته من وراء ذلك شخص ميال الى الاعتزاز بنفسه بما يخدم حريته الشخصية فلا يدين لأحـد فهو ذكى غير ميـال الى التفاهم الاجتماعى ٠

ونظامه القبلى : كشكل اجتماعى بدائى ــ صرفه عن أن يفكر فى محيط اجتماعى أوسع فلم يفكر فى تغيير مجرى حياته الاجتماعى او الفكرى فانحصر فكره داخل قبيلته ولم يتهدها عن مألوفها الا بقدر ما يخدم حريته الشخصية فهو كعضو فى قبيلته مخلص مطيع لتقاليدها ٠ لذلك كان العربى مقـلدا غير ميال الى التغيير الاجتماعى والعربى يحب من الأفكار ما يلهيه ويرفع عنه سآمة الحياة ويتناسب مع سعة الخيال العربى الذى يتسع للعقاب والغول. والجان والشياطين سعة تتناسب أيضا مع رحابة صحراء جزيرة العرب ٠ يجب مثل هذا الفكر وليس ذلك لضعف طبيعة عقله وانما لميوله الفكرية فهو يرى أنه غير ميال الى التغير ولم يغير ؟

انه رئيس فى قبيلته أو عضو عامل فيها فالتغيير لمـاذا ؟ فالحفاظ على وضعه فيه نوع من الفكر الذاتى المنغلق على نفسه ٠ فلذلك اندفع نحو الخرافات ليحفظ بها نظامه القبلى ٠ وليس العربى وحده مصدقا للخرافات فالأمة اليونانية فيها خرافات لا تتناسب مع عقلها المنطقى ٠

فحياته الدينية كانت تقليدا غير مرتبطة بحياة عقلية ناضجة وليست كما يرى بعض الباحثين أن العقائد الدينية قبل الاسلام خضعت لعوامل

التطور ومن هؤلاء الأستاذ أنور الرفاعى اذ يقول : عرف عن عرب ما قبل الاسلام أنهم وثنيون وعرفت وثنيتهم وتقاليدهم فى القرآن الكريم بالجاهلية وبالرغم من ذهاب معظم أخبارها ، فقد تسرب الينا نتف كثيرة من أساطير الجاهليين ومعتقداتهم وأفكارهم ، وكلها تدل على ان الوثنية ليست بسيطة التركيب ولا قريبة المتناول ، فما وصلنا منها يدل على أنها مرحلة راقية ، وأن كثيرا من قديمها قد بقى فى متأخرها وأن بعض احوالها صيغ بالأفكار اليهودية أو الصابئة أو المسيحية أو اتحد مع عقائد أجنبية ٠ ومن الضرورى أن نلجـأ فى تفهمها الى تصنيف تاريخى يمهد لبيان تطورهـا وتعقدها فى الزمن ٠

واستعراض الأساطير والعقائد العربية الجاهلية يدلنا على أن الوثنية العربية مرت فى اطوار تشبه تلك التى مرت بها وثنيات الأمم الأخرى فانها عرفت ؟

١ ـ الطور الحيوى : وفيه اعتقد العرب أن فى كل شىء حياة فعبدوا الشجر والحجر والجن ، واعتقدوا أن الحجر شجر الشياطين ٠ وأن الصفا والمروة هما : رجل وامرأة فسقا فى الحرم فمسخا حجرين وأن الضب هو يهودى مسخ فلا يؤكل لحمه ٠٠ وأن الحجارة الحرم تحمل قدسيته فهم يحملون منها للعبادة فى ديارهم ٠٠٠ الخ ٠

٢ ـ الطور الطوطمى : وفيـه تنحصر الحياة والأرواح فى أشياء محدودة : ومن بقايا هذا التطور ما وجد عندهم من تسمية الانسان بأسماء الحيوان ومن عبادة بعض البهائم ، كالجمل الأسود عند طيىء ، والكبش الابيض ، ومن التشاؤم بالغراب والبوم ٠ ومن عبادة الأصنام على شكل الحيوان كيغوث وهو على شكل نسر ، ويعوق وهو على شكل فرس ٠٠ الخ ٠

٣ ـ الطور الوثنى وتعدد الآلهة : وفيه وصل العرب الى تصور الاله بأشكال انسانية ٠ وتعددت الآلهة عندهم وتخصصت ومهدت للطور الوحدانى الذى جاء به الاسلام ٠

نحن لا نشايع الأستاذ أنور الرفاعى فيما ذهب اليه من تحليل للوثنية العربية وانتقالها الى أطوار مختلفة لما رأيناه بينهم انهم مجتمع قبلى لكل قبيلة معبودها حجرا أو شجرا أو حيوانا وذهبت فى عباداتها لهذه الأوثان المتعددة والمختلفة مذهب التقليد والمحاكاة ٠

يقول اسبتينو موسكاتى (١) :

وقد عرفت القبائل البدوية فى وسط الجزيرة طائفة كبيرة من الآلهة ، ولكنها ليست آلهة أو الهات محددة تحديدا واضحا لها صفاتها وأساطيرها الثابتة ، بل ارواح كل منها تهيمن على موضع وتحميه مثل البعول الكنعانية المختلفة ٠ فخيال البدوى أضفى أرواحا على الآبار والأشجار والحجارة ، وشعر بوجود آلهة فيها ٠

وكانت تسكن الصحراء أرواح أخرى محلية غير الآلهة ، هى خليط من مخلوقات غريبة بعضها خير وبعضها شرير تملك القدرة على الإستخفاء وكان على المرء استرضاؤها اذا اراد اجتناب آذاها ٠

الوثنية فى نظر الرازى :

يقول الرازى المفسر :

أعلم أنه ليس فى العالم أحد يثبت لله شريكا يساويه فى الوجود والقدرة والعلم والحكمة وهذا مما لم يوجد الى الآن ٠

لكن فى الوثنية يثبتون الهين :

- أحدهما : حليم : يفعل الخير ٠
- والثانى : سفيه : يفعل الشر ٠

وأما اتخاذ معبود سوى الله ففى الذاهبين الى ذلك كثرة :

الفريق الأول : عبدة الكواكب :

وهم الصابئة فانهم يقولون أن الله خلق هذه الكواكب وهذه الكواكب هى المدبرات لهذا العالم ٠ قالوا فيجب علينا أن نعبد الكواكب ووالكواكب تعبد الله ٠

---

(١) الحضارات السامية ص ٢٠٦ ترجمة السيد يعقوب ابو بكر

الفريق الثانى : النصارى : الذين يعبدون المسيح ٠

الفريق الثالث : عبدة الأوثان ٠

وأعلم أنه لا دين أقدم من دين عبدة الأوثان ، وذلك لأن أقدم الانبياء الذين نقل الينا تاريخهم هو نوح وهو انما جاء بالرد على ما اخبر الله عن قومه فى قوله : لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ٠

فعلمنا أن هذه المقالة كانت موجودة قبل نوح وهى باقية الى الآن بل أكثر أهل العالم مستمرون على هذه المقالة ٠

يقول الرازى : والدين والمذهب الذى هذا شأنه يستحيل أن يعرف فساده بالضرورة ولكن العلم بأن هذا الحجر المنحوت فى هذه الساعة ليس هو الذى خلقنى وخلق السموات والأرض علم ضرورى فيستحيل أطباق الجمع العظيم عليه فوجب أن يكون لعبدة الأوثان غرض آخر سوى ذلك ٠

فما هو هذا الغرض ؟

يقول الرازى :

الوجه الأول : اعتقاد الشبه :

ذكر أبو معشر جعفر بن محمد المنجم البلخى فى بعض مصنفاته : أن كثيرا من أهل الصين والهند كانوا يقولون بالله وملائكته ويعتقدون أن الله جسما وذا صورة كأحسن ما يكون من الصور وهكذا حال الملائكة ايضا فى صورهم الحسنة وانهم كلهم قد احتجبوا عنا بالسماء وان الواجب عليهم أن يصوغوا تماثيل أنيقة المنظر حسنة الرواء على الهيئة التى كانوا عليها ويعتقدونها من صور الالهة والملائكة ٠ فيعكفون على عبادتها قاصدين طلب الزلفى الى الله وملائكته ٠

قال الرازى تعليقا عليه : فان صح ما ذكره ابو معشر فالسبب فى عبادة الأوثان : اعتقاد الشبه ٠

الوجه الثانى : اعتقاد فى الأسباب الظاهرة :

ذكره أحد العلماء وهو أن الناس رأوا تغيرات أحوال هذا العالم مربوطة بتغيرات أحوال الكواكب ، فبحسب قرب الشمس وبعدها عن سمت الراس تحدث الفصول المختلفة والأحوال المتباينة ثم أنهم رصدوا أحوال سائر الكواكب واعتقدوا ارتباط السعادة والنحوسة فى الدنيا بكيفية وقوعها فى طوابع الناس فلما اعتقدوا ذلك بالغوا فى تعظيمها ٠

فمنهم من اعتقد أنها أشياء واجبة الوجود لذواتها وهى التى خلقت هذه العوالم ٠

ومنهم : من اعتقد أنها مخلوقة للاله الأكبر لكنها خالقة لهذا العالم ٠

فالأولون اعتقدوا أنها هى الآلهة فى الحقيقة ٠

والفريق الثانى : اعتقدوا أنها هى الوسائط بين الله وبين البشر فلا جرم اشتغلوا بعبادتها والخضوع لها ، ثم لما رأوا الكواكب مستترة فى أكثر الأوقات من الابصار اتخذوا لها أصناما وأقبلوا على عبادتها قاصدين بتلك العبادات تلك الأجرام العالية ومتقربين الى أشباحها الغائبة ، ثم لما طالت المدة الفوا ذكر الكواكب وتجردوا لعبادة تلك التماثيل ٠

فهؤلاء فى الحقيقة : عبدة الكواكب ٠

الوجه الثالث : تعظيم المجهول :

ان أصحاب الأصنام كانوا يعينون أوقاتا فى السنين المتطاولة نحو الألف والالفين ويزعمون أن من اتخذ طلسما فى ذلك الوقت على وجه خاص فانه ينتفع به فى أوقات مخصوصة نحو السعادة والخصب ودفع الآفات ٠

وكانوا اذا اتخذوا ذلك الطلسم عظموه لاعتقادهم أنهم ينتفعون به فلما بالغوا فى ذلك التعظيم صار ذلك كالعبادة ولما طالت مدة ذلك العقل نسوا مبدأ الامر واشتغلوا بعبادتها على الجهالة بأصل الأمر ٠

الوجه الرابع : اعتقاد فى الأرواح :

انه متى مات منهم رجل كبير يعتقدون أنه مجاب الدعوة ويقبلون الشفاعة عند الله اتخذوا صنما على صورته يعبدونه على اعتقاد أن ذلك الانسان يكون شفيعا لهم يوم القيامة عند الله على ما أخبر الله بهذه المقالة فى قوله :

هؤلاء شفعاؤنا عند الله ٠

الوجه الخامس : اعتقاد فى المقدسات :

لعلهم اتخذوها مجاريب لصلواتهم وطاعاتهم ويسجدون اليها لا لها كما انا نسجد الى القبلة لا للقبلة ولا استمرت هذه الحالة ظن الجهال من القوم أنه يجب عبادتها :

الوجه السادس :

لعلهم كانوا من المجسمة فاعتقدوا جواز حلول الرب فيها فعبدوها على هذا التأويل (١) ٠

وبهذا الاتجاه الوثنى نسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات ٠ ومع ذلك بقيت فيهم بقايا عهد ابراهيم يتمسكون بها

من تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة بعرفة والمزدلفة وهدى البدن والاحلال بالحج العمرة مع ادخالهم فيه ما ليس فيه ٠

فكانت كنانة وقريش اذا أهلوا قالوا :

لبيك اللهم لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معهم أصنامهم ويجعلون ملكها بيده يقول الله تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) ٠ أى ما يوحدوننى لمعرفة حقى الا جعلوا معى شريكا من خلقى ٠

لقد لاحظنا أن العربى كان متدينا سواء كان الدافع الى اعتقاده الدينى

---

(١) مفتاح الغيب ج ١ ص ٢٣١ ٠

فكره كامية ، ولبيد ، وقيس بن ساعدة ، أو الدافع اليه تقليد القبيلة أو الدافع اليه بعض الاتجاهات السياسية كمسيحية غسان : على أى حال مهما كان الدافع فانه كان متدينا .

وذهب الباحثون فى تدينه مذاهب شتى من حيث قضايا الفكر الدينى وليس الحال كما رأى بعض البـــاحثين أن العربى وقع بتدينه تحت أطوار مختلفة وانما نقول : أن العربى حاله فى دينه هو حاله مع آلهة كما تصوره هذه الرواية التاريخية :

يقول الكلبى : كان الرجل اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذه ربا وجعل ثلاثة أثافى لقدره واذا ارتحل تركه فاذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك (١) ويقول أبو عثمان النهدى (نهد قبيلة من قضاعة) كنا فى الجاهلية نعبد حجرا ونحمله معنا فاذا رأينا أحسن منه ألقيناه وعبدنا الثانى واذا سقط الحجر عن البعير قلنا سقط الهكم فالتمسوا حجرا (١) .

ويقول ابن دريد (١) « كان الرجل منهم اذا وجد حجرا أحسن من حجر أخذه وعبده » . فالعربى لم يعبد الوثن معتقدا أنه خالقه أو خالق الكائنات لأنه تارة يستقسم عنده وتارة أخرى يسبه ويشتمه ومرة ثالثة يأكله وقت المجاعة لذلك لا نعد تصرف العربى مع وثنه تطورا انما استخفافا ومثله اذا انتقل من عبادة وثن الى عبادة كوكب لا نرى فى ذلك تطورا أيضا لأنه غير مصحوب بفكر عقلى انما هو انتقال من صورة مظلمة الى صورة مشعة كتركه الحجر لحجر أحسن فى صورته . أما ما يصح أن نطلق عليه «انتقال منطور » فهو الانتقال الذى يصاحبه فكر ويتبعه قضايا دينية توجب على المتدين النظر أو الشك ، لم يحصل شىء من هذا حتى الحنفاء الذين تشككوا فى الأوثان رأوا أن علاج شكهم اختيار دين آخر وتفرقت بهم سبل الاختيار فلم يحاولوا عرض قضايا دينية أو قضايا فكرية ، وذلك شأن العربى ،

---

(١) الأصنام ص ٣٣ .

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ٣٢٥ ابن الأثير .

(٣) الاشتقاق ص ٨٦ .

أما الاسلام فكان شيئا جديدا وكلا متكاملا وفى ذلك ما يدل على سماويته ونبوة الرسول ·

ونتيجة هذا التنقل فى الاختيار وقع العربى تحت عدة تناقضات فكرية ودينية أشار اليها القرآن منها قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون · ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله · قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون (١) » ·

وأشار أيضا الى لون آخر من ألوان تناقضهم فى قوله تعالى : « يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله »(٢)

فمنهم من كان يعبد الله مع صنمه ومنهم من كان لا يعبد الله معصنمه· وسنشير الى ألوان من عقائدهم لنرى أن الحياة العقائدية فى مكة لم يحكمها قانون التطور انما حكمها قانون الانتشار والتقليد · فانتشر فى ربوع شبه الجزيرة العربية متفرقات من الملل والنحل وعايش بعضها بعضا ·

وكان تعدد آلهة الصحراء نتيجة لحالة التشتت التى كانت تعيش فيها القبائل ولميلها الغالب الى التفوق وكان الاله لا يستطيع الا نادرا التغلب على هذين العاملين ومد نفوذه الى ما وراء حدود منطقته المحلية مثلما فعلت الالهات الثلاث : اللات ومناة والعزى ، وكانت تعبد فى المنطقة التى حول مكة وكان يعلو عليهن أبوهن الله (٣) ·

١ ـ موقفهم من قضايا الالوهية :

(أ) المشركون بالله :

يتسم موقفهم من قضايا الألوهية بالشرك· والاشراك بالله له صور ولكل صورة طائفة ·

---

(١) سورة العنكبوت ٦١ ، ٦٣ ·

(٢) سورة يونس ١٨ ·

(٣) الحضارات السامية ص ٢٠٦ اسبتينو سكاتى ترجمة د · السيد يعقوب بكر ·

١ ــ منهم من اتخذ آلهة من الاجسام المعدنية كالحجر والذهب والفضة والنحاس • •

٢ ــ ومنهم من اتخذه من النبات كالشجر •

٣ ــ ومنهم من اتخذه من الانسان •

٤ ــ ومنهم من اتخذه من الأجسام البسيطة :

ــ اما سفلية : كعبدة النار وهم المجوس •

ــ أو علوية : كعبدة الشمس والقمر وسائر الكواكب وهم نوع من الصابئه •

٥ ــ ومنهم من قال بالأثنية : النور والظلمة وهم الثنوية •

٦ ــ ومنهم من قال الملائكة عبارة عن الأرواح الفلكية ولكل أقليم روح من الأرواح الفلكية يديره وكذا لكل نوع من أنواع هذا العالم فيتخذون لتلك الارواح صورا وتماثيل ويعبدونها وهم عبدة الملائكة •

وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة وهم بخلاف الصابئة الذين يقدسون الملائكة ولا يعبدونها • ويزعمون أنها بنات الله فكانوا يعبــدنها لتشفع لهم الى الله •

وهم الذين قال الله فيهم : ويجعلــون لله البنات ســـبحانه ولهــم ما يشتهون :

وقوله : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى) •

٧ ــ ومنهم من قال للعالم الهان :

ــ أحدهما خير وهو : الله •

ــ والآخر شر وهو الشيطان •

وهؤلاء هم الذين يشير اليهم القرآن الكريم بقوله :

« وقال الله لا تتخذون الهين اثنين انما هو اله واحد » •

ونهاية القول فان ما كان عليه العرب من مظاهر الشرك المتعددة منهم من كان يتعمق فى عبادته حتى يرى الله وراء حقيقة الوجود فوجه اليهم القرآن الكريم هذه الأسئلة : « قل لمن الأرض ومن فيها ان كنتم تعلمون ـ سيقولون لله : قل أفلا تذكرون ، قل من رب السموات السبع ورب العرش

العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فانى تسحرون »(١) .

وقال : ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون .

ومن الملاحظات العامة على المظاهر الدينية القديمة التى كانت فى البابليين والمصريين القدماء والفرس وحتى اليونان كانت مرتبطة بالظواهر الطبيعية علوية ، أو سفلية ، ارتباط تأليه أو تقديس .

(ب) الدهريون :

والدهرية هم الذين يقولون باسناد الحوادث الى الدهر واستقلال الدهر بالتأثير ، والدهر عندهم : هو حركات الفلك وأن العالم يدار بمقتضى تأثير هذه الحركات والعرب يقولون به ولا صانع سواه .

أما تعريف الدهر عند الاسلاميين : فهو : مدة زمان الدنيا .
وعرفه بعضهم بأنه أمد مفعولات الله فى الدنيا أو فعله لما قبل الموت .

يقول الألوسى : وزعم بعض من لا تحقيق لهم أن الدهر من أسماء الله وهو غلط (٢) وأطلقه العرب بفتح الدال على الملحدين الذين ينكرون الله وتأثيره ، أما اذا أرادوا منه الرجل المعمر قالوا دهرى بضم الدال (٣) .

وعقيدة الدهرية ترجع أيضا الى بعض مبادىء الصابئة فهى خمسة :
الرب ـــ النفس ـــ المادة ـــ الدهر ـــ الفضاء .

وجعل الشهرستانى الدهرية من المعطلة فقال : معطلة العرب أصناف صنف منهم أنكر الخالق والبعث والاعادة وقالوا بالطبع المحيى والدهر المفنى وهم الذين أخبر القرآن عنهم :

---

(١) سورة المؤمنون : ٨٤ ـــ ٨٩ .
(٢) روح المعانى جـ ٨ ص ٦٩ .
(٣) لسان العرب لابن منظور .

وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا (١) ٠

يقول الشهرستانى : اشارة الى الطبائع المحسوسة فى العالم السفلى وقصر الحياة والموت على تركبها وتحللها فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر ٠

« وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم أن هم الا يظنون » فاستدل عليهم بضرورات فكرية وآيات فطرية فى كثير من السور فقال تعالى : « أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ان هو الا نذير مبين » ٠

وقال : أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ـ

وقال : يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم ٠

فاثبت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق وأنه قادر على الكمال ابتداء واعادة ٠

روى صاحب الأغانى : يقول عدى بن زيد بلسان حال المقابر ٠ يتضح منها أن لديهم أكثر من معنى للدهر :

من رآنـــا فليحـــدث نفسه انه موف على قـــرن زوال
وصروف الدهـــر لا يبقى لها ولـــا تأتى به صم الجبـــال
رب ركب قد أناخـــوا عنـــدنا وجياد الخيل تردى فى الجـــلال
عمـــروا دهرا بعيش حسن أمنى دهـــرهم غير عجـــال
ثم أضحوا عصف الدهـــر بهم وكذلك الدهر يودى بالرجـــال
وكذلك الدهر يرمى بالفتى فى طلاب العيش حالا بعد حال

(ج) الموحـــدون :

« وقد نقلت الصحراء أيضا عدا التقاليد الوثنية تقاليد دين التوحيد الكبيرين اللذين كان مركزها على مقربة من حدود الصحراء فقد هاجر جماعات من اليهود الى الجنوب ولعل ذلك كان من أيام تخريب الرومان لبيت المقدس وكونوا جاليات صغيرة على الطريق التجارى وفى واحات الحجاز وكانوا يشتغلون بالزراعة خاصة وقد أتوا الى موطنهم الجديد بتقاليد قومهم الدينية والحضارية

---

(١) الملل والنحل جـ ٢ ص ٢٤٦ ٠

واتخذوا العربية لغة لهم (١) ٠

كان منهم الموحد المقر بخالقه المصدق للبعث موقنا بأن الله يثيب المطيع ويعاقب العاصى مثل الذين تحنفوا والذين تهودا والذين تنصروا ٠

وبعض القبائل لم تتغير فطرتهم ولا سيما « ربيعة » التى لازمت الحنيفية المشوبة بالأوثان ومن الأشخاص مثل :

قيس بن ساعدة ٠

وأمية بن أبى الصلت ٠

ولبيد بن ربيعة ٠

يقول الشهرستانى :

ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، وينتظر النبوة ، وكانت لهم سنن وشرائع قد ذكرناها ، لأنها نوع تحصيل ٠

فمن كان يعرف النور الظاهر ، بالنسب الطاهر ، ويعتقد الدين الحنيفى وينتظر المقدم النبوى زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان يسند ظهره الى الكعبة ويقول : أيها الناس هلموا الى ، فانه لم يبق على دين ابراهيم أحد غيرى ٠ وسمع « أمية بن أبى الصلت » ، يوما ينشد :

كل دين يوم القيامة عند الله   الا ، دين الحنيفية : زور

فقال له صدقت : وقال زيد أيضا :

فلن تكون لنفس منك واقية   يوم الحساب اذا مايجمع البشر

ومن كان يعتقد التوحيد ، ويؤمن بيوم الحساب « قيس بن ساعدة الأيادى » ٠ قال فى مواعظه : كلا ورب الكعبة ليعودن ما باد ولئن ذهب ليعودن يوما ٠ وقال أيضا :

كلا بل هو الله اله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، واليه المآب غدا ٠

---

(١) الحضارات السامية ص ٢٠٧ ٠

وأنشد فى معنى الاعادة :

يا باكى الموت والأموات فى جدث	عليهم من بقـايا بزهم خرق
دعهم : فان لهم يوما يصاح بهم	كما ينبـه من نوماته الصـدق
حتى يجيئوا بحـال غير حالهم	خلق مضى ثم هذا بعد ذا خلقوا
منهم عراة ومنهم فى ثيـابهم	منها الجديد ومنها الأزرق الخلق

ومنهم : عامر بن الظرب العدوانى ، وكان من شعراء العرب وخطبائهم وله وصية طويلة يقول فى آخرها انى ما رأيت شيئا قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعا الا مصنوعا . ولا جائيا الا ذاهبا ، ولو كان يميت الناس الداء لاحياهم الدواء . ثم قال : « انى أرى أمورا شتى وحتى قيل له وما حتى ؟ قال : حتى يرجع الميت حيا ، ويعود لا شىء شيئا . ولذلك خلقت السموات والأرض فتولوا عنه ذاهبين ، وقال : ويل : انها نصيحة ، لو كان من يقبلها ب

وكان عامر ، قد حرم الخمر على نفسه فيمن حرمها ، وقال فيها :

ان أشرب الخمر أشربها للذتها	وان أدعهـا فانى ماقت قال
لولا اللذاذة والقينـات لم أرها	ولا أرتنى الا من مدى عـالى
سآلة للفتى ما ليس فى يـده	ذهابة بعقـول القوم والمـال
تورث القوم أضغانا بلا أحن	مزرية بالفتى ذى النجدة الحالى
أقسمت بالله أسقيها وأرويهـا	حتى يفرق ترب الأرض أوصالى

وممن كان قد حرم الخمر فى الجاهلية : قيس بن عاصم التميمى ، وصفوان بن أمية بن الحرث الكنانى ، وعفيف بن معدى كرب الكندى ، وقالوا فيها أشعارا . وقال الأسلوم البالى ، وقد حرم الخمر والزنا على نفسه :

سالمت قومى بعـد طول مضاضة	والسلم أبقى فى الأمور وأعرف
وتركت شرب الراح وهى اثيرة	والمومسات وترك ذلك أشرف
وعففت عنه يا أميم تكرما	وكذلك يفعل ذو الحجى المتعفف

ومن كان يؤمن بالخالق ، وبخلق آدم عليه السلام ، عبد « لطابخة بن ثعلب بن وبرة » من قضاعة ، وقال فيه :

وأدعوك يا ربى بما أنت اهله — دعاء غريق قد تشبث بالعصم
لانك أهل الحمـد والخير كله — وذو الطول لم تعجل بسخط ولم تلم
وأنت الذى لم يحيه الدهر ثانيـا — ولم يرد عبد منك فى صالح وجم
وأنت القديم الأول الماجد الذى — تبد أخلق الناس فى أكثم العـدم
وأنت الذى أحللتنى غيب ظلمـة — الى ظلمة من صلب آدم فى ظـلم

ومن هؤلاء النابغة الذبيانى ، آمن بيوم الحساب ، فقال :

ووجهتهم ذات الاله ودينهـم — قويم ، فما يرجون غير العـواقب

وأراد بذلك الجزاء بالأعمال ٠

ومن هؤلاء زهير بن أبى سلمى المزنى ، وكان يمر بالعضاه (١) وقد أورقت اورقت بعد يبس فيقول : لولا أن تسبنى العرب لآمنت أن الذى احياك بعد يبس سيحيى العظام وهى رميم ثم آمن بعد ذلك وقال فى قصيدته التى أولها :
أمن أم أو فى دمنة لم تكلم :
يؤخـر فيوضـع فى كتاب فيـدخر
ليوم حسـاب ، أو يعجـل فينقم

ومنهم علاف بن شهاب التيمى ، كان يؤمن بالله تعالى وبيوم الحساب وفيه قال :

ولقد شهدت الخصم يوم رفاعة — فأخـذت منه خطة المقتـال
وعلمت أن الله جـاز عبـده — يوم الحسـاب بأحسن الأعمال

وكان بعض العرب اذا حضره الموت يقول لولده : ادفنوا معى راحلتى حتى احشر عليها فان لم تفعلوا حشرت على رجلى ٠٠ قال جريبة بن الأشيم الاسدى فى الجاهلية وقد حضره الموت ـ يوصى ابنه سعدا :

يا سـعد أما أهلـكن فاننى — أوصيك أن أخـا الوصاة الأقرب
لا تتركن أباك يعـثر راجـلا — فى الحشر يصرع لليدين وينكب

---

(١) العضاهة بالكسر : أعظم الشجر ، أو ذات الشوك ، جمعه ، عضاه بالكسر .

واحمــل أباك على بعـير صالح ... والغ المطية ، انه هــو أصــوب
ولعــل لى ممــا تركت مطيــة ... فى الحشر أركبها اذا قيل اركبوا

وقال « عمرو بن زيد بن المتمنى » يوصى ابنه عند موته :

ابنى : زودنى اذا فارقتنى ... فى القبــر راحــلة برحــل فاتر
للبعث أركبها اذا قيــل اظعنــوا ... متســاوقين معا لحشر الحشائر
من لا يوافيــه عــلى عثراته ... فالخلق بين مدافع أو عــــاثر

وكانوا يربطون الناقة معكوس الرأس الى مؤخرها مما يلى ظهرها او مما يلى كلكها وبطنها ويأخذون ولية ، فيشدون وسطها ويقلدونها عنق الناقة ويتركونها حتى تموت عند القبر ويسمون الناقة « بلية » والخيط الذى تشد به « ولية » وقال بعضهم يشبه رجلا فى « بلية » كالبلايا فى أعناقها الولايا٠

واذا تصفحنا الشعر الذى ذكره ابن هشام فى سيرته عن حادث الفيل وجيش ابرهة لو تصفحناه جميعا وأردنا تحليله من ناحية عاطفتهم الدينية ثم اردنا ان نصل الى ظواهر دينهم العام لما ترددنا عن الحكم عليهم بأنهم مؤمنون موحدون ، لا يشوب ايمانهم شوائب الوثنية أو سذاجة الشرك ٠ فما رأينا فى شعرهم اسما لوثن أو صنم ٠

فعندما تقرأ شعر عبد المطلب يطالعك قوله :

لا هم أن العبــد يمنــ ... ـــع رحلة فامنع حــلالك
لا يغــلبن صــليبهم ... ومحــالهم غــدوا محالك

لأهم : أى بالله ٠٠
ثم قال لا يغلبن صليبهم ٠٠
فقابل بين الله والصليب ٠

فهذا منه يعنى ادراكا موضوعيا حين قابل بينهما أى بين الله والصليب وان الله حقيقة والصليب زائف ٠

وحين لم يقابل بين وثنه والصليب ، كما هو واقعه المتورط فى الوثنية ٠ والسؤال : هل كان عنده علم عن النصرانية ؟ ٠
كذلك شعر عبد الله بن الزبعرى :

يذكر فى شعره : والله فوق العباد يقيمها .. فلم يذكر وثنا ولا صنما وهو العنيد فى جداله مع الرسول .

وأمية بن ابى الصلت :

الذى يبدأ قصيدته بقوله :

ان آيات ربنـــا ثاقبـــات لايمـــارى فيهن الا الكفـــور

ثم ختمها بقوله :

كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفيـــة بور

فالشعر الذى ساقه ابن هشام يذكرنا بأمرين اما انهم موحدون واما أنه شعر منتحـــل .

ولعل مثل هذه الملاحظات جعلت بعض المستشرقين يزعم أن الرواة الاسلاميين هم الذين وضعوا لفظة الجلالة فى شعر الجاهليين بدلا من كلمة اللات التى تتفق معها فى الوزن .

يقول كارلو فللينو :

« بألغ الأب شيخو فى كتابه المسمى بشعراء النصرانية من شعراء الجاهلية بالغ فى ظنه هذا الرأى اى مبالغة كانه زعم نصرانيا كل شاعر جاهلى ورد فى شعره شىء مما يتقرب من اعتقاده وحدانية الله أو من التاملات والاعتبارات الدينية فعد من النصارى امرؤ القيس والنابغة وطرفة يقول فللينو : لا شك عند كل منصف فى انهم من أصحاب الوثنية أما المؤكد المثبت فانما هو ان دين النصرانية ذاع فى القرن السابق للهجرة فى شمال جـــزيرة العرب فاعتنقه بعض القبائل مثل بنى تغلب وقسم غير صغير من بنى تميم فصلا عن اكثر المقيمين بمملكة بنى غسان وأكثر سكان مدينة الحيرة (١) .

فللينو : يرد على مبالغة شيخو قائلا : بأنه ربما تكون الأفكار التى تقترب من التوحيد نتيجة ـــ تأملات وليست نتيجة النصرانية ولا سيما ان النصرانية من الناحية التاريخية تأخرت عن معاصرة هؤلاء الشعراء » (٢) .

---

(١) يراجع : رسال الجاحظ : فى الرد على النصارى ضمن مجموعة رسائل الجاحظ تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون وهى ملحقه بالكتاب اثبتناها لنبين مدى انتشارها فى الجزيره العربية

(٢) تاريخ الاداب العربية وهى محاضراته التى القاها فى الجامعة المصرية ١٩١٠ ـــ ١٩١١ طبع دار المعارف .

ورأينا ما يؤيد فللينو فى رواية مسلم عن عبد الله بن الصامت قال قال : أبو ذر يا ابن أخى صليت سنتين قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم قال : قلت : فأين كنت توجه ؟

قال : حيث وجهنى الله • يقول رسول الله « غفار غفر الله لها وأسلم سالمها (١) •

فان ابا ذر لم يبين أثر المسيحية أو اليهودية فى توجهه الى الله ربما كان ذلك أثرا من الحنيفية ما زال موجودا بين العرب وهذا ما نميل اليه وعبادة الرسول قبل البعثة كانت على دين ابراهيم وكان يدفعهم الى البحث عن اتجاهات عقلية تميل نحو البحث عن حقيقة الدين ووجدنا مثل ذلك ظهر مع الحنفاء •

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : (٢) كل ذلك يدل على أن العرب عند ظهور الاسلام كانوا يتشبثون بأنواع من النظر العقلى •

ويقول — وكان يعد العرب للجدل الدينى ويحفزهم اليه اما الدفاع عن اديانهم الموروثة ضد الأديان الدخيلة عليهم واما المهاجمة لهذه الأديان جميعا من اجل ما يلتمسون من الدين الحنيف دين ابراهيم » •

« على أنه ينبغى ان لا نبالغ فى تصور من تنصروا من العرب قبل الاسلام ونظن انهم قاموا بتعاليم النصرانية قياما دقيقا فقد عرفوا الكنائس والبيع والشراء والرهبان والأساقفة والصوامع ولكنهم ظلوا لا يتعمقون فى هـذا الدين الجديد وظلوا يخلطونه بغير قليل من وثنيتهم وربما كان مما يوضح ذلك خبر توضيح قول عدى بن زيد العبادى :

سعى الأعـداء لا يالون شرا على ورب مكـة والصليب

فهو يجمع بقسمه بين رب مكة ورب الصليب •

والحق أن نصارى العرب فى الجاهلية انما عرفوا ظاهرا من دينهم وقلما عرفوا حدوده وقد سقطت الى أشعارهم وأشعار الوثنيين انفسهم كلمـات

---

(١) فتح البارى اسلام ابى ذر جـ ٨ •

(٢) تمهيد في الفلسفة الاسلامية ص ١١١ •

ومصطلحات كثيرة منه ومن شخوصه وطقوسه فمنذ امرىء القيس وقوله :

يضيء سناه أو مصابيح راهب　　　أهان السليط فى الذبال المفتل

والشعراء يرددون ذكر الرهبان ومحارب كنائسهم يقول الأعشى :

كدميـــة صـــور محرابهـــا　　　بمـــذهب ذى مرمر مائر

وطالما تحدثوا عن نواقيسهم وقرعها فى أواخر الليل يقول المرقش الأكبر فى بعض شعره :

وتسمع تزقاء من البـــوم حـــولنا　　　كما ضربت بعد الهدو النواقس(١)

فى ذلك ما يدل ولا سيما قول الأعشى وهو وثنى على أنه كان لديهم بعض معارف عن المسيحية أدخلوها فى قصائدهم فى بعض وجوه التشبيه أيا كان نوع هذا التشبيه كقول المرقش فى جمعه بين البوم والنواقس وذلك يبعدها عن مظهر التقديس وخاصة أن البوم مما يتشاءم منه العرب ٠

على أى حال فان معارفهم عن المسيحية تناهت اليهم فاستعملوا مصطلحاتها دون نظر الى اتخاذها عقيدة كما هو واضح من أشعارهم ٠

وظهرت بوادر لمذهب الجبر والاختيار وذلك لا يكون من شدة وحيدهم يروى صاحب الأغانى (٢) ما نصه :

قال لى : يحيى بن متى رواية الأعشى وكان نصرانيا عباديا وكان معمرا قال :

ــ كان الأعشى قدريا ٠

ــ وكان لبيد مثبتا ٠

قال لبيـــد :

من هداه سبل الخير اهتـــدى　　　ناعم البـــال ومن شاء أضل

وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبال　　　وعد وولى الملامة والرجلا

---

(٢) العصر الجاهلى ص ١٠٠ ــ ١٠١ دكتور شوقى ضيف دار المعارف .

قلت : فمن أين أخذ الأعشى مذهبه ؟

قال من العبادين نصارى الحيرة كان يأتيهم يشترى منهم الخمر فلقنوه ذلك .

كذلك كانت لهم وجهة نظر فى تقسيم القوى الروحية فكان فيها الأرواح الخيرة . مثل الملائكة وكان فيها الأرواح الشريرة مثل الشياطين .

وكانت فكرتهم عن هذه الأرواح انها تحل فى ما حولهم من مظاهر الطبيعة. كذلك كانت لهم دراية عن تقسيم الشىء أو الأشياء : الى شىء مقدس ، والى شىء غير مقدس .

اشار الى ذلك القرآن فقال :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا »

فقالوا : هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا .

٢ ـ موقفهم من الرسالة :

ذهبت الصابئة والبراهمة ومعهم الوثنيون الى القول باستحالة النبوات مرأينا فى العرب من كان منهم من مال الى مبادىء الصابئة فطعنوا فى أصل النبوة وهم الذين حكى الله عنهم أنهم قالوا أبعث الله بشرا رسولا .

فان الصابئة لا يجوزون أن يكون الوسيط بشريا انما يجوزونه ملكا فرد الله عليهم بقوله :

وقالوا لولا انزل عليه ملكا ولو انزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون .

ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون .

ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون (١) .

وهناك موقف اليهود والنصارى ومن تابعهم ممن يسلم بأصل النبوة غير أنهم طعنوا فى نبوة محمد .

والقرآن مملوء بالرد عليهم . وطعنهم من وجوه :

---

(١) الروض الأنف جـ ٢ ص ٣٣ على سيرة ابن هشام .

تارة بالطعن فى القرآن فأجاب الله بقوله : « ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » وتارة بالتماس سائر المعجزات كقوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » ٠

وتارة بأن هذا القرآن نزل منجما نجما نجما وذلك يوجب تطرق التهمة اليه فأجاب الله بقوله « كذلك لنثبت به فؤادك » ٠

وهناك موقف من ينكر رسالة محمد على جهة العصبية القبلية حكى الله ذلك بقوله : « لولا انزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ٠

فرد الله عليهم بقوله : « أهم يقسمون رحمة ربك » ٠

وهناك موقف أهل عبادة الأوثان والدهريين الذين لا يعرفون جنة ولا نارا ولا قيامة ولا كتابا مثل الأوس والخزرج ٠

يقول الشهرستانى : وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الاعادة ، وانكروا الرسل ، وعبدوا الأصنام ، وزعموا انهم شفعاؤهم عند الله فى الدار الآخرة وحجوا اليها ، ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين ، وتقربوا اليها بالمناسك والمشاعر وأحلوا وحرموا ٠ وهم الدهماء من العرب الا شرذمة منهم نذكرهم وهم الذين أخبر عنهم التنزيل . « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؟ الى قوله : ان تتبعون الا رجلا مسحورا فاستدل عليهم بأن المرسلين كلهم كانوا كذلك : قال الله تعالى : «وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق» ٠

ويقول تعالى : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشىء يراد ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق » ٠

٣ ــ قضــــايا الغيب :

ومن العرب من أقر بالخالق واثبت حدوث العالم وأقر بالبعث والاعادة وأنكر الرسل وعكف على عبادة الأصنام ٠

وهم الذين قال الله فيهم : ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ٠

قال المسعودى : وهذا الصنف هم الذين حجوا الى الأصنام وقصدوها وتحروا لها البدن ونسكوا لها النساء واحلوالها وحرموا (١) ٠

يقول الشهرستانى : وصنف منهم أقروا بالخالق وابتداء الخلق والابداع وأنكروا البعث والاعادة وهم الذين أخبر عنهم القرآن :

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ »

فاستدل عليهم بالنشأة الأولى اذ اعترفوا بالخلق الاول ٠ فقال عز وجل : قل يحييها الذى انشأها أول مرة ، وقال : أفعيينا بالخلق الاول ؟ بل هم فى لبس من خلق جديد ٠

ومن العرب من يعتقد التناسخ فيقول : اذا مات الانسان أو قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته وانتصب طيرا « هامة » فيرجع الى رأس القبر كل مائة سنة وعلى هذا أنكر عليهم الرسول فقال :

لا هامة ولا عدوى ولا صفر (٢) ٠

يقول الألوسى : عند قوله تعالى : « نموت ونحيا » ٠

اعادة الروح لبدن آخر بطريق التناسخ وهو اعتقاد كثير من عبدة الأصنام (٣) ٠

يقول الشهرستانى : وشبهات العرب كانت مقصورة عـلى هاتين الشبهتين :

أحـدهما : انكار البعث ٠ بعث الأنام ٠

والثانية : جحد البعث ٠ بعث الرسل ٠

---

(١) مروج الذهب ص ٣٥١ ج ١ ٠

(٢) الملل والنحل ص ٢٤٥ ج ٢ ٠

(٣) روح المعانى ج ٩ ص ٦٩ ٠

(٤) لا يرى المسعودى القول بالتناسخ في العرب للاستزادة يراجع ص ٢٨٣ ج ١ من كتابه مروج الذهب ٠

فعلى الأولى قالوا : « ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما ائنا لمبعوثون أو آباؤنا الاولون » ؟

وعبروا عن ذلك فى اشعارهم :

حيـــاة ثم موت ثم نشر   حـــديث خرافة يا أم عمرو

ولبعضهم مرثية فى أهل بدر من المشركين يقول فيها :

فمـــاذا يا قليب قليب بــدر   ترى ماذا تكلـــل بالســـنام
يخبرنا الرســول بأن سنحيا   وكيف حيـــاة اصـــداء وهام

وأما الشبهة الثانية : فكان انكارهم لبعث الرسول صلى الله عليه وسلم فى الصورة البشرية أشد واصرارهم على ذلك أبلغ ٠ واخبر التنزيل عنهم بقوله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا : بعث الله بشرا رسولا » ٠ ابشر يهدوننا ؟

فمن كان يعترف بالملائكة كان يريد أن يأتيه ملك من السماء ٠ وقالوا « لولا نزل عليه ملك » ومن كان لا يعترف بهم كان يقول : الشفيع والوسيلة لنا الى الله هى الأصنام المنصوبة أما الامر والشريعة من الله الينا — فهو المنكر ٠

لاحظنا مما سبق تدرجا فى مستويات القوى الروحية أو القوى المعبودة المؤلهة لدى عرب الجاهلية فرأينا قوى روحية عليا معبودة مثل الملائكة واختلطت صور الملائكة ببعض مثـــل بشرية أو اخضعوها لتصوراتهم البشرية ٠

فقالوا عنها : أنها بنات الله قال تعالى : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون » ٠

ووجدت قوى روحية سفلى فى بنى مليح من خزاعة وهم رهط طلحة الطلحات يعبدون (١) الجن والشياطين وانهم كانوا يستخدمونها فى كتابتهم

---

(١) تشككها فى رمى الجن ٠

قال ابن اسحق انه حدث ان اول العرب فزع للرمى بالنجوم — حين رمى بها — هذا الحى من ثقيف وانهم جاءوا الى رجل منهم يقال له : عمرو بن امية احد بنى علاج ٠

ولهم معها أساطير واتخذوا ايضا منها شركاء لله قال تعالى « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنـــين وبنات بغير علم سبحانه وتعـــالى عما يصفون » ٠

ولهم ايضا بجانب ذلك اتجاهات وثنية لا تنفك عن سذاجة الفطرة كعبادة المحسوسات من شجر وحجر وغير ذلك ، ورأينا فيهم على جاهليتهم ووثنيتهم أنهم يعرفون لفظ الجلالة : الله : وتحدثنا الروايات التاريخية أنهم وجدوه فى الكعبة منذ أن بناها ابراهيم ومعه اسماعيل وكانت قريش تعتبره هو المعبود الحقيقى ومظاهرها الوثنية زلفى اليه ٠

ورأينا فيهم من يتكلم عن الدهر كقوة عظمى تعلو فوق التصور الانسانى وعبدوا النيرات من شمس وقمر ٠٠ الخ ٠

« ومع كل هذا لا يوجد فى العرب طبقة دينية تختص بأمور الدين » وليس فى بلاد العرب ولا سيما فى منطقة الحجاز ونجد ، طبقة اكليريكية خاصة انما يقوم مقامها طائفة العرافين والزاجرين والقائفين والسدنة ولم يكن لهذه الطائفة ما يميزها أو يرفعها عن سائر الناس فلا مسحة خاصة مما ولا رتبة ولا فرقة فى أساليب المعيشة بينهم وبين ابناء قبيلتهم لهم ما لها وعليهم ما عليها » ٠

رمزيات أساطيرهم :
الاختلاف فى النفس عند العرب فى الجاهلية :

يقول المسعودى : كانت للعرب مذاهب فى الجاهلية فى النفوس وآراء ينازعون فى كيفياتها :

= قال : وكان اوهى العرب وانكرها رايا ــ فقالوا له : يا عمرو : الم تر ما حدث في السماء من القذف بهذه النجوم . قال : بلى فانظروا فان كانت معالم النجوم التى يهتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الانواء من الصيف لما يصلح الناس في معايشهم هى التى يرمى بها فهو ــ والله ــ طى الدنيا وهلاك هذا الخلق الذى فيها ، وان كانت نجوما غيرها وهى ثابتة على حالها فهذا الامر اراد الله به هذا الخلق فما هو ؟ يضيف السهيلى وقد فعل ما فعلت ثقيف بنولهب عند فزعهم للرمى بالنجوم ٠

١ ـــ فمنهم من زعم أن النفس هى الدم لا غير ، وأن الروح والهواء الذى فى باطن جسم المرء منه نفسه ٠

ولذلك سموا المرأة منه نفساء لمـــا يخرج منها الدم ٠ ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نفس سائلة اذا سقط فى الماء : هل ينجسه أم لا ؟

وقال تابط شرا لخاله الشنفرى الاكبر وقد سأله عن قتيل قتله ٠ كيف كانت قصته ؟ فقال : ألقمته عضبا : فسال نفسه سكبا ٠ وقال ان الميت لا ينبعث منه الدم ولا يوجد فيه ، بدأ فى حالة الحياة ، وطبيعة الحياة : النماء مع الحرارة والرطوبة ، لأن كل حى فيه حرارة ورطوبة فاذا ما بقى اليبيس والبرد نفيت الحرارة ٠

وقال ابن براق بن كلعة :

وكم لاقيت ذا نجب شـــديد	تسيل به النفوس على الصدور
اذا الحرب العوان به استهامت	وحـــال ، فذاك يوم قمطـــرير

٢ ـــ وطائفة منهم تزعم أن النفس طائر ينبسط فى جسم الانسان فاذا مات أو قتل لم يزل مطيفا به متصورا اليه فى صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشا ٠

وفى ذلك يقول بعض الشعراء وذكر أصحاب الفيل :

سلط الطـــير والمنون عليهم فلهم فى صدى المقـــابر هام

(أ) الهـــامة :

الهامة وهى اليوم وكانوا يعتقدون أن الرجل اذا قتل خرجت من رأسه هامة تصيح ، أسقونى أسقونى حتى يأخذ بثأره ، قال ذو الأضبع العدوانى : اضربك حيث تقول الهامة أسقونى (٢) ٠

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٣٤ ٠

(٢) مروج الذهب ج ١ ص ١٣٤ ٠

ويضيف المسعودى ص ٣٦٩ ٠

وهى أن تتوحش وتصدح وتوجد أبدا فى الديار المعطلة والنواويس وحيث مصارع القتلى وأجداث الموتى ٠

ويزعمون أن الهامة لا تزال على ذلك عند ولد الميت فى محلته بغنائهم لنعلم ما يكون بعده فتخبره به ٠

وحتى قال الصلت بن أمية لبنيه هامتى تخبرنى بما تستشعرون ٠ ٠ لنتجنب الشنعاء والمكروه ولمـــا جاء الاسلام قال : لا هام ولا صفر (١) : ذكر الزبير ابن بكار أن العرب كانت فى الجاهلية تقول : اذا قتل الرجـــل لم يؤخذ بثأره خرجت من رأسه هامة وهى دودة فتدور حول قبره فتقول : أسقونى أسقونى فان أدرك ثاره ذهبت والا بقيت ٠

يقول شاعرهم :

يا عمر ألا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة أسقونى

قال وكانت اليهود تزعم أنها تدور حول قبره سبعة أيام ثم تذهب ٠

وذكر ابن فارس وغيره من اللغويين نحو الأول الا أنهم لم يعينوا كونها دودة وقال القزاز : الهامة طائر من طير الليل كانه البومة ٠ وقال ابن الاعرابى كانوا يتشاءمون بها اذا وقعت على بيت أحدهم :

يقول : نعت الى نفسى أو أحدا من أهل دارى ٠

وقال أبو عبيد : كانوا يزعمون أن عظام الميت تصير هامة فتطير ويسمون ذلك الطائر (٢) : الصدى ٠

ويعبر هذا من فتن اليهود للسيطرة على عرب الجاهلية لأن معنى سبعة ايام فترة زمنية كافية ليؤلب اليهود مواقع الثأر بين العرب أى على العربى ان يثأر ٠ وبذلك أشعلوا الحرب بين الأوس والخزرج باستغلال تلك المعتقدات فى الوقيعة بينهم ٠

---

(١) ومعنى الحديث لاحياء لهامة من الميت ولا شؤم بالبومة ٠

(٢) فتح البارى جـ ١٠ ص ١٩٧ ٠

(ب) الغـــول :

« العرب يزعمون ان الغول يتغول لهم فى الفلوات ويظهر لخواصهم فى انواع من الصور فيخاطبونها وربما ضيفوها • وكانت اذا تراءت لهم فى الليالى وأوقات الخلوات فيتوهمون أنها انسان فيتبعونها فتزيلهم عن الطريق التى هم عليها وتتبعهم • كذلك اعتقـــادات ومزاعم فى الشياطين والمردة والجن (١) •

يقول المسعودى : ويمكن لجميع ما قلناه مما حكيناه عما ذكرناه من أهل البقاع أن يكون ضربا من السوانح الفاسدة والخواطر الرديئة أو غير ذلك من الآفات والأدوار المعترضة لجنس الحيوان من الناطقين وغيرهم •

(جـ) الهواتف والجـــان (٢) :

اما الهواتف فقد كانت كثرة فى العرب ، ومن حكم الهواتف أن يهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئى • وقد كانت العرب قبل ظهور الاسلام تقول : أن من الجن من هو على صورة نصف الانسان وانه كان يظهر لها فى اسفارها وحين خلواتها وتسميه شقا :

وذكروا اشخاصا قتلتهم الجن :

— حرب بن أميـــة •

— عباس بن مرداس (٢) •

يقول المسعودى :

ان ما تذكره العرب وتنبىء به من ذلك فانما يعرض لها من قبل التوحد فى القفار والتفرد فى الأودية والسلوك فى المهامة الموحشة • لأن الانسان اذا صار فى مثل هذه الأماكن وتوحد وتفكر اذا هو تفكر وجل وجبن واذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام المؤذية والسوداوية الفاسدة فصورت له الأصوات ومثلت له الاشخاص وأوهمته الحال بنحو ما يعرض لذوى الوسواس• وأنتج ذلك فى رأسه سوء التفكير وخروجه على غير نظام قوى أو طريق مستقيم

---

(١) مروج الذهب جـ ١ ص ٤٠١ المسعودى .

(٢،٢) نفس المرجع جـ ١ ص ٤٠٥ .

سليم لأن المنفرد فى القفار والمتوحد فى المفـاوز مستشعر للمخاوف مترهم للمتآلف متوقع للحتوف لقوة الظنون الفاسدة على فكرة وانغراسها فى نفسه فيتوهم ما يحكيه من هتاف الهواتف به واعتراض الجان له ٠

ونضيف أن مثل هذه الأشياء تعتبر من لوازم الوثنية ، اذ أن الايمان فى الله موجب لطرح هذه الخواطر الفاسدة ٠

(د) التطــير :

- التطير هو : أنهم كانوا فى الجاهلية يعتمدون على الطير فاذا خرج أحدهم لأمر فان رأى الطير طار يمنه تيمن به واستمر ، وان رآه طار يسره تشاءم به ورجع ٠
- وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمدها وكانوا يسمونه السانح والبـــارح ٠

فالسانح ما ولاك ميامنه بأن يمر عن يسارك الى يمينك ، والبارح بالعكس وكانوا يتيمنون بالسانح ، ويتشاءمون بالبارح لأنه لا يمكن رميه الا بأن ينحرف اليه ٠

يقول ابن حجر : وليس فى شىء من سنوح الطير وبروحها ما يقتضى ما اعتقدوه (١) ٠

وانما هو تكلف يتعاطى ما لا أصل له اذ لا نطق للطــير ولا تمييز فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه ٠ وطلب العلم من غير مكانه جهــل من فاعله ٠

وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ويتمدح بتركه ٠

قال شاعر منهم :

ولقــد عــدوت وكنت لا	عــلى واق وحـــاتم
فاذا الأشـــــأم كالايـــا	مــن والأيامــن كالأشـــائم

وقال آخــر :

الزجــر والطير والكهان كلهــم	مضـــللون ودون الغيب أقفـال

---

(١) فتح البارى ص ١٧٤ ج ١٠ ٠

وقال آخـر :

بـل شيء يـوافق بعض شيء أحـايينا وباطـله كثـير

يقول لبيـد (١) :

لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع؟
سلوهن ان كذبتموني متى الفـتى يذوق المنايا أو متى الغيث واقع؟

يقول ابن حجر : وبقيت من ذلك بقايا فى كثير من المسلمين .

يقول أبو هريرة : اذا تطير ثم فاامضوا وعلى الله فتوكلوا .

عن أبى الدرداء : لن ينال الدرجات العلا من تكهن أو استقسم أو رجع

عن ابن مسعود : الطيرة شرك (وما منا الا تطير ولكن الله يذهبه بالتوكل) من كلام ابن مسعود .

قال ابن حجر : وانما جعل ذلك شركا لاعتقادهم ان ذلك يجلب نفعا أو يدفع ضرا فانهم أشركوه مع الله .

وعن عبد الله عمر : من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل : اللهم لا طير الا طيرك ولا خير الا خيرك ولا اله غيرك .

ومن علاج التطير الفال :

يقول أبو هريرة عن الرسول : لا طيرة وخيرها الفال : وقال : وما الفال ؟ قال : الكلمة الصالحة يسمعها احدكم .

وقال عن أنس : ويعجبنى الفال الصالح والكلمة الحسنة .

قال ابن بطال : جعل الله فى فطر الناس محبة الكلمة الطيبة والأنس بها كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الانيق والماء الصافى وان كان لا يملكه ولا يشربه .

الفرق بين الفـال : والتطير :

— الفـال من طريق حسن الظن بالله .

---

(١) ديوان لبيد ربيعة العامرى ص ٩٠ دار صادر .

ـــ والطيرة لا تكون الا فى السوء وفيها سوء ظن بالله بغير سبب محقق وذكر البيهقى فى الشعب عن الحليمى ما ملخصه ·

كان التطير فى الجاهلية فى العرب ازعاج الطير عند ارادة الخروج للحاجة وكانوا يتطيرون بصوت الغراب وبمرور الظباء فسموا الكل تطيرا لأن أصله الأول ·

قال : وكان التشاؤم فى العجم اذا رأى الصبى ذاهبا الى المعلم تشاءم أو راجعا تيمن ·· الخ فجاء الشرع يرفع ذلك كله وأسند التدبير الى الله (١) ·

(هـ) الكهانة :

الكهانة : ادعاء علم الغيب كالأخبار بما سيقع فى الأرض مع الاستناد الى سبب ·

والكاهن : لفظ يطلق على :

١ ـــ العراف الذى يضرب بالحصى ـــ والمنجم ·

٢ ـــ ويطلق على من يقوم بأمر آخر ويسعى فى قضاء حوائجه ·

٣ ـــ وقال فى المحكم : الكاهن : القاضى بالغيب ·

٤ ـــ وقال فى الجامع : العرب تسمى كل من أذن بشىء قبل وقوعه كاهنا ·

ـــ الكهنة :

١ ـــ قال الخطابى : الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة وطباع نارية ·

وكانت الكهنة فى الجاهلية فاشية خصوصا فى العرب لانقطاع النبوة فيهم ·

أصناف الكهانة : منها :

١ ـــ منها ما يخبر الجنى به من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع

---

(١) يراجع فتح البارى جـ ١٠ ص ١٧١ ، والسيرة الحلبية للاستزادة جـ ١ ص ٦٥ ·

الانسان عليه غالبا أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد ٠

٢ ــ ما يستند الى ظن وتخمين وحدس فهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه ٠

٣ ـ ما يستند الى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك وقد يعضد فى بعضهم بالزجر والطرق ــ والنجوم (١) ٠

وكل ذلك مذموم شرعا عن ابى هريرة : من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما نزل على محمد ٠

وعن ابن مسعود : من اتى عرافا أو ساحرا او كاهنا فقد برىء مما نزل على محمد ٠

قال القرطبى : كانوا فى الجاهلية يترافعون الى الكهان فى الوقائع والأحكام ويرجعون الى أقوالهم وقد انقطعت الكهانة بالبعثة المحمدية ، لكن بقى فى الوجود من يتشبه بهم وثبت النهى عن اتيانهم فلا يحل اتيانهم ولا تصديقهم ٠

قال ابن اسحاق : الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب ، ويربطون انتهاء الكهانة بقوله تعالى : « وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرصا شديدا وشهبا » ٠٠

وتحدث عن الكواكب بقوله : « وجعلناها رجوما للشياطين » ٠

من الكهـــان :

١ ــ صاف بن صياد ، كان يتكهن ويدعى النبوة وينسبون اليه أنه تكلم مع الرسول ٠ وينسبون اليه انه قال فيه : اخسأ فلن تعــدو قدر الله فيك ٠

٢ ــ الغيطلة الكاهنة بنت مالك بن الحارث : وينسبون اليها أنها قالت : شعوب ما شعوب تصرع فيه كعب لجنووب ٠ وهو كعب بن لؤى ٠

---

(١) فتح البارى جـ ١٠ ص ١٧٧ ٠

٣ ـ فاطمة بنت النعمان النجارية : كان لها تابع من الجن ويزعمون أن تابعها اذا جاءها اقتحم عليها بيتها ، وفى أول البعث جاءها وقعد على حائط الدار فقالت له لم لا تدخل فقال قد بعث نبى بتحريم الزنا •

٤ ـ أخطر ابن مالك من اعلم الكهان وعنده علم النجوم ينسبون اليه :

يا معشــر بنى قحطــان   أخبركـم بالحــق والبيــان
أقسمت بالكعبــة والأركان   والبــلد المؤتمن السـدان
لقد منع السمع عتــاة الجــان   بثاقب بكف الشان ذى سلطــان
من أجــل مبعوث عظيم الشان   يبعث بالتنـزيل والقــرآن
بالهــدى وفاصل القــرآن   تبطــل به عبــادة الأوثان

فقالوا : وماذا ترى لقومك فقال :

أرى لقــومى ما أرى لنفسى   أن يتبعوا خــير نبى الانس
برهانة مثــل شعاع الشمس   يبعث فى مكة دار الحمس
بمحكم التنزيل غــير اللبس

فقلنا يا أخطر من هو :

فقال : والحياة والعيش ، انه لمن قريش ، ما فى حلمه طيش ، وما فى خلقه طيش •• أخبرنى به رئيس الجان •

١ ـ ويقال أن جنيا من بطن اليمن كان لهم كاهن فى الجاهلية سالوه عن الرسول عندما انتشر أمره بين العرب فقال :

ايها الناس ان الله أكرم محمدا واصطفاه •

وجنب هم من مذحج وهم : عبد الله ، وأنس الله ، وزيد الله ، وأوس الله

قال ابن اسحاق : وكانت الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى وكلها من العرب قد تحدثوا بأمر الرسول قبل مبعثه لما تقارب من زمانه •

ـ اما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى ، فمما وجدوا فى كتبهم من صفته وصفة زمانه وما كان من عهد أنبيائهم فيه •

سيرة ابن هشام ص ١٣٥ ج ١

ــ وأما الكهان من العرب : فاتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع اذ كانت وهى لا تحجب عن ذلك بالقذف من النجوم .وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره لا تلقى العرب لذلك فيه بالا٠٠

(و). السحر :

من صفات اليهود وليس من صفات العرب ٠

قال الراغب (١) : السحر يطلق على معان :

١ ــ احدهما ما لطف ودق ومنه سحرت الصبى خادعته واستملته ومنه اطلاق الشعراء : يسحرون العيون لاستمالتها النفوس ٠ ومنه قول الأدباء الطبيعة ساحرة ٠

٢ ــ الثانى : ما يقع بخداع وتخيلات لا حقيقة لها نحوما يفعله المشعوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده ٠ والى ذلك أشار قوله تعالى : يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ٠ وقوله : سحروا أعين الناس ٠

٣ ــ الثالث : ما يحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب اليهم والى ذلك أشار قوله تعالى : ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر

٤ ــ الرابع : ما يحصل بمخاطبة الكواكب واستنزال روحانيتها بزعمهم :

والسحر يطلق ويراد به :

١ ــ الآلة التى يسحر بها ٠

٢ ــ ويطلق ويراد به : فعل السحر ٠

الآلة التى يسحر بها قد تكون معنى من المعانى : كالرقى والنفث فى العقد وقد تكون من المحسوسات : كتصوير الصورة على المسحور وتارة نجمع الأمرين وهو أبلغ ٠

والسحر : تخييل فقط ولا حقيقة له ٠

---

(١) مفردات القرآن مادة سحر ٠

وقال النووى : انه له حقيقة (١) ٠

والذى قال تخييل جعله انقلاب عين ٠ والذى جعله حقيقة جعل له تاثيرا على المزاج فيكون نوعا من الأمراض أو تاثيرا باحالة يتحول الجماد حيوانا ٠

ونحن نرى أن ما يقع منه لا يخرج عن كونه خيالات باطلة ، ولما كان السحر يشبه خوارق العادات رأى العلماء أن يفرقوا بينه وبين غيره من الكرامة والمعجزة ٠

١ ـــ السحر يكون بمعانا أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد ، وقال الجوينى نقلا بالاجماع على أن السحر لا يظهر الا من فاسق ٠ وقال القرطبى : كذلك « السحر » حيل صناعية يتوصل اليها بالاكتساب غير أنها لدقتها لا يتوصل اليها الا آحاد الناس ، وحده الوقوف على ظواهر الأشياء وأكثرها تخييلات بغير حقيقة ، وايهامات بغير ثبوت ٠

الكرامة : لا تحتاج إلى ذلك من أقوال الناس أو افعالهم أو تعلم انما تقع غالبا اتفاقا وأنها لا تظهر ، على فاسق ٠

المعجزة : مثل الكرامة غير أنها تمتاز عنها بالتحدى ٠

والسحر : يرجع الى اليهود منذ نبى الله سليمان وظهوره فى جزيرة العرب مرتبط باليهود ٠

قال النووى : عمل السحر حرام وهو من الكبائر بالاجماع ٠

قال صاحب المحيط : واما فى زماننا الآن فكل ما وقفنا عليه فى الكتب فهو كذب وافتراء لا يترتب عليه شىء ولا يصح منه شىء البتة وكذلك العزائم وضرب المندل ٠ والناس الذين يعتقد فيهم أنهم عقلاء يصدقون بهذه الأشياء ويصغون الى سماعها ٠

قال : وقد رأيت بعض من ينتمى الى العلم اذا أفلس وضع كتبا وذكر فيها أشياء من رأسه وباعها فى الأسواق بالدراهم الجيدة ٠

---

(١) فتح البارى ص ١٨٢ ج ١٠ ٠

قال فى فتح البارى (١) :

شرح : لا عدوى :

البرهان العقلى والحسى : رد على قول أن المرض يعدى بطبيعته عقيدة للطبيعيين يجوز مشافهة من وقعت له شبهة فى اعتقاده بذكر البرهان العقلى اذا كان السائل أهلا لفهمه ٠

وأما من كان قاصرا فيخاطب بما يحتمله عقله من الاقتناعات ٠

وقول الرسول لا عدوى نفى لشبهة وقع فيها الطبيعيون أولا والمعتزلة ثانيا :

فقال الطبيعيون : بتأثير الأشياء بعضها فى بعض وايجاد اياها وسموا المؤثر طبيعة ٠

وقال المعتزلة : بنحو من ذلك فى الحيوانات والمتولدات وان قدرهم مؤثرة فيها بالايجاد وانهم خالقون لأفعالهم مستقلون باختراعها ٠

واستند الطائفتان : الى المشاهد الحسية ونسبوا من أنكر ذلك الى انكار البديهة ٠ وغلط من قال منهم غلطا فاحشا لالتباس ادراك الحس بادراك العقل، فان المشاهد انما هو تأثير شىء على آخر وهذا حظ الحس فأما تأثيره فهو حظ العقل ٠

فالحس ادراك وجود شىء عند وجود شىء وارتفاعه عند ارتفاعه ٠ أما ايجاده به للحس فليس للحس فيه مدخل ٠

فالعقل هو الذى يفرق فيحكم بتلازمهما عقلا أو عادة مع جواز التبدل عقـلا ٠

على أى حال فان تعدد الخرافات وتنوعها شغلت كاهل الوثنى وشتت فكره ٠

وكنا نرى فى ذلك سببا وراء عدم ظهور وحدة القصيدة فى قصيدة الشاعر الجاهلى مضافا اليه تأثر الشاعر ببيئته القبلية أى كان مجتمعه تحكمه أنظمة قبلية شتى ، ومن جانب آخر عدم وجود وحدة تجمع بينه وبين أديانه المتعددة

---

(١) فتح البارى ص ٢٩٩ ج ١٠ ٠

أضف ذلك كله الى شخصية الشاعر التى وقعت تحت ذاتية منغلقة ، بسبب ذلك كله وقع الشاعر تحت مؤثراته البيئية التى لم تشعره بضرورة وحـدة القصيدة ٠

تعقيب

سوف يكون تحليلنا لهذه الرمزيات من خلال اثرها على العربى وأثره عليها ، حينما أبدعها خياله : كان يرى فيها نوعا من المناسبة بين مكوناته النفسية وبين ما هو كامن فى طبيعة صحرائه من سعة لا حد لها تشعره بتضاؤله فيها وجفاف فى قسوة ، الى ايحاء تسوده رهبة ٠

فهو مثلا يرى فى التطير أن اتجه الى التجارة نوعا من فهم سبيله فهو يرى فى ميامنها تفاؤلا : يدفعه لوجهته وفى مياسرها تشاؤما : يدفعه ليعدل عن وجهته ٠

تبعا لمعتقده هذا نراه يتجاوب فكريا مع أى معنى يوحى اليه من خلال ميامن الطير او مياسرها ، ربما كان ذلك من وجهة نظرنا ــ محاولة من العربى يفك بها لغز الكون بعد ما بات يحس من نفسه ضعفه أمام لغزه بالرغم من شجاعته المشهود له بها فى شعره ٠

كذلك يرى فيها : دلائل عرفان نحو مستقبله فخوفه من المستقبل دفعه نحو تلك الاشياء ليفهم بها مكامن المجهول ، وعلى أى حال انها فى رمزيتها محاولات خفف بها عن نفسه عبء اليأس من عدم فهمه للوجود وأبعدت عنه فكرة الانتحار الذى قد يكون حلا قانطا وسلبيا لمشكلة اليأس من عدم فهم مستقبله ، والعربى حين بدأ يفكر فليس بدعا من بداية الفكر الانسانى فى طفولته « كان الفكر الانسانى فى طفولته يتفتح لرؤية الكون الهـائل تفتحا مشفوعا بالعجب والهيبة » [1] وكانوا يودون من مغزى هذه الرموز أن تكفيهم شر الحياة المادية الخبيثة وذلك لمـا يرون فيها من معايير مقدسة يفزعون اليها ان الم بهم شىء أوهموا الى شىء ٠

وبالرغم من أنها تصورات خيالية فانها توقفنا على شىء ذى بال فى

---

(١) سيرة تاريخ ولن ص ٢٣ د ٠ ماهر حسين فهمى مكتبة النهضة ٠

حياة العربى النفسية والدينية : فانها من الناحية النفسية تفسر لنا مثيرات انفعالاته وعواطفه ، وبها ايضا نستطيع ان نفسر مكوناته الشخصية ومؤثراتها الخارجية ، فعن طريق هذه المعتقدات يتسع لنا المجال لاستبطان أحاسيسه الداخلية وتقدير طموحه فى حياته العامة •

ومن الناحية الدينية تفسر لنا اثر المعتقد على الانسان لما لها من معنى مقدس فى نفس العربى لا يجد فى نفسه متسعا لمخالفتها فينكرها ومظهر تقديسها يظهر فى انه تصورها على هيئة قوى روحية على شكل طيور ليتناسب طيرانها مع صحرائه — ولها قدرة الايحاء اليه أمرا أو نهيا مع التزامه بطاعتها فى كلا الحالين •

وفى هذا رؤية رمزية للكون تتناسب مع فكر لما يزال فى دور الطفولة ويلازم فكرة التشاؤم والتفاؤل من احساس العربى بتاثيرهما عليه نظرية انقسام الروح الى خيرة وشريرة أى بعضها يختص بالخير وبعضها يختص بالشر • يمنح العربى هذا كله معنى المعرفة يستوحى منها مظان الخير فى مستقبل حياته • وليست فكرة الخير لديه — كما نتصور — رفيعة فى معناها انما كانت فكرة رديئة رداءة رمزها : فهو يرى فى قول الهامة اسقونى من دم قاتلى : دعوة خير بينما الهامة وقولها يتشابهان فى الرداءة ، لكنها مع ذلك هى من دلائل الخير عند العربى صاحب الثأر •

ولعل الذى جعل فكرته عن الخلود باهتة الألوان ما كابده من شظف العيش وما يمسه فى حياته من لغوب ومن جفاف فى صحرائه لعل فى ذلك مقنعا للعربى فى عدم خلق اساطير يرمز بها الى البحث عن فكرة الخلود ، وكيف يبحث خلوده وربما يكون مكان بعثه لا يبعد عن صحرائه أو يناظرها فى القسوة والجفاف • على أى حال كانت كل معتقداته الرمزية تنبىء عن معنى خوفه :

— خوفه من العار : وأد البنات وثأر •

— خوفه من خسارة فى رحلته التجارية : لجأ الى التطير •

فصفة الخوف من المستقبل هى الغالبة على الروح العربية لذلك ، نرى شجاعة العربى فورة حماسية او نزوة عصبية تشعلها كلمة وتطفئها اخرى ٠

فشجاعة الخووف : توترات عصبية من غير تركيز منـــه على الهدف وقيمته ٠

ومن هنا كانت فكرته العقلية عن الأشياء غير مركزة وغير ثابتة قد يضـــل عن مضمونها ان فاوض أو ناقش أو يتسرب معها فى مساربها دون وعى منه بميز به بين ما هو ضرورى وأساسى فى القضية المطروحة وبين ما هو فيها من باب الطرافة ٠ أو قد يصرفه عن مناقشة القضية كلمة غامزة يقولها : خبيث نكى دون أن يفطن الى خبثه ، وقد يصرفه بها عن مناقشة القضية دون أن يلتفت الى حقيقة الدور الذى حوله ، وأما اذا كانت نتيجة المناقشة سوف تنتهى الى جانب العربى فستثار العربى لينهى بنفسه دوره ثم أخيرا يتحمل مسئولية عمله بينما هو مدفوع اليه ٠

وفى النهاية : فان الأوهام والعقائد الشعبية وأعمال السحر التى كانت المركز الأساسى لدائرتهم الثقافية كانت تعمل دائما على قهرهم اذا حاولوا فهم وجودهم أو تغيير علاقاتهم الاجتماعية من مستواها القبلى الى مستوى انسانى ، فلما جاء الاسلام عصف بتلك الروح وأحل فيهم روحه الغامرة بالحياة ٠ وكان من أرفع ما قدمه الاسلام أن ربط كتابه بالعقل الانسانى ، وأزال ما يعوق تفاهمه مع العقل ، وكان أهم ما يعوق رحلة التفاهم بينه وبين الدين وجود طبقة دينية اكليريكية ترى فى نفسها : امتيازا دينيا يؤهلها للوصاية على لغة التفاهم بين العقل والقرآن ٠

« وقد دمغ القرآن بالشرك الذن ايعطوا سلطة التشريع المطلق لبعض البشر من رجال الآديان الذين بدلوا كلمات الله ، وغيروا شرع الله فأحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله افتراء على الله ، وفى هذا يقول فى شأن اهل الكتاب : « اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون » ٠ اعتبرالقرآ ن : هؤلاء الأحبار والرهبان أربابا وآلهة معبودين من دون الله

وما كانت عبادتهم الا طاعتهم فى احلال ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ، أى أعطاهم حق التشريع فيما لم يأذن به الله تعالى كما فسر ذلك النبى صلى الله عليه وسلم لعدى بن حاتم الطائى ٠

فقد كان عدى تنصر فى الجاهلية فلما دخل على النبى صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقرأ هذه الآية من سورة التوبة « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » قال يا رسول الله : ما كنا نعبدهم « كأنه حصر مفهوم العبادة فى الركوع والسجود والصلاة ونحوها » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ألم يكونوا يحلون لكم الحرام فتحلوه ويحرمون عليكم الحلال فتحرموه : قال : بلى ، قال فتلك عبادتكم اياها (١) ٠

فكان موقف القرآن من الطبقة الاكليريكية واضحا وفيه عنف لأن وجود مثل هذه الطبقة يعمل دائما على شل العقل عن وظيفته وعلى تغيير مفهوم المقدس وهو ما عناه الرسول بقوله : ألم يكونوا يحلون لكم الحرام فتحلوه ويحرمون عليكم الحلال فتحرموه قال : بلى ؟

قال الرسول : فتلك عبادتكم اياهم ٠

أما بعـد :

ففى القرآن ثلاث آيات متفرقات فى ثلاث سور مدنية تناولت موضوعا واحدا هو : الحياة الاعتقادية السائدة فى العالم ابان ظهور الاسلام من خلال مستوى مذاهبهم الدينية وكما فصلنا القول من قبل ٠

الآية الأولى من سورة البقرة آية ٦٢ يقول الله فيها :

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين : من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ٠ فلهم أجرهم عنـد ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ٠

الآية الثانية : من سورة المائدة آية ٦٩ يقول الله فيها :

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله

---

(١) الخصائص العامة للاسلام ٠ د ٠ يوسف القرضاوى ٠

واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ٠

الآية الثالثة : من سورة الحج آية ١٧ يقول الله فيها :

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا أن الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد » ٠

نلاحظ أن القرآن عدد فيها الكثير من الملل والنحل القديمة — رعاية منه للجانب التاريخى — ثم عرض لبعضها بالنقاش ، وفصل من قضاياها ما شاء أن يفصل ، وأعرض عن البعض — فى بعض مسائله — اذا كان مداره قائما على التقليد الساذج الذى لا يراعى فكرا ولا يراعى جانب العقل مثل هذه الملل يعرض عنها القرآن وحسبه فيه أن يردها الى التقاليد وهو اذ يردها الى التقاليد يكون قد أصاب النقد ٠

وكان الهدف الأساسى من منهج القرآن الجدلى لهذه الملل ، هو السعى بذويها الى نتيجة محددة هى : الايمان بالله وحده وتنزيهه ٠

واقتضاء سعيه الى تلك القضية المحددة ، أن يرفع دور العقل ووظيفته ويحط من شأن التقليد مزدريا اياه وكان ذلك منه بخطى معينة ومحددة لأن الحياة الاعتقادية التى أشاعتها هذه الأديان : كان مجال التفكير فيها محدودا ضيقا ، والانسان معها : كان متزمتا ، فبسبب مجال التفكير المحدود الضيق — من السيطرة الكاملة لهذه المذاهب المتزمتة عليه — اتخذ القرآن خطواته نحو رفع القيمة العملية للبحث والنقد وكانت خطواته معها متأنية مترفقة غير أنه لا لين فيها ٠

يلاحظ ذلك من الآيات السابقة ، فمرة يقول : ان استجابوا للايمان « لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ٠ ومرة يقول « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ٠

والثالثة الأخرى : ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد ٠ ويغلب على ظنى — والأمر يحتاج الى توقيف — أن ترتيب نزول الآيات هو :

آية البقرة أولا ٠ وآية المائدة ثانيا ٠ وآية الحج ثالثا ٠

وان صح هذا وخاصة أن هذه السور مدنية ، يمكن اعتبارها نموذجا تطبيقيا — من بين نماذج كثيرة حفل بها القرآن — فى هــذا المقام بالذات لنوع من الجدل المتدرج نحو غايته ٠ وكنا نلاحظ من خلال تفصيل القرآن للاديان القديمة والنحل : منهجا سار عليه — ازاء تلك المعتقدات القديمة — حين ردها على كثرتها الى مبدا التقابل ، فمن كان معتقده عن كتاب يدخل مع أهل الكتاب الذين تعلموا من كتب السماء التى حرفت ، يتقابلون مع الأميين الذين التمسوا تعليمهم من غيرهم بعيدا عن كتب السماء تقليدا ٠ وهذا معا يتقابلون مع الذين آمنوا بالدين الخالص وهو دين الله « ألا لله الدين الخالص » ٠

مصر الجديدة فى ١٩٨٣

دكتور
محمد ابراهيم الفيومى

ملحق على هامش الأخبار العربية

* العربي والعبري .
* من مظاهر اشتراكهما « ايل » .
* من الأخبار السمرية المكتشفة .
* رسالة الجاحظ فى النصارى .

١ ـ العبرى والعربى :

لا شك أن بين لفظ العبرى والعربى وحدة من حيث الحروف وعددها وأسماؤها وأجناسها ومن حيث المعنى أيضا فهما يطلقان على البدو الرحل ومن حيث الرقعة الجغرافية فانها واحدة من تباعد الأطراف بينهما ومن حيث الاتجاه الفكرى الدينى فان فى مكة الحرم المقدس وفى فلسطين المسجد الأقصى ومقدسات دينية أخرى . ومن حيث النسب فان العرب أمة اسـماعيل او اسماعيل واليهود أمة اسرائيل فكلنا أمة (ايل) وفى هذا ما يجعلنى أتساءل هل الأصل فى النطق هو العبرى أو العربى بمعنى : أن الأصل هو العربى ثم هاجرت قبائل فنطقته : عبرى ، أو أن الأصل هو عبرى ثم نطق على ألسنة من هاجر عربى ، قد يكون شيئا من هذا كان ٠

يقول د٠ سوسة : (١)

ويبدو لنا لأول وهلة عندما يرد ذكر العبرى والعربى أن هنـاك تقاربا وثيقا فى اللفظ بينهما حتى انه يتراءى للمرء ان الكلمتين تكادان تكونان كلمة واحدة ومن أصل واحد ٠ الا أن السؤال الذى يرد الى الذهن هو اىاللفظين مشتق من الآخر ؟ ٠٠ فالاستاذ عبد الحق فاضل الذى كتب مقالا فى سومر عنوانـه « عربى ، أرامى ، عبرى » (٢) ثم ألحقه بكتاب عنوانـه « مغامرات لغوية » طبع فى بيروت (بلا تاريخ) يرى أن العربية والآرامية والعبرية مشتقة من أصل واحد من كلمة واحدة هى العربية باعتبارها أم اللغات السامية وأكثرها شبها باللغات السامية المتطورة ٠ والذى يهمنا هو «العبرية» و « العربية » فهو يذهب الى أن اشتقاق العبرى من العربى كان بطريقالقلب على حد تعبيره ، ويضيف الى ذلك قوله : « وما أكثر ما صنعت العرب من ذلك منذ أقدم عهودنا » (٣) ٠ ونحن مع ترجيحنا رأيه القائل بأن العبرى

---

(١) العرب واليهود

(٢) سومر ، ١٤ ، ١٩٥٨ ص ١٨٠ ــ ١٨٨

(٣) عبد الحق فاضل مغامرات لشعوبه بيروت بدون تاريخ ص ٣١

والعربى من أصل واحد ومن كلمة واحدة ، الا اننا لا نتفق واياه بأن العبرى مشتق من العربى اذ نرجح عكس ذلك ، أى ان العربى مشتق من العبرى وذلك نتيجة تقديم وتأخير فى اللفظ ٠ ودليلنا على ذلك هو التسلسل الزمنى، فأى اللفظين جاء ذكره قبل الآخر ، هل هو العربى أم العبرى ؟ ٠٠

لقد سبق أن أشرنا الى ان اقدم ذكر لكلمة « العبيرو» « الخبيرو » « والهبرى » « العبرى » يرجع الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، حيث ورد هذا اللفظ مرات كثيرة فى رسائل العمارنة وكان يقصد به عرب البادية أو البدو الرحل ، ومما لا شك فيه أن استعمال هذا اللفظ بهذا المعنى كان قبل ذلك بكثير ٠ اما لفظة ، عربى ، فأقدم ذكر لها ورد فى الكتاباتالآشورية اذ وردت أول اشارة ثابتة الى العرب فى نقش للملك الآشورى شلمنصر الثالث (٨٥٩ ــ ٨٢٤ ق٠م) الذى قام بحملة على ملك دمشق عام ٨٥٤ ق٠م ثم وردت فى كتابات أخلاف شلمنصر (١) وقد سمى ملوك بلاد العرب بملوك « العربى » كما أطلقت كلمة « العريبى » على الآراميين والأدوميين أيضا مما يدل على أن الآشوريين كانوا يعدون الآراميين والأدوميين من العرب كما هو واقع الحال ٠ وقد مرت بنا الاشارة الى مقال بعنوان « العبرى ، العبيرو والعربى » نشر فى احدى المجلات ، لم يتيسر لنا الاطلاع عليه ،

---

(١) لقد أشار الدكتور جواد على في كتابه « تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ١٦١ ان أول اشاره الى العرب وردت في نص أرشورى يعود الى أيام الملك شلمنصر الثانى ملك اشور معتمدا في ذلك على ماركوليوث والدكتوت والدكتور حتى ودائرة المعارف اليهوديه الا أن شلمنصر الثالث كما بينا اعلاه ٠ ويظهر ان الدكتور جواد على قد صحح هذا الخطأ في كتابه الاجردد المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٥٧٤ حيث ذكر ان أول اشاره الى العرب ترجع الى زمن شلمنصر الثالث كما بينا اعلاه ٠ ويظهر أيضا ان الدكتور حتى هو اخر قد صحح نفس الخطأ في الطبعه الاخره من كتابه تاريخ العرب « المطول » الطبعة الرابعة ١٩٦٥ ج ١ ص ٤٥ ونواد ان نرجى شكرنا الى الاستاذ طه باو مبصلنا الى هذا الخلاف .

والأرجح أنه يتناول بحث نفس الموضوع الذى نحن بصدده ، ومما يذكر فى هذا الصدد أن العلماء اختلفوا فى كيفية نقل كلمة « عربى » من النصوص الأشورية :

وهذا مما يزيد الاحتمال بأن كلمة عربى تحريف للعبرى بالتقديم والتأخير. وقد وردت تسميات العرب ، وملوك العرب ، وبلاد العرب ، الأعرابى، فى العهد العتيق « التوراة »(١) ويؤيد الدكتور ولفنسون ارتباط المصطلح عبرى ، بكلمة ، عربى ، بقوله « ويلاحظ أن كلمة عبرى ترتبط بكلمة عربى ارتباطا لغويا متينا لأنهما مشتقان من أصل واحد وتدلان على معنى واحد » . ان كلمة عبرى تؤدى المعنى الذى تؤديه كلمة عربى نفسها اى أن العبريين هم قبائل رحل كانت تنتقل بخيامها وابلها من مكان الى مكان وكان هذا الاسم يطلق على بنى اسرائيل (أبناء يعقوب) والقبائل الرحل كانت فى جهات طور سيناء وبادية سورية وفلسطين (٢) .

من مظاهر الاشتراك : ايل :

يبدو أن « عربى وعبرى » تفرعا من لغة واحدة هى اللغة الأكدية التى كانت تستخدم فى كافة انحاء فلسطين وما يحيط بها فى الألف الثانى قبل الميلاد كلغة مشتركة فى العالم الأدبى كله تقريبا لوجود ظواهر مشتركة .

وفى اللغة العربية كلمات معربة من أسرة واحدة لها نفس النطق فى العبرية :

* طير ابابيل .
* سرابيل .
* سلسبيل .
* جنزبيل .
* شرحبيل .
* قطربيل .
* اسرائيل .
* اسماعيل .
* عزرائيل .
* جبرائيل .
* ميكائيل .
* اسرافيل .
* عبدياليل .
* سجيل .

---

(١) حر ، ٢٧ : ٢١ ـــ آر ، ٣ : ٤ . ، ٢٥ : :: ٤ أسن ، ١٣ : ٢!

(٢) تاريخ اللغات الساميه ص ٧٨ ، ١٦٤ .

مثل هذه الكلمات على ما يبدو من نطقها انها ترتد الى لغة واحدة وترجع الىعائلة واحدة فى التراكيب اللغوية ٠

ويبدو أنها ذات صلة بنطق (ايل) وهو الله فى نطقه العربى أو على نطق اللغة التى نطق بها نبى الله ابراهيم سواء تسمى لغة اكدية أو نبطية ٠٠ الخ ٠

يقول الشيخ رشيد رضا : (١)

من آلهة الكلدانيين (أل) وهى كلمة سامية عرفت فى اللغة العربية والسريانية والعبرانية ٠ قال صاحب القاموس : والأل الربوبية واسم الله تعالى ٠ وكل اسم آخره (أل وايل) فمضاف الى الله تعالى ٠ وقال ال المريض والحزين يئل الا والللا أن وحن ورفع صوته بالدعاء ٠ وقال فى مادة (اى ل) : ايل بالكسر اسم الله تعالى ٠ وفى لسان العرب بحث فى كون الايل من أسماء الله تعالى ولكنه نقله عن ابن سيده ثم قال : والأل الربوبية ، والأل بالضم الأول فى بعض اللغات وليس من لفظ الأول ٠ ثم قال فى (ايل) : من اسماء الله عز وجل عبرانى او سريانى ثم نقل عن ابن الكلبى أن جبرائيل وشراحيل وأشباههما كشرحبيل تنسب الى الربوبية «لأن ايلا لغة فى ال وهو الله عز وجل كقولهم عبد الله » اقول ونقل مثله من اسماء العرب ، ونقل عن أبى منصور انه لا يجوز أن يكون ايل عرب فقيل ال ثم قال فى مادة (اله) وقد سمت العرب الشمس لما عبدوها الاهة ، والآلهة الشمس الحارة حكى عن ثعلب ، والأليهة والألاهة (بالفتح والكسر) وألاهة (مضمومة الهمزة غير معرفة) لله الشمس ٠٠ الخ ثم ذكر أن : الالاهة والألوهة والألوهية العبادة ٠ وذكر عند تفسير الآله بالمعبود فى أول المـادة قولهم : اله بين الالهة والألهية والالهانية وأن أصله من اله يأله (من باب علم) اذا تحير ٠

هذا وان دل دلالة مادة اله على العبادة والمعبود سامية قديمة منقولة عن الكلدانيين وغيرهم ٠ قال البستانى فى دائرة المعارف عيد تعريف اسم (الله) بانه اسم للذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد ـــ اى كما قال علماء المسلمين ـــ وهو بالعبرانية ألوهيم بصيغة الجمع تعظيما لا تكثيرا ،

---

(١) تفسير المنار ص

وقد يطلق على غير الله ، ويهوه أى الكائن وهو خاص به تعالى ٠ وايل أى القدير ، وبالسريانية الوهو وبالكلدانية ألاها ٠

وفى تواريخ المتأخرين المؤيدة بالعاديات (الآثار القديمة) أن أعظم ارباب الكلدانيين وآلهتهم (ايل ـ او ـ ال) فهو رب الأرباب وأصل الآلهة ، وليس له تمثال ولا صورة فى معابدهم ٠ والظاهر أنهم كانوا يعتقدون مما ورثوا من دين نوح عليه السلام انه منزه عن صفات الخلق وتخيلاتهم ٠ وروى ديودورس عن فيلو انه مرادف لزحل ٠ ولا يصح هذا الا ان يراد بزخل أبو المشترى كما قيل وقد أشاروا الى الايمان به فى عصور قدماء ملوكهم ، ومما قالوا عنه فى أقدم الخرافات أنه أولد ولدين (أنا ، وبيل ، وانا) هذا هوراس (الثالوث) الكلدانى ٠ وقيل أن هذا الاسم بمعنى اسم الجلالة (الله) ويقولون أنو اذا كان فاعلا وأنا اذا كان مفعولا وانى اذا كان مضافا اليه ٠ ومن القابه عندهم ــ القديم والراس الأصلى وابو الآلهة ورب الأرواح والشياطين وملك العالم الأسفل وسلطان الظلام أو رأس الموت ، ووجدت آثار عبادته فى مدينة (آراك) وهى الوركاء ٠ قال ياقوت : الوركاء موضع بناحية اروابى ولد به ابراهيم الخليل عليه السلام ٠ وقد بنى أحد ملوكهم معبداً لابنه (قول) فى آشور سنة ١٨٣٠ قبل المسيح فصار اسم هــذه المدينة بعد ذلك (تلان) وأصله (تل انا) وجاء ذكره فصـــار اسم هــذه المدينة بعد ذلك (تلان) وأصله (تل أنا) وجاء ذكره فى آخر للملك (أوركة) اكتشفت فى أنقاض (تل قبر) هذه ترجمته : « أن اله القمر ابن شقبق ، انو ، وبكر (بعلوس) قد حمل عبوه (أروكة) الرئيس التقى ملك (أور) على بناء هيكل (تسين كاثو) معبداً مقدساً له ٠

والثانى فى ثالوثهم (بلوس ــ أو بيل) ولعلهما محرفان عن (بعــل) و (بعلوس) ومن اسمائهم ــ أنو ـ و ـ ايل و ـايل انيو ــ ومعناه السيد ٠ وتلحق غالبا بلفظ ــ نيبرو ــ ومؤنثها ــ نيبروث ــ وهى قريبة من كلمة (نمرود) التى هى فى ترجمة التوراة السبعينية ــ نبروث ــ وكلمة ـ نيبرو ـ مشتقة من كلمة بابارا السريانية ومعناها طارد ، وتدل مادة نبر فى العربية على الارتفاع فنبر : رفع ٠ والنبرة الشىء المرتفع ففيها معنى الشرف ٠ ومعناها فى الآشورية يقارب معناها فى السريانية ــ فبيل نبرو ــ بمعنى السيد الصياد أو رب الصيد ٠ لذلك قيل أنه نمرود المذكور فى العهد العتيق ، ويقولون

انه كان يصيد الوحوش ، وهو بعلوس الذى ذكر مؤرخو اليانان انه بانى موينة (بابل) ملكها الأول ، ودلت الآثار على أن الاشوريين كانوا يسمونها مدينة (بل نبرو) وظل الكلدانيون يعبدون نمرود مدة وجود دولتهم وكانوا يكنونه بأبى الآلهة ويكنون زوجه المسماة (موليتا ـــ أو ـــ انوتا) بام الآلهة العظام • ولكن وصفت فى بعض الآثار بأنها زوج (نين) وهو ابنها وفى بعضها أنها زوج (آشور) ولها القـــاب عظيمة ووجد لها عدة هياكل •

والثالث من ثالوثهم (حو ـ أو ـ حيا) وهو حيوان بعضه كالانسان وبعضه كالسمك ، وزعموا انه خرج من خليج فارس ليعلم سكان ضفاف النهرين علم الفلك والأدب ، ونسب اليه اختراع حروف الهجاء ، وقد وجد اسمه على صحيفة من الآجر وجدت فى خرائب (أور) ، ويرى بعض الباحثين أن اسمه من مادة الحياة العربية أو الحية ، وشعاره فى القلم الكلدانى الشكل الأسفينى ، ومنه رسم الحية للدلالة على منتهى الذكاء والحكمة والاشارة الى الحياة • وله القاب عظيمة •

وكان للكلدان (ثالوث) آخر أحد آلهته (سينى) وهو القمر وهذا الاسم سامى فاسم القمر بالسريانية سين وكذا فى السنسكريتية ، ومن ألقابه زعيم الأرباب فى السماء والأرض (وبعل رونا) أى رب البناء ، وكانوا يصورونه فى جميع تطوراته منذ يكون هلالا ، وله هياكل كثيرة واعظم معابده فى (أور) •

والثانى (سان ـــ أو ـــ سانسى) وهو الشمس • والاسم سامى ايضا ومنه السنا بالربية وهو بالقصر الضياء وقيل ضوء النار والبرق والصواب انه أعم قال تعالى « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا » ومنه (شانى) بالعبرية ومعناها لامع ، واسم الشمس باللغة السنسكريتية (سيونا) ومن القاب هذه الاله : رب النار ونير الارض والسماء • وكان له هياكل فى المدن الكبيرة وأشهرها (بيت بارا) وبارا أوفرا اسم الشمس بالمصرية القديمة وكان اسم (هليبوليس) عندهم (سيبارا) وتسمى فى الآثار (تيسبار شماشاماس) ومعنى الثلاثة مدينة الشمس • وللشمس زوجة عندهم يسمونها (اى) و (كولا) و (أنونيت) •

وثالث الثلثة (فــول) أو (ايفا) أى الهواء وهو رب الجو القائم بتسخير الريياح والعواصف والأعاصير المتصرف فى الزراعة والمواسم ٠ ومن هياكله هيكل بناه الملك (شماش وفل) الذى ملك الكلدان سنة ١٨٥٠ قبل المسيح ٠

وهذه الأخبار والآثار تشهد بصدق القرآن ، وكــونه حجــة لله عــلى الأنام ، لأن من جاء به أمى لم يقرأ شيئا من كتب الأولين ، ولا راى اثــرا من آثار الغـــابرين ، فيعلم منها خــبر معبوداتهم ٠ ولا يــرد عليه مــا أورد على العهد العتيق من كون كاتبه (عزرا الكاهن) كتبه بعد السبى فاقتبس منه كثيرا من تقاليد البابليين ٠

مكتشفات سومرية :

وفى كتاب : (السومريون تاريخهم وحضاراتهم وخصائصهم) وهو مجموعة ابحاث ، مستكشفة ما يفيد بلا شك أن سلسلة الأفكار الدينية قديمة ومتصلة وأنها ليست أساطير كما كان يظن وان ما قاله القرآن عما سبق من الحضارات فان المحدث من المستكشفات يؤيده ٠

الا ان التأثير السومرى تغلغل الى التوراة عن طريق الآداب الكنعانية والحورية والحيثية والاكدية ،وعلىالاخص عن طريق الأخيرة، لأن اللغة الأكدية
والحورية والحيثية والاكدية ،وعلىالاخص عن طريق الأخيرة، لأن اللغة الأكدية
كانت تستخدم ، كما هو معروف، جيدا ، فى كافة أنحاء فلسطين وما يحيــط بها فى الألف الثانى قبل الميلاد كلغة مشتركة فى العالم الأدبى كله تقــريبا ٠
وعلى هذا كانت الأعمال الأدبية الأكدية بكل تأكيد معروفة معرفة جيدة عند الأدباء الفلسطينيين ، بما فى ذلك العبرانيون ، ويمكننا أن نتتبع أثر جزء غير قليل من هذه الأعمال الأدبية الأكدية الى نماذج سومرية أولى جددت صياغتها وتغيرت عبر القرون ٠

بيد ان هناك مصدرا ممكنا آخر للتأثيرات السومرية فى التوراة كانت مؤثراته ألصق وأقرب اليه من مؤثــرات المصدر الذى وصف قبــل قليل ، ان هذا المصدر ربما يعود فى الواقع الى الأب ابراهيم نفسه ٠ ان أغلب الباحثين يتفقون على انه بينما تحتوى قصة ابراهيم كما وردت فى التوراة على الكثير مما هو أسطورى وخيالى ، فانها تحتوى أيضا على بذرة مهمــة من الحقيقة

بما فى ذلك ولادة ابراهيم فى مدينة (أور) الكادانية ، التى ربمـــا كانت حوالى ١٧٠٠ ق٠ م وأخبار حياته مع عائلته هناك ٠ وكانت (أور) احدى أهـــم المدن السومرية القديمة ، بل كانت فى الواقع عاصمة بلاد سومر فى ثلاثة عهود مختلفة ٠

وفى أثناء التنقيبات الانكليزية ـ الأمريكية المشتركة التى أجريت هنـــاك بين سنتى ١٩٣٢ و ١٩٣٤ كشف عن عدد كبير من الوثائق الأدبية ٠ومن الجائز جدا أن يكون لابراهيم وآبائه صلة ما مع الانتاج الأدبى السومرى الذى كان يستنسخ أو يبتدع فى مدرسة مدينتهم ٠ وليس من المستحيل أبدا أن يكون هو وأفراد عائلته قد جلبوا معهم بعضا من التقاليد السومرية الى فلسطين ، حيث أصبحوا تدريجيا جزءا من التقاليد والمصادر التى استفاد الأدباء العبرانيون منها فى تأليف وتنقيح كتب التوراة ٠

ومهما يكن الأمر ، فاننا نقدم هنا عددا من الأمثلة التوراتية المتطابقة مع ما هـــو موجود فى الأدب السومرى والتى تشير بلا شك الى بقـــايـــا من التأثيرات السومرية :

١ ــ خلق الكون : لقد كان السومريون يعتقدون كما يعتقد العبرانيون القدامى بأن البحر الأول كان موجودا قبل الخليفة ٠ وكان الكون بالنسبة للسومريين ٠ يتألف من سماء وأركس متحدين ولدتا بطريقة مـــا فى هذا البحر الأولى وأن الاله ـــ الريح « أنليل » الذى ربما لايختلف عن روخ الوهيم ـــ اى روح الله ـ فى سفر التكوين ـــ هو الذى فصل السماء عن الأرض ٠

٢ ـ خلق الانسان : لقد خلق الانسان ، وفقا لتفكير كل من العبرانيين والسومريين ، من الطين وأشرب بـــ « نفس الحياة » ٠ أما الغرض الذى خلق من أجله فهو خدمة الآلهة ـــ أو للوحدة عند العبرانين ـ بالصلاة والابتهال وتقديم القرابين ٠

٣ ـــ أساليب الخلق : لقد تم الخلق وفقا لكل من الكتاب التوراتيين والسومريين بصور رئيسة بطريقتين : بأمر الهى او بـــ «بفعل» أو «تكوين» عملى ٠ وفى هاتين الحالتين كان التخطيط الالهى يسبق الخلق الفعلى على الرغم من عدم التعبير عن هذه الحاجة الى التخطيط على نحو واضح .

٤ ــ الجنة : لم يعثر حتى الآن على متطابقات سومرية لقصة جنة عدن وطرد الانسان منها • بيد أنه توجد عدة مواضيع تتصل بالجنــة لهــا أهمية بالنسبة لأغراض المقارنة ، بما فى ذلك موضوع واحد قوى يساعد على توضيح قصة «الطوفان» فى سفر التكوين ٢ : ٢١ ــ ٢٣ • أضف الى ذلك وجود سبب وجيه للاعتقاد بأن فكرة جنة الهية ، أو حديقة الهية ذاتها من أصــل سومرى (انظر الفصل الرابع) •

٥ ـ الطوفان : تظهر الروايتان التوراتية والسومرية عن قصة الطوفان كما لوحظ منذ فترة طويلة ، عدد كبير من الأفكار المتطابقة تطابقا واضحــا والقوية الصلة ببعضها البعض • ومما تجدر ملاحظته أيضا حقيقة وجود عشرة ملوك حكموا قبل الطوفان ، وكانت أعمارهم طويلة الى درجة غير طبيعية وفقا لرواية عراقية واحدة على الأقل • ويذكرنا هذا ببعض الآباء التوراتيين فى فترة ما قبل الطوفان •

٦ ــ موضوع قابيل وهابيل : ان موضوع المنافسة فى قصة قابيل وهابيل الذى ورد فى التوراة بلا شك بصورة مختصرة جدا كان موضوعا محببا جدا عند الكتاب والشعراء السومريين (انظر الفصل السابع) •

٧ ــ برج بابل وتشتت البشر : لقد بدأت قصة تشييد برج بابل بلا ريب فى محاولة لتوضيح وجود الزقورات فى بلاد مــا بين النهرين • أمــا بالنسبة للعبرانيين فان هذه الأبنية الشاهقة ، التى غالبا ما يمكن رؤيتها فى حالة من الخراب والدمار ، اصبحت رموزا لشعور الانسان بعدم الأمان ، وما يتصل به من لهفة شديدة للحصول على السلطة ، تلك اللهفة التى لا تعود عليه الا بالذل والعــذاب • ولذلك فانه من المستبعد جدا الحصول على مثل مطابق لهــذه القصة عند السومريين الذين كانت الزقورة بالنسبة لهم تمثل رباطا بين السماء والأرض ، أى بين الاله والانسان ، غير أننا قد نجد من الناحية الأخرى فترة العصر الذهبى التى تكون جزءا من القصة الملحمية السومرية « أينمر كار ونفس الكلمات » ، وأن نهاية هذه الحالة السعيدة جاءت على يد اله غاضب فى فترة العصر الذهبى التى تكون جزءا من القصة الملحمية السومرية «أينمر كار وسيد أراتا» (التى أشير اليها فى بداية هذا الفصل) •

٨ ــ الأرض وتنظيمها : ان الأسطورة السومرية « أنكى ونظام العالم »

تنظيم الأرض وعملياتها الحضارية » تقدم وصفا مفصلا لفعاليات « أنكى » ، اله الحكمة السومرية ، فى تنظيم الأرض وفى تأسيس ما يمكن التعبير عنه بالقانون والنظام فيها ٠ ان لهذه القصدة أصداء توراتية فى سفر تثنيةالاشتراع ٣٢ : ٧ ــ ١٤ ، على سبيل المثال (لاحظ بصورة خاصة المقطع ٨) وفى المزمور ١٠٧ ٠

٩ ــ الاله الشخصى : كان العبرانيون القــدامى استنتاجا من العهــد بين الاله وابراهيم ــ لاحظ أيضا الاشارة الى عبارة « اله نـاحـور » فى سفر التكوين ٣١ : ٥٣ ــ على اطــلاع على فــكرة الاله الشخصى ، لقد طــور السومريون الاعتقاد بوجود اله شخصى فى وقت مبكر يعود على الأقل الى منتصف الألف الثالث ق ٠ م ٠ اذ كان لكل ذكر بالغ الرشد ورئيس عائلة وفقا لرأى المعلمين والحكماء السومريين « الهه الشخصى » ، أو ما يشبه الملاك الخير الذى ينظر اليه كأب الهى له ٠ وكان هذا الاله الشخصى على ما يحتمل جدا يتبنى من قبل رب الأسرة السومرية كنتيجة لوحى أو حلم أو رؤيــا تتضمن تفهما متقابلا أو اتفاقا بين الطرفين لا يختلف عن العهد بين الآبــاء العبرانيين والاله يهوا ٠

فى الواقع لم يكن هناك شىء قاطع بالنسبة للطرفين فى العهد بين السومرى والهه الحامى ، ولذلك كان فى هذه الناحية يختلف اختلافا كبيرا عن العهــد بين ابراهيم وربه ٠ ان كل ما كان السومرى ينتظره من الهه الشخصى هو أن يتكلم لصالحه ويتدخل فى مجتمع الآلهة من أجله متى تطلبت الظروف ذلك وبهذا يحقق له حياة طويلة وصحة سليمة ، وكان الشخص مقابل ذلك يقوم بتمجيد الهه بالأدعية والابتهالات وتقديم القرابين ، على الرغم من أنه كان يواصل فى نفس الوقت عبادة آلهة المجمع الالهى السومرى الأخرى ومع ذلك كانت هناك علاقة متينة وودية وموثوق بها بل ورقيقة بين السومرى الشخصى٠ علاقة تحمل فى طياتها تشابها غير قليل من العلاقة بين يهوا والآباء العبرانيين وبين يهوا والعبرانيين ككل فى الأزمان المتأخرة ، كما تشير الى ذلك الوثيقة الأدبية السومرية المعنونة « الانسان والهه » ٠

١٠ ــ الشريعة : ان حقيقة كون كل من الشرائع التوراتية وشريعة حمورابى المعروفة منذ مدة طويلة تظهر العديد من التشابهات فى المحتوى والصيغة

بل حتى بالتنظيم ، قد لوحظت فى الواقع من قبل دارسى العهد القديم جميعهم، ولكن شريعة حمورابى نفسها ، كما ظهر فى السنوات الأخيرة ، عبارة عن مؤلف اكدى استند بصورة عامة الى النماذج السومرية الأولى « الفصل الرابع » وفى الواقع • هناك سبب وجيه يدفعنا الى الاستنتاج بأن نمو وتطور المفاهيم والممارسات والسوابق والتآليف القانونية والرائعين فى الشرق الأدنى القديم يرجعان بصورة عامة الى السومريين والى توكيدهم المبالغ فيه كثيرا على المنافسة والتفوق (انظر الفصل السابع) •

١١ ـ الأخلاق والتعاليم الأخلاقية : ان المفاهيم الأخلاقية والمثل المعنوية التى طورها السومريون كانت متطابقة مع مفاهيم ومثل العبرانيين ، على الرغم من أنها كانت تفتقر الى حساسيتها الخلقية وحماسها المعنوى الواضحين تقريبا وعلى الأخص فى تلك السجايا التى ضربت عليها امثلة فى الأدب التوراتى التنبؤى • لقد كان السومرى من الناحية النفسية (السيكولوجية) أكثر تشامخا وتحفظا من العبرانى ، كان أكثر تحفظا من الناحية العاطفية واكثر تمسكا بالشكليات وبالمنهجية • وكان ينزع الى النظر الى اخوانه من البشر بشىء من الشك والريبة ، بل وحتى بشىء من الخوف الذى بكبت الى حد غير قليل الدفء والعطف والحنان البصرى ، تلك الصفات الحيوية جـدا بالنسبة الى النمو الروحى والسعادة • وعلى الرغم من مكتسباته الخلقية الرفيعة فان السومرى لم يصل أبدا الى الاعتقاد السامى بأن « قلبا نقيا » و « أيادى طاهرة » كان تقدر عند الآلهة من أكثر الصلوات الطويلة والقرابين المتوافرة والطقوس المعقدة •

١٢ ـ الثواب والعقاب الالهيان والكارثة القومية : ان غضب « يهوا » واذلاله وتدميره للشعب الذى كان يجلب على نفسه ذلك تؤلف موضوعا يتكرر دائما فى الكتب التوراتية • وكانت الكارثة القومية تحل عادة بهجوم عنيف يقوم به شعب مجاور يختار بصورة خاصة ليكون عصا الاله يهوا وسوطه • وتقدم الوثيقة التاريخية « لعنة أكد » نظيرا مثيرا لهذا الموضوع : وهو أن « انليل » الاله القائد فى مجمع الالهة السومرى ، بعد أن اثار غضبه الشديد حاكم من حكام أكد اتصف بالكفر رفع نظره الى الجبال وجاء بالـ « جوتيين » البرابرة القساة الذين لم يدمروا اكد فقط بل شرعوا أيضا بتدمير كل بلاد سومر تقريبا •

١٣ ـ موضوع الوباء : تحتوى الأسطورة السومرية « اينانا وشوكاليتودا : خطيئة البستانى الميتة » على موضوع حلول وباء فى بلاد سؤمر يطابق الى حد ما موضوع الوباء التوراتى فى قصة سفر الخروج . ففى كلتا الحالتين أرسل اله اغضبته افعال سيئة واثم يقترفه فرد من الأفراد سلسلة من الأوبئة على بلاد بكاملها وعلى سكانها .

١٤ ـ المعاناة والاستسلام : موضوع « أيوب » . لقد تيسرت قبل فترة تتصف بكثرة البكاء وشدة الحزن .

١٥ ـ المعاناة والاستسلام : موضوع « أيوب » . لقد تيسرت قبل فترة قريبة جدا مقالة شعرية توراتية ذات أهمية غير قليلة بالنسبه للدراسات التوراتية المقارنة . ان موضوعها الرئيسى المعاناة والاستسلام البشرى ، متطابق مع الموضوع الذى عولج برقة متناهية وبشكل مثير للمشاعر فى سفر « ايوب » فى التوراة ، بل كانت الأحداث التى ذكرت كمقدمة متشابهة : رجل من الناس ـ لم يذكر اسمه فى القصيدة السومرية ـ كان غنيا وحكيما وعادلا . وكان ينعم ببركة صفاء العيش مع الأصدقاء وذوى القربى، أصيب فى يوم من الأيام ، بلا سبب واضح بالسقم والعذاب والفقر وخيانة الأصدقاء وكره الناس له . على أننا نعترف بأن هذه المقالة السومرية ، التى تتكون من أقل من مائة وخمسين سطرا لا تقارن بأية حال بالسفر التوراتى من حيث سعة المدى وعمق الفهم وجمال التعبير ، الا أنها أقرب كثيرا من حيث المزاج والانفعال والمحتوى الى المزامير التى وردت فى « سفر المزامير » والتى تتصف بكثرة البكاء وشدة الحزن .

١٦ ـ الموت والعالم السفلى : ان عالم الموتى ، ومثوى الأموات فى الميثولوجيا الاغريقية بقدر ما يتعلق الأمر بهذا الموضوع لهما ما يقابلهما فى « كور » السمرى . فقد كان الـ « كور » ، مثل عالم الموتى العبرانى ، سكن الأموات المظلم المخيف . وكان ارضا لا عود منها ، ولو أنه قد يستدعى منها فى حالات خاصة فقط (١) .

---

(١) السومريون : تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم تاليف صموئيل نوح كريم ـ ترجمة فيصل الوائلى .

هذه الأشياء كشفت عنها الحفائر وأكدت أحداثها غير ان بعض المؤرخين يذهب الى وصفها بالاسطورة ونقول : ان وصفها بالأسطورة لا يلغيها لأن هيكل الأسطورة كان حقيقة خارجة تلقفها الانسان بخياله فانحرف بهـــا فأحدث فيهـــا ما أحدث من الوان واسقط عليهـــا مضامين اخيلته ليجيب بها حاجة فى نفسه فمثلا تمثال أبو الهول فى تصوره أسطورة ولكنه اجزاء هيكل حقيقية .

فوجهه : منتزع من الانسان وهو حقيقة خارجة ٠ وجسمه : منتزع من الحيوان وهو حقيقة خارجة ٠ لكن التشكيل العام هو الأسطورة ٠

فوصف الشىء بالأسطورة لا يلغى حقيقة وجوده انما يؤكد وجوده مع غرام الانسان به ٠

رسالة الجاحظ

ونحن نطالع رسائل الجاحظ وهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ١٥٠ — ٢٥٥ وهى تحقيق وشرح العلامة المحقق الاستاذ / عبد السلام محمد هارون نشر الخانجى وقع بصرنا على رساله : الرد على النصارى .. ورأينا فيهــا قيمه علميه تخدم وجهه نظرنا فى كتابنا : فى الفكر الدينى الجاهلى .. من جوانب فهى من جانب تعتبر وثيقه علميه شاهده على أن علم الاديان المقارن ، قد ظهر على أيدى العرب منذ القرن الثانى للهجره بأسلوبه العلمى الدقيق يعالج فيما يعرضه بأمانه علميه للفكره بين أنصارها وخصومهــا — بأسلوب هادىء ورزين قضا بالاطراف المتنازعه .

ومن جانب أخر تعتبر وثيقه علميه شاهده أيضا على أنتشار المسيحيه فى الجزيره العربيـــة والقبائل التى دانت ومدى علمها بها .. وكأنها ترسم رسما بيانيا للروافــد التى حملت المسيحيه الى مكه .. وهذا ما تعرضنا له فى كتابنا فهى تؤدى ما قلناه ونزيد عليــه — ومن ثالث : يأخذك الجاحظ وهو يتصدر لمشاكل علم الاديان المقارن من غير أن يأخذك الملل ويجعلك شريكا فى احكامه بأسلوبـــه السهل المتع والممتنع .

فاذا هو يدخل بك أعماق النفس وأعماق المجتمع ليحصى الاسباب الاجتماعية والنفسية والثقافية فأنا مبتدىء فى ذكر الاسباب التى لها صارت النصارى أحب الى العوام من المجـوس وأسلم صدورا عندهم من اليهود وأقرب موده وأقـــل غائله ، واصغر كفرا وأهون عذابا . ولذلك أسباب كثيره ووجـــوه واضحـــه يعرفهــا من النظر ويجهلها من لم ينظـــر ... ذلك هو الجاحظ .

فتجـــد نفســك فى النهـــاية أمام وثيقه شاهده على عمق الجـــدل والحوار فى صياغـــة سلسلة وفى ترفق ولين — ففيهـــا جوانب لعلـــم الاجتماع الدينى والوان من علم النفس الدينى — واليك الرسالــه :

١ ـــ فصل من صدر كتابه فى الرد على النصارى (١)

الحمد لله الذى من علينا بتوحيده ، وجعلنا ممن ينفى شبهة خلقه (٢) وسياسة عباده (٣) ، وجعلنا لا نفرق بين أحد من رسله ، ولا نجحد كتابا أوجب علينا الاقرار به ، ولا نضيف اليه ما ليس منه ، انه حميد مجيد ، فعال لمـــا يريد .

أما بعد فقد قرأت كتابكم ، وفهمت ما ذكرتم فيه(٤) من مسائل النصارى قبلكم ، وما دخل على قلوب أحداثكم وضعفائكم من اللبس ، والذى خفتموه على جواباتهم من العجز ، وما سألتم من اقرارهم بالمسائل ومن حسن معونتهم بالجواب .

وذكرتم أنهم قالوا : ان الدليل على أن كتابنا باطل ، وأمرنا فاسد ، اننا ندعى عليهم ما لا يعرفونه فيما بينهم ، ولا يعرفونه من أسلافهم ، لأنا نزعم أن الله جل وعز قال فى كتابه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: « واذ قال الله يا عيسى بن مريم أانت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله (٥) » ، وأنهم زعموا أنهم لم يدينوا قط بأن مريم اله فى سرهم ،

---

(١) نشر هذا الاختيار من قبل ، بعد ظهوره على هامش الكامل ، في مجموعة يوشع فنكل ، وعنوانها (ثلاث رسائل لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) وطبعت في المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ . وجعلت هذه المجموعة هدية من مجلة الزهراء التى كان يصدرها الاستاذ محب الدين الخطيب ، الى قرائها في السنة الثانية . والرسالة التى تليها هى (ذم اخلاق الكتاب)، ثم (رسالة القيان) . وقد تمت بنشر هاتين الأخيرتين في الجزء الثانى من الرسائل في الصفحات ١٣٩ ـــ ٢٠٩ .

(٢) يعنى كونه مخلوقا

(٣) اشارة الى مايرى المعتزلة من انه غير خالق لافعال العباد ، فهم يخلقون افعالهم ويريدونها ، فيحاسبون على مافعلوا .

(٤) ب : « من ما ذكرتم » .

(٥) الآية ١١٦ من سورة المائدة .

ولا ادعوا ذلك قط فى علانيتهم • وأنهم زعموا أنا ادعينا عليهم ما لا يعرفون ، كما ادعينا على اليهود ما لا يعرفون ، حين نطق كتابنا ، وشهد نبينا : أن اليهود قالوا : ان عزيرا ابن الله (١) ، وان يد الله مغلولة (٢) ، وأن الله فقير وهم أغنياء (٣) • وهذا ما لا يتكلم به انسان ، ولا يعرف فى شيء من الأديان •

ولو كانوا يقولون فى عزير (٤) ما نحلتمون وادعيتموه ، لما جحدوه من دينهم ، ولما أنكروا أن يكون من قولهم ، ولما كانوا بانكار بنوة عزير احق منا بانكار بنوة المسيح ، ولما كان علينا منكم بأس بعد عقد الذمة ، واخذ الجزية •

وذكرتم انهم قالوا : ومما يدل على غلطكم فى الأخبار ، وأخذكم العلم عن غير الثقات (٥) ، أن كتابكم ينطق أن فرعون قال لهامان : « ابن لى صرحا (٦) • وهامان لم يكن الا فى زمن الفرس ، وبعد زمن فرعون بدهر طويل، وان ذلك معروف عند أصحاب الكتب ، مشهور عند أهل العلم • وانما اتخذ صرحا ليكون اذا علاه أشرف على الله •

وفرعون لا يخلو من أن يكون جاحدا لله تعالى ، أو مقرا به • فان كان دينه عند نفسه وأهل مملكته نفى الله وجحده ، فما وجه اتخاذ الصرح وطلب الاشراف ، وليس هناك شيء ولا اله ؟

---

(١) ب : « عزير ابن الله » .

(٢) اشارة الى الآية ٦٤ من المائدة .

(٣) اشارة الى الآية ١٨١ من آل عمران .

(٤) ب : نقط : « يقولون في شيء في عزير » .

(٥) في جميع النسخ : « الثقاة » ، وهو خطأ فادح في الرسم الذى يوجب رسم تاء جمع المؤنث السالم مبسوطة .

(٦) من الآية ٣٦ في غافر .

(٧) م نقط : « لم يكن في زمن الفرس » ، تحريف .

وان كان مقرا بالله عارفا به ، فلا يخلو من أن يكون مشبها أو نافيا للتشبيه • فان كان ممن ينفى الطول والعرض والعمق والحدود والجهات ، فما وجه طلبه له فى مكان بعينه ، وهو عنده بكل مكان ؟ وان كان مشبها فقد علم أنه ليس فى طاقة بنى آدم أن يبنوا بنيانا ، أو يرفعوا صرحا يخرق سبع سموات بأعماقهن ، والأجزاء التى بينهن ، حتى يحاذى(١) العرش ثم يعـــلوه •

وفرعون وان كان كافرا فلم يكن مجنونا ، ولا كان الى نقص العقل من بين الملوك منسوبا • على أن الحكم قد يقوم (٢) بعقول الملوك بالفضيلة على عقول الرعية •

وذكرتم انهم قالوا : تزعمون أن الله تعالى ذكر يحيى بن زكريا يخبر أنه « لم يجعل له من قبل سميا(٣) » ، وأنهم يجدون فى كتبهم وفيما لايختلف فيه خاصتهم وعامتهم أنه كان من قبل يحيى بن زكريا غير واحد يقال له يحيى، منهم : يوحنا بن فرح (٤) •

وزعمتم أنهم قالوا لكم (٥) : انكم ذكرتم أن الله قال فى كتابه لنبيكم : «وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم(٦) ، فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون (٧) » ، وانما عنى بقوله : « أهل الذكر » : أهل التوراة ،وأصحاب

---

(١) ب : « يحازى » ، تحريف •

(٢) ب : « قد يقدم » •

(٣) من الآية ٧ في سورة مريم •

(٤) لم اجد له ذكرا في كتب الجاحظ ، كما لم أجد له خبرا الا في سفر أرميا ٤٠ : ٨ و ٤١ : ١١ و ٤٣ : ٦ • واسمه في هذا السفر : يوحانان بن قاريح •

(٥) ب فقط : « لك » صوابه في م ، ط •

(٦) كذا القراءة في الآية ٤٣ من سورة النحل • أما في الاية ٧ من سورة الانبياء فقراءة الجمهور فيها : « يوحى اليهم » ، كما ورد في نسخة ب ، وقرأها حفص فقط : « نوحى اليهم » أنظر اتحاف فضلاء البشر ٣٠٩ •

(٧) هى الآية ٤٣ من سورة النحل ، ونصها هو نص الاية ٧ من الأنبياء •

الكتب يقولون : ان الله قد بعث من النساء نبيات منهن مريم بنت عمران (١)، وبعث منهن حنة (٢) ، وسارى (٣) ، ورفقى (٤) ٠

وذكرتم أنهم قالوا : زعمتم أن عيسى تكلم فى المهد ، ونحن على تقديمنا له ، وتقريبنا لأمره ، وافراطنا بزعمكم فيه ، علي كثرة عددنا ، وتفاوت بلادنا ، واختلافنا فيما بيننا ، لا نعرف ذلك ولا ندعيه (٥) ، وكيف ندعيه ولم نسمعه عن سلف ، ولا ادعاه منا مدع ٠

ثم هذه اليهود لا تعرف ذلك ، وتزعم أنها لم تسمع به الا منكم ، ولا تعرفه المجوس ، ولا الصابئون ، ولا عباد البددة (٦) من الهند وغيرهم ، ولا الترك

---

(١) انظر بقية نسبها في الطبرى ١ : ٥٨٦ ٠

(٢) هى حنة بنت فنوئيل ، من سبط أشير ٠ انجيل لوقا ٢ : ٣٦

(٣) سميت في العهد القديم « ساراى » تكوين ١١ : ٢٩ ، ٣٠ / ١٢ : ٥ ، ١١، ١٧ / ١٦ : ١ — ٩ وجاء في سفر التكوين ١٧ : ٥ في مخاطبة ابراهيم عليه السلام : « فلا يدعى اسمك بعد ابرام ، بل يكون اسمك ابراهيم » وفي الفقرة الخامسة عشرة منه : « وقال الله لابراهيم : ساراى امرأتك لاتدعو اسمها ساراى ، بل اسمها سارا »، وفي حواشى سفر التكوين ان « سارة » بمعنى رئيسة ٠ وسارة هذه هى بنت هاران الاكبر عم ابراهيم ، كما في الطبرى ١ : ٢٤٤ ، وفيها الآية الكريمة : « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب » ٠ وسارة تضبط بتخفيف الراء ، ويخطىء من يشددها ، وان كانت قد ضبطت بذلك في اللسان (هجر ١١٨ ورقم ١٨٠) وشرح القسطلانى ٤ : ١٠٢ ٠ ومما يعين ضبطها بتخفيف الراء قول جرير في ديوانه ٥٤٣ :

فيجمعنا والعز أولاد سارة   أب لايبالى بعده من تعذرا

(٤) ورسمت في الطبرى « رفقا » ، وهو الوجه ، لان جميع المنتهى بالالف اللينة من الاسماء الاعجمية حقه ان يكتب بالالف ، ماعدا الاسماء الخمسة : موسى ، عيسى ، كسرى، بخارى ، متى ٠ وهى رفقا ابنة بتويل بن ناحور بن تارخ ، وهى امرأة اسحاق ، كما في الطبرى ١ : ٣١٣ وتسمى ايضا « رفقة » في التكوين ٢٤ : ١٥ ، ٢٩ / ٢٥ : ٢٠

(٥) ب ، م : « لايعرف ذلك ولا يدعيه » ، صوابه في ط ٠

(٦) البد ، بالضم : الصنم الذى يعبد ، وهو اعراب بت ، بالفارسية بضم الباء ايضا ٠ والجمع البددة ٠ ب : « البدرة » ط : « المدرة » ، صوابهما في م ٠ وانظر ما سبق في حواشى ٢٥٢ ٠

والخزر(١) ، ولا بلغنا ذلك عن أحد من الأمم السالفة ، والقرون الماضية ، ولا فى الانجيل ، ولا فى ذكر صفات المسيح فى الكتب والبشارات به على ألسنة الرسل ٠

ومثل هذا لا يجوز ان يجهله الولى والعدو ، وغير الولى وغير العدو ، ولا يضرب به مثل ، ولا يروح به الناس ، ثم يجمع النصارى على رده ، مع حبهم لتقوية امره٠ ولم يكونوا ليضادوكم .(٢) فيما يرجع عليهم نفعه ٠ وكيف لم يكذبوهم فى احيائه الموتى ، ومشيه على الماء ، وابراء الأكمة والأبرص ؟؟ بل لم يكونوا ليتفقوا على اظهار خلاف دينهم ، وانكار اعظم حجة كانت لصاحبهم ، ومثل هذا لا ينكتم ولا ينفك ممن يخالف وينم (٣) ٠

والكلام فى المهد اعجب من كل عجب ، وأغرب من كل غريب ، وأبدع من كل بديع ، لأن احياء الموتى والمشى على الماء ، واقامة المقعد ، وابراء الأعمى ، وابراء الأكمة (٤) قد اتت به الانبياء ، وعرفه الرسل ، ودار فى اسماعهم ٠ ولم يتكلم صبى قط ، ولا مولود فى المهد ٠

وكيف ضاعت هذه الآية ، وسقطت حجة هذه العلامة من بين كل علامة ؟؟

وبعد ، فكل أعجوبة يأتى بها الرجال (٥) ، والمعروفون بالبيان ، والمنسوبون

---

(١) م : « والحزر » ، تحريف . والخزر جيل من الترك كان يقر حكمهم في سهوب القوقاز الشمالية . وانظر مادتى (بلغار) و (الخزر) في دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) ب ، م : « ولم يكن ليضادوهم » .

(٣) ب فقط : « ويتم » بالتاء .

(٤) الاكمه : الذى يولد اعمى ، ومصدره الكمه ، بالتحريك . وربما جاء الكمه في الشعر للعمى العارض ، كما جاء في قول سويد بن ابى كاهل اليشكرى في المفضليات ٢٠٠ :

كمهت عيناه لما ابيضتا ... فهو يلحى نفسه لما نزع

(٥) ب ، م : « الرجل » ، واثبت ما في ط .

الى صواب الرأى ، تكون(١) الحيلة فى الظن اليها اقرب ، وخوف الخدعة عليها اغلب • والصبى المولود عاجز فى الفطرة ، ممتنع من كل حيلة ، لا يحتاج فيه الى نظر ، ولا يشبهه من شاهده بدخل (٢) •

٢ ـ فصل منه

وسنقول فى جميع ما ورد علينا من مسائلكم ، وفيما لا يقع اليكم من مسائلهم ، بالشواهد الظاهرة ، والحجج القوية ، والأدلة الاضطرارية ، ثم نسألهم بعد جوابنا اياهم عن وجوه يعرفون بها انتقاض قولهم ، وانتشار مذهبهم (٣) ، وتهافت دينهم •

ونحن نعوذ بالله من التكلف والانتحال ما لا نحسن ، ونسأله القصد فى القول والعمل ، وأن يكون ذلك لوجهه ، ولنصرة دينه ، انه قريب مجيب •

فانا مبتدىء فى ذكر الأسباب التى لها (٤) صارت النصارى أحب الى العوام من المجوس ، وأسلم صدورا عندهم من اليهود ، وأقرب مودة ، وأقل غائلة ، وأصغر كفرا ، وأهون عذابا •

ولذلك أسباب كثيرة ، ووجوه واضحة ، يعرفها من نظر ، ويجهلها من لم ينظر •

---

(١) ب ، م : « تكون » ، صوابه في ط .

(٢) ط فقط : « ولا ليشبهه » . والدخل ، بالتحريك وبالفتح ايضا : الريبة والغش. قال الله تعالى : « تتخذون ايمانكم دخلا بينكم » . وفي كلام ابنة الخس :

ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل

(٣) انتشار مذهبهم : تفرقه وعدم ترابطه . ويقولون : ضم الله نشرك ، بالتحريك ، اى لم شعثك .

(٤) ب : « التى بها » .

أول ذلك أن اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها ، وعداوة الجيران شبيهة بعداوة الأقارب فى شدة التمكن وثبات الحقد ، وانما يعادى الانسان من يعرف ، ويميل على من يرى ، ويناقض من يشاكل ، ويبدو له عيوب من يخالط . وعلى قدر الحب والقرب يكون البغض والبعد ، ولذلك كانت حروب الجيران وبنى الأعمام من سائر الناس وسائر العرب اطول ، وعداوتهم اشـــد .

فلما صار المهاجرون لليهود جيرانا ، وقد كانت الأنصار متقدمة الجوار ، مشاركة فى الدار ، حسدتهم اليهود على النعمة (١) فى الدين ، والاجتماع بعد الافتراق ، والتواصل بعد التقاطع ، وشبهوا على العوام (٢) ، واستمالوا الضعفة ، ومالئوا (٣) الاعداء والحسدة ، ثم جاوزوا الطعن وادخال الشبهة ، الى المناجزة والمنابذة بالعداوة ، فجمعوا كيدهم ، وبذلوا انفسهم وأموالهم فى قتالهم ، واخراجهم من ديارهم ، وطال ذلك واستفاض فيهم (٤) وظهر ، وترادف لذلك الغيظ ، وتضاعف البغض ، وتمكن الحقد .

وكانت النصارى لبعد ديارهم (٥) ، من مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، ومهاجره ، لا يتكلفون طعنا (٦) ، ولا يثيرون كيدا (٧) ، ولا يجمعون على

---

(١) ب ، م : « حسدتهم اليهود النعمة » ، وهى صحيحة ايضا ، يقال حسده على الشىء وحسده اياه ، كما في قول شمر بن الحارث الضبى :

فقلت الى الطعام فقال منهم   زعيم نحســد الانس الطعامـــا

(٢) ط فقط : « التوام » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « وملاوا » ، ، صوابه في ط . والممالأة : المساعدة ، والمشايعة

(٤) ب ، ، م : « واستقاص فيهم » ، صوابه في ط .

(٥) ب ، م : « ديارها » .

(٦) ب ، م : « لايتكلف طعنا » ، صوابه في ط .

(٧) ب ، م : « ولا يستركيدا » ، والوجه في ط .

حرب(١) . فكان هذا أول أسباب ما غلظ القلوب على اليهود ، ولينها على النصارى .

ثم كان من أمر المهاجرين الى الحبشة ، واعتمادهم على تلك الجنبة (٢) ما حببهم (٣) الى عوام المسلمين . وكلما لانت القلوب لقوم غلظت على أعدائهم، وبقدر ما نقص من بغض النصارى زاد في بغض اليهود .

ومن شأن الناس حب من اصطنع اليهم خيراً أو جرى على يديه (٤) ، أراد الله بذلك أو لم يرده ، وبقصد (٥) كان أم باتفاق .

وأمر آخر ، وهو من أمتن أسبابهم واقوى امورهم ، وهو تأويل آية غلطت فيها العامة حتى نازعت الخاصة ، وحفظتها النصارى واحتجت ، واستمالت قلوب الرعاع والسفلة ، وهو قول الله تعالى : « لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا (٦) » . الى قوله : « وذلك جزاء المحسنين (٧) » . وفي نفس الآية أعظم الدليل على أن الله تعالى لم يعن هؤلاء النصارى ولا أشباههم : الملكانية (٨) واليعقوبية (٩) ، وانما عنى ضرب

---

(١) ب ، م : « ولا يجمع على حرب » ، تحريف .

(٢) الجنبة : الجانب . وفي ط فقط : « الجهة » .

(٣) ب فقط : « ماجبهم » ، صوابه في م ، ط .

(٤) الكلام بعده الى كلمة « باتفاق » ساقط من ط .

(٥) في الاصل ، وهو هنا ب ، م : « وبعد » ، والوجه ما اثبت .

(٦) الآية ٨٢ من سورة المائدة .

(٧) يعنى الآيات ٨٢ — ٨٥ من سورة المائدة .

(٨) ب فقط : « المكانية » ، صوابه في م ، ط ويقال ملكانيه وملكائية ايضا بالهمز، كما في مفاتيح العلوم ٢٣ . ويقال ايضا الملكية ، كما في التنبيه والاشراف للمسعودى ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣١ . وجاء في مفاتيح العلوم ٢٣ : « وهم منسوبون الى ملكا ، وهو أقدمهم » ، اى اقدم النصارى . وفي الملل والنحل ٢ : ٦٢ : « الملكانية اصحاب ملكا الذى ظهر بالروم واستولى عليها » . والحق ان الملكانيين منسوبون الى « ملكا» ومعناه الملك بالسريانية . والمراد بهم اتباع مذهب قياصرة الروم الذى يسمى أيضا المذهب الخلقيدونى ، الذى اقره المجمع المعقود في خلقيدونية سنة ٤٥١ م . وفي مفاتيح العلوم : « واهل الروم كلهم ملكائية » . وانظر تاريخ الامة القبطية (الحلقة الثانية ص ٩١ — ٩٣).

(٩) اليعقوبية ، او اليعاقبة : ثالثة فرق قدماء النصارى ، وهم الملكانية ، والنسطورية،

بحيرا (١) ، وضرب الرهبان الذين يخدمهم سلمان (٢) .

وبين حمل قوله(٣) : « الذين قالوا انا نصارى » على الغلط منهم فى الأسماء ، وبين أن نجزم عليهم (٤) لأنهم نصارى — فرق .

كما ذكر اليهود انه جاء الاسلام وملوك العرب رجلان : غسانى ولخمى ، وهما نصرانيان ، وقد كانت العرب تدين لهما ، وتؤدى الاتاوة اليهما ، فكان تعظيم قلوبهم لهما راجعا (٥) الى تعظيم دينهما . وكادت تتهامة ، وان كانت لقاحا (٦) لا تدين الدين (٧) ، ولا تؤدى الاتاوة ، ولا تدين للملوك ، فانها(١)

= واليعقوبية . وهم ينسبون الى مار يعقوب . قال الخوارزمى في مفاتيح العلوم : « وهم قليل » . وفي الفصل لابن حزم ١ : ٤٩ : « ينسبون الى يعقوب البرذعانى ، وكان راهبا بالقسطنطينية » . وانظر الملل والنحل ٢ : ٦٦ .

(١) بحيرا الراهب ، بفتح الباء ، كما في القاموس ، وقد رسم بالياء في آخره في القاموس وشرحه ، والوجه كتابته بالالف كما في الاصابة ٥٩٥ . وهو الذى لقى الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثه في ركب قريش حين نزلوا بصرى من أرض الشام ، فاستضافهم جميعا ، وعرف رسول الله معا كان يعرف من صفته من قبل . السيرة ١١٥ — ١١٧ .

(٢) سلمان الفارسى : صحابى جليل ، اصله من رام هرمز ، وقيل من أصبهان ، وكان قد سمع بان النبى صلى الله عليه وسلم سيبعث ، فخرج في طلب ذلك ، وأسلم ، وشهدا بدرا ، وآخى النبى بينه وبين أبى الدرداء . الاصابة ٣٣٥٠ والسيرة ١٣٦ ، ٣٤٥ ، ٦٦٣ ، ٦٧٧ . ب : « نجد منهم سلمان » م : « يجذمهم سلمان » وفي ط : «يجذبهم سلمان » ، والصواب ما أثبت . وقد وجدت نصا صريحا في سيرة ابن هشام ١٣٨ يقول فيه سلمان لأسقف الكنيسة في الشام قبل اسلامه : « انى قد رغبت في هـذا الدين فأحببت ان أكون معك وأخدمك في كنيستك » . ثم تروى السيرة تنقله في كنائس الموصل ، ونصيبين ،،وعمورية ، ومن عمورية انتقل الى ارض العرب حتى كان بالمدينة ولقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل في الاسلام .

(٣) ب ، م : « وبين قوله » بسقوط كلمة « حمل » .

(٤) ب : « نجرم » ط : « نجرى » . وأثبت مافي م .

(٥) ب ، م : « راجعة » ط : « راجع » ، صوابهما ما أثبت .

(٦) يقال حى لقاح ، كسحاب : لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم سباء في الجاهلية . قال ثعلب : مشتق من لقاح الناقة ، لان الناقة اذا لقحت لم تطاوع الفحل .

(٧) كلمة «الدين» ساقطة من ط . وفي ب ، م : «لايدين» . صوابهما في ط .

كانت لا تمتنع من تعظيم ما عظم الناس ، وتصغير ما صغروا ·

ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة فى العرب ، معروفة عند أهل النسب ، ولولا ذلك لدللت عليها (٢) بالأشعار المعروفة ، والأخبار الصحيحة ·

وقد كانت تتجر الى الشام ، وينفذ (٣) رجالها الى ملوك الروم ، ولها رحلة فى الشتاء والصيف ، فى تجارة مرة الى الحبشة ، ومرة قبل الشام ومرة بيثرب (٤) ، ومصيفها بالطائف ، ومرة منيحين مستأنفا بحمده (٥) ، فكانوا أصحاب نعمة ، وذلك مشهور مذكور فى القرآن ، وعند أهل المعرفة ·

وقد كانت تهاجر الى الحبشة (٦) ، وتاتى باب النجاشي وافدة ، فيحبوهم بالجزيل(٧) ، ويعرف لهم الأقدار ، ولم تكن تعرف كسرى (٨) ، ولا تانس بهم · وقيصر والنجاشي نصرانيان ، فكان ذلك ايضا للنصارى ، دون اليهود ·

والآخر من الناس تبع للاول فى تعظيم من عظم ، وتصغير من صغر ·

---

(١) ب ، م : « وبأنها » ط : « لانها » ، والوجه ما أثبت

(٢) ب فقط : « عليه » تحريف .

(٣) ط فقط : « وتنفذ » .

(٤) ومرة بيثرب ، ساقطة من ط .

(٥) كذا وردت هذه العبارة في ب ، م مع سقوطها من ط، لكن في م : «بجهده» . ولعلها « ومرة ميمنين » من أيمن ويمن تيمينا ، اذا أتى اليمن .

(٦) ب ، م : « تهاجر الحبشة » ، صوابها في ط .

(٧)يحبوهم ، من الحباء ، وهو العطاء بلا من ولا جزاء . ب ، م : «فيحيوهم» ط : « فيحييهم » ، صوابهما ما أثبت .

(٨) ط : « ولم يكن يعرف ذلك كسرى » .

واخرى (١) : أن العرب كانت النصرانية فيها فاشية ، وعليها غالبة ، الا مضر ، فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ، ولم تفش فيها النصرانية ، الا ما(٢) كان من قوم منهم نزلوا الحيرة (٣) يسمون : العباد ، فانهم كانوا نصارى ، وهم مغمورون مع نبذ يسير (٤) فى بعض القبائل . ولم تعرف مضر الا دين العرب ، ثم الاسلام .

وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها : على لخم ، وغسان ، والحارث بن كعب بنجران ، وقضاعة ، وطى ، فى قبائل كثيرة ، وأحياء معروفة . ثم ظهرت فى ربيعة فغلبت على تغلب وعبد القيس وافناء بكر(٥) ، ثم فى آل ذى الجدين خاصة .

وجاء الاسلام وليست اليهودية (٦) بغالبة على قبيلة ، الا ما كان من ناس من اليمانية ، ونبذ يسير (٧) من جميع اياد وربيعة . ومعظم اليهودية انما كانت بيثرب وحمير وتيماء ووادى القرى ، فى ولد هارون ، دون العرب .

فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى الملك الذى كان فيهم ، والقرابة التى كانت تمسهم . ثم رأت عوامنا أن فيها ملكا قائما ، وأن فيهم عربا كثيرة(٨) ، وأن بنات الروم ولدن لملوك الاسلام ، وأن فى النصارى متكلمين وأطباء ومنجمين ،

---

(١) ط : « واخرى ، وهى » .

(٢) في الاصول : « الا من كان » ، ووجهه ما اثبت .

(٣) نزلوا الحيرة ، ساقط من ب .

(٤) النبذ ، بالفتح : الشىء القليل . ب نقط : « معمورون مع نبذ يسيرة » ، صوابه في ط .

(٥) الافناء : الاخلاط النزاع من هاهنا وهاهنا ، الواحد فنو ، بالكسر .

(٦) ب ، م : « لليهودية » ، صوابه في ط .

(٧) ب : « ونبذ يسيرة » تحريف . وانظر ما مضى قريبا .

(٨) ب ، م : « غربا كثيرة » صوابه بالعين المهملة كما في ط .

فصاروا بذلك عندهم عقلاء وفلاسفة حكماء ، ولم يروا ذلك فى اليهود .

وانما اختلفت(١) أحوال اليهود والنصارى فى ذلك لأن اليهود ترى أن النظر فى الفلسفة (٢) كفر ، والكلام فى الدين بدعة ، وانه مجلبة لكل شبهة ، وانه لا علم الا ما كان فى التوراة وكتب الأنبياء ، وان الايمان بالطب ، وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة والخروج الى الدهريه ، والخلاف على الاسلاف وأهل القدوة ، حتى انهم ليبهرجون المشهور بذلك ، ويحرمون كلام من سلك (٣) سبيل أولئك .

ولو علمت العوام أن النصارى والروم ليست لهم حكمة ولابيان ، ولابعد روية(٤) ، الا حكمة الكف ، من الخرط والنجر والتصوير ، وحياكة البزيون(٥) لأخرجتهم من حدود الأدباء ، ولمحتهم من ديوان الفلاسفة والحكماء ، لأن كتاب المنطق والكون والفساد ، وكتاب العلوى(٦) ، وغير ذلك ، لأرسطاطاليس(٧) وليس برومى ولا نصرانى .

وكتاب المجسطى لبطليموس(٨) ، وليس برومى ولا نصرانى .

وكتاب اقليدس لاقليدس ، وليس برومى ولا نصرانى .

---

(١) ب ، م : « اختلف » .

(٢) ب فقط : « في الفلاسفة » .

(٣) ط : « كلام سالك » .

(٤) ب ، م : « رؤية » .

(٥) البزيون : السندس . قال ابن برى : هو رقيق الديباج . وضبطه صاحب القاموس كجر دحل وعصفور ، وصاحب اللسان بالضم فقط . ط : « البريون » تحريف . وانظر اللسان والقاموس (بزن) .

(٦) ذكره في الحيوان ٦ : ٢٨٠ باسم « الآثار العلوية » . ط فقط : «العدوى» تحريف .

(٧) ب ، م : « لارسطوطيلس » ، واثبت مافي ط والحيوان .

(٨) انظر حواشي الحيوان ١ : ٨٠ .

وكتاب الطب لجالينوس ، ولم يكن روميا ولا نصرانيا ٠

وكذلك كتب ديمقراط وبقراط وافلاطون ، وفلان وفلان ٠

وهؤلاء ناس(١) من أمة قد بادوا وبقيت آثار عقولهم ، وهم اليونانيون ، ودينهم غير دينهم ، وأدبهم غير أدبهم ، أولئك علماء ، وهؤلاء صناع اخذوا كتبهم(٢) لقرب الجوار ، وتدانى الدار ، فمنها ما اضافوه الى انفسهم ، ومنها ما حولوه الى ملتهم ٠ الا ما كان من مشهور كتبهم ، ومعروف حكمهم ، فانهم حين لم يقدروا على تغيير أسمائها زعموا أن اليونانيين قبيل من قبائل الروم ففخروا(٣) بأديانهم على اليهود ، واستطالوا بها العرب ، وبذخوا بها على الهند(٤) ، حتى زعموا أن حكماءنا اتباع حكمائهم وأن فلاسفتنا اقتدوا على مثالهم(٥) ، فهذا هذا ٠

ودينهم(٦) يرحمك الله — يضاهى الزندقة ، ويناسب فى بعض وجوهه قول الدهرية ، وهم من أسباب كل حيرة وشبهة ٠

والدليل على ذلك انا لم نر أهل ملة (٧) قط اكثر زندقة من النصارى ، ولا اكثر متحيرا أو مترنحا منهم (٨) ٠

وكذلك شأن كل من نظر فى الأمور الغامضة بالعقول الضعيفة : الا ترى أن اكثر من قتل فى الزندقة ممن كان ينتحل الاسلام ويظهره ،

---

(١) ط فقط : « أناس » ٠

(٢) ب : « أخذو كتبهم » ، وهو تحريف كتابى

(٣) ب ، م : « فنجروا » ، صوابه في ط

(٤) البذخ : تطاول الرجل بكلامه وافتخاره ، وفعله كفرح يفرح ، وقعد يقعد ٠

(٥) ب : « اقتدروا » ، تحريف ٠ ط : « احتذوا » ، واثبت مافي م ٠

(٦) ط : « فهذا هو دينهم » ، واخاله تصرفا من الناشر ٠ وما أثبته من ب ، م هو لغة الجاحظ ٠

(٧) ط : « اهل مكة » ، صوابه في ب ، م ٠

(٨) الترنح : التمايل والاضطراب ٠ وفي جميع الاصول : « متحيزا » بالزاى ، صوابه ما أثبت ٠

هم(١) الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى ٠

على انك لو عددت اليوم أهل الظنة ومواضع التهمة لم تجد اكثرهم الا كذلك ٠

ومما عظمهم فى قلوب العوام ، وحببهم الى الطغام ، أن منهم كتاب السلاطين ، وفراشى الملوك(٢) ، وأطباء الأشراف ، والعطارين والصيارفة ٠ ولا تجد اليهودى الا صباغا ، أو دباغا ، أو حجاما ، او قصابا ، او شعابا٠

فلما رأت العوام اليهود والنصارى توهمت أن دين اليهود فى الأديان كصناعتهم فى الصناعات ، وأن كفرهم اقذر الكفر ، اذ كانوا هم أقذر الأمم٠

وانما صارت النصارى أقل مساخة من اليهود (٣) ، على شدة مساخة النصارى ، لأن الاسرائيلى لا يزوج الا الاسرائيلى ، وكل مناكحهم مردوده فيهم (٤) ، ومقصورة عليهم ، وكانت الغرائب لا تشوبهم ، وفحولة الأجناس لا تضرب ولا تضرب فيهم ، لم ينجبوا فى عقل ولا أسر ولا ملح (٥) ٠ وانك لتعرف ذلك فى الخيل والابل ، والحمير والحمام ٠

ونحن — رحمك الله — لم نخالف العوام فى كثرة اموال النصارى، وأن فيهم ملكا قائما ، وأن ثيابهم أنظف (٦) ، وأن صناعتهم احسن ٠

---

(١) ب : « وهم » ، والواو مقحمة ٠

(٢) يراد بالفراش من يتعهد فراش البيت وأثاثه ٠ وانظر ما كتبت في ذلك في (حول ديوان البحترى) ٣٩ — ٤٠ والحيوان ٣ : ٤٣٥ ٠

(٣) المسيخ من الناس : الذى : الذى لاملاحة له ٠ وقد مسخ مساخة ٠

(٤) ب : « وكل مناكحتهم مردون فيهم » ط ، م : « وكل مناحهم مردودة فيهم » ، صوابهما ما أثبت ٠

(٥) الاسر : شدة الخلق ٠ وفي التنزيل العزيز : « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم » ٠ والملح ، بالكسر : الرضاع واللبن ٠

(٦) ب : « وأن مابهم » م : « مايهم » ط : « ماءهم » ، والوجه ما أثبت ٠ وانظر ما سيأتى في ٣٢٥ من قوله : « والنصرانى وان كان أنظف ثوبا » ٠

وانما خالفنا فى فرق ما بيّن الكفرين والفرقتين ، فى شدة المعاندة واللجاجة ، والارصاد لأهل الاسلام بكل مكيدة ، مع لؤم الأصول ، وخبث الأعراق .

فأما الملك والصناعة والهيئة ، فقد علمنا أنهم اتخذوا البراذين الشهرية (١)، والخيل العتاق ، واتخذوا الجوقات (٢) ، وضربوا بالصوالجة ، وتحذفوا المدينى (٣) ، ولبسوا الملحم والمطبقة (٤) ، واتخذوا الشاكرية (٥) ، وتسموا بالحسن والحسين ، والعباس والفضل وعلى ، واكتنوا بذلك أجمع ، ولم يبق الا أن يتسموا بحمد ، ويكتنوا بأبى القاسم . فرغب اليهم المسلون ، وترك كثير منهم عقد الزنابير ، وعقدها آخرون (٦) دون ثيابهم ، وامتنع كثير من كبرائهم من اعطاء الجزية ، وأنفوا مع اقدارهم من دفعها (٧) وسبوا من سبهم ، وضربوا من ضربهم .

---

(١) الشهرية ، سبق تفسيرها في ١٢٨ . وكلمة « اتخذوا » ساقطة من ب ، م .

(٢) الجوقة : جماعة من الناس ، معربة كما في شفاء الغليل . والمراد فرق الفروسية ونحوها .

(٣) تحذيف الشعر : تطريره وتسويته . وفي اللسان : « قال النضر : التحذيف في الطرة أن تجعل سكينية كما تفعل اليصارى » . فقد وضع التحذف هنا موضع التحذيف .وفي الأصول هنا : « وتحدقوا » ، ولا وجه له .

(٤) في اللسان : « الملحم : جنس من الثياب » . وفي القاموس : « وكمكرم : جنس من الثياب » . والحم الناسج الثوب . وفي المثل : « الحم ما اسديت » أى تمم ما ابتدأته من الاحسان . واللحمة ، بالضم : خيوط النسيج العرضية يلحم بهـا السدى ، كما في المعجم الوسيط . وفيه ايضا : « الملحم جنس من الثياب يختلف نوع سداه ونوع لحمته ، كالصوف والقطن ، أو الحرير والقطن » أى لايكونان من نوع واحد أما المطبقة ، فهى من قولهم : طابق بين قميصين : لبس أحدهما على الآخر . فالمراد الثياب المزدوجة المتطابقة .

(٥) الشاكرية ، يرادبهم الجند المستأجرون ، لان الشاكرى معناه كما في القاموس: الأجير المستخدم ، معرب جاكر . وانظر حواشى الحيوان ٢ : ١٣٠ ورسائل الجاحظ ١ :٣٠

(٦) ب ، م : « ومقدوها آخرون » ، وأثبت مافي ط .

(٧) ب ، م : « وأنف مع أقدارهم من دفع » ، صوابه في ط .

وما لهم لا يفعلون ذلك وأكثر منه ، وقضاتنا أو عامتهم (١) يرون أن دم الجاثليق (٢) والمطران والأسقف وفاء بدم جعفر وعلى والعباس وحمزة .

ويرون أن النصرانى اذا قذف ام النبى صلى الله عليه وسلم بالغواية(٣) أنه ليس عليه الا التعزير والتاديب (٤) ، ثم يحتجون انهم انما قالوا ذلك لأن ام النبى صلى الله عليه وسلم لم تكن مسلمة . فسبحان الله العظيم ! ما اعجب هذا القول (٥) وأبين انتشاره (٦) !

ومن حكم النبى صلى الله عليه وسلم : أن لا يساوونا فى المجلس ، ومن قوله : « وان سبوكم فاضربوهم ، وان ضربوكم فاقتلوهم » .

وهم اذا قذفوا أم النبى عليه السلام بالفاحشة لم يكن له عند أمته الا التعزير والتأديب . وزعموا أن افتراءهم على النبى ليس بنكث للعهد ، ولا بنقض للعقد .

وقد أمر النبى عليه السلام ان يعطونا الضريبة عن يدمنا عالية (٧) فى قبولنا منهم (٨) ، وعقدنا لذمتهم ، دون اراقة دمهم (٩) . وقد حكم الله تعالى عليهم (١٠) بالذلة والمسكنة .

---

(١) ط فقط : « وعامتهم » .

(٢) الجاثليق ، بفتح الثاء : رئيس من رؤساء النصارى ، يكون تحته المطران ، ثم الأسقف ثم القسيس ، ثم الشماس .

(٣) الغواية ، بالفتح : الضلال . ب،م : « بالغوية » ، صوابه في ط .

(٤) التعزير : التاديب والعقاب .

(٥) ب ، م : « القوم » تحريف مافي ط .

(٦) انتشار الامر : عدم احكامه . ط فقط : « ابتشاره » .

(٧) ب ، م : « عليه » ، وتصح اذا قرئت « عليه » .

(٨) ب ، م : « منه » .

(٩) ب ، م : « وعقدنا له ذمته دون اراقة دمه » .

(١٠) ب ، م : « عليه » .

أو ما ينبغى (١) للجاهل أن يعلم أن الأئمة الراشدين ، والسلف المتقدمين لم يشترطوا عند أخذ الجزية ، وعقد الذمة عدم الافتراء (٢) على النبى صلى الله عليه وسلم وامته ، الا (٣) لأن ذلك عندهم أعظم فى العيون ، واجل فى الصدور من أن يحتاجوا الى تخليده فى الكتب ، والى اظهار ذكره بالشرط ، والى تثبيته بالبينات (٤) ، بل لو فعلوا ذلك لكان فيه الوهن عليهم ، والمطمعة فيهم ، ولظنوا انهم فى القدر الذى يحتاج فيه(٥) الى هذا وشبهه .

وانما يتواثق الناس فى شروطهم ، ويفسرون فى عهودهم ما يمكن فقد فعلوه ، وهو كالذلة والصغارة (٩) ، واعطاء الجزية ، ومقاسمة ويتعلق به الخصم ، فأما الواضح الجلى (٧) ، والظاهر الذى لا يخيل (٨) فما وجه اشتراطه ، والتشاغل بذكره .

واما ما احتاجوا الى ذكره فى الشروط ، وكان مما يجوز أن يظهر فى العهد فقد فعلوه ، وهو كالذلة والصغارة (٩) ، واعطاء الجزية ، ومقاسمة الكنائس ، وان لا يعينوا بعض المسلمين على بعض ، واشباه ذلك . فأما

---

(١) ط فقط : « وما ينبغى » :ة

(٢) كلمة « عدم » من ط .

(٣) الا ، ساقطة من ب .

(٤) ط : « وتشبيته بالبينات » .

(٥) ب ، م : « فيهم » .

(٦) غبى منه غباء وغباوة : لم يفطن له . ب ، م : « يغنى »بالنون.ط«يعبا»، صوابهما ما أثبت .

(٧) الجلى : الظاهر . ب ، م : « الجليل » .

(٨) لايخيل على احد : لا يشكل . ط : « لايخيل غيره » ، تحريف .

(٩) الصغارة ، كسحابة : صغر القدر . وفي اللسان : « ابن سيده : الصغر والصغارة : خلاف العظم . وقيل الصغر في الجرم والصغارة في القدر » . ب ، م : « والصيرفة » ط : « الصفارة » بالفاء ، ووجههما ما أثبت .

أن يقولوا لمن هو أذل من الذليل ، وأقل من القليل ، وهو الطالب الراغب فى أخذ فديته ، والانعام عليه بقبض جزيته وحقن دمه : نعاهــدك على أن لا تفترى (١) على أمة (٢) رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين وسيد الأولين والآخرين (٣) فهذا ما لا يجوز (٤) فى تدبير أوساط الناس ، فكيف بالجلة والعلية ، وأئمة الخليقة ، ومصابيح الدجى ، ومنار الهدى ، مع أنفة العرب؛ وبأو السلطان (٥) ، وغلبة الدولة ، وعز الاسلام ، وظهور الحجة ، والوعد بالنصرة .

على أن هذه الأمة لم تبتل باليهود ، ولا المجوس ، ولا الصابئين كمــا ابتليت بالنصــارى (٦) . وذلك انهم يتبعون المتناقض من أحادثينــا ، والضعيف بالأسناد من روايتنا ، والمتشابه من آى كتابنـــا ، ثم يخلــون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين ، والزنادقة الملاعين ، وحتى مع ذلك ربما تبرعوا (٧) الى علمائنا ، وأهــل الاقدار منا ، ويشغبون على القوى (٨) ، ويلبسون على الضعيف .

ومن البلاء أن كل انسان من المسلمين يرى أنه متكلم ، وأنه ليس أحــد احق بمحاجة الملحدين من أحــد .

وبعد ، فلولا متكلمو النصــارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صــار الى

---

(١) ب ، م : « يعاهدك ان لايفترى » ، ومع سقوط « على » ، وصوابه في ط .

(٢) ب ، م : « على أم » ـ

(٣) ب ، م : « وخير سيد الاولين والآخرين » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « فهذا ما يجوز » ، تحريف .

(٥) البأو : الكبر والفخر والعظمة . ب : « وباوو » ط : « وشاو » صوابهما في ب .

(٦) ط : « كما ابتلت بالنصارى » ، صوابه في ب ، م .

(٧) ب : « تبروا » .

(٨) ب ، م : « على القوم » ، صوابه في ط .

أغبيائنا (١) وظرفائنا ، ومجاننا وأحداثنا (٢) شيء من كتب المنانية (٣) ، والديصانية (٤) ، والمرقونية (٥) ، والفلانية (٦) ، ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولكانت تلك الكتب مستورة عند (٧) أهلها ، ومخلاة (٨) فى أيدى ورثتهـا . فكل سخنة عين (٩) رأيناها فى أحداثنـنا وأغبيائنا فمن قبلهم كان أولها .

وأنت اذا سمعت كلامهم فى العفو والصفح ، وذكرهم للسـياحة ، وزرايتهم على كل من اكل اللحمان (١٠) ، ورغبتهم فى اكل الحبوب ، وترك الحيوان ، وتزهيدهم فى النكاح ، وتركهم لطلب الولد ، ومديحهم للجاثليق والمطران والأسقف والرهبان ، بترك النكاح وطلب النسل ، وتعظيمهم الرؤساء ـ علمت أن بين دينهم وبين الزندقة نسبا ، وأنهم يحنون الى ذلك المذهب .

---

(١) م : « اغنائنا » ب ، ط : « اغبيائنا » ، صوابهما ما اثبت . وانظر ما سيأتى في السطر الخامس .

(٢) المجان : جمع ماجن . ب ، م « وتحاينا » ، صوابه . والاحداث : جمع حدث . وفي ب ، م : « وأخذائنا » ط : « واخذاننا » ، صوابهما ما اثبت .

(٣) المنانية : اتباع مانى . وانظر ما سبق في ٢٥٤ .

(٤) الديصانية : فرقة من المجوس . قال ابن النديم : « انما سمى صاحبهم بديصان باسم نهر والد عليه . هو قبل مانى . والمذهبان قريب بعضهما من بعض ، وانما بينهما خلف في اختلاط النور بالظلمة » . وانظر الملل ٢ : ٨٨ والفهرست ٤٧٤ والحيوان ٥ : ٤٦ .

(٥) المرقونية : فرقة من المجوس ، اتباع مرقون . أثبت قديمين أصلين متضادين احدهما النور والآخر الظلمة ، واثبتوا أصلا ثالثا هو الجامع . وفي مفاتيح العلوم ٢٥ : « المرقيونية » . وهى في جميع الاصول : « المرتوبية » ، تحريف . وانظر الملل والنحل ٢ : ٨٩ ومعجم استينجاس ١٢١٨ .

(٦) لعله كناية عن اى فرقة كانت .

(٧) ب فقط : « مسطورة » .

(٨) مخلاة : متروكة . وفي جميع الأصول : « محلاة » بالحاء المهملة .

(٩) سخنة العين : نقيض قرتها ، وذلك من حرارة الحزن . وفي ب فقط : « سحنة » بالمهملة ، تحريف .

(١٠) الزراية : العيب والانكار . ب : « وذرياتهم » ، صوابه في م ، ط

والعجب أن كل جاثليق لا ينكح ، ولا يطلب الولد . وكذلك كل مطران (١) ، وكل أسقف . وكذلك كل أصحاب الصوامع من اليعقوبية ، والمقيمين فى الديارات (٢) والبيوت من النسطورية . وكل راهب فى الأرض وراهبة ، مع كثرة الرهبان والرواهب ، ومع تشبه اكثر القسيسين بهم فى ذلك (٣) ، ومع ما فيهم (٤) من كثرة الغزاة ، وما يكون فيهم مما يكون فى الناس ، من المراة العاقر ، والرجل العقيم .

على أن من تزوج منهم امراة لم يقدر على الاستبدال بها ، ولا على أن يتزوج اخرى معها (٥) ، ولا على التسرى عليها . وهم مع هذا قد طبقوا الأرض ، وملئوا الآفاق ، وغلبوا الأمم بالعدد ، وبكثرة الولد . وذلك مما زاد فى مصائبنا ، وعظمت به محنتنا .

ومما زاد فيهم ، وانمى عددهم ، انهم يأخذون من سائر الأمم ، ولا يعطونهم ، لأن كل دين جاء بعد دين ، أخذ منه الكثير ، وأعطاه القليل .

٣ — فصل منه

ومما يدل على قلة رحمتهم ، وفساد قلوبهم انهم أصحاب الخصاء من بين جميع الأمم ، والخصاء اشد المثلة ، واعظم ما ركب به انسان (٦). ثم يفعلون ذلك بأطفال لا ذنب لهم ، ولا دفع عندهم .

---

(١) المطران ، بفتح الميم وكسرها ، كما في القاموس .

(٢) ط : « الديورات » تحريف . ويراد بالديارات أديار النصارى . والديارات معروفة في جموع الدار اذ هو جمع جمع لها ، فهى جمع للديار . وانظر مقدمة كتاب « الديارات » للشابشتى . وأما الجمع المعروف للدير ، بالفتح ، فهو الاديار والأديرة .

(٣) ب ، م : « في زلل » ، صوابه في ط .

(٤) ب ، م : « وقع مع مافيهم » ، صوابه في ط .

(٥) على ، ساقطة من ب . وفي ب ، م : « يزوج » .

(٦) ط . فقط : « دكبة انسان » .

ولا نعرف قوما يعرفون بخصاء الناس حيث ما كانوا الا ببلاد الروم والحبشة ، وهم فى غيرهما قليل ، وأقل قليل (١) .

على أنهم لم يتعلموا الا منهم ، ولا كان السبب فى ذلك غيرهم ، ثم خصوا أبناءهم وأسلموهم فى بيعهم . وليس الخصاء الا فى دين الصابئين ، فان العابد ربما خصى نفسه (٢) ، ولا يستحل خصاء ابنه (٣) . فلو تمت إرادتهم فى خصاء أولادهم فى ترك النكاح وطلب النسل كما حكيت لك قبل هذا — لانقطع النسل ، وذهب الدين ، وفنى الخلق .

والنصرانى وان كان أنظف ثوبا وأحسن صناعة ، وأقل مساخة (٤) ، فان باطنه الأم وأقذر وأسمج ، لأنه أقلف ، ولا يغتسل من الجنابة ، ويأكل لحم الخنزير ، وامرأته جنب لا تطهر من الحيض ، ولا من النفاس ، ويغشاها فى الطمث ، وهى مع ذلك غير مختونة .

وهم مع شرارة طبائعهم (٥) ، وغلبة شهواتهم ليس فى دينهم مزاجر كنار الأبد فى الآخرة ، وكالحدود والقود والقصاص فى الدنيا ، فكيف يجانب ما يفسده ، ويؤثر ما يصلحه من كانت حاله كذلك . وهل يصلح الدنيا من هو كما قلنا (٧) ؟ وهل يهيج على الفساد الا من وصفنا (٨) ؟

---

(١) انظر الحيوان ١ : ١١٩ ، ١٢٤ .

(٢) انظر الحيوان ١ : ١٢٥ .

(٣) ب ، م : « خصاء نفسه » ، صوابه في ط .

(٤) انظر ما مضى في ص ٣١٨

(٥) يقال : شريشر ويشرا شرا ، وشرارة ، فهو شرير كأمير ، وشرير كسكيت .. وفي جميع الاصول : « شرار » ، والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٤ : ٢٩٧/٦ : ٤٦٠ . وأما الشرار ، بالكسر وكجبل ، فهو ما يتطاير من النار ، واحدتهما بهاء .

(٦) ب ، م : « بجانب ما يفسده » ، صوابه في ط .

(٧) ب ، م : « وهل يصلح الدنا كما قالوا » صوابه في ط .

(٨) ب ، م : « وهل التهييج على الفساد الا كما وصفوا » ، صوابه في ..

ولو جهدت بكل جهدك ، وجمعت كل عقلك أن تفهم قولهم فى المسيح ، لما قدرت عليه ، حتى تعرف به حد النصرانية ، وخاصة قولهم فى الالهية .

وكيف تقدر (١) على ذلك وانت لو خلوت ونصرانى نسطورى فسألته عن قولهم فى المسيح لقال قولا ، ثم ان خلوت بأخيه لأمه وابيه وهو نسطورى مثله فسألته عن قولهم فى المسيح لأتاك بخلاف أخيه وصنوه . وكذلك جميع الملكانية واليعقوبية (٢) . ولذلك صرنا لا نعقل حقيقة النصرانية ، كما نعرف (٣) جميع الأديان .

على انهم يزعمون أن الدين لا يخرج فى القياس ، ولا يقوم على المسائل (٤) ، ولا يثبت فى الامتحان ، وانما هو بالتسليم لما فى الكتب ، والتقليد للأسلاف . ولعمرى ، ان (٥) من كان دينه دينهم ليجب عليه أن يعتذر بمثل عذرهم .

وزعموا ان كل من اعتقد خلاف النصرانية من المجوس والصابئين والزنادقة فهو معذور ، ما لم يتعمد الباطل ، ويعاند الحق . فاذا صاروا الى اليهود قضوا عليهم بالمعاندة ، واخرجوهم من طريق الغلط والشبهة .

٤ ــ فصل منه

فأما مسألتهم فى كلام عيسى فى المهد : أن النصارى مع حبهم لتقوية أمره لا يثبتونه ، وقولهم : انا تقولناه ورويناه عن غير الثقات (٦) ، وأن الدليل

---

(١) ب ، م : « يقدر » .
(٢) انظر ما معنى فى ص ٣١٢ .
(٣) م فقط : « يعرف » .
(٤) في جميع الأصول : « السائل » ، والوجه ما اثبت .
(٥) ان ساقطة من ط .
(٦) في جميع النسخ : « الثقاة » ، وهو خطأ في الرسم ، لانه جمع ثقة .

على أن عيسى لم يتكلم فى المهد ان اليهود لا يعرفونه ، وكذلك المجوس ، وكذلك الهند والخزر والديلم . فنقول فى جواب مسألتهم عند انكارهم كلام المسيح فى المهد مولودا . و

يقال لهم : انكم حين سويتم المسألة وموهتموها ، ونظمتم الفاظها ، ظننتم أنكم قد أنجحتم (١) ، وبلغتم غايتكم . ولعمرى لئن حسن ظاهرها ، وراع الأسماع مخرجها (٢) ، انها لقبيحة المفتش ، سيئة المعرى .

ولعمرى أن لو كانت اليهود تقر لكم باحياء الأربعة الذين تزعمون (٣) ، واقامة المقعد الذى تدعون ، واطعام الجمع الكثير من الأرغفة اليسيرة ، وتصيير الماء جمدا (٤) والمشى على الماء ، ثم انكرت الكلام فى المهد من بين جميع آياته وبراهينه (٥) لكان لكم فى ذلك مقـال ، والى الطعن سبيل . فأما وهم يجحدون ذلك أجمع ، فمرة يضحكون ، ومرة يغتاظون ويقولون : انه صاحب رقى ونيرجات (٦) ، ومداوى مجانين ، ومتطبب ، وصـاحب

---

(١) انجح : صار ذا نجح وظفر . ويقال أيضا نجح ، اذا أصاب طلبته . ط فقط: « نجحتم » واثبت مافي ب ، م .

(٢) ب فقط : « لمخرجها » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « يزعمون » . وهؤلاء الأربعة فيما يذكر المفسرون هم : «عازر»، وكان صديقا له ، احياه بعد ثلاثة أيام فقام من قبره يقطر ودكه وبقى الى أن ولد له . والثانى : ابن العجوز احياه وهو على سرير الموت ، فنزل عن اعناق الرجال وحمل سريره ، وبقى الى ان ... ولد له . والثالث : بنت المشار ، وقد متعت بولدها بعد ما حييت . والرابع : سام بن نوح عليه السلام . سألوه ان يحييه ليخبرهم عن حال السفينة . فخرج من قبره . هذا ما ذكره ابو حيان في تفسيره ٢ : ٤٦٧ .

(٤) الجمد ، بالتحريك ، وكذا بالفتح : الماء الجامد . وقيل : هو بالتحريك يكون جمعا لجامد ، مثل خادم وخدم . ب فقط : « جامدا » .

(٥) ب ، م : « وبرهانه » ، يوابه في ط .

(٦) كذا في ب والحيوان ٤ : ٣٧٠ . في م ، ط : « نيرنجات » ، وهمـا لغتان في التعريب قال صاحب القاموس : « والنيرنج ، بالكسر : اخذ كالسحر وليس به . وعقب عليه الزبيدى بقوله : « هكذا في سائر النسخ . والمنقول عن نص كلام الليث : النيرج ، باسقاط النون الثانية . وجاء في كتاب المعارف لابن قتيبة ١٧٨ : « وكان صاحب نيرنجات » . واقول : هو بالفارسية « نيرنك » .

حيل وتربص خدع (١) ، وقراءة كتب ، وكان لسنا مسكينا (٢) ، ومقتولا مرحوما ، ولقد كان قبل ذلك صياد سمك ، وصاحب شبك ، وكذلك أصحابه . وانه خرج على مواطأة منهم له ، وانه لم يكن لرشدة (٣) .

ولحسنهم قولا ، والينهم مذهبا من زعم أنه ابن يوسف النجار (٤) .

وانه قد كان واطأ ذلك المقعد قبل اقامته بسنين ، حتى اذا شهره بالقعدة (٥) ، وعرف موضعه فى الزمنى ، مر به فى جمع من الناس كأنه لا يريده ، فشكا اليه الزمانة وقلة الحيلة ، وشدة الحاجة ، فقال : ناولنى يدك . فناوله يده ، فاجتذبه فأقامه ، فكان تجمع (٦) لطول القعود ، حتى استمر بعد ذلك .

وانه لم يحى (٧) ميتا قط ، وانما كان داوى رجلا يقال له « لا عازر (٨) » اذ (٩) اغمى عليه يوما وليلة ، وكانت أمه (١٠) ضعيفة العقل ، قليلة المعرفة ، فمر بها (١١) ، فاذا هى تصرخ وتبكى ، فدخل

---

(١) التربص : المكث والانتظار . ب ، م : « وترمض » . وفي ط : «وصاحب» وأرى الوجه لما اثبت .

(٢) ب ، م : « سكينا » ، واثبت ما في ط

(٣) يقال هو لرشدة بالكسر وقد يفتح : نقيض قولهم : لزنية أو لغير رشدة . والرشدة : النكاح الصحيح . ط : « لم يكن له شدة » ، تحريف .

(٤) ط : « وأخسهم قولا والامهم مذهبا » ، تحريف .

(٥) القعدة ، بالكسر : ضرب من القعود .

(٦) ط فقط : « تجهد » .

(٧) ب ، م : « لم يحيى » ، تحريف .

(٨) في جميع الأصول : « لاعار » ، وانما هو « لعازر » المذكور في انجيل يوحنا ١١ : ٤٣

(٩) ب فقط : « اذا » .

(١٠) في ايجيل يوحنا ١١ : ٥ انها اخته واسمها « مرثا » . وفيه ايضا أن يسوع كان يحب مرثا واختها ولعازر . ويفهم من هذا أيضا أن له أختين .

(١١) ط فقط : « بهما » .

اليها ليسكتها ويعزيها ، وجس عرقه فرأى فيه علامة الحياة ، فداواه حتى أقامه ، فكانت لقلة معرفتها (١) لا تشك أنه قد مات ، ولفرحها بحياته تثنى عليه بذلك ، وتتحدث به .

فكيف تستشهدون قوما هذا قولهم فى صاحبكم ، حين قالوا : كيف يجوز أن يتكلم صبى فى المهد مولودا (٢) ، فيجهله (٣) الأولياء والأعداء .

ولو كانت المجوس تقر لعيسى بعلامة واحدة ، وبأدنى أعجوبة ، لكـــان لكم أن تنكروا علينا بهم (٤) ، وتستعينوا بانكارهم . فأما وحال عيسى فى جميع أمره عند المجوس كحال زرادشت فى جميع أمره عند النصـــارى فما اعتلالهم بهم ، وتعلقهم فى انكارهم ؟

وأما قولكم : وكيف لم تعرف الهند والخزر والترك ذلك ؟ فمتى أقرت الهند لموسى بأعجوبة واحدة ، فضلا عن عيسى ؟ ومتذ اقرت لنبى بلأيه ، أو روت له سيرة ، حتى تستشهدوا (٥) الهند على كلام عيسى فى المهد ؟

ومتى كانت الترك والديلم والخزر والببر (٦) والطيلسان (٧) مذكورة فى شىء من هذا الجنس ، محتجا بها على هذا الضرب ؟

---

(١) ب ، م : « بقلة معرفتهـا » .

(٢) ب ، م : « مولود » .

(٣) ب فقط : « فيجمله » .

(٤) ب ، م : « تتكبروا علينـا بهم .

(٥) ب ، م « حتى يستشهدوا » .

(٦) الببر ، بباءين : أمة قديمة انها من أمم الترك ، وتقرن بالطيلسان ، كمـا في البيان ١ : ١٣٧ . وجاء في الطبرى ٤ : ٢٤٦ : « فبعث عبدالله بن شبيل بن عوف الاحمسى في أربعة آلاف فأغار على أهل موقان والببر والطيلسان » ، ب : « والسرو » م « والسر » ط : « والتتر » ، صوابهما جميعا ما أثبت . ولم ترد «التتر» في أثر من آثار الجاحظ ، كما أن معرفة العرب بالتتر جاءت متأخرة ، اذ لم يرد ذكرهم في الكامل لابن الاثير قبل سنة ٣٤٥ .

(٧) الطيلسان : أقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحى الديلم والخزر ، افتتحه الوليد بن عقبة في سنة ٣٤ . معجم البلدان . وانظر الحاشية السابقة .

فان سألونا عن أنفسهم فقالوا : ما لنا لا نعرف ذلك ولم يبلغنا عن أحدبتة ؟ أجبناهم بعد اسقاط نكيرهم (١) وتشنيعهم ، وتزوير شهودهم .

وجوابنا (٢) : أنهم انما قبلوا دينهم (٣) عن أربعة أنفس : اثنان منهم من الحواريين بزعمهم (٤) : يوحنا ، ومتى . واثنان من المستجيبة (٥) وهما : مارقش ولوقش (٦) ، وهؤلاء الأربعة لا يؤمن عليهم الغلط ولا النسيان. ولا تعمد الكذب ، ولا التواطؤ (٧) على الأمور ، والاصطلاح على اقتسام الرياسة (٨) ، وتسليم كل واحد منهم لصاحبه حصته التي شرطها له .

فان قالوا : انهم كانوا أفضل من أن يتعمدوا كذبا ، وأحفظ من أن ينسوا شيئا ، وأعلى (٩) من أن يغلطوا في دين الله تعالى ، أو يضيعوا عهدا .

قلنا : ان اختلاف رواياتهم في الانجيل ، وتضادها في كتبهم (١٠) ، واختلافهم في نفس المسيح ، مع اختلاف شرائعهم ، دليل على صحة قولنا فيهم (١١) ، وغفلتكم عنهم .

---

(١) في الأصول : « تكثيرهم » .

(٢) ط فقط : « فجوابنا » .

(٣) قبلوا دينهم : اخذوه وتلقوه ، كما يقبل الرجل الدلو من المستقي والقابلة الولد من الوالدة .

(٤) ب فقط : « يزعمهم » ، تحريف .

(٥) ب فقط : « من المسيحية » ، تحريف .

(٦) هما مرقس ولوقا .

(٧) ب ، م : « ولا التواطى » ، صوابها في ط .

(٨) ب ، م : « والاصلاح على اقسام الرياسة » ، صوابه في ط .

(٩) ب ، م : « واعنى » ، تحريف مافي ط .

(١٠) ب ، م : « وتضاد معاني كتبهم » .

(١١) الكلام بعده الى نهاية هذه الرسالة بجميع فصولها ، ساقط من ط .

وما ينكر من مثل لوقش أن يقول باطلا ، وليس من الحواريين ، وقد كان يهوديا قبل ذلك بأيام يسيرة ، ومن هو عندكم من الحواريين خير من لوقش عند المسيح فى ظاهر الحكم بالطهارة ، والطباع الشريفة ، وبراءة الساحة .

٥ — فصـــل منه (١)

وسألتم عن قولهم : اذا كان تعالى قد اتخذ عبدا من عباده خليلا ، فهل يجوز أن يتخذ عبدا من عباده ولدا ، يريد بذلك اظهار رحمته لـــه ، ومحبته اياه ، وحسن تربيته وتأديبه له ، ولطف منزلته منه ، كمـــا سمى عبدا من عباده خليلا ، وهو يريد تشريفه وتعظيمه ، والدلالة على خاص حاله عنده .

وقد رأيت من المتكلمين من يجيز ذلك ولا ينكره ، اذا كان ذلك على التبنى والتربية والابانة له بلطف المنزلة ، والاختصاص له بالمرحمة والمحبة ، لا على جهة الولادة ، واتخاذ الصاحبة . ويقول (٢) : ليس فى القياس فرق بين اتخاذ الولاد على التبنى والتربية وبين اتخاذ الخليل على الولاية والمحبة .

وزعم أن الله تعالى يحكم فى الأسماء بما أحب ، كما أن له أن يحكم فى المعانى بما أحب .

وكان يجوز دعوى أهل الكتاب على التوراة والانجيل والزبور ، وكتب

---

(١) هذا الفصل ومايليه من الفصول الى نهاية هذه الرسالة ساقط من ط كما سبق التنبيه .

(٢) ب : « ونقول » م : « وتقول » ، صوابهما ما أثبت .

الأنبيـــاء صلوات الله عليهم فى قولهم : ان الله قال : « اسرائيل بكرى(١)» أى هو أول من تبنيت من خلقى . وأنه قال : « اسرائيل بكرى ، وبنوه أولادى » . وأنه قال لداود : « سيولد لك غلام ، ويسمى لى ابنـــا ، واسمى له أبا (٢) » . وأن المسيح قال فى الانجيل : « أنا أذهب الى أبى وأبيكم ، والهى والهكم (٣) » ، وأن المسيح أمر الحواريين أن يقولوا فى صلواتهم : « يا أبانا فى السماء تقدس اسمك (٤) » . فى أمور عجيبة ، ومذاهب شنيعة (٥) ، يدل على سوء عبادة اليهود (٦) ، وسوء تأويل أصحاب الكتب ، وجهلهم مجازات الكلام ، وتصاريف اللغات ، ونقل لغة الى لغـــة ، وما يجوز على الله ، وما لا يجوز . وسبب هذا التأويل كله الغى والتقليد ، واعتقاد التشبيه .

وكان يقول : انما وضعت الأسماء على اقدار المصلحة ، وعلى قـــدر ما يقابل من طبائع الأمم . فربما كان أصلح الأمور وامتنها (٧) أن يتبناه الله أو يتخذه خليلا ، أو يخاطبه بلا ترجمان ، أو يخلقه من غير ذكر ، أو يخرجه من بين عاقر وعقيم . وربما كانت المصلحة غير ذلك كله . وكمـــا

---

(١) في سفر الخروج ٤ : ٢٢ : « فتقول لفرعون : هكذا يقول الرب ، اسرائيل ابنى البكر » . وفي سفر هوشع ١١ : ١ : « لما كان اسرائيل غلاما أحببته ومن مصر دعوت ابنى » . وفي رسالة بولس الى اهل رومية ٩ : ٤ : « الذين هم اسرائيليون ، ولهم التبنى والمجد » .

(٢) في صموئيل الثانى ٧ : ١٢ — ١٤ : « متى كملت ايامك واضطجعت مـــع آبائك اقيم بعدك نسلك الذى يخرج من احشائك واثبت مملكه . هو يبنى بيتا لا ســـمى وانا اثبت كرسى مملكته الى الابد . انا اكون له أبا وهو يكون لى ابنا » .

(٣) جاء في انجيل يوحنا ٢٠ : ١٧ في مخاطبة عيسى عليه السلام لمريم المجدلية : « قال لها يسوع : لاتلمسينى لانى لم أصعد بعد الى أبى . ولكن اذهبى الى اخوتى وقولى لهم : انى أصعد الى أبى وأبيكم وإلهى والهكم » .

(٤) في انجيل متى ٦ : ٩ : « فصلوا انتم هكذا : أبانا الذى في السموات ليتقدس اسمك » . وانظر ايضا انجيل لوقا ١١ : ٢ .

(٥) ب : « شيعة » م : « شنعة » ، والوجه ما اثبت ، وان كانت «شنعة» صحيحة ايضا .

(٦) ب : « عبارة » ، واثبت ما في م .

(٧) ب : « وامته » م : « وأمنه » ، ولعل وجهه ما أثبت .

تعبدنا أن نسميه جوادا ونهانا أن نسميه سخيا أو سريا (١) وأمرنا أن نسميه مؤمنا ونهـانا أن نسميه مسلما ، وأمرنا أن نسميه رحيما ونهانا أن سميه رفيقا .

وقياس هذا كله واحد ، وانما يتسع ويسهل على قدر العادة وكثرتها. ولعل ذلك كله قد كان شائعا فى دين هود وصالح وشعيب واسماعيل ، اذ كان (٢) شائعا فى كلام العرب فى اثبات ذلك وانكاره .

وأما نحن ـــ رحمك الله ـــ فانا لا نجيز أن يكون لله ولد ، لا من جهة الولادة ، ولا من جهة التبنى ، ونرى أن تجويز جهل عظيم ، واثم كبير ،لأنه لو جاز أن يكون أباه ليعقوب لجاز أن يكون جدا ليوسف ، ولو جـاز أن يكون جدا وابا ، وكان ذلك لا يوجب نسـبا ، ولا يوهم مشاكلة فى بعض الوجوه ، ولا ينقص من عظم ، ولا يحط من بهاء ، لجاز أيضا أن يكـون عما وخالا ، لأنه ان جاز أن يسميه (٣) من أجل المرحمة والمحبة والتأديب ـــ أبا ، جاز أن يسميه آخر من جهة التعظيم والتفضيل والتسويد أخا (٤) ، ولجاز أن يجد له صاحبا وصديقا ، وهذا ما لا يجوزه الا من لا يعرف عظمة الله ، وصغر قدر الانســان .

وليس بحكيم من ابتذل نفسه فى توقير عبده ، ووضع من قدره فى التوفر على غيره . وليس من الحكمة أن تحسن الى عبدك بأن تسىء الى

---

(١) في النسختين : « سرنا » ، والصواب ما اثبت . والسرى : وصف من سرو كشرف ودعا ورضى ، سراوة وتسروا وسرا وسراء ، وهى المروءة في شرف .

(٢) م : « اذا كان » .

(٣) الكلام بعده الى « يسميه » التالية تساقط من م .

(٤) في النسختين : « والتفضيل اخا والتسويد اخا » ، و « اخا » الأولى مقحمة.

نفسك ، وتأتى من الفضل ما لا يجب بتضييع ما يجب . وكثير الحمد لا يقوم بقليل الذم (١) ، ولم يحمد الله ولم يعرف الهيته من جوز عليه صفات البشر ، ومناسبة الخلق ، ومقاربة العباد .

وبعد ، فلا يخلو المولى فى رفع عبده واكرامه من أحد أمرين :

اما أن يكون لا يقدر على كرامته الا بهوان نفسه ، ويكون على ذلك قاورا ، مع وفارة العظمة ، وتمام البهاء .

وان كان لا يقدر على رفع قدر غيره الا بأن ينقص (٢) من قدر نفسه فهذا هو العجز ، وضيق الذرع (٣) .

وان كان على ذلك قادرا فاثر ابتذال نفسه والحط من شرفه فهذا هو الجهل الذى لا يحتمل (٤) .

والوجهان عن الله جل جلاله منفيان .

ووجه آخر يعرفون به صحة قولى ، وصواب مذهبى ، وذلك أن الله تبارك وتعالى لو علم انه قد كان فيما أنزل من كتبه على بنى اسرائيل : ان أباكم كان بكرى وابنى ، وانكم أبناء بكرى — لما كان تغضب عليهم (٥) اذ قالوا : نحن ابناء الله ، فكيف لا يكون ابن ابن الله ابنه (٦) ،

---

(١) في النسختين : « مالا يقول بقليل الذم » ، والصواب حذف « ما » . لا يقوم به : لا يعادله .

(٢) ب : « ينقض » ، صوابه في م .

(٣) الذرع : الطاقة وهو ايضا : بسط اليد . والمراد ضيق الخلق ، على المثل . م : « الزرع » ، تحريف .

(٤) في النسختين : « لايحمل » ، والوجه ما اثبت .

(٥) التغضب : الغضب ، واستعار الراعى التغضب لشدة غليان القدر في قوله :

اذا أحمشوها بالوقود تغضبت   على اللحم حتى تترك اللحم باديا

وفي النسختين : « تعصب » بالعين المهملة ، صوابه ما اثبت . وانظر الآية ١٨ من سورة المائدة .

(٦) ب : « لايكون ابن ابنه » م : « لايكون ابن الله ابنه » . والصواب ما أثبت.

وهذا من تمام الاكرام ، وكمال المحبة ، ولا سيما ان كان قال فى التوراة : بنو اسرائيل أبنـــاء بكرى .

وانت تعلم أن العرب حين زعمت أن الملائكة بنات الله كيف استعظم الله تعالى ذلك واكبره ، وغضب على أهله ، وأن كان يعلم أن العرب لم تجعل الملائكة بناته على الولادة واتخاذ الصاحبة ، فكيف يجوز مع ذلك أن يكون الله قد كان يخبر عباده قبل ذلك بأن يعقوب ابنه ، وأن سليمان ابنه ، وأن عزيرا ابنه ، وأن عيسى ابنه (١) ؟ .

فالله تعالى اعظم من أن يكون له أبوة من صفاته ، والانســـان أحقر من أن يكون بنوة الله من انسابه .

والقول بأن الله يكون ابا وجدا (٢) واخا وعما ، للنصارى الزم ، وان كان للاخرين لازما ، لأن النصـــارى تزعم أن الله هو المسيح بن مريم ، وان المسيح قال للحواريين : « اخوتى » . فلو كان للحواريين أولاد لجاز أن يكون الله عمهم !

بل قد يزعمون أن مرقش هو ابن شمعون الصفا (٣) ، وأن زوزى ابنته ، وأن النصـــارى تقر ان فى انجيل مرقش (٤) : « ما زاذ (٥) امك واخوتك على الباب » وتفسيرها : ما زاذ (٦) : معلم . فهم لا يمتنعون من ان يكون الله تبارك وتعالى أبا وجدا وعما .

---

(١) وأن عزيرا ابنه ، ساقط من ب .

(٢) ب : « ابا واحدا » ، صوابه في م .

(٣) في الفصل لابن حزم ٢ : ٢ ان مارقش هو تلميذ شمعون الصفا بن توما .

(٤) في النسختين : « في الانجيل مرقش » صوابه ما أثبت . وانظر انجيل مرقس ٣ : ٣٢ .

(٥) ب : « ماذاذ » بذالين معجمتين . والذى في الانجيل : « هوذا » .

(٦) ب : « ماذاذ » بذالين معجمتين .

ولولا (١) أن الله قد حكى عن اليهود انهم قالوا : ان « عزيرا ابن الله (٢) » ، (ويد الله مغلولة (٣)) ، و « ان الله فقير ونحن اغنياء(٤) » وحكى عن النصارى انهم قالوا : « المسيح ابن الله » وقال : (قالت النصارى المسيح ابن الله (٥)) . وقال : (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة (٦)) — لكنت لأن اخر من السماء أحب الى من أن الفظ بحرف مما يقولون . ولكنى لا اصل الى اظهار جميع مخازيهم ، وما يسرون من فضائحهم ، الا بالاخبار عنهم ، والحكاية منهم .

فان قالوا : خبرونا عن الله ، وعن التوراة ، اليست حقا (٧) ؟ قلنا : نعم . قالوا : فان فيها « اسرائيل بكرى (٨) » وجميع ما ذكرتم عنا معروف فى الكتب .

قلنا : ان القوم انما أتوا من قلة المعرفة بوجوه الكلام ، ومن سوء الترجمة ، مع الحكم بما يسبق الى القلوب . ولعمرى ان لو كانت لهم عقول المسلمين ومعرفتهم بما يجوز فى كلام العرب ، وما يجوز على الله ، مع فصاحتهم بالعبرانية ، لوجدوا لذلك الكلام تأويلا حسنا ، ومخرجا سهلا ، ووجها قريبا . ولو كانوا ايضا لم يعطلوا فى سائر ما ترجموا لكان لقائل مقال ، ولطاعن مدخل ، ولكنهم يخبرون ان الله تبارك وتعالى قال فى العشر

---

(١) ب : « ولولا » .

(٢) اشارة الى الاية الكريمة : « وقالت اليهود عزير ابن الله » ، وهى الاية ٣٠ من التوبة .

(٣) الاية ٦٤ من سورة المائدة .

(٤) الاية ١٨١ من سورة آل عمران

(٥) الاية ٣٠ من سورة التوبة . والاقتباس هنا بطرح الواو ، فان نص الاية : « وقالت النصارى » . وهو أمر جائز كما اشرت الى ذلك في كتابى تحقيق النصوص ص ٥١ .

(٦) الاية ٧٣ من سورة المائدة .

(٧) في النسختين : « حق » ، صوابه ما اثبت .

(٨) انظر ما مضى في حواشى ص ٣٣٢ .

الآيات (١) التى كتبتها أصابع الله : « انى أنا الله الشديد ، وانى انا الله الثقف (٢) ، وانا النار التى تأكل النيران (٣) ، آخذ الأبناء بحوب الآباء ، القرن الأول والثانى والثالث الى السابع (٤). » . وأن داود قال فى الزبور : « وافتح عينك يارب » و « قم يارب » ، و « أصغ الى سمعك يارب (٥) » . وأن داود خبر أيضا فى مكان آخر عن الله تعالى : « وانتبه الله كما ينتبه السكران الذى قد شرب الخمر (٦) » . وأن موسى قال فى التوراة : « خلق الله الأشياء بكلمته ، وبروح نفسه » . وأن الله قال فى التوراة لبنى اسرائيل : « بذراعى الشديدة اخرجتكم من اهل مصر (٧) » . وأنه قال فى كتاب اشعياء : « احمد الله حمدا جديدا ، احمده فى أقصى الأرض ، يملأ الجزائر وسكانها ، والبحور والقفار وما فيها ، ويكون بنو قيدار فى القصور ، وسكان الجبال (٨) — يعنى قيدار بن اسماعيل — ليصيحوا ويصيروا لله الفخر والكرامة ، ويسبحوا بحمد الله فى الجزائر (٩) » .

---

(١) في النسختين : « في العشر آيات » ، والوجه ما أثبت .

(٢) الثقف : الفطن الذكى .

(٣) في النسختين : « أكل النيران » .

(٤) في سفر الخروج ٣٤ : ٧ : « مفتقد اثم الآباء في أبناء في الجيل الثالث والرابع » .

(٥) انظر المزامير ١٧ : ١ و ٢٨ ، ٢ و ٦١ : ١

(٦) في المزامير ٧٨ : ٦٥ : « فاستيقظ الرب كنائم كجبار معيط من الخمر » . عيط الشارب : قال عيط عيط ، بكسر العين ، وقد عيط تعييطا .

(٧) انظر الخروج ١٣ : ٣ والتثنية ٤ : ٣٤/٥ : ١٥ والمزامير ١٣٦ : ١١–١٢ .

(٨) في سفر اشعياء ٤٢ : ١٠ ، ١١ : « غنوا للرب اغنية جديدة تسبيحه من اقصى الأرض ، أيها المنحدرون في البحر وملؤه ، والجزائر وسكانها . لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التى سكنها قيدار . لتترنم سكان سالع من رؤس الجبال » .

(٩) في سفر اشعياء ٤٢ : ١١ — ١٢ : « ليهتفوا . ليعطوا الرب مجدا ويخبروا بتسبيحه في الجزائر » . وفي الأصل هنا : « يصيحوا ويصيروا لله الفخر والكرامة ، ويلبسون بحمد الله في الجزائر » . وقد اصلحت العبارة في ضوء مافي السفر .

وانه قال على اثر ذلك : « ويخرج الرب (١) كالجبار ، وكالرجل الشجاع المجرب (٢) ، ويزجر ويصرخ ، ويهيج الحرب والحمية ، ويقتل أعداءه (٣) ، يفرح السماء والأرض » .

وأن الله قال ايضا فى كتاب اشعياء : « سكت . قال : هو متى أسكت، مثل المراة التى قد اخذها الطلق للولادة أتلهف (٤) ، وان ترانى أريد احرث الجبال والشعب (٥) ، وآخذ بالعرب فى طريق لا يعرفونه (٦) » .

وكلهم على هذا اللفظ العربى مجمع . ومعنى هذا لا يجوزه أحد من أهل العلم ، ومثل هذا كثير تركته لمعرفتكم به .

وانت تعلم أن اليهود لو أخذوا القرآن فترجموه بالعبرانية لأخرجوه من معانيه ، ولحولوه عن وجوهه ، وما ظنك بهم اذا ترجموا : (فلما آسفونا انتقمنا منهم (٧)) ، و (لتصنع على عينى) و (السموات مطويات بيمينه) و (على العرش استوى (١٠) ، و (ناضرة . الى ربها ناظرة (١١)) ، وقوله : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا (١٢)) ،

---

(١) في النسختين : « ويحيى الرب » وفي سفر اشعياء : « الرب كالجبار يخرج » .

(٢) في سفر اشعياء : « كرجل حروب ينهض غيرته »

(٣) في سفر اشعياء : « يهتف ويصرخ ويقوى على اعدائه » .

(٤) لاريب أن في العبارة تحريفا . والذى في سفر اشعياء ٤٢ : ١٤ : « قد صمت منذ الدهر ، ، سكت تجلدت . كالوالدة أصيح وانفخ وأنخر معا » . سكت وتجلدت بتاء المتكلم فيهما .

(٥) في سفر اشعياء : « أخرب الجبال والاكام وأجفف كل عشبها واجعل الانهار يبسا وانشف الاجام » .

(٦) كذا . والذى في السفر : « واسير العمى في طريق لم يعرفوها » . أسير من التسيير ، والعمى : جمع اعمى

(٧) الآية ٥٥ من سورة الزخرف .

(٨) الآية ٣٩ من سورة طه .

(٩) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(١٠)الآية ٥ من سورة طه .

(١١)الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

(١٢)الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .

و (كلم الله موسى تكليما (١)) ، و (جاء ربك والملك صفا صفا (٢)) .

وقد يعلم أن مفسرى كتابنا وأصحاب التأويل منا أحسن معرفـة ، واعلم بوجوه الكلام من اليهود ، ومتأولى الكتب ، ونحن قد نجـد فى تفسيرهم ما لا يجوز على الله فى صفته ، ولا عند المتكلمين فى مقاييسهم (٣)، ولا عند النحويين فى عربيتهم . فما ظللنك باليهود مع غبارتهم وغيهم ، وقلة نظرهم وتقليدهم ؟ .

وهذا باب قد غلطت فيه العرب أنفسها ، وفصحاء أهل اللغة اذا غلطت قلوبها ، وأخطأت عقولها ، فكيف بغيرهم ممن لا يعلم كعلمها ؟ .

سمع بعض العرب قول جميع العرب : « القلوب بيد الله » ، وقولهم فى الدعاء : « نواصينا بيد الله » وقوله جل ذكره : (بل يداه مبسوطتان(٤))، وقولهم : « هذا من ايادى الله ونعمه عندنا » وقد كان من لغتهم أن الكف أيضا يد (٥) ، كما أن النعمة يد ، والقدرة يد ، فغلط الشاعر (٦) فقـال :

هـون عليـك فان الأمـور   بكف الاله مقاديرهـا (٧)

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة النساء .

(٢) الآية ٢٢ من سورة الفجر .

(٣) في النسختين : « مقايسهم » .

(٤) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٥) في النسختين : « الكفر أيضا يد » ، والوجه ما أثبت . وهـو تمهيد للاستشهاد بالبيت التالى ، الذى اثبت للاله كفا ، وذلك من سوء أدب الشاعر ، وانما يعبر باليد في ذات الله لمعنى النعمة والقدرة .

(٦) هو محمد بن حازم الباهلى كما في العقد ٣ : ٢٠٦ . وسماه « ابن أبي حازم »، تحريف . وهو محمد بن حازم بن عمرو الباهلى . كان من ساكنى بغداد ، ومولده ومنشؤه بالبصرة . وهو من شعراء الدولة العباسية . شاعر مطبوع ، الا كان كثير الهجاء للناس . ولم يمدح من الخلفاء الا المأمون . كان يقول المقطعات الصغيرة فيحسن . وهو صاحب البيت المشهور :

يا راقد الليل مسرورا بأوله   ان الحوادث قد يطرقن أسحارا

وقد عاتبه يحيى بن أكثم على اختصاره للشعر ، فأجابه بأشعار حسان .

انظر الأغانى ١٢ : ١٥١ — ١٦٠ والمرزبانى ٤٢٩ وتاريخ بغداد ٧٨١ .

(٧) في العقد :   * فلا تحرصن فان الأمور *

وقد كان ابراهيم بن سيار النظام يجيب بجواب ، وأنا ذاكره ان شاء الله . وعليه كانت علماء المعتزلة ، ولا أراه مقنعا ولا شافيا .

وذلك أنه كان يجعل الخليل مثل الحبيب ، مثل الولى ، وكان يقول : خليل الرحمن مثل حبيبه ووليه وناصره . وكانت الخلة والولاية والمحبة سواء .

قالوا : ولما كانت كلها عنده سواء جاز أن يسمى عبدا له ولدا ، لمكان التربية التى ليست بحضانة ، ولمكان الرحمة التى لا تشتق من الرحم (١) ، لأن انسانا لو رحم جرو كلب فرباه لم يجز أن يسميه ولدا ويسمى نفسه أبا . ولو التقط صبيا فرباه جاز أن يسميه ولدا ويسمى نفسه له أبا ، لأنه شبيه ولده ، وقد يولد بمثله مثله . وليس بين الكلاب والبشر ارحام ، فاذا كان شبه شبه (٢) الاثنتان أبعد من الله تعالى من شبه الجرو بالانسان ، كان الله أحق بألا يجعله ولده ، وينسبه الى نفسه .

قلنا لابراهيم النظام عند جوابه هذا وقياسه (٣) الذى قاس عليه ، فى المعارضة والموازنة بين قياسنا وقياسه : ارأيت كلبا الف كلابه (٤) ، وحامى وأحمى دونه ، هل يجوز أن يتخذه بذلك كله خليلا ، مع بعد التشابه والتناسب ؟ .

فاذا قال : لا . قلنا : فالعبد الصالح أبعد شبها من الله من ذلك الكلب المحسن الى كلابه ، فكيف جاز فى قياسك أن يكون الله خليل من لا يشاكله

---

(١) في النسختين : « لايشتق » ، تحريف .

(٢) ب : « شبيه » .

(٣) ب : « وان قياسه » .

(٤) الكلاب : صاحب الكلاب ، كما أن المكلب صاحبها الذى يعلمها اخذ الصيد ويصطاد بها . ب : « ارأيت كلابا » صوابه في م .

. لمكان احسانه ، ولا يجوز للكلاب أن يسمى كلبه خليلا أو ولدا لمكان حسن تربيته له ، تأديبه اياه ، ولمكان حسن الكلب وكسبه عليه ، وقيامه مقام الولد الكاسب والأخ ، والبار .

والعبد الصالح لا يشبه الله فى وجه من الوجوه ، والكلب قد يشبه كلابه لوجوه كثيرة ، بل ما أشبهه به مما خالفه فيه ، وان كانت العلة التى منعت من تسمية الكلب خليلا وولدا بعد شبهه من الانسان .

فلو قلتم (١) فما الجواب الذى أجبت فيه ، والوجه الذى ارتضيته ؟ .

قلنا : ان ابراهيم صلوات الله عليه ، وان كان خليلا ، فلم يكن خليله بخلة كانت بينه وبين الله تعالى ، لأن الخلة والاخاء والصداقة والتصافى والخلطة وأشباه ذلك منفية عن الله تعالى عز ذكره ، فيما بينه وبين عباده ، على أن الاخاء والصداقة داخلتان فى الخلة ، والخلة أعم الاسمين ، وأخص الحالين . ويجوز أن يكون ابراهيم خليلا بالخلة (٢) التى أدخلها الله على نفسه وماله ، وبين أن يكون خليلا (بالخلة وأن يكون خليلا (٣)) بخلة بينه وبين ربه — فرق ظاهر ، وبون واضح . وذلك أن ابراهيم عليه السلام اختل فى الله تعالى اختلالا لم يختلله أحد قبله لقذفهم اياه فى النار ، وذبحه ابنه ، وحمله على ماله فى الضيافة والمواساة والأثرة ، وبعداوة قومه ، والبراءة من أبويه فى حياتهما ، وبعد موتهما ، وترك وطنه ، والهجرة الى غير داره ، ومسقط رأسه ، فصار لهذه الشدائد مختلا فى الله وخليلا فى الله . والخليل والمختل (٤) سواء فى كلام العرب . والدليل على أن يكون

---

(١) في النسختين : فلم قلتم » ، والوجه ما اثبت .

(٢) الخلة ، بالفتح : الحاجة والفقر .

(٣) تكملة يفتقر اليها الكلام .

(٤) في النسختين : « مخول » ، تحريف . وفي اللسان : « ورجل مخل ومختل وخليل واخل : بمعدم مقير » .

الخليل من الخلة كما يكون من الخلة قول زهير بن أبى سلمى ، وهو يمدح هرما :

وان أتاه خليل يوم مسـغبة يقـول لا عاجـز مالى ولا حرم (١)

وقال آخر :

وانى الى أن تسعـفانى بحاجـة الى آل ليلى مرة لخليـل

وهو لا يمدحه بأن خليله وصديقه يكون فقيرا سائلا ، يأتى يوم المسألة ويبسط يده للصدقة والعطية ، وأنما الخليل فى هذا الموضع من الخلة والاختلال ، لا من الخلة والخلال .

وكأن ابراهيم عليه السلام حين صار فى الله مختلا أضافه الله الى نفسه ، وأبانه بذلك عن سائر أوليائه ، فسماه خليل الله من بين الأنبياء ، كما سمى الكعبة : بيت الله من بين جميع البيوت ، وأهل مكة : أهل الله من بين جميع البلدان . وسمى ناقة صالح عليه السلام : ناقة الله من بـين جميع النوق . وهكذا كل شىء عظمه الله تعالى ، من خير وشر ، وثواب وعقاب . كما قالوا : دعه فى لعنة الله ، وفى نار الله وفى حرقه . وكما قال للقرآن : كتاب الله ، وللمحرم : شهر الله . و (على هذا المثال قيل لحمزة رحمة الله ورضوانه عز ذكره عليه : أسد الله ، و (٢)) لخالد رحمة الله عليه : سيف الله تعالى .

وفى قياسنا هذا لا يجوز : أن الله خليل ابراهيم ، كما يقال : ان ابراهيم خليل الله .

---

(١) ديوان زهير ١٥٣ والعينى ٤ : ٤٢٩ .

(٢) هذه التكملة من م وان كانت عبارة الدعاء هذه ليست من أسلوب الجاحظ .

فان قال قائل : فكيف لم يقدموه على جميع الأنبياء ، اذ كان الله قدمه بهذا الاسم الذى ليس لاحد مثله ؟ .

قلنا : ان هذا الاسم اشتق له من عمله وحاله وصفته ، وقد قيل لموسى عليه السلام : كليم الله ، وقيل لعيسى : روح الله ، ولم يقل ذلك لابراهيم ، ولا لمحمد صوات الله عليهما ، وان كان محمد صلى الله عليه وسلم ارفع درجة منهم ، لأن الله تعالى كلم الأنبياء عليهم السلام على السنة الملائكة ، وكلم موسى كما كلم الملائكة ، فلهذه العلة قيل : كليم الله .
وخلق فى نطف الرجال ان قذفها (١) فى أرحام النساء على ما أجرى عليه تركيب العالم ، وطباع الدنيا ، وخلق فى رحم مريم روحا وجسدا ، على غير مجرى العادة ، وما عليه المناكحة . فلهذه الخاصة قيل له : روح الله.

وقد يجوز أن يكون فى نبى من الأنبياء خصلة شريفة ، ولا تكون تلك الخصلة بعينها فى نبى أرفع درجة منه ، ويكون فى ذلك النبى خصال شريفة ليست فى الآخر . وكذلك جميع الناس ، كالرجل يكون له أبوان ، يحسن برهما وتعاهدهما ، والصبر عليهما ، وهو أعرج لا يقدر على الجهاد ، وفقير لا يقدر على الانفاق . ويكون آخر لا أب له ولا أم له ، وهو ذو مال كثير ، وخلق سوى ، وجلد طاهر ، فأطاع هذا بالجهاد والانفاق ، واطاع ذلك ببر والديه والصبر عليهما .

والكلام اذا حرك تشعب ، واذا ثبت أصله كثرت فنونه ، واتسعت طرقه . ولولا ملالة القارىء ، ومداراة المستمع لكان بسط القول فى جميع ما يعرض اتم للدليل ، واجمع للكتاب ، ولكنا انما ابتدأنا الكتاب لنقتصر به على كسر النصرانية فقط .

---

(١) فى النسختين : « اذقذفها » ، ووجهت العبارة بما ترى .

٦ — فصل منه

قلنا فى جواب آخر : ان كان المسيح انما صار ابن لله لأن الله خلقه من غير ذكر ، فادم وحواء (١) اذ كانا (٢) من غير ذكر وانثى أحق بذلك ، ان كانت العلة فى اتخاذه ولدا انه خلقه من غير ذكر .. وان كان ذلك لمكان التربية فهل رباه الا كما ربى موسى (٣) ، وداود ، وجميع الأنبيـــاء ٠ وهل تأويل : « رباه » الا غذاه ، ورزقه ، وأطعمه ، وسقاه ، فقد فعل ذلك(٤) بجميع الناس ٠ ولم سميتم سقيه لهم واطعامه اياهم تربية ؟ ولم رباه وانتم لا تريدون الا غذاه ورزقه ، وهو لم يحضنه ، ولم يباشر تقليبه ، ولم ينول بنفسه سقيه واطعامه ، فيكون ذلك سببا له دون غيره ، وانمـــا سقاه لبن أمه فى صغره وغذاه بالحبوب والماء فى كبر .

٧ — فصل منه

والأعجوبة فى ادم عليه السلام أبدع ، وتربيته أكرم ، ومنقلبه أعلى وأشرف ، اذ كانت السماء داره ، والجنة منزله ، والملائكة خدامه . بل هو المقدم بالسجود والسجودلشد الخضوع . وان كان بحسن التعليم والتثقيف (٥) ، فمن كان الله تعالى يخاطبه ، ويتولى مناجاته دون ان يرسل اليه ملائكته ويبعث اليه رسله ، اقرب منزلة ، وأشرف مرتبة ، وأحق بشرف التأديب وفضيلة التعليم .

---

(١) رسمت في النسختين : « حوى » .

(٢) ب : « اذا كان » م : « اذا كان » ، والوجه ما اثبت .

(٣) في النسختين « الا حماد بن موسى » ، صوابه ما اثبت ، وهو من دقيق التحريف ،

(٤) ب : « فهل فعل ذلك » ، صوابه في م .

(٥) اى « وان كان تقديمه بحسن التعليم » ، وكلمة « التثقيف » ساقطة من م . وفي النسختين : « وان كان يحسن التعليم » ، والوجه ما اثبت .

وكان الله تعالى يكلم آدم كما كان يكلم ملائكته ، ثم علمه الأسماء كلها ، ولم يكن ليعلمه الأسماء كلها الا بالمعانى كلها ، فاذا (كان (١)) ذلك كذلك فقد علمه (٢) جميع مصالحه ومصالح ولده ، وتلك نهاية طباع الآدميين ، ومبلغ قوى المخلوقين .

٨ — فصـــل منه

فاما قولهم انا نقول على الناس ما لا يعرفونه (٣) ، ولا يجوز أن يدينوا به ، وهو قولنا ان اليهود قالت : ان الله تعالى فقير ونحن أغنياء . وأنها قالت : ان يد الله مغلولة ، وانهـــا قالت : ان عزيزا ابن الله ،وهم مع اختلافهم وكثرة عددهم ، ينكرون ذلك ويأبونه أشد الاباء .

قلنا لهم : ان اليهود لعنهم الله تعالى كانت تطعن على القرآن ، وتلتمس نقضه ، وتطلب عيبه ، وتخطىء فيه صاحبه ، وتأتيه من كل وجه ، وترصده بكل حيلة ، ليلتبس على الضعفاء ، وتستميل قلوب الأغبياء (٤) .

فلما سمعت قول الله تعالى لعباده الذين اعطاهم ، قرضا ، وسألهم قرضا على التضعيف ، فقال عز من قائل : (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له (٥)) . قالت اليهود (٦) على وجه الطعن والعيب والتخطئة والتعنت : تزعم أن الله يستقرض منا ، وما استقرض منـــا

---

(١) تكملة يفتقر اليها الكلام .

(٢) ب : « علمه » ، صوابه في م .

(٣) سقطت كلمة « لا » من النسختين ، ولا يستقيم الكلام بدونها .

(٤) ب : « الاغنياء » ، صوابه في م . وفي النسختين : « ويستميل » ، تحريف .

(٥) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة . وقراءة نصب « فيضاعفه » هى لعاصم وابن عامر ويعقوب . وقراءة الجمهور « فيضاعفه » بالرفع على الاستئناف . اتحاف فضلاء البشر ١٥٩ .

(٦) ب : « قالت » فقط .

الا لفقره وغنانا ! فكفرت بذلك القول اذ كان (١) على وجه التكذيب والتخطئة ، لا على وجه ان دينها كان فى الأصل أن الله فقير ، وأن عباده أغنياء . وكيف يعتقد انسان أن الله عاجز عما يقدر عليه ، مع اقراره (٢)بانه
أغنياء . وكيف يعتقد انسان أن الله عاجز عما يقدر عليه ، مع اقراره (٢) بانه
الذى خلقه ورزقه ، وان شاء حرمه ، وأن شاء عذبه ، وان شاء عفا عنه . وقدرته على جميع ذلك كقدرته على واحد .

ومجاز الآية فى اللغة واضح ، وتأويلها بين ؛ وذلك أن الرجل منهم كان يقرض صاحبه لارفاقه (٣) ، ليعود اليه مع اصل ماله اليسير من ربحه ، ثم هو مخاطر به الى أن يعود فى ملكه . فقال لهم ـــ بحسن عادته ومنته : آسوا فقراءكم (٤) ، واعطوا فى الحق اقرباءكم ، من المـــال الذى أعطيتكم ، والنعمة التى خولتكم ، بأمرى اياكم وضمانى لكم ، فاعتده منكم قرضا وان كنت اولى به منكم ، فأنا موفيكم حقوقكم الى مالا ترتقى اليه همة ولا تبلغه امنية . على انكم قد أمنتم من الخطار ، وسلمتم من التغرير .

والرجل يقول لعبده (٥) : اسلفنى درهما ، عند الحاجة تعرض له (٦)، وهو يعلم أن عبده وماله له . وانما هذا كلام وفعال يدل على حسن الملكه، والتفضل على العبد والأمة ، واخبار منه لعبده انه سيعيد عليه ما كانت سخت به نفســه .

---

(١) ب : « اذا كان » ، صوابه في م .

(٢) في النسختين : « مع قراره » .

(٣) الارفاق : النفع . وفي م : « لارفائه » .

(٤) المؤاساة : مصدر آساه بماله : اناله منه وجعله فيه اسوة ، فهى المشاركة . وفي الحديث « ما احد عندى اعظم يدا من ابى بكر ، آسانى بنفسه وماله » . وفي ب : « واسوا » على التخفيف ، وان ذكر صاحب اللسان أنها لغة ضعيفة ، ففى حيث الحديبية : « ان المشركين واسونا للصلح » .

(٥) ب : « لعبد » ، صوابه في م .

(٦) في النسختين : « تقرض له » ، تحريف ما اثبت .

وهذا ليس بغلط فى الكلام ولا بضيق فيه (١) ولكن المتعنت يتعلق بكل سبب ، ويتشبث بكل ما وجد .

واما اخباره عن اليهود انها قالت : (يد الله مغلولة (٢)) ، فلم يذهب الى ان اليهود ترى أن (٣) ساعده مشدودة الى عنقه بغل . وكيف يذهب الى هذا ذاهب ، ويدين به دائن ؟ ! لأنه لابد أن يكون يذهب الى انه غل نفسه او غله غيره . وايهما كان ، فانه منفى عن وهم كل بالغ يحتمل التكليف ، وعاقل يحتمل التثقيف ، ولكن اليهود قوم جبرية والجبرية(٤) تبخل الله مرة وتظلمه مرة (٥) ، وان لم تقر بلسانها ، وتشهد على اقرارها، بقولهم : (يد الله مغلولة) يعنون بره واحسانه (٦) . وقولهم : مغلولة ، لا (يعنى (٧)) أن غيره حبسه ومنعه ، ولكن اذا كان عندهم انه الذى منع أياديه ، وحبس نعمه ، فهى محبوسة بحبسه ، ممنوعة بمنعه .

والذى يدل على أنهم أرادوا باليدين النعمة والافضال ، دون

---

(١) في الاصلين : « وهذا ليس بغلط في الكلام ولابضيق فيه » .

(٢) الاية ٦٤ من سورة المائدة .

(٣) في النسختين : « بان » تحريف .

(٤) في اللسان : « الجبرية : الذى يقولون : اجبر الله العباد على الذنوب ، اى اكرههم » والمعروف عند المتكلمين ان الجبر هو نفى الفعل حقيقة عن العبد ، واضافته الى الرب تعالى .. والجبرية أصناف . فالجبرية الخالصة هى التى لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل اصلا . والجبرية المتوسطة التى تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة . فأما من اثبت للقدرة الحادثة اثرا ما في الفعل وسمى ذلك كسبا فليس بجبرى . والمعتزلة يسمون من لم يثبت للقدرة الحادثة في الابداع والاحداث استقلالا ـ جبريا . الملل والنحل ١ : ١٠٨ .

(٥) في اللسان (ظلم ٢٦٧) : وظلمه (بالتشديد) : انباه انه ظالم ، أو نسبه الى الظلم » وانشد :

امست تظالمني ولست بظالم   وتنبهنى نبها ولست بنائم

وفي ب : « وتعظمه » ، صوابه ما اثبت من م .

(٦) بره ، ساقطة من ب . وهى في م : « يده » ، ووجه هذه ما أثبت .

(٧) تكملة يفتقر الى مثلها الكلام .

لساعد والذراع ، جواب كلامهم حين قال : (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء (١)) . دليلا على ما قلنا ، وشاهدا على ما وصفنا .

فان قالوا : فكيف لم يقل ان اليهود بخلت الله وجحدت احسانه ، دون أن يقال ان يد الله مغلولة ؟ .

قلنا : ان أراد الله الاخبار عن كفر قوم (٢) وسخط عليهم ، فليس لهم عليه أن يعبر عن دينهم وعيوبهم بأحسن المخارج ، ويجليها (٣) بأحسن الألفاظ . وكيف وهو يريد التنفير عن قولهم ، وأن يبغضهم الى من سمع ذلك عنهم .

ولو أراد الله تعالى تليين الأمر وتصغيره وتسهيله ، لقال قولا غير هذا . وكل (٤) صدق جائز فى الكلام . فهذا مجاز مسألتهم فى اللغة ، وهو معروف عند أهل البيان والفصاحة .

وأما قولهم : ان اليهود لا تقول ان عزيرا ابن الله . فان اليهود فى ذلك على قولين : أحدهما خاص ، والآخر عام فى جماعتهم .

فأما الخاص ، فان ناسا منهم لما رأوا عزيرا أعاد عليهم التوراة من تلقاء نفسه ، بعد دروسها وشتات أمرها غلوا فيه ، وقالوا ذلك ، وهو مشهور (٥) من أمرهم . وان فريقا من بقاياهم لباليمن والشام ودخل بلاد الروم . وهؤلاء بأعيانهم يقولون : ان اسرائيل الله ابنه (٦) ، واذا كان ذلك على خلاف تناسب الناس ، وصار (٧) ذلك الاسم لعزير

---

(١) من الآية ٦٤ في سورة المائدة .

(٢) ب : « على كفر قوم » ، صوابه في م .

(٣) م : « ويجلبها » .

(٤) في النسختين : « وحل » ، ووجهه ما أثبت .

(٥) ب : « مشهود » .

(٦) انظر ما سبق في ص ٣٣١ — ٣٣٢ . وهو ترجمة لكلمتى « اسرا » و « ايل » . وفي تفسير أبى حيان ١ : ١٧١ ان « اسرا » بمعنى العبد ، في العبرانية .

(٧) ب : « وساز » بالسين .

بالطاعة والعلامة ، والمرتبة لأنه (١) من ولد اسرائيل .

والقول الذى هو عام فيهم ، أن كل يهودى (٢) ولده اسرائيل ، فهـو ابن الله ، اذ لم يجدوا ابن ابن قط الا وهو ابن .

٩ — فصـل منه

فان قالوا : ليس المسيح روح الله وكلمته ، كما قال عز ذكره : (وكلمته القاها الى مريم وروح منه (٣)) أو ليس قد اخبر عن نفسـه حين ذكر امه أنه نفخ فيها من روحه ؟ أو ليس مع ذلك قد اخبر عن حصانة فرجهـا وطهارتها (٤) ؟ أو ليس مع ذلك قد أخبر انه لا أب له ، وانه (٥) كان خالقا ، اذ كان يخلق من الطين كهيئة الطير ، فيكون حيا طائرا ؟ فأى شىء بقى (٦) من الدلالات على مخالفته لمشاكلة (٧) جميع الخلق ، ومباينة جميع البشر ؟

قلنا لهم : انكم انما سألتمونا عن كتابنا ، وما يجوز فى لغتنـا وكلامنا ، ولم تسألونا عما يجوز فى لغتكم وكلامكم . ولو أننا جوزنا ما فى لغتنـا مالا يجوز ، وقلنا على الله تعالى مالا نعرف ، كنا بذلك عند الله والسامعين فى حد الكافرين ، وأسوأ حالا من المنقطعين ، وكنا قد أعطيناكم أكثر مما سألتم ، وجزنا بكم فوق أمنيتكم .

---

(١) ب : « لا لانه » ، و « لا » مقحمة تفسد الكلام .

(٢) في النسختين : « ان يكون يهودى » .

(٣) الآية ١٧١ من سورة النساء .

(٤) في الاصل : « او ليس مع ذلك قد اخبر عن حصانة فرجها وطهارتها ، اخبر انه نفخ فيها من روحه » وفي هذا تكرار لاوجه له .

(٥) ب : « وان » ، صوابه في م .

(٦) في النسختين : « نفى » ، تحريف .

(٧) في النسختين : « بمشاكله » . والمقصود نفى المشاكلة :

ولو كنا اذا قلنا : عيسى روح الله وكلمته ، وجب علينا (١) فى لغتنا أن يجعله الله ولدا ، ونجعله (٢) مع الله تعالى الها ، ونقول (٣) : ان روحا كانت فى الله فانفصلت منه الى بدن عيسى وبطن مريم . فكنا اذا قلنا : ان الله سمى جبريل روح الله وروح القدس ، وجب علينا أن نقول فيه ما يقولون فى عيسى . وقد علمتم أن ذلك ليس من ديننا ، ولا يجوز ذلك بوجه من الوجوه عندنا ، فكيف نظهر للناس قولا لا نقوله ، ودينا لا نرتضيه.

ولو كان قوله جل ذكره (٤) : (فنفخنا فيه من روحنا (٥)) يوجب نفخا كنفخ الزق ، او كنفخ الصائغ فى المنفاخ ، وأن بعض الروح التى كانت فيه انفصلت فاصلة الى بطنه وبطن أمه (٦) ، لكان قوله فى آدم يوجب له ذلك ، لأنه قال : (وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله (٧)) .. الى قوله : (ونفخ فيه من روحه (٨)) وكذلك قوله : (فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين (٩)) .

والنفخ يكون من وجوه ، والروح يكون من وجوه :

فمنها ما أضافه الى نفسه ، ومنها ما لم يضفه الى نفسه . وانما

---

(١) ب : « وجبب علينا » ، تحريف ، ما في م .

(٢) في النسختين : « ويجعله » ، محرف .

(٣) في النسختين : « ويقول » .

(٤) في النسختين : « ولو قال جل ذكره » . ليقطع الكلام عما بعده .

(٥) من الآية ٩١ من الانبياء و ١٢ من التحريم .

(٦) في النسختين : « بعض روح » .

(٧) في النسختين : « بطنها وبطن امها » .

(٨) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة السجدة .

(٩) الآية ٩ من سورة السجدة .

(١٠) الآية ٢٩ من الحجر و ٧٢ من ص .

يكون ذلك على قدر ما عظم من الامور ، فمما سمى روحا واضافه الى نفسه ، جبريل الروح الأمين ، وعيسى بن مريم • والتوفيق كقول موسى حين قال : ان بنى فلان أجابوا فلانا النبى ولم يجيبوك . فقال له (١) : « ان روح الله مع كل أحد » (٢) .

وأما القرآن فان الله سماه روحا ، وجعله يقيم للناس مصالحهم فى دنياهم وابدانهم ، فلما اشتبها من هذا الوجه الزمهما اسمهما فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا (٣)) وقال : (تنزل الملائكة والروح (٤)) .

١٠ ـــ فصل منه

قد جعلنا فى جواباتهم وقدمنا مسائلهم (٥) ، بما لم يكونوا ليبلغوه لأنفسهم ، ليكون الدليل تاما ، والجواب جامعا ، وليعلم من قرأ هـذا الكتاب تدبر هذا الجواب ، أنا لم نغتنم عجزهم ، ولم ننتهز غرتهم ، وأن الادلال بالحجة ، والثقة بالفلج والنصرة ، هو الذى دعانا الى أن نخبرعنهم بما ليس عندهم ، والا نقول فى مسألتهم بمعنى لم ينتبه له منتبه ، أو يشر اليه مشير (٦) ، والا يوردو فيما يستقبلون ، على ضعفائنا ومن قصر

---

(١) ب : « فقالوا له » ، تحريف .

(٢) اشارة الى ماجاء في سفر العدد ١١ : ٢٧ ـــ ٢٩ : « فركض غلام وأخبر موسى وقال : الداد وميداد يتنبآن في المحلة . فاجاب يشوع بن نون خادم موسى من حداثته وقال : ياسيدى موسى ، اردعهما . فقال له موسى : هل تغار انت لى ، ياليت كل شعب الرب كانوا انبياء اذا جعل الرب روحه عليهم » .

(٣) الاية ٥٢ من الشورى .

(٤) الاية ٤ من المعارج .

(٥) م : « وقومنا متسائلهم » .

(٦) في النسختين : « أو يشير » ، وانما هو عطف على : « لم ينتبه » .

نظره منا ، شيئا الا والجواب قد سلف فيه ، والسنتهم قد مذلت به (١) .

وسنسالهم ان شاء الله ، ونجيب عنهم ، ونستقصى لهم فى جواباتهم ، كما سألنا لهم أنفسنا (٢) ، واستقصينا لهم فى مسائلهم .

فيقال لهم : هل يخلو المسيح أن يكون انسانا بلا اله ، أو الهــا بلا انسان ؟ أو ان يكون الها وانسانا ؟

فان زعموا انه كان الها بلا انسان ، قلنا لهم : فهو الذى كان صغيرا فشب والتحى (٣) ، والذى كان يأكل ويشرب ، وينجو ويبول ، وقتــل بزعمكم وصلب ، وولوته مريم وأرضعته ، ام غيره هو الذى كان يأكل ويشرب على ما وصفنا ؟ فأى شيء معنى الانسان الا ما وصفنا وعددنا ؟ .

وكيف يكون الها بلا انسان ، وهو الموصوف بجميع صفات الانسان . وليس القول فى غيره ممن صفته كصفته الا كالقول فيه كاشتمالها على غيره ؟ .

وان زعموا أنه لم ينقلب عن الانسانية ولم يتحول عن جوهر البشرية ، ولكن لما كان اللاهوت فيه ، صار خالقا وسمى الها . قلنا لهم : خبرونا عن اللاهوت . أكان فيه وفى غيره (٤) ، أم كان فيه دون غيره ؟

---

(١) مذلت به : اذاعته وانشته ، واصل المذل اشاعة السر . قال قيس من الحطيم:

فلا تمذل بسرك كل سر . اذا ما جاوز الاثنين فاشى

ب : « قد دلت به » م : « قد زلت به » والوجه ما ابدت .

(٢) ب : « كما سألناهم انفسنا » ، صوابه في م .

(٣) التحى : ظهرت لحيته . ب : « والتجى » بالجيم ، تحريف .

(٤) ب : « اكان فيه وفي غيره » فقط ، وبقية العبارة من م مع سقوط كلمة « فيه » الثانية ، وقد اثبتها تكملة للقول .

فان زعموا أنه كان فيه وفى غيره ، فليس هو أولى بأن يكون خالقا ويتسمى الها من غيره . وان كان فيه دون غيره ، فقد صار اللاهوت جسما.

وسنقول فى الكسر عليهم اذا صرنا الى القول فى التشبيه ، وهو قول معظمهم (١) ، والـــذى كان عليه جماعتهـــم ، الا من خالفهم من متكلميهم ومتفلسفيهم ، فانهم يقولون بالتشبيه (٢) والتجسيم ، فرارا من كثرة الشناعة ، وعجزا عن الجواب . وكفى بالتشبيه قبحا ، وهو قول يعم اليهود واخوانهم من الرافضة ، وشياطينهم من المشبهة والحشوية (٣) والنابتة (٤) ، وهو بعد متفرق فى الناس . والله تعالى المستعان .

---

(١) ب : « قول منع لهم » م : « منعلهم » ، واثبت مارأيته الصواب .

(٢) في النسختين : « في التشبيه » .

(٣) انظر ما سبق من الكلام على الحشوية في ص ٢٨٨/.

(٤) في النسختين : « النابتة » ، وأثبت واوا قبلها لان هؤلاء غير هؤلاء . وانظرللنابتة رسائل الجاحظ ٢ : ٥ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ .

المراجــع العربيـــة

على راس هذه المراجع القرآن الكريم ثم الكتاب المقدس ودائرة المعارف الاسلامية •

المؤلف	الكتـــاب
١ — ابن الأثير : (٦٣٠ هـ — ١٢٣٨ م) على بن أحمد بن ابى الكرم	— أسد الغابة فى معرفة الصحابة — النهاية فى غريب الحـديث والأثر
٢ — ابن الخطيب التبريزى :	— تهذيب اصلاح المنطق (شرح على اصلاح المنطق)
٣ — ابن السكيت :	— اصلاح المنطق
٤ — ابن الكلبى : أبو المنذر هشام بن ابى النصر محمد بن السائب	— الأصنام تحقيق أحمد زكى باشا ، الدار القومية
٥ — ابن النديم : محمد بن اسحاق	— الفهرست
٦ — ابن تيمية :	
٧ — ابن حجر العسقلانى :	— فتح البارى شرح صحيح البخارى
٨ — ابن حزم :	— الفصل فى الملل والنحل ، الخلبى
٩ — ابن عبد ربه : أبو عمر أحمد بن محمد	— العقد الفريد ، نشر الأساتذة : أحمد امين ، احمد الزين ، ابراهيم الابيارى
١٠ — ابن قتيبه (٢١٣م) أبو عبد الله بن مسد	— المعارف ، تحقيق د• ثروت عكاشة ، دار المعارف — الشعر والشعراء
١١ — ابن كثير :	— القرآن العظيم (تفسير)
١٢ — ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم	— لسان العرب
١٣ — أبو حيان (أثير الدين) :	— البحر المحيط (تفسير)

المؤلف	الكتــاب
١٤ ـــ احمد أمين (دكتور) :	ـــ فجر الاسلام
١٥ ـــ الأزرقى : الوليد محمد بن عبد الله ابن احمد	ـــ خبار مكة وما جاء فيها من الآثار ط· خباط ، بيروت سنة ١٩٦٤ م
١٦ ـــ الأصفهانى : أبو الفرج على بن الحسين	ـــ الأغانى ط· دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٧م
١٧ ـــ الأصفهانى (الراغب)	ـــ مفردات القرآن
سبتينو موسكاتى	الحضارات السامية القديمة ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر مراجعة : محمد القصاص ط· دار الكاتب العربى
١٨ ـــ الألوسى : السيد محمود شكرى	ـــ روح المعانى (تفسير) ـــ بلوغ الارب فى معرفة احوال العرب سنة ١٣٤٢ هـ عنى بشرحه وتصحيح ضبطه : محمد بهجة الأثرى : دار الكتب الحديثة
السيد عبد الرازق الحسينى	ـــ الصابئة : قديما وحديثا تقديم : أحمد زكى باشا طبعة أولى ١٩٢٥ ، المطبعة الرحمانية بمصر
١٩ ـــ البكرى : عبد الله بن عبد العزيز ابن محمد بن عمر	ـــ معجم ما استعجم بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر
٢٠ ـــ البلاذرى : (٢٧٩هـ ـــ ٨٩٢م) أحمد بن يحيى بن جابر	ـــ فتوح البلدان ، القاهرة سنة ١٣١٨
٢١ ـــ البهى : دكتور محمد	ـــ الجانب الالهى فى التفكير الاسلامى وهبـــة
٢٢ ـــ البيرونى : أبو الريحان محمد أحمد الخوارزمى	ـــ الآثار الباقية عن القرون الخالية (ليبسك ١٨٧٨ م) الانجلو المصرية
٢٣ ـــ الجندى : (الأستاذ على)	ـــ تاريخ الأدب الجاهلى ،

المؤلف	الكتاب
٢٤ ـ الرازى : (ابو حاتم)	ـ الزينة فى المصطلحات الاسلامية علق عليه حسين بن فيض الله الهمدانى
٢٥ ـ الرازى (فخر الدين)	ـ مفاتيح الغيب (تفسير)
٢٦ ـ السهيلى : أبو القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله الخثعمى	ـ الروض الأنف ، القاهرة ١٩١٤ م
٢٧ ـ الشهاب :	ـ حاشية الشهاب على البيضاوى
٢٨ ـ الشهرستانى : المتوفى (٥٤٨ هـ) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم	ـ الملل والنحل ، الانجلو تخريج د٠ محمد بن فتح الله بدران
٢٩ ـ الطبرى (ابن جرير)	ـ جامع البيان فى تفسير القرآن (تفسير)
طـه باقر	ـ مقدمة فى : تاريخ الحضارات القديمة الجزء الأول الوجيز فى تاريخ حضارة وادى الرافدين ، الطبعة الأولى ١٩٧٣ مطبعة الحوادث ، بغداد
٣٠ ـ العقـاد : عباس محمود	ـ أبو الأنبياء ـ الله موسوعة العقاد الاسلامية دار الكتاب اللبنانى
٣١ ـ الفيومى : د٠ محمد ابراهيم	ـ قضايا فى الاجتماع الاسلامى حول حركة تفاعل الانسان وتكيفه بالوحى ـ القلق الانسانى ، سنة ١٩٧٥ الانجلو المصرية
٣٢ ـ القرطبى :	ـ جامع الأحكام (تفسير)
٣٣ ـ القرضاوى : (د٠ يوسف)	ـ الخصائص العامة للاسلام مكتبة وهبـة
٣٤ ـ المسعودى المتوفى (٣٤٦هـ) أبو الحسن على بن الحسين ابن على	ـ مروج الذهب ط٠ دار الشعب ، القاهرة

المؤلف	الكتـــاب
٣٥ ـ المقدسي :	ـ البدء والتاريخ
٣٦ ـ المكلاتي : أبو الحجاج يوسف محمد	ـ لباب المعقول في الرد على الفلاسفة ـ في علم الأصول ، تحقيق د٠ فوقية حسين محمود ، دار الأنصار ١٩٧٧
٣٧ ـ النيسابوري :	ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان (تفسير)
٣٨ ـ الهمذاني : أبو محمد الحسن بن أحمد ابن يعقوب	ـ الاكليل ، نشر وتعليق الأب أنستاس الكرملي ١٩٣١
٣٩ ـ اليعقوبي : احمد بن أبي يعقوب بن جعفر ابن وهيب المعروف بابن واضح	ـ تتاريخ اليعقوبي
٤ ـ أوندر الرفاعي :	ـ الاسلام في حضارته ونظمه ، دار الفكر ، دمشق
٤١ ـ انوليتمان	ـ لهجات عربية شمالية قبل الاسلام بحث مستخرج من مجمع اللغة العربية الملكي سنة ١٩٣٦ م
٤٢ ـ أوليري (دبلاس)	ـ الفكر العربي ومكانته في التاريخ ترجمة د٠ تمام حسان مراجعة د٠ محمد مصطفى حلمي
	ـ علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجمة دوهيب كامل مراجعة الأستاذ زكي علي
٤٣ ـ بـدوي : دكتور عبد الرحمن	ـ رسائل فلسفية ، نشر جامعة بني غازي
	ـ شخصيات قلقة في الاسلام
٤٤ ـ برييه (أميل)	ـ الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الاسندري ، ترجمة د٠ محمد يوسف موسى و د٠ عبد الحليم النجار ط ٣

المؤلف	الكتاب
٤٥ ـ تسارن :	ـ الحضارة الهللينية، ترجمة عبد العزيز جاويد
٤٦ ـ حتى : (دكتور فيليب)	ـ تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ترجم الجزء الأول د٠ جورج حداد وعبد الكريم رافق ، مراجعة جبريل جبور ، ترجم الجزء الثانى د٠ كمال اليازجى ، مراجعة د٠ جبريل جبور دار الثقافة ، بيروت
٤٧ ـ دحلان : (أحمد زينى)	ـ السيرة الحلبية
٤٨ ـ دراز (د٠ محمد عبد الله)	ـ مدخل الى القرآن ، عرض تاريخى مقارن تترجمة محمد عبد العظيم على
٤٩ ـ دروزة : الأستاذ محمد عزة	ـ القرآن والمبشرون
٥٠ ـ ديورانت (ول)	ـ قصة الحضارة ترجمة الأستاذ محمد بدران ، دار التأليف والترجمة والنشر
٥١ ـ دى بور :	ـ تاريخ الفلسفة فى الاسلام ترجمة د٠ محمد عبد الهادى أبو ريده لجنة التأليف والترجمة والنشر
٥٢ ـ رشيد رضا : (الأستاذ الشيخ محمد)	ـ تفسير المنار
٥٣ ـ زكى مبارك (دكتور)	ـ النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى
٥٤ ـ سوسة : دكتور أحمد	ـ العرب واليهود فى التاريخ ـ حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية ، العربى للاعلان والنشر سنة ١٩٧٥ ط ٤
٥٥ ـ شوقى ضيف (دكتور) .	ـ تاريخ الأدب العربى ، العصر الجاهلى ، دار المعارف
٥٦ ـ شيخو (لويس)	ـ النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية بيروت
٥٧ ـ صابر طعيمة (دكتور)	ـ التاريخ اليهودى العام ، دار الجيل

المؤلف	الكتـــاب
٥٨ ــ صلاح الدين خوادبخشى	ــ حضارة الاسلام ، ترجمة على حسنى الخربوطلى
٥٩ ــ صموئيل نوح كريمر	ــ السومريون : تاريخهم وحضارتهم وخصائصهم ، ترجمة فيصل الوائلى نشر وكالة الكويت
٦٠ ــ ظاظا (دكتور حسن)	ــ الساميون ولغاتهم، تعريف بالقرابات اللغوية والحضارية للعرب دار المعارف
٦١ ــ عبد الحليم محمود (دكتور)	ــ التفكير الفلسفى فى الاسلام الانجلو المصرية
٦٢ ــ عفيفــى (دكتور) أبو العلا	ــ الأثر الفلسفى الاسكندرى فى قصة حى بن يقظان ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب بجــامعة فاروق الأول (الاسكندرية) المجلد الثــانى ١٩٤٤ لجنة التاليف والترجمة والنشر
٦٣ ــ على حسن ابراهيم (دكتور)	ــ التاريخ الاسلامى العام ، الجاهلية ، الدولة العربية ، الدولة العباسية ، النهضة المصرية ١٩٧٢
٦٤ ــ غـــلاب (دكتور محمد)	ــ الفلسفة الشرقية بحوث تحليلية نشرت فى مجلة الرسالة ١٩٣٧ م
٦٥ ــ فلهوزن (يوليوس) مستشرق المــانى	ــ تاريخ الدولة العربية ترجمة د٠ محمد عبد الهادى ابو ريدة
٦٦ ــ ماكس مايرهوف	ــ من الاسكندرية الى بغداد بحث فى تاريخ التعليم الفلسفى والطبى عند العرب ، ترجمة د٠ عبد الرحمن بدوى ضمن المجموعة المسماة : التراث اليونانى فى الحضـــارة الاسلامية ، دار النهضة
٦٧ ــ ماهر حسن فهمى (دكتور)	ــ السيرة تاريخ وفن ، دار النهضة

المؤلف	الكتـــاب
٦٨ ــ محمد التونجي فرهنك	ــ المعجم الذهبى فارسى وعربى دار العلم للملايين بيروت
	ــ معجم الأدباء
٦٩ ــ محمد عبد المعيد خان	ــ الأساطير العربية قبل الاسلام سنة ١٩٣٧
٧٠ ــ محمد نعمان الجارم	ــ أديان العرب فى الجاهلية سنة ١٩٢٣ م
٧١ ــ مدكور (دكتور ابراهيم بيومى)	ــ فى الفلسفة الاسلامية، منهج وتطبيقه دار المعـــارف
٧٢ ــ مراد فرج المحامى	ــ ملتقى اللغتين العبرية والعربية
٧٣ ــ مصطفى عبد الرازق (الأستاذ الشيخ)	ــ تمهيد فى الفلسفة الاسلامية لجنة التاليف والترجمة والنشر
٧٤ ــ ميرزا : (محمد مهدى)	ــ مفتـــاح باب الأبواب فى أصـــول الديانات ١٣٢١
٧٥ ــ نولدكه	ــ أمراء غسان ، ترجمة د. بندلى جوزى و د. قسطنطين زريق
٧٦ ــ نيللينو كارلو ــ مستشرق ايطالى	ــ تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى امية ، نص المحاضرات التى القاها بالجامعة المصرية سـنة ١٩١٠ ، سنة ١٩١١ عنيت بنشرهـا مريم نيللينو ، تقديم دكتور طـه حسين ، دار المعارف بمصر ط ٢
٧٧ ــ هانز هيترش شيدر	ــ روح الحضارة العربية ، ترجمــة د. عبد الرحمن بدوى ، دار العلم للملايين ١٩٤٩
٧٨ ــ ياقـــوت : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى	ــ معجم البلدان
٧٩ ــ جيبون (ادوارد)	ــ اضمحلال الامبراطورية الرومانيـة وسقوطها ترجمة د. محمد سليم سالم مراجعة : محمد على ابو درة

المؤلف	الكتاب
٨٠ ــ نتنج :	ــ العــرب ترجمة دكتور راشد البراوى الانجلو المصرية
٨١ ــ ستوقتزف	ــ تاريخ الامبراطورية الرومانيــة الاجتماعى والاقتصادى ترجمة : زكى على مكتبة النهضة المصرية
٨٢ ــ جلانقيل ديونى	ــ انطاكية القديمة ترجمة : د٠ ابراهيم نصحى الناشر : النهضة المصرية
٨٣ ــ د٠ عبد اللطيف احمد على	ــ مصر والامبراطوربة الرومانيــة فى ضوء الأوراق البردية دار النهضة العربية ١٩٧٤
٨٤ ــ النابغة الذبيانى	ــ ديوان النابضة الذبيانى دار صادر
٨٥ ــ ابن سعد	ــ طبقات ابن سعد
٨٦ ــ لبيد بن ربيعة العامرى	ــ ديوان لبيد ، دار صادر

المراجــع الأجنبية

فهــرس الكتــاب

الموضــوع الصفحة

البـــاب الثالث

كتب المؤلـف

اولا ــ دراسات فى الفلسفه والفكر الاسلامى :

١ ــ القلق الانسانى ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٥ م ــ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠ م ــ الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣ م ــ الناشر الأنجلو المصرية ٠

٢ ــ الاسلام واتجاهات الفكر المعاصر ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧ م الناشر الأنجلو المصرية ٠

٣ ــ فى الفكر الدينى الجاهلى (قبل الاسلام) ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩ م ٠٠ عالم الكتب ــ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠ م ٠٠ دار القلم الكويت ــ الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٣ دار المعارف المصرية ٠

٤ ــ ملاحظات على المدرسة الفلسفية فى الاسلام ــ الطبعة الأولى ٠٠ الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٠ م ٠

٥ ــ رسالة فى الحوار الفكرى بين الاسلام والحضارة ــ الطبعة الأولى ٠٠ عالم الكتب سنة ١٩٨٢ م ٠

٦ ــ الوجودية فلسفة الوهم الانسانى ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣ م الناشر الأنجلو المصرية ٠

٧ ــ تأملات فى أزمة العقل العربى الطبعه الأولى سنة ١٩٨٣ الانجلو المصرية ٠

ثانيا ــ دراسات فى علم الاجتمـــاع :

٨ ــ مقدمة فى علم الاجتماع الدينى ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ ــ الطبعة الثانية سنة ١٩٨٣ م ٠٠ الناشر مكتبة الأزهر ٠

٩ ــ قضايا فى الاجتماع الاسلامى ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧ م ٠٠ الناشر الأنجلو المصرية ٠

ثالثا ــ دراسات فى الشخصيات :

١٠ ــ الامـــام الغزالى وعلاقة اليقين بالفعل ــ الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦ م ٠٠ الناشر الأنجلو المصرية ٠

١١ ــ مع البوصيرى وابن عطاء الله ــ الطبعة الأولى ٠٠ سنة ١٩٨٣ م الأنجلو المصرية ٠

رابعـا ــ بحـوث :

١٢ ــ ابن باجه : فيلسوف مغترب ٠٠ نشر على مقالات فى مجلة الأزهر سنة ١٤٠٢ هـ ٠

١٣ ــ النزعة العقلية عند الأمام الشافعى ٠٠ نشر بعضه فى مجلة الوعى الاسلامى الكويت سنة ١٣٩٧ هـ ــ والاخر فى منبر الاسلام سـنة ١٣٩٩ هـ القاهرة ــ ومكتمل فى حوليه كلية الدراسات الاسلامية والعربية ــ جامعة الأزهر ٠

رقم الايداع : ٨٣/٣٢٥٤
الترقيم الدولى : ٢ ــ ٠٥٢٢ ــ ٠٢ ــ ٩٧٧

مطبعة القاهرة الجـديـدة
٣٣ شارع الجيش ت : ٩٠٤٢٨٦

